الموسوعة الإسلامية العربية

٤

العالم الإسلامي
والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي

بقلم
أنور الجندي

دار الكتاب اللبناني — مكتبة المدرسة

العالم الإسلامي

والاستعمار السياسي والاجتماعي الثقافي

دار الكتاب اللبناني
مكتبة المدرسة
طباعة . نشر . توزيع

الادارة العامة

الصنائع - مقابل مدخل الإذاعة اللبنانية
هاتف: ٣٤٩٠٥٥ - ٣٤٩٢٧٠ - ٣٤٩٢١٩
ص.ب: ٣١٧٦ - تلكس: LE٢٢٨٦٥
برقياً: كتالبان - بيروت - لبنان

المستودعات

هاتف: ٢٥٤٠٥٤-٢٣٧٥٣٧-٢٥٧٤٧٠-٢٥٨٣٠٤

طبعة ثانية
١٩٨٣

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

(مدخل)

مكان البحث : العالم الاسلامي
زمان البحث : من عام ١٧٤٠ إلى سنة ١٩٤٠

كان العالم الاسلامي وحدة لا تتجزأ قبل الغزو الاستعماري الغربي ، قلما تنوعت حكوماته ودوله . فقد كانت تجمعه وحدة فكر ، ووحدة شعور ، ولقد مر العالم الاسلامي بمرحلة الضعف ، وتخلف شأنه في ذلك شأن كل أمة ، وكل حضارة حين تمر بمرحلة بعد مرحلة ، قوة بعد ضعف ، وضعف بعد قوة ، سنة الوجود وناموس الحياة ، ولكن العالم الاسلامي لم يلبث أن استيقظ بقوته الذاتية ، استيقظ من داخل أعماقه ، وبعامل أساسي قائم في كيانه ، قادر على إعطائه عامل القوة بعد الضعف مستمداً إياه من مقومات فكره الأساسية ، ولقد كانت تلك اليقظة سابقة لما حاول الغربيون أن يدعوا انهم مصدر لذلك ، سابقاً الثورة الفرنسية بسنوات طويلة ، ومتقدما على الحملة الفرنسية ، أيضاً ، فقد انبثق من قلب الجزيرة العربية منذ منتصف القرن الثامن عشر تقريباً ، ثم عم الآفاق الى غير ما حد ، مضت هذه اليقظة إليه ، وإلى كل طريق مضى فيه الاستعمار إلى غايته في السيطرة على العالم الاسلامي ، وتمزيق وحدة هذه الكتلة

الجامعة ، التي يربطها فكر عميق المدى ، وشعور دقيق الأثر ، وكلاهما عميق الجذور يمتد إلى يوم بزوغ ضوء الاسلام في القرن السابع الميلادي ومنذ ذلك الوقت ، وإلى اليوم ، لم يقع أمر في تاريخ العالم أو يحدث حدث في حركة الانسانية ، إلا وكان وثيق الاتصال بالإسلام ، والعالم الإسلامي ، مؤثر فيه أو متأثر به ، فقد فرض الإسلام كقوة عقائدية وسياسية واجتماعية مكانه على هذا الكوكب فرضاً ، ولذلك فقد كان ذلك الصدام بين العالم الإسلامي ، والاستعمار أمراً خطيراً بعيد المدى في تاريخ الإنسانية ، وتاريخ الإسلام نفسه ، يحتاج إلى دراسة واسعة عميقة مستوعبة . ولقد كان من الضروري أن يتصدى كثير من الباحثين لهذا العمل ، وأن يحشدوا له الجهود ، وأمامنا دراسات كثيرة ، لعل أكثرها استيعاباً ، وأعمقها « حاضر العالم الإسلامي » الذي تمثل مجموعة من الدراسات الإسلامية الواسعة التي قام بها الأمير شكيب أرسلان ، وألقاها على هوامش كتاب « لوثروب ستوارد » الذي ترجمه عجاج نويهض في أوائل الثلاثينات .

ومنذ صدر ذلك الكتاب وإلى اليوم لم نجد من كتابنا الذين يكتبون بالعربية من أولى العالم الإسلامي اهتماما واسعا ، فقد شغل الكتاب بالدراسات المتخصصة في مجالات كثيرة ، كان أهمها دراسات العالم العربي التي استنفدت جهوداً ضخمة في السنوات العشرين الأخيرة ، فقد صدرت مؤلفات متعددة متخصصة عن واحد من الأقطار الاسلامية ، أو آخر .

ولكن دراسة شاملة تربط بين تحديات الاستعمار ، وبين رد الفعل في العالم الإسلامي لم تحظ باهتمام خاص ، وربما كتب بعض الباحثين دراسات قصيرة استعرضوا فيها أحوال العالم الإسلامي الجغرافية والتاريخية ، وبالرغم من أن بعض هذه الدراسات قد حملت وجهة نظر الغربيين والمستشرقين ، واعتمدت اعتماداً كبيراً على مصادرهم وآرائهم . فان هذه الدراسات لم تستوف الغرض الذي يحقق ظهور دراسة شاملة عن « الاسلام والاستعمار » .

وكثير من الكتاب الذين يتصدون للكتابة عن تاريخ الإسلام السياسي ، أو خريطة الإسلام في العصر الحديث يعتمدون اعتماداً كبيراً على المصادر الغربية ،

وهم معذورون في ذلك ، حيث انها متوفرة على نحو كبير ، وهي قادرة على منحهم كل ما يريدون من معلومات بدراستها الواسعة ، ولكن هذه المصادر لها وجهات نظر مستمدة من علاقة الاستعمار والتغريب بالعالم الإسلامي وتاريخه .

وهؤلاء الكتاب ينقادون مع الأسف وراء دقائق خطيرة بحسن نية أو عن تصور أنها نظرات علمية ، بينما هي في أعمق أعماقها ، تحمل معنى التوجيه الاستعماري ، وتبطنها الكراهية والحقد ويغلفها الصراع القائم بين الإسلام والغرب من قديم . والمعروف سلفا أن الدراسات الغربية عن الإسلام (فكراً أو تاريخاً او سياسة أو جغرافيا) إنما تقوم على أساس خطة أساسية هي إقناع المسلمين أنفسهم بأمور هامة ورئيسية تحول دون وحدتهم أو قوتهم ، لتثير أسباب الخلاف والصراع بينهم دوماً وتجددها كلما هدأت هذه الأسباب، رغبة في أن يظل هذا العالم ممزقا ، فلا تقوم به وحدة فكر من شأنها ان تؤدي إلى وحدة جامعة تمكنه من تكوين جبهة صامدة في وجه الغزو الاستعماري .

ومن الحق أن المسلمين والعرب في مواجهة الغزو الاستعماري الجديد : اقتصادياً وثقافياً ، ومواجهة التغريب المركز ، هم في حاجة إلى عناصر الملاءمة ، والالتقاء ، وفي حاجة إلى عوامل الترابط ، والامتزاج ، والإغضاء عن الخلافات القديمة ، والمعارك الماضية التي قامت بين المذاهب السياسية ، ثم كادت أن تموت ، لولا أن الاستعمار عجل ببعثها من جديد ، وأيقظها ، ودفعها لتثير الخلاف مستأنفاً حتى لا يلتقي أصحاب الفكر الإسلامي الذي يستمد أصوله من التوحيد على الوحدة ، وهم من ناحية أخرى في حاجة إلى النظرة العلمية التي تستمد جوهرها من الايمان بوجودهم وشخصيتهم وكيانهم وقيمهم الأساسية ، وهي نظرة يجب أن تختلف أساسا عن نظرة الغرب إليهم .

فالمعروف أساسا أن الغرب كان يحمل حقد الحروب الصليبية في أعماقه لم يتخل عنه ، وكان يخاصم الدولة العثمانية التي مدت نفوذها إلى أوربا . وسيطرت عليها خمسة قرون ، وان هذه الأحقاد والخصومات قد جرت في دمائهم جيلاً بعد جيل ، ولذلك فمن غير المعقول أنهم ينصفون الإسلام والمسلمين ، والعرب والدولة العثمانية ، أو يصدرون فيها عن رأي مجرد من الهوى ، أو عقل

وضمير متحررين عن الاحساس الذاتي العميق ، الذي قلما ينفصل عن شخصية المؤرخ أو الباحث الغربي .

ومن هنا فهم لا يستطيعون أن يعرضوا تاريخ الإسلام عرضاً بريئاً خالصاً لوجه الحق ، وحيث هم يرون أن « العالم الإسلامي » هو التجسيد الماثل للإسلام ، فهم لا يرون للمسلمين قوة أو نهضة تمكنهم من القوة والعزة ، فهم ما زالوا يمثلون الخطر الذي يمتص ثرواته ومقدماته ..ولقد كان هدف الاستعمار الأساسي من السيطرة على العالم الإسلامي هو القضاء على هذه القوة المعنوية العقلية والروحية التي ترفع المسلمين إلى اليقظة ، وامتلاك ناصية أمورهم ، والسيطرة على مقدراتهم . وكان القضاء على هذه القوة ـ ولا يزال ـ هو أهم في أهداف الاستعمار بحسبان أنه العامل الوحيد الذي يعارض استعمارهم ، ويقاوم وجودهم ، ولكن القيم الاسلامية الحيوية هي دائماً قادرة على التجدد والنمو والتفاعل ، كلما مرت بالعالم الإسلامي فترة من الضعف أو أزمة من أزمات التخلف ، لتدفعه إلى الأمام مرة أخرى . ومن أجل هذا فإن الأقلام الغربية في كتاباتها عن العالم الإسلامي . ومن خلال عشرات المؤلفات والدراسات والموسوعات إنما تحاول أن تصور العالم الإسلامي تصويراً بعيداً عن حقيقته . ولهذا فإن اتجاه بعض كتابنا إلى ترديد هذه النظريات ، موالاة للفكر الغربي ، أو عجزاً عن فهم جوهر أمتهم وقيمها ومقدراتها ، إنما يترك آثاراً بعيدة المدى في تأخير النهضة ، والقضاء على روح اليقظة .

فالغربيون يحاولون إثارة الشبهات المختلفة رغبة في تمزيق وحدة العالم الاسلامي الفكرية ، وإحلال الثقافات الإقليمية والقومية محلها . ولكن هذه الثقافات ما تزال تستمد مقوماتها من الفكر الإسلامي أساسا . ولذلك فهم يدعونها إلى إحياء تراث قديم جدا سابق للإسلام كالفرعونية والبربرية والفينيقية ، وحضارات سالفة في أندونيسيا والهند وإيران وتركيا ، ولكن هذه الدعوات القديمة ما تزال تتهاوى حيث لا أدب لها ، ولا تراث ولا مقومات تربط الأمم بها بعد أن قضى عليها الإسلام خلال أربعة عشر قرنا ، وما تزال الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي هو أعمق عوامل الترابط بين حاضر الأمم الإسلامية

وماضيها . ويحاول الغربيون أن يصوروا الإسلام على أنه « دين » وأنه لاهوت ، ويشبهونه في هذا بأديان أخرى ، هو يختلف عنها ، لأنه ليس دينا فحسب ، ولكنه دين ومجتمع وحضارة . وهو في هذا مخالف للصورة التي عرفتها أوربا للدين والكنيسة ومناهضتها للنهضة ، أما الإسلام فهو يتميز في موقفه من الحضارة والنهضة بأنه منشيء « المنهج العلمي التجريبي » الذي بنت عليه أوربا الحضارة .

وتحاول مقررات التغريب أن تفرض على القيم الاجتماعية والإنسانية مفاهيم تختلف عن مفاهيمنا المستمدة من فكرنا الإسلامي ، كما تحاول إثارة الشبهات حول تاريخنا ولغتنا ورسولنا وتراثنا لتفسر مفهومه في نظر الأجيال الجديدة . ومن هنا فإن اعتماد كتابنا على مصادر الغرب عمل خطير يحمل طابع الهدم لقيمنا ومقوماتنا ، وهو خطر لا يعرف كتابنا مدى أثر المتابعة له . ولذلك فقد كان من الضروري إعادة النظر في هذه الآراء جميعا في محاولة لعرض (حاضر العالم الإسلامي) على نحو أكثر اتصالا بقيمنا ، وأكثر إيمانا بكياننا ، وأكثر تحرراً من نظرة الغير الخاطئة المعادية لوجودنا وتاريخنا وأمتنا وكياننا .

ونحن في الحق لا نعادي النظرات المنصفة ، والآراء الخالصة لوجه الحق والعلم ، بل نرحب بها ، ولكننا نصحح المفاهيم الخاطئة المغرضة التي يدفع بها النفوذ الاستعماري كأسلوب من أساليب استدامة وجوده بتدمير وجودنا .

والعالم الإسلامي حقيقة واقعة تلعب دوراً أساسياً في سياسة العالم بين الكتلتين الشرقية والغربية لها ثقلها في ميزان التاريخ ، والسياسة الدولية ، والوجود البشري .

لهذه القوة ميزتان :

(أولا) انه عامل مؤثر ، وما من حدث وقع في العالم كله منذ ظهور الإسلام إلى اليوم إلا كان له به صلة ما .

(ثانيا) ان العالم الإسلامي هو موضع الحساب والتقدير من مختلف سياسات الدول الأوربية الكبرى . فلم يكن قط في أي مرحلة من مراحل التاريخ قوة

مهملة أو أثر منكوراً .

وهو إلى ذلك حقيقة فكرية تتمثل في رباط العقيدة الإسلامية والفكر والثقافة . وهو إلى ذلك نظام اجتماعي كامل يقوم على هذه العقيدة ، وهو منهج إنساني شامل العلاقات بين الأفراد والجماعات ، وبين الشعوب والمجتمعات والدول ، فهو يضم سبعمائة مليون من المسلمين يمثلون خمس سكان العالم (الذي يضم ٣٣٠٠ مليون نسمة) ومن بينهم مائة مليون عربي ، وهو موزعون على أكثر من ٦٧ دولة يوجد فيها المسلمون بنسبة ، او بأخرى من بينها عدد من الدول اكثر من نصف سكانها مسلمون ، وهم منتشرون في أوربا وأفريقيا وآسيا واستراليا منها ٢٣ دولة مستقلة في إفريقيا و١٤ دولة مستقلة في آسيا ، حتى ليمكن أن يقال إن واحداً من كل ستة أشخاص في العالم يدين بالإسلام .

وحتى ليوشك أن لا تكون هناك دولة واحدة في عالم اليوم لا يتمثل فيها الإسلام ولو ببضعة عشرات من الآلاف كما في استراليا ، أو غرب أوربا . ويكاد يكون الاسلام هو الدين القومي في مجموعة ضخمة من هذه الدول .

نعم هو عدد ضخم من البشر يتحد في العقيدة والفكر والشعور لا مثيل له في العالم كله ، يتميز بأكثر من عامل قوة ، أهمها المجاورة في المكان ، والتركيز في قلب العالم في منطقة تمتد دون حواجز أو فواصل من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسي ، من روسيا في الشمال والمحيط الهندي ، جنوبا إلى ما وراء خط الاستواء . ويملك احتياطي العالم كله من المواد الخام ، والبترول ، وما يزال العالم العربي هو قلب العالم الإسلامي ، مقر العقيدة ومركز الأماكن المقدسة والأزهر ، وما زال العرب يمثلون القيادة الفكرية والروحية ، على مذهب الجماعة والسنة . وقد انتشر الإسلام في هذه المناطق الواسعة بعمل الأفراد دون ان يكون له نفوذ سياسي ، أو قوة تعتمد على المؤسسات والدول والاعتمادات ، في أفريقيا وفي آسيا وفي أوربا وأمريكا ، وما زال الإسلام في توسع دائم في منطقتين من أخطر مناطق العالم هما : قلب أفريقيا ، وجنوب شرق آسيا بالإضافة إلى العالم الجديد ، والإسلام دين المستقبل ، وأفريقيا للإسلام هي قارة المستقبل . والحقيقة التي يعترف بها الباحثون المنصفون هي : أن الإسلام ينتشر كل يوم وأن

عدد المسلمين يزداد يوما بعد يوم في جميع الأوساط والهيئات ، حيث لم يعرف الإسلام بدون الأديان جميعا . أي ارتداد عنه ، أو تحول إلى غيره ، فهو دين وزيادة . وإذا كان الدين علاقة بين الإنسان والله ، فإن الإسلام يزيد إلى هذا علاقة بين الإنسان والمجتمع . هذا الوجود الإسلامي له أهميته وخطره ، فهو يسيطر على قارة وسطى في قلب آسيا وأفريقيا هي من أخطر المواقع العالمية حيث يتكلم عالم الإسلام ثماني لغات في مقدمتها اللغة العربية العالمية ، ولغات متعددة تكتب بالحروف العربية ، ويسيطر على موانىء البحور الثلاثة الأحمر ـ الأبيض ـ الأسود ، ويطل على محيطين هما : المحيط الهندي ، والمحيط الأطلسي ، ومن هنا كانت خطورة الصراع بينه وبين الغرب ، وبينه وبين الاستعمار بتياراته المختلفة ، وقواه المتعددة المتلاقية عليه أصلاً ، وإن اختلف فيما بينهما . هذا الصراع المتجدد الذي لم يتوقف منذ بزغ فجر الإسلام حتى اليوم . ولعل من أخطر ما واجه الإسلام في العالم المعاصر والتاريخ الحديث ، تلك الغزوة الخطيرة : غزوة الاستعمار الحديث التي تمثل في رأي كثير من المؤرخين حلقة جديدة من الحملات الصليبية . اوكما صورها أحد قادتهم « نهاية الحروب الصليبية » التي انحسرت عن العالم الإسلامي منذ ثمانية قرون مهزومة ، مدحورة . وقد عادت مسيطرة هذه المرة . وهذا هو موضوع هذا الكتاب . ذلك أن العالم الإسلامي في العصر الحديث ما كاد يستيقظ (من أعماقه ومن داخله) ليجدد حياته ، وليعيد تجميع قواه ، وانفاس واقعه حتى واجهه الغزو الاستعماري بحركة تطويق ضخمة ، لم تلبث أن اندفعت إلى أعماقه ، فكانت مهمته مزدوجة هي مهمة اليقظة ، ومهمة المقاومة . وكان ضعف الدولة العثمانية مقدمة لحركة الاستعمار الذي طمع في أن يمزقها ، ويسيطر على مقدراتها . ومن ثم واجه العالم الإسلامي معركة طويلة بين المحافظة على وجوده وقيمه ، وبين الاستعمار الغاصب ، قدم فيها الشهداء والضحايا والدماء ، وقاوم بكل ما يملك أهله ، حتى بالأجساد المتراصة أحياناً ، أمام قوات حديثة الأسلحة ، مليئة بالمكر والغدر ، ودخل معارك حاسمة لم ينهزم فيها عن طريق السلاح رغم قلة العدد والعُدد . ولكن هزم بالمؤامرة والخداع ، ولم تستسلم فئة منه إلا بعد أن غدر بها ، أو فقدت كل ما تستطيع أن تقاوم به من عتاد ، وغلب طابع المقاومة على

مختلف طوابع المجتمع الإسلامي : واستطاع العالم الإسلامي أن يواجه التحدي ، تحدي الحضارة الأوربية الاستعماري بصمود عظيم . واستطاع أن يرد بقوة وصلابة جيشا من الطامحين الغزاة ، وقاوم في سبيل التحرر من النفوذ السياسي والاقتصادي والعسكري الغربي ، وخطا المسلمون خطوات واسعة في سبيل التحرر ، وأفسدوا حلم الاستعمار في البقاء الطويل واستمرت مقاومة العالم الإسلامي وامتدت ، ولم تتوقف : فاندلعت ثورات الهند وأندونيسيا ومصر والجزائر والمغرب وليبيا والسودان وتركستان والقوقاز . ولم يتوقف المسلمون جيلا بعد جيل في نطاق الدعوات الإسلامية ، أو الدعوات الوطنية ، أو الدعوات القومية عن مقاومة الاستعمار . ولم يقبلوا أبداً أن تحتويهم مناطق النفوذ ، قاوموا الاستعمار والتبشير والصهيونية ومذاهب الالحاد والإباحة . وعمد الاستعمار إلى مخططات خطيرة ، حاول الفصل بين العرب والمسلمين ، وبين الترك والعرب ، وبين المسلمين والنصارى ، وبين المسلمين والهندوس . وأثار الخلافات القديمة بين السنة والشيعة ، والبربر والعرب . وجمد الاستعمار المجتمعات البدوية ، وجمد القبليات ، وحرص على عدم انصهارها في المجتمعات الكبرى . حتى لا تسود الأمة وحدة شاملة ، وحال دون مقدرة الوحدات الصحراوية على التمدن ، لتظل هناك طبقات مختلفة ، وقوى متفاوتة . وخلق المشكلة الطائفية ، وغذاها وفرضها لتكون أداة سياسية له ، فقد كان التعايش قائما وآمنا على شريعة الله بين الأغلبية المسلمة ، والطوائف المختلفة قبل الاستعمار . غير أن الاستعمار حرص على أن يؤلب ويوقع بين الطوائف ، ويأخذ في كنفه الأقليات ليدفعها إلى الانقضاض الدائم ، أو وقت أن يريد . وألب الاستعمار ، وأثار الخلاف بين الدولة العثمانية والدولة الفارسية وعمق خلافاتهما ، وألب الخلاف بين العرب والترك ، وأوقع الثأر بينهما ، وألب الخصومات بين الفرق الإسلامية . وفتح الاستعمار باب التبشير للإرساليات ، وساندها وضمن لها حرية الحركة والتمويل . وسهل الاستعمار استيراد أقليات دينية غريبة من الأرمن والأشوريين والنساطرة في المشرق العربي ، وقدم أجناسا أخرى من مالطيين ويونانيين ويهود .

واحتضن الاستعمار الفرنسي المارون ، واحتضن الاستعمار البريطاني

الدروز ، فأوقع بينهما وعمل على تمزيق الدولة العثمانية إلى عرب وترك ، وتمزيق سوريا إلى علويين ودروز ، وإلى دمشق وحلب . وعمد إلى تحويل لبنان الصغير إلى لبنان الكبير . وحشد أكبر أقلية مسيحية في رقعة واحدة ، وأفسد الاستعمار نمو الإسلام وتوسعه ، ووقف في وجه زحفه السلمي ، وقاومه ووقف في وجه اللغة العربية ، وجمد انتشارها بحسبانها لغة القرآن . ونشر لغته ، وعمد الاستعمار إلى تمزيق الروابط التاريخية والفكرية بين قوميات المسلمين من عرب وترك وفرس ، وعمق هذه الخلافات بينها حرصا على الانفصالية والحيلولة دون الوحدة الفكرية ، أو الأخوة الروحية ، وانبثقت الغزوة الاستعمارية عن الحركة الصهيونية الطامعة في الوصول إلى (القدس) في قلب فلسطين ، طمعا في إقامة هيكل سليمان مكان بيت المقدس . وتجمعت مطامع روسيا القيصرية ، وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا وأسبانيا وهولندا ، كلها لتجتاح العالم الإسلامي . وكانت الصهيونية من وراء هذه القوى . ثم أسفرت عن هدف واضح . وإذا كان للاستعمار أثره البعيد في تمزيق وحدة العالم االإسلامي . وإقامة الكيانات الإقليمية ، فإن أخطر تحديات الاستعمار هي تحديات الغزو الثقافي في سبيل إبقاء الوجود الاستعماري ، ودعمه بما يحقق للاستعمار استمرار استنزاف المواد الخام من العالم الإسلامي ، وامتصاص ماليته ، واقتصاده باتخاذه سوقا تجاريا لمنتجاته . ولذلك فقد كانت حركة اليقظة والمقاومة عميقة المسؤولية . فقد عملت على تصحيح مفاهيم الإسلام والتماس جوهره وقيمه ومفاهيمه الأساسية باعتبارها الوسيلة الأولى للمواجهة والمقاومة ، وإيماناً بان انفصال المسلمين عن جوهر فكرهم ، هو الذي أصاب وجودهم بالهزيمة والضعف . وقد أبرزت حركة اليقظة والمقاومة مجموعة ضخمة من الأعلام والقادة والأبطال الأفذاذ الذين قادوا النضال ، كابراً بعد كابر ، بحيث لم تسقط الراية أبداً من أيدي قادة النضال الذين يتتابعون على العالم الإسلامي ، وكانت حركاتهم متوالية يكمل بعضها بعضا . فهي قد اتصلت فلم تنفصل ، وتوالت فلم تتوقف ، وتوزعت على مختلف وحدات العالم الإسلامي ، وما تزال تدفع بالأفذاذ والقادة في مواجهة التحديات ، وعلى قدرها صلابة وصموداً .

وما يزال الإسلام ينمو ذاتيا رغم كل العقبات التي توضع في طريقه ، وقد ارتبط

بحركات النضال والتحرر ، ورفع مستوى أتباعه في كل مكان ، وعلمهم الكرامة والعزة والايمان والأخلاق . وبعد فماذا فعل العالم الإسلامي إزاء الاستعمار ؟

هل تقبله راضياً ، وذاب فيه وفني في بوتقته وانصهر وجوده وامحى كيانه ؟

الحق أن لا ! ولن يكون ذلك ولو طال صراعه مع الاستعمار ، فإن الجذور العميقة للإسلام لا تزال حية ، والخلايا لا تزال نفاذة وقادرة على المقاومة طويلا . وبالرغم من الخلافات التي يجددها الاستعمار بين السنة والشيعة ، والعروبة والإسلام . فإن هناك أرضية عريضة للالتقاء موجودة ، ويمكن أن تنمى ، والمسلمون والعرب ، والسنة والشيعة قادرون جميعاً على أن يفهموا الهدف من تفريقهم وتمزيقهم ، وإلقاء الفرقة بينهم ، فيزيلوا العوامل المصطنعة التي وضعها الاستعمار ونماها وهم يعرفون أن كل الشيع والفرق والطوائف بدأت أساساً كصراعات على السلطة والحكم . وقد انتهت بانتهاء عصورها .

هذه الأرضية تتمثل في وحدة الفكر التي يفرضها الإسلام ، وتدعمها القيم الأساسية ، الكبرى المشتركة بين المسلمين جميعاً استمداداً من ثقافتهم وتراثهم وجذورهم الممتدة إلى أربعة عشر قرناً .

والعالم الإسلامي يضم عديداً من القوميات ، وليست القوميات معارضة للاخاء الإسلامي ، وليست ضد مفهوم الإسلام ، وليس الإسلام في مواجهة القوميات ، وإنما يتقبل الإسلام القوميات كعامل قوة ، ويدفع عنها التعصب والعنصرية ، ويجعلها مفتوحة للالتقاء مع وحدة الفكر التي تربط القوميات على صعيد الإسلام .

ولن يحول اختلاف المسلمين في المذاهب عن الوحدة والأخوة ، ولن تقف عقبات باسم العروبة والإسلام ، أو السنة والشيعة عن التضامن والتلاحم .

ولن يتخلى المسلمون عن مقومات فكرهم إزاء غزو الفكر الغربي لهم ، وفي مواجهة نظريات القومية والديمقراطية والاشتراكية والحرية ، التي تتميز جميعها بأنها ذات جذور أصيلة في الفكر الإسلامي ، وهي قيم لها مفاهيم واضحة

عندهم منذ أجيال . ولن يكون تقبل المسلمين للحضارة الغربية عاملاً على انصهارهم في بوتقة الأممية أو العالمية ، ولن تدفعهم دراسة فكر الغرب والانتفاع به الى التخلي عن مناهجهم وفكرهم ومقوماتهم . إن تجربة تركيا التي هلل لها الغرب ، وحاول أن يفرضها على المسلمين قد نفقت ، وعادت تركيا إلى جوهر مزاجها النفسي الأصيل الذي انفصلت عنه بقوة القانون العسكري والحكم الاستعماري المتسلط . ولن تكون القومية بمفهوم الغرب ، ولكنها ستكون مستمدة من جذوَر فكرنا : وحدة فكر ، ووحدة شعور ، ووحدة ثقافة . ذلك أن الخطر الذي يواجه الأمة العربية ، والعالم الإسلامي إزاء الصهيونية العالمية ، وسيطرة إسرائيل على فلسطين ، إنما يضع المسلمين والعرب جميعاً أمام تجربة ضخمة أشبه بالتجربة التي خاضوها من قبل في مواجهة الغزو الصليبي ، وحملة التتار ، ومعارك الفرنجة . وقد واجه العرب المسلمون هذه الغزوات في قوة وبسالة وصمود وحققوا في « حطين » و« عين جالوت » و« الزلاقة » نصراً مؤزراً رد الأعداء ، ودك حصونهم ، وسيكتب العرب والمسلمون معهم صفحة جديدة من صفحات الجهاد والاستشهاد والنصر ستكون من المواقع الحاسمة التي يذكرها تاريخ العالم الإسلامي المعاصر ، ويضعها بين أنصع صفحاته . فقد تعلم العرب والمسلمون من دروس التاريخ كيف كان النزاع والخلاف مصدراً لما أصابهم من كوارث . وتنبه المسلمون إلى أنهم يشتركون في تاريخ واحد ، وتقاليد واحدة ، وثقافة جامعة . وعرفوا أن أزمة العالم الإسلامي المعاصر إنما تصدر من حيث هو واقع تحت النفوذ الاستعماري . وما يزال العالم الإسلامي يتمخض عن أوضاع جديدة تقدمية في الاقتصاد والسياسة والاجتماع ، وقوامها الوحدة والتحرر والقوة والعدل الاجتماعي وما تزال عوامل الوحدة والأخوة تعمق وتتسع حتى يعود العالم الاسلامي مرة أخرى إلى أصالته فكرا ومجتمعا ، وحدة لا تتجزأ ، هي وحدة فكر ، ووحدة شعور . وبعد فهذه هي المحاولة التي يجري القلم لتصويرها في هذه الصفحات ، في دراسة للعالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي ، منذ أوائل اليقظة حتى أواخر الحرب العالمية الثانية ، على أن نتابعها بدراسة أخرى عن مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، ويعد هذا الكتاب بديلاً لدراساتنا السابقة تحت أسماء (الاسلام والاستعمار) ،

(العالم الاسلامي والاستعمار) ، (قضايا الأقطار الاسلامية) والتي بدأناها عام ١٩٤٦ وتابعناها حتى اليوم .

هذا وبالله التوفيق

أنور الجندي

محرم ١٣٩٨ - يناير ١٩٧٨

(١)

الإسلام وعالم الإسلام

(١) الإسلام والأمة العربية
(٢) تركيا ومقاومة الغزو
(٣) إيران : الشيعة ومقاومة النفوذ الأجنبي
(٤) أفغانستان ومقاومة الاستبداد والاستعمار
(٥) باكستان ومسلمو الهند
(٦) أندونيسيا وارخبيل الملايو
(٧) أفريقيا : قارة الإسلام

(١)
الإسلام والأمة العربية

هناك حقيقة أساسية هي أن « الأمة العربية » هي التي حملت لواء الإسلام إلى العالم كله ، ونشرته من خلال دولته الكبرى التي امتدت من حدود الصين الى حدود فرنسا . ومن ثم فقد ارتبطت الأمة العربية بالإسلام ارتباطاً عضـويا لا سبيل إلى فصامه . وقد كانت اللغة العربية بحسبانها أكبر عوامل الوحدة العربية هي لغة القرآن والصلاة ، ووسيلة أداء الإسلام ونشره .

وقد ارتبطت الأمة العربية بالدولة الإسلامية في مجـال القيادة السياسية قرونـا طويلة ، حتى إذا ما سقطت الخلافة العباسية عام ٦٥٦ هـ . تقبل العرب الوحدة السياسية التي أصبحت قيادتها للدولة العثمانية دون أن تكون العلاقة بين العرب والعثمانيين علاقة احتلال أو استعمار ، أو ما يوصف في هذه الأيام بالسيادة . ذلك أن المفهوم الأساسي للوحدة الإسلامية إنما كان يقوم على أساس واضح ، هو أنه يحمل لواء القيادة أقدر الأمم الإسلامية عليها ، فحيث ضعف النفوذ السياسي في بغداد بعد أن اجتاح العالم الإسلامي الغزو التتاري والحروب الصليبية التي استمرت أكثر من قرنين لم تلبث قوة الأتراك العثمانيين أن برزت وسيطرت ، وتقبلتها الأمة العربية ، وانضوت إليها بوصفها قيادة إسلامية ليست فيها فوارق بين جنس وجنس ، هذه الفوارق التي لم تظهر إلا في القرن التاسع عشر ، وفي مجال التأثر والتأثير بين العالم الاسلامي في مرحلة الضعف ، وبين العالم العربي

في مرحلة القوة ، حيث رجحت كفة أوربا وأخذت تجتاح عالم الإسلام بالغزو والتطويق . . . .

فالأمة العربية كانت إلى قريب من نهاية الحرب العالمية الأولى ، شطراً من الدولة العثمانية ، التي كانت تجمع الأتراك والعرب ، حيث استطاع النفوذ الاستعماري الزاحف أن يضرب هذه الوحدة ، وأن يثير بين العنصرين خصومة عنيفة في ظل دعوة « القومية » التي اجتاحت اوربا ، ونقلها النفوذ الاستعماري إلى العالم الإسلامي كإحدى أسلحته الحادة العنيفة في تمزيق هذه الوحدة الاسلامية القائمة باسم الدولة العثمانية ، والتي تضم الترك والعرب ، وترسم عن طريق الخلافة قيادة للعالم الإسلامي في كله . ولما كان الاستعمار حريصا على أن يمزق هذه الوحدة ، ويسيطر على هذه الأجزاء ويقتسمها ، فقد كان تركيزه قويا على كيان هذه الدولة . وذلك بإثارة العناصر المختلفة فيه ، وقد حملت لواء هذا العمل فئة الاتحاديين الذين كانوا يصدرون عن دعوة الوحدة الطورانية ، ويعمدون إلى تحويل الدولة العثمانية إلى قومية واحدة بتتريك العرب ، وكان لا بد للعرب أن يقاوموا عوامل الفناء ، وخاصة حين امتدت إلى اللغة العربية والكيان العربي . ومن هنا وقع الصدام الذي انتهى إلى الانفصال عسكريا وحربيا عن طريق ثورة الشريف حسين التي قاتل فيها العرب المسلمون الترك المسلمين ، وأجلوهم عن شبه الجزيرة وعن الشام كله . وبذلك أتاحوا الفرصة للقوات الفرنسية والبريطانية بالسيطرة على المناطق التي جلا عنها العثمانيون .

وحيث كان على « الدولة العثمانية » التي مرت بعوامل الضعف والفناء فترة طويلة كعامل قوة لها أن تركز وحدتها على نظام لامركزي يضمن للعرب مثل نصيب الأتراك مع بقاء القيادة التركية في مركز الخلافة ، وحيث كان على العثمانيين أن يأخذوا بكثير مما عرض عليهم من وسائل لدعم الوحدة الإسلامية الممثلة في الدولة العثمانية . وذلك بأخذ اللغة العربية كلسان للدولة الإسلامية ، أو قيام نظام الخديويات الذي اقترحه جمال الدين الأفغاني على السلطان عبد الحميد كمقدمة لانضمام الهند وفارس وأفغانستان إلى دولة الخلافة . حيث كان على العثمانيين كل هذا . فإن قوى النفوذ الاستعماري الضاغطة على حزب

الاتحاد والترقي الذي بدأ في أول أمره كحركة عثمانية إيجابية ، ثم سيطرت عليه عناصر الدونمة واليهود والماسونية والقوى الاستعمارية البريطانية والفرنسية لتحوله إلى أداة للتجزئة ، استطاعت هذه القوى أن تفصم العروة الوثقى ، وأن تحول تركيا تحويلاً خطيراً إلى دولة غربية خالصة انتقلت من النقيض إلى النقيض ، ومن قيادة العالم الإسلامي إلى إلغاء الإسلام رسميا واجتماعيا ، وانتهاج نهج غربي خالص .

***

هنا كان دور الأمة العربية قد تجدد ، لتحمل لواء الإسلام والإصلاح الإسلامي ، وأن تقاوم الغزو الغربي العنيف الذي يعمل على محو مقوماتها الأساسية . ولقد كانت اليقظة في قلب الأمة العربية قد اندلع بريقها فعلا في منتصف القرن الثامن عشر ، وحيث خبت شعلة القيادة العثمانية بدعوة التوحيد من قلب الجزيرة العربية وتبعتها دعوات من الأزهر في مصر ، ومن اليمن ، وانقذت من جديد شعلة التجديد والإصلاح قبل وصول الحملة الفرنسية بأكثر من ستين عاماً . وكان ذلك مع امتداده إيذانا بأن تحمل الأمة العربية من جديد لواء حركة التجديد والإصلاح والبعث الإسلامي في مختلف مجالاته . وقد كان على هذه الحركة أن تجدد مفاهيم الإسلام وتنفض عنه غبار الجمود والتقليد ، وأن تقاوم في نفس الوقت قوى النفوذ الغربي الزاحف سياسيا واجتماعيا وثقافيا ، وهي مهمة شاقة اضطلعت بها الأمة العربية ـ وشاركتها فيها حركات إسلامية متعددة في الهند وأندونيسيا . غير أنه كان للأمة العربية ولمصر بالذات أثرها الواضح في تأصيل حركة اليقظة ودفعها إلى الأمام في المغرب العربي . وفي أفريقيا وفي مختلف أنحاء عالم الاسلام بما أتيح لها من منهج قوي قام عليه جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومدرسة المنار .

***

ومن عجب أن الاستعمار حين زحف بنفوذه السياسي والثقافي والعسكري إلى العالم الإسلامي لم يضغط بشدة ، ولم يركز تركيزاً عنيفاً على أمة بقدر ما ركز على الأمة العربية بحسبان أنها حاملة المشعل وقائدة الحركة التجديدية الإسلامية .

وقد تمثلت حركة التحدي والمقاومة في عدة عوامل هامة : أبرزها الطائفية والأقليات . فقد اهتم الاستعمار بخلق الخلافات بين أتباع البلد الواحد ، وإثارة

الخصومات القديمة بينهم ، هادفاً من ذلك إلى خلق الطائفية وتكريسها ، وإنشاب الصراع بين الفرق المختلفة ، وكذلك خلق ولاءً خاصا له مرتبطا بالأقليات إذا كانت غير مسلمة ، فهو قد والى الأقليات المسيحية في لبنان ومصر . بينما والى الأغلبية الهندوكية في الهند ، وللمشكلة الطائفية قصة طويلة اتكأ عليها الاستعمار ، وجعلها عاملا من العوامل الهامة في تنفيذ سياسته . كما جعل منها وسيلة للقضاء على القيم الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي . « والمشكلة [1] الطائفية لم تنفصل في أي مرحلة من مراحلها عن الاستعمار فهو الذي غذاها إن لم يكن خلقها. وهو الذي اتخذ منها أداة سياسية يدعم بها وجوده » . والمعروف أن أهل الذمة والأقليات في عصور التاريخ الإسلامي المختلفة كانوا يعيشون في ظل نظام سمح يوفر لهم الأمن والسلام ، ويكفل لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، ويحافظ على كنائسهم ، ويضمن لهم مكاناً عادلاً في مختلف مجالات المجتمع .

غير أن النفوذ الاستعماري قد عمد منذ اللحظة الأولى لوجوده إلى دعم الطائفية وتغذيتها وشهرها كسلاح في وجه المجتمعات المختلفة ، وجعلها أداته كوسيلة من وسائل دعم بقائه على أساس التفرقة الدائمة . وفي ظل هذه الدعوة « فتح الاستعمار الباب للتبشير والارساليات والمدارس الأجنبية ، كما سهل استيراد أقليات أخرى دينية غربية : كالأرمن والأشوريين والنساطرة والمالطين والقبارصة واليونانيين ، واحتضن الاستعمار الفرنسي الموارنة واحتضن الاستعمار البريطاني الدروز ، وكانت روسيا تحتضن الكنيسة الأرثوذكسية . أما أمريكا فهي ربة الكنيسة البروتستانتية » . وبدأ صراع الإرساليات الأمريكية والفرنسية بالغ العنف على الأرض العربية . في الشام ومصر ، وكانت له آثاره الخطيرة في تنشئة جيل جديد أسلمه الاستعمار لواء القيادة السياسية في أغلب أجزاء العالم العربي . وقد كان للتبشير دوره في تمزيق وحدة الأمة الدولة كما حدث في السودان ، حيث قصد به إلى « تعميق الهوة بين الجنوب والشمال » وصولا إلى الفصل السياسي بينهما . وكذلك جرت المحاولات لتقسيم « الشام » إلى سوريا

---

١ ـ دكتور جمال حمدان ـ مجلة المجلة ـ ١٩٦٦

ولبنان وفلسطين والأردن . وتقسيم سوريا إلى دولة علوية شيعية ودولة للدروز ، وتحويل لبنان الصغير إلى لبنان الكبير على نحو روعي فيه حشد أكبر أقلية مسيحية ممكنة في رقعة واحدة ، وإقامة مشروعات سوريا الكبرى والهلال الخصيب .

وكذلك الدعوة إلى إقامة كيان للبربر في المغرب ، وإيجاد عناصر الخلاف بين المسلمين والمسيحيين في مصر ، ثم بين الشيعة والسنة في العراق وسوريا ، وتمزيق وحدة وادي النيل بين مصر والسودان ، إلى عشرات المحاولات الخطيرة منذ جرى تمزيق الوحدة الإسلامية الجامعة للعرب والترك إلى تقسيم العرب أنفسهم إلى دول ، وتقسيم الدول إلى أحزاب وفرق ومذاهب .

وفي خلال مرحلة الاحتلال البريطاني والفرنسي للعالم العربي تضخمت هذه الفروق المذهبية والطوائف والأقليات ، ودعمت حيث حرص الاستعمار على الابقاء على الكيانات القبلية والطائفية حتى لا تنصهر الامة العربية في وحدة واحدة وما تزال هذه الكيانات قائمة ، ومازال لها أثرها الكبير في دعم الإقليمية وزيادة الخلافات . وتأخير الانصهار والوحدة .

***

والإسلام هو الدين القومي للأمة العربية . وقد نص عليه في دساتير أغلب الأقطار العربية ، وفي دستور سوريا أن الإسلام هو المصدر الرئيسي للتشريع .

ومن قلب الأمة ظهرت الدعوات : الوهابية والسنوسية والمهدية وحركات الإصلاح الإسلامي بقيادة جمال الدين ومحمد عبده ، وتابعتهم في ذلك مدرسة في الشام تتمثل (في طاهر الجزائري والبيطار والقاسمي) ومدرسة في المغرب أطلق عليها اسم الحركة السلفية انتشرت في تونس والجزائر والمغرب ، وانبثقت منها جمعية العلماء بقيادة عبد الحميد بن باديس ، ثم تجددت الحركة الوهابية مرة أخرى في العقد الثالث من هذا القرن ، وارتبط ظهورها بسقوط الخلافة في الدولة العثمانية كأنما كانت بديلا عنها . وكان للأزهر دوره الخطير ، بالإضافة إلى دور الزيتونة والنجف والقرويين وغيرها من جامعات الثقافة الإسلامية .

ولا ينكر فضل الطرق الصوفية في نشر الإسلام عرضيا ، بينما كانت الحركة

السلفية تعمل على تصحيح عقائده وتنقيته من التقليد والبدع .

ولعل أخطر ما واجه الأمة العربية في معركتها مع الاستعمار الغربي هو فرض نفوذ صهيوني على فلسطين تحول من بعد إلى دولة يهودية طاردت أهل البلاد الأصليين ، وأقامت في مكانهم جسماً غريباً هو « إسرائيل » التي أصبحت من بعد عاملاً خطيراً في الحيلولة دون التقاء الأجزاء العربية في أفريقيا وآسيا ، وخطراً بعيد الأثر في فرض النفوذ الأجنبي ، وتعويق قيام وطن كامل ، ومانع خطير دون قدرة الأمة العربية على الحركة في مجال مقاومة الاستعمار ، أو بناء كيانها السياسي والاجتماعي والاقتصادي . وقد بلغت الحركة الصهيونية قمتها باحتلال القدس سنة ١٩٦٧ . وكان للنفوذ الاستعماري في العالم العربي خلال فترة ما بين الحربين : « مرحلة الاحتلال » أبعد الأثر في إقامة البناء السياسي العربي على التقليد الغربي الذي أثبت عدم قدرته على التجاوب مع النفس العربية ، وقد قام في خلال فترة ما بين الحربين حكام كانوا أولياء للمستعمر . ولذلك حالوا دون قيام تربية إسلامية ، أو بناء ثقافي مؤصل يستمد مفاهيمه من الفكر الإسلامي ، وسمح في هذه المرحلة للنفوذ الأجنبي أن يسيطر على برامج التعليم ، وأن يفصلها عن أرضيتها العربية الإسلامية ، وأن يؤكد اللغة الأجنبية (الانجليزية والفرنسية) ويجعلها مصدر التفوق في مجال العمل في المعارف والدوائر المختلفة ، وبذلك تأخرت اللغة العربية عن أن تشق طريقها وتنمو ، كما تخلف التاريخ العربي الإسلامي ، وتخلفت فنون الثقافة العربية حيث سيطرت دراسات الفكر الغربي وأبطاله وتاريخه وجغرافيته .

وفي جزء من الوطن العربي كالجزائر قضى نهائيا على اللغة العربية لولا ما استنقذته حركة جمعية العلماء التي قام بها الإمام عبد الحميد بن باديس ، كذلك كان للبعثات التبشيرية والصحف الكبرى التي يسيطر عليها النفوذ الاستعماري أثرها في خلق مفاهيم جديدة للفكر العربي منفصلة أو متعارضة مع القيم الأساسية الإسلامية . ولذلك فقد انتفضت في العالم العربي القوى الوطنية ، فكونت جمعيات إسلامية في مقدمتها جمعية الشبان المسلمين التي نشأت في مصر في مواجهة تحديات أعمال التبشير الخطيرة التي استفحلت في مصر والسودان

خلال الثلاثينات . وكان من أبرز ما استهدفته هذه الحركة « تصحيح مفاهيم الإسلام في مجال الاجتماع والسياسة الاقتصادية » وقد كان لهذا النفوذ الثقافي الشعبي أثره البعيد في دوائر الجامعات والمدارس . وكان لها صوتها المسموع عن طريق صحفها ومجلاتها ، وعلى منابر البرلمان .

وقد كان للأحزاب السياسية التي ظهرت في العالم العربي أثرها في تأكيد مفاهيم الاستعمار على الصعيد الاجتماعي بالرغم من عملها السياسي الظاهر في مواجهة الاحتلال والدعوة إلى الاستقلال . ويبدو ثلاثة رجال من كبار الزعماء في مصر والعراق كتوابع للفكر الغربي في تأكيد مفاهيمه من خلف الحركة الوطنية السياسية : وهم لطفي السيد ، وسعد زغلول ونوري السعيد .

***

قاومت الأمة العربية النفوذ الأجنبي والغزو الاستعماري الذي هاجمها في أشد فترات حياتها ضعفا وتفككا ، قاومته بالسلاح والقتال ، ولم يحقق الاستعمار نصراً ما إلا بالخديعة والتآمر . وفي مصر والجزائر وهما من أولى الدول المحتلة قامت ثورة عبد القادر ، وثورة عرابي . وقد وضعت الحرب العالمية الأولى خاتمة هذا الزحف حيث سيطر النفوذ الاستعماري على مختلف أجزاء العالم العربي بالاحتلال العسكري فيما عدا أجزاء من الجزيرة العربية اكتفى الاستعمار بوضعها في منطقة نفوذه السياسي بالمعاهدات ، وفي خلال ما بين الحربين التهب العالم العربي كله بالثورات وأعمال المقاومة التي لم تتوقف في ثورات مصر والسودان والعراق وسوريا وفلسطين . وقد جرت في هذه الفترة مفاوضات متعددة هدفها توقيع معاهدات عسكرية تعترف فيها هذه الأقطار بالاحتلال الذي كان موجودا فعلا ومسيطراً على كل المقدرات ، ونافذ المفعول في توجيه الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية في البلاد العربية .

واذا كان الاستعمار الغربي قد خدع الأمة العربية حين اعطاها الوعود إبان الحرب العالمية الأولى بإقامة دولة عربية ، وحين أوقع بينها وبين الدولة العثمانية ، وحين فرق هذه الأمة العربية إلى دول متعددة جعل لكل منها نظامها الخاص وحدودها الخاصة وحال دون التقائها في وحدة ، فإن الجذور العميقة للفكر

الاسلامي والثقافة العربية ، بل الاسلام واللغة العربية كانت جميعها من العوامل الهامة التي حققت الالتقاء والتقارب بين الشعوب ، بينما ظلت الحكومات خاضعة للنفوذ الأجنبي الذي كان يفرض عليها السدود والقيود .

بل لقد امتدت عرى الروابط بين الأمة العربية والعالم الإسلامي ، وعقدت عديد من المؤتمرات على المستويين العربي والإسلامي ، كان لها أثرها في التئام الوحدة الفكرية ، واستمرار الدعوة إلى الأخوة الإسلامية الشاملة .

وإذا كان سقوط الخلافة (١٩٢٤) قد عد من أخطر العوامل التي واجهت العالم الإسلامي والتي عمقت فيه عوامل الإقليمية والتمزق والانفصال العربي والإسلامي جميعا ، فإن « فريضة الحج » التي حتمت على المسلمين الالتقاء في مكة وعرفات خلال موسم سنوي محدد ، قد جددت الصلة بين المسلمين بالإضافة إلى استمرار استقبال الأزهر لعديد من شباب العالم الإسلامي ، مما جعل الدعوة إلى الوحدة الإسلامية ، والرابطة الإسلامية ، والجامعة الإسلامية لا يتوقف النظر فيها ، وإن لم تكن بعد ميسورة التحقيق للعوامل الاستعمارية الضاغطة .

وكان قيام النهضة الوهابية الجديدة في الجزيرة العربية ، مستمدة من الحركة الوهابية الأولى ، عاملاً هاماً في هذا الصدد ، بالإضافة إلى الجماعات الإسلامية المتعددة التي قامت أجزاء مختلفة من العالم العربي ، وخاصة جمعية العلماء في الجزائر ، والحركة السلفية في المغرب التي تحولت إلى مجال العمل الوطني السياسي .

وفي الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية استطاعت الأقطار المغربية بعد كفاح شاق أن تحقق استقلالها ، وأن تقوم في ليبيا والمغرب حكومات وطنية ، وكان لثورة الجزائر العنيدة الخصبة أثرها البعيد في دعم القيم الإسلامية الأساسية في المقاومة والجهاد ونضال الغاصب ، وفي تأكيد الطابع العربي الإسلامي الذي لا يسقط أمام الزحف الأستعماري الغربي . فإن إستطاع هذا النفوذ أن يقضي على اللغة ، فقد عجز أن يقضي على الإسلام ، ولم يعد هناك من خطر واضح المواجهة غير الاحتلال الصهيوني لفلسطين ونتائجه وآثاره المستمرة التي كانت

تزداد على الأيام قوة بعد الحرب العالمية الأولى عندما أعلن وعد بلفور ، وبعد الحرب العالمية الثانية حيث قامت دولة إسرائيل في قلب الوطن العربي .

ولا شك كان للاحتلال الصهيوني أثر بعيد وعميق ومخالف لأثر الاستعمار الفرنسي والبريطاني في البلاد العربية . فقد كان الاحتلال الإسرائيلي رامياً إلى الإقامة والتوسع ، مستقدما الملايين من اليهود من أنحاء العالم ، وهو احتلال له طابع مخالف للاستعمار الغربي الذي كان يقوم على أساس المعاهدات العسكرية ، ولا يفرض نفوذه بالإقامة والتهجير والتملك وطرد أهالي البلاد الأصليين طرداً نهائياً .

ولا شك كانت الأزمة الإسرائيلية من أخطر العوامل التي واجهت العالم الإسلامي والأمة العربية على مختلف المستويات الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية . وكان لها أثر ودوي أيقظ النفس العربية الغافلة وحركها في مواجهة خطر طامع يمكن أن يتمدد ويتسع نطاقه ، فيقضي على العروبة والإسلام جميعا ، ويفرض في الأرض العربية والعالم الاسلامي قوة أشد خطرا من الاستعمار الغربي نفسه .

ومن هنا فإن الآثار التي ترتبت على قيام إسرائيل في قلب الأمة العربية كانت بعيدة المدى ، تجلت بصورة واضحة في الشعر والنثر والفن ، وفي مجال البحث العلمي ، وفي المجالات العسكرية والسياسية والاجتماعية للأمة العربية . وقد زادت هذه الاعتبارات أهمية مع تضاعف الخطر الإسرائيلي في مواجهاته العسكرية المتعددة مع الأمة العربية بحيث يمكن أن يقال إن هذا الخطر يمثل تحديا خطيرا يحسب له كل حساب في علاقات العالم الإسلامي بالغرب وفي مواجهة النفوذ الاستعماري الذي يتعرض له العالم الإسلامي ، منذ أوائل العصر الحديث ، وإذا كانت الأمة العربية قد استطاعت بعد الحرب العالمية الثانية أن تخطو خطوات واسعة إلى التحرر من النفوذ الأجنبي ، وبناء قوتها الذاتية الداخلية ، وتحقيق قدر كبير من التقدم العلمي والثقافي والاجتماعي . فإن النفوذ الاستعماري الذي سحب قواه العسكرية ، ومظاهر نفوذه السياسي قد اختفى الآن من وراء الاقتصاد والثقافة . وعن طريق الاقتصاد ما تزال موارد الأمة

العربية تحت سيطرة النفوذ الأجنبي ، والحصيلة منها قليلة ، وما تزال خاضعة لنفوذ الأسواق الأجنبية ومؤامراتها .

أما من الناحية الثقافية فإن النفوذ الاستعماري ، قد وجد في هذا المجال سلاحاً خطيراً يقاوم به الانتماء العربي إلى الفكر الإسلامي والقرآن والإسلام واللغة العربية ، والقيم الأساسية التي أقام بناءه الفكري عليها . وقد اتخذ النفوذ الاستعماري من التبشير والتغريب والشعوبية والغزو الثقافي وسائل جديدة خطيرة خفية في سبيل نقض هذه الروابط الأساسية بين الأمة العربية وتراثها وفكرها ، وإثارة شبهات متعددة ومتصلة حول هذا الفكر الإسلامي العربي بالإضافة إلى تأريث الخلافات بين المذاهب والملل ، وتعميق الفوارق المتصلة بالقوميات والأجناس والطوائف ، والحيلولة دون إذابة الطائفية والقبلية وتجميدها حتى لا يتم انصهار الأمة العربية في بوتقة فكرها الإسلامي الأصيل مع فرض تيارات فكرية غربية متعددة . . (وجودية وماركسية ورأسمالية) بحيث تظل الثقافة العربية مضطربة تعيش في متاهات وصراعات لا تنتهي ، وبحيث لا تجد ذاتها ولا طوابعها ولا مزاجها النفسي الأصيل ، وتنتهي إلى دوامة « الأممية » التي تقضي على شخصيتها وكيانها جميعاً . وهذا الغزو هو أخطر جوانب النفوذ الاستعماري في العصر الحديث ، وأشده حاجة إلى التنبه والاهتمام .
ويضاف إلى هذا التحدي معضلة أخرى أساسية هي : -

هل فهم العرب الإسلام فهما صحيحا ، أم هناك عوامل كثيرة اليوم تحاول أن تحول بينهم وبين فهم الإسلام ، كما فهمه المسلمون الأولون ، وكما أنزل فعلا ؟ وأخطر ما في هذا الشأن هو تلك المحاولة الخطيرة من الاستعمار والتبشير والتغريب والشعوبية والمستشرقين جميعا ، وهي محاولة تصوير الإسلام على أنه « دين » فحسب ، والإغضاء عن دوره كنظام مجتمع ، ومنهج حياة ، ومحاولة وصفه بالروحية ، وبأنه علاقة بين الإنسان والله . وذلك لإقصائه عن مكان الحركة في المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية .

وهذا المفهوم في حقيقته مفهوم أوربي أو غربي خالص ، وهو أبرز معالم الخلاف بين الفكر الإسلامي وبين الفكر الغربي ، ويترتب على هذا الفهم

القاصر كثير من النتائج التي تعزل الإسلام كثقافة ومنهج حياة عن التربية والدراسة والمجتمع ، كما يؤثر هذا الفهم الخاطىء في كثير من القضايا الهامة ، كقضية الشريعة والقانون ، والربا والاقتصاد ، والدين والمجتمع ، والتربية والأخلاق ، والعلم والدين ، والعروبة والاسلام .

وحقيقة الأمر أن الإسلام ثقافة شاملة كاملة متصلة ، تربط أجزاء الفكر الإسلامي في وحدة كاملة ومركب كامل ، وحيث تقع السياسة والاجتماع والاقتصاد منه مكان الأجزاء من الكل أو العناصر من المركب[1] .

لقد فصل الغربيون بين الدين والدولة ، وبين الدين والمجتمع ، لعوامل كثيرة مختلفة أهمها : أن الدين إنما جاءهم من خارج مجتمعهم ، فكان دخيلا عليهم ، ولم يكن عنصراً أساسيا في تكوين جذور فكرهم الوثني والإغريقي ، وثانيا لأن الدين توقف وجمد في مواجهة حركة اليقظة ولم يتجاوب مع تقدم العلوم ، وحال دون نموها بالإضافة إلى أثره كمؤسسة في تأكيد الإقطاع وسلطة الكهنة والأمراء . أما الإسلام فقد كان مصدر الدعوة إلى العلم والحضارة ، ومن خلال مفاهيم القرآن بنى المسلمون « المنهج العلمي التجريبي » أساس الحضارة الحديثة . وكان الإسلام ولا يزال بمفاهيمه المرنة الحية قادراً على التجاوب مع الحضارات والأمم والبيئات المختلفة والفكر الإسلامي في أساسه الطبيعي يشتمل على عنصر الدين مرتبطاً ومركبا مع مختلف عناصر الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية . ولذلك فإن محاولة فصله عن المجتمع هي محاولة عقيمة ، فضلاً عن أن الإسلام ليس ديناً لاهوتيا فقط ، وإنما هو دين ومجتمع وحضارة .

« وما تزال الأمة العربية هي النواة الأساسية للإسلام ، وهي القطب المغناطيسي للمؤمنين وإذا وصف بأنه قلب ، فإنه أيضا رأس مؤثر » . وذلك على حد تعبير أحد الباحثين الذي يرى « أن الإسلام يختلف في تاريخه وتوسعه عن بعض الأديان الأخرى ، حيث إن معظم الأديان قد صدرت في موطن ، ثم هاجرت منه وهجرته كلية أو تقريباً ، حيث انتشرت خارجه كالبوذية بالنسبة إلى الهند

---

١ ـ راجع كتابنا (القيم الأساسية للفكر الاسلامي والثقافة العربية .

واليهودية والمسيحية بالنسبة لفلسطين ، ولكن الاسلام وحده ينفرد أو يمتاز بأنه رغم أن انتشاره الأكبر يقع اليوم خارج وطنه الأصلي . فما زال وطنه الأصلي هو أخصب حقوله » . وعندناان ارتباط المسلمين بقبلة واحدة هي الكعبة متجه أرواحهم ما تزال هي نقطة الالتقاء الروحي والنفسي والاجتماعي ، وستظل منائر الأزهر والقرويين من أهم مراصد الأمة العربية الأساسية .

ولقد كان ظهور الجامعة العربية كمؤسسة سياسية على مستوى الحكومات في أواخر الحرب العالمية الثانية عاملا من عوامل التوحيد والالتقاء بالإضافة إلى أن الدعوة إلى الوحدة العربية قد اتسع نطاقها بعد الخمسينات . وأصبح لها مرتبطةً بالجامعة العربية أثرها في مجال الفكر والثقافة والتعليم . هذا في جانب الدائرة العربية التي تنمو من خلال قاعدة الفكر الإسلامي والثقافة العربية ، ذات الجذور الوثيقة الصلة بالقرآن والإسلام واللغة العربية ، والتراث والتاريخ الإسلامي العربي المشترك ، والذي لا سبيل الى الانفصال عنه إلى دعوة قومية علمانية كما تحاول بعض الآراء والمذاهب ـ ولقد طغت موجة الإقليمية والانفصالية فترة طويلة على أقطار الأمة العربية . وكان لها دوافعها وتحدياتها التي فرضتها ظروف الاحتلال الذي مرت به ، وقد حاول كثير من الباحثين تكريس فلسفة للإقليمية والانفصالية متصلة بالفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية ، وجرت محاولات لفلسفة أخرى قوامها وحدة البحر الأبيض . ولكن هذه الدعوات جميعا لم تلبث أن فشلت في تحقيق شيء ، فقد كان التلفيق والاصطناع واضحاً فيها جميعاً ، ولم تلبث الأمة العربية أن التقت على مفهومها الأصيل القائم على اللغة العربية والإسلام كأرضية طبيعية ، وكأساس ثقافي وفكري ، وكمقدمة للقاءات واسعة على صعيد الفكر الإسلامي .

وفي دائرة العالم الإسلامي التقت الأمة العربية ، والدول الإسلامية في مؤتمرات متعددة عقدت في القدس ومكة وباكستان وأندونيسيا وغيرها . وهي في مجموعها مقدمات هامة لإزالة الفواصل بين الثقافات العربية والتركية والفارسية والهندية التي تنبع جميعا من مصدر واحد هو : (الإسلام والقرآن) ولذلك فهي مهما التمست طوابعها القومية والإقليمية ، فإنما ستنمو في جو الوحدة والتجمع

والالتقاء ، وستكون تحديات الاستعمار والغزو الثقافي ، ومؤامرات التغريب والشعوبية دافعاً قويا وعميقاً يقرب الدائرة العربية بالدائرة الأفريقية في افريقيا وآسيا .

***

وتواجه الأمة العربية والثقافة العربية تحديات واضحة نتيجة انفتاحها على الفكر الديمقراطي الغربي ، والفكر الاشتراكي الماركسي ، وفي الاتصال بمختلف التيارات التي تحمل لواءها فلسفات الوجودية والعلمانية واللادينية والإلحاد والاباحة ، وخاصة دعوة الثقافة الأممية بالإضافة إلى الخطر الماثل في الصهيونية ، وآثارها في الفكر الغربي جميعا ، ومحاولاتها التي أقرتها بروتوكولات صهيون لتدمير المدنية وتحطيم البشرية ، وتحويلها جميعاً الى خدمة سيادة فكرة يهودية تستعبد الانسانية جميعاً .

كل هذه التيارات تواجه الثقافة العربية ، وتصارعها على نحو أشد مما كان ذلك في مرحلة الترجمة والنقل من الفلسفات اليونانية في القرن الثالث الهجري . فقد كانت تلك حركة حرة اختارها المسلمون وأتيحت لهم فيها فرصة الأخذ والرفض . بينما تنثال الثقافات الغربية المختلفة والمتصارعة اليوم في ظل النفوذ الأجنبي ، ومهما يكن من أمر فإنها ستنصهر في بوتقة الفكر الإسلامي والثقافة العربية لتذوب وتتشكل ، ويتحول الجيد منها إلى كياننا . بينما ينفى ما لا حاجة إليه خارجها كما هي دائماً طبيعة الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الإنساني والتعامل معه .

غير أن وقوع الأمة العربية والعالم الإسلامي في هذه المرحلة تحت سلطان النفوذ الاستعماري والتغريب الثقافي سيطيل مرحلة الصراع ، وسيشكل صورة غير صحيحة عن الفكر الإسلامي في هذه المرحلة ، تتطلب الجهاد بتصحيح المفاهيم حتى تستطيع أن تتبلور فيما بعد عن الفكر الإسلامي بأصوله الأساسية ، وقيمه الأصيلة ، وهي متشبعة بما استطاعت أن تجده صالحا من التراث الثقافي الغربي في مختلف فروعه وفنونه ومذاهبه .

وستظل الأمة العربية هي صاحبة القيادة الفكرية والتجديد الإسلامي ، ممثلة في حركاته ومصلحته ، من حيث إنها تنظر إلى الإسلام نظرة أصيلة سلفية مستمدة من القرآن نفسه ، ومن واقع الإسلام وجوهره الأصيل .

(٢)

تركيا : ومقاومة الغزو الغربي

لا شك كانت حركة مصطفى كمال نتيجة طبيعية للحركة التي بدأت بزعامة مدحت في أوائل حكم السلطان عبد الحميد ، وخاتمة للدور الذي عاشته تركيا بين الدعوتين : الجامعة الإسلامية والجامعة الطورانية . ذلك أن الدولة العثمانية كانت قد تعرضت في هذه المرحلة من حياتها الطويلة إلى أخطار الشيخوخة في مواجهة أوربا خصمها الأول الذي سيطرت عليه أكثر من أربعمائة عام .

وكانت دول أوربا قد أجرت عشرات المحاولات للسيطرة على تركيا وتمزيقها ، ضمنها الوزير دجوفارا في كتاب له باسم « مائة مشروع لتقسيم تركيا » : قال فيه إنه في خلال ستة قرون متتابعة كانت الشعوب الأوربية تهاجم الدولة العثمانية . وكان الوزراء ، ورجال السياسة وأصحاب الأقلام يهيئون برامج تقسيم هذه السلطة « وقد أخذ هذا العداء بين الدولة العثمانية ، والدول الأوربية - بحق أو بغير حق - طابع عداء بين الإسلام والمسيحية حتى كان الأوربيون يرددون دائماً المطالبة بعمل مشترك لدحر الإسلام على حد تعبير دُجُوفَارَا . وبينما استطاع العالم الإسلامي أن يحتضن الجماعات المختلفة من أصحاب الأديان والنحل ، والفرق والملل ، قاومت اوربا المسلمين والعرب عن طريق الأندلس (اسبانيا المسلمة) وعن طريق البلقان (تركيا الإسلامية) . وقد شهد الأوربيون شهادة صريحة

بالتسامح الديني العظيم الذي أولاه الأتراك للمسيحيين والحرية الدينية التامة . وكذلك الحرية المدرسية التي أتاحت لهم النمو والرقي .

ولقد ظلت بريطانيا وفرنسا وروسيا سنوات طويلة تعمل للقضاء على دولة الرجل المريض ، وتحول دون قيام نهضة أو قوة في العالم الإسلامي من شأنها أن تجدد شباب الامبراطورية أو تبني دولة جديدة . ولذلك فقد عمدت إلى القضاء على الحركة الوهابية وحركة محمد علي ـ وقد قامتا في وقت واحد أو متقارب في أوائل القرن الثامن عشر ـ وذلك رغبة في تمزيق كيان الدولة العثمانية والقضاء عليه . وتفتيت أجزائها إلى دول صغيرة تقع تحت نفوذها ، وقد عمدت منذ وقت باكر إلى استقطاع الجزائر وتونس ومصر ، وإقامة حكم خاص في لبنان ـ بعد أن أثارت بريطانيا وفرنسا (الموارنة والدروز) إلى معركة دامية سنة ١٨٦٠ كحلقة من حلقات هذا التمزيق للدولة الإسلامية الكبرى .

وكانت أكبر أعمال التمزيق هي الوقيعة بين الأتراك والعرب باعتبارهما العنصرين الأساسيين الكبيرين في هذه الوحدة . وكان للأقليات دور كبير في هذه المعركة الخطرة عن طريق الصحافة والمؤامرة ، وإثارة الخصومات ، وكان الهدف الذي ترمي اليه القوى التي كانت تهاجم الدولة العثمانية ، والسلطان عبد الحميد ، وتدعو إلى انفصال العناصر ، أنها تهدف أساساً إلى تمزيق وحدة ذات طابع إسلامي تمتد عبر منطقة واسعة في سبيل مقاومة الغزو الأوربي الزاحف ، فلما ضعفت الدولة العثمانية استطاعت القوى الأجنبية أن تسيطر في مختلف أجزاء الامبراطورية ، وأن تمهد لتحطيمها .

أما في الدولة العثمانية فقد قادت جماعة « الدونمة » (اليهودية التي أسلمت تقية) في سالونيك قيادة هذه المعركة تحت أسماء مختلفة أهمها حركة حزب الاتحاد والترقي ، واتخذت من مقار المحافل الماسونية مراكز لها للعمل ، وخلقت في فترة طويلة تزيد عن أربعين عاماً حركة ضخمة سداها ولحمتها الحملة على السلطان عبد الحميد ، واتهامه بالاستبداد . وقد حملت هذه الحركة الشعوبية الضخمة ـ التي كانت مصر أكبر مراكزها ، حيث كان البريطانيون يفتحون الأبواب لجماعات مختلفة من الدعاة وأصحاب الصحف من مختلف الأجناس والأديان ممن

يجمعهم العداء للإسلام والدولة العثمانية ـ لواء العمل لتحقيق أشياء كثيرة تحققت فعلا بعد الحرب العالمية الأولى :

(أولا) تمزيق الدول العثمانية التي تمثل قوة إسلامية كبرى ، وتجد لها في مسلمي الهند وأندونيسيا ومختلف أنحاء العالم الإسلامي صدى وتأييداً .

(ثانيا) السيطرة على الأجزاء العربية من الدولة ووضعها تحت سلطان الاحتلال البريطاني والفرنسي .

(ثالثا) إقامة إسرائيل في فلسطين قلب العالم الإسلامي .

ومن هنا فقد كانت خطة القضاء على الدولة العثمانية هدفا أساسيا للقوى الاستعمارية وللأقليات المختلفة الموالية للنفوذ الاستعماري ، وهدفا أساسيا أيضا للحركة الصهيونية الوليدة التي عمدت إلى الاتصال بالدولة العثمانية ، وبالسلطان عبد الحميد بعد أن عقدت مؤتمرها الأول في بال ١٨٩٧ ، وحاولت أن تحصل على إذن بالهجرة إلى فلسطين عن طريق الإغراء بقرض قدره خمسون مليونا من الجنيهات لخزينة الدولة العثمانية ، وهبة قدرها خمسة ملايين من الجنيهات لخزينة السلطان الخاصة .

وقد كان موقف السلطان عبد الحميد مشرفا بالغ القدر في الجرأة والصدق . ففد رفض ذلك العرض رفضا تاما . وأعلن في كلمة خالدة له استحالة تحقيق هذا الهدف طالما هو على قيد الحياة .

وقد تكشف للسلطان من بعد حين أسقط عام ١٩٠٩ أن واحداً من الذين أعلنوا اقصاءه عن السلطة كان هو نفسه الذي جاء يعرض عليه ذلك العرض الصهيوني . وكان إسقاط عبد الحميد سنة ١٩٠٩ نهاية لنظام الجامعة الإسلامية الذي دعا إليه السلطان عبد الحميد ، ونفذه في محاولة لتجميع الدول الإسلامية خارج الدولة العثمانية في تجمع باسم دولة الخلافة لمواجهة النفوذ الاستعماري الغربي الزاحف . وقد تحقق فعلا في عام ١٩٠٨ « إعلان الدستور العثماني » وظن المسلمون أن الدولة العثمانية تواجه عصراً جديداً يتحقق فيه مزيد من الحرية والعدالة . بيد أن النظام الذي قام وتوطد بعد عزل عبد الحميد ، إنما كان يمثل

اتجاها مخالفا للتيار الإسلامي ، ومعارضا له ، فقد استهدف حزب الاتحاد والترقي الذي تولى السلطة منذ ذلك التاريخ إلى نهاية الحرب العالمية الأولى تنفيذ مخطط الجامعة الطورانية في محاولة لتتريك عناصر الدولة العثمانية ، ومن هنا فقد وقع الصدام بين العنصرين الكبيرين في المملكة وهم : الأتراك حكاماً ، والعرب محكومين ، وتأججت حركة الدعوة إلى العربية الجامعة في مواجهة محاولة إلغاء الوجود العربي عن طريق فرض اللغة التركية في المحاكم والمدارس في نفس الوقت الذي استشرت فيه الدعوة إلى إعلاء تاريخ طوران والانتقاص من تاريخ العرب والاسلام ، ولقد كانت هذه الفترة (١٩٠٩ ـ ١٩١٨) فترة حرجة حقاً ، فقد غلا فيها الاتحاديون وأوجدوا بينهم وبين العرب ثغرة واسعة ، وحين اتجه العثمانيون إلى ألمانيا ، وانضموا إليها في الحرب ، اتجه العرب إلى بريطانيا وانضموا إليها . وبذلك تمزقت الوحدة العثمانية العربية ، وانتهت الحرب بهزيمة تركيا ، واستيلاء بريطانيا وحلفائها على الأجزاء العربية من الامبراطورية والتنكر للعهود المعقودة بإقامة دولة عربية مستقلة .

وقد كان من الطبيعي أن يسقط النظام كله بعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية ، واحتلال الحلفاء واليونان لأجزاء منها . ولما كانت الدول الأوربية قد حققت بذلك القضاء على الدولة العثمانية ، وتمزيق أوصالها . فقد بلغت من ذلك نهاية الشوط ، وهي تحويلها من دولة الخلافة إلى دولة علمانية لا دينية تتنكر لكل قيم الإسلام ومفاهيمه وأنظمته ، وذلك عن طريق الانقلاب العسكري الذي قام به مصطفى كمال ، وسيطر به على كل مقدرات تركيا وصفى به جميع النظم القديمة .

ويمكن اعتبار الانقلاب الكمالي هو التطور الطبيعي لحركة الاتحاديين استمراراً للمخطط الذي جرى تنفيذه بعد سقوط السلطان عبد الحميد في تحويل الدولة العثمانية تحويلا تدريجيا من دولة الخلافة والسلطنة والجامعة الإسلامية ، ورابطة العالم الإسلامي كله إلى دولة إقليمية ذات طابع عربي خالص ، فقد صارعت الدعوة الإقليمية باسم الجامعة الطورانية اتجاه الوحدة الإسلامية الذي حمل لواءه السلطان عبد الحميد ، واتخذه سبيلا إلى تجميع المسلمين في حركة واحدة لمقاومة

النفوذ الغربي الزاحف . غير أن النفوذ الاستعماري كان قادراً ـ والدولة العثمانية في مرحلة الضعف ـ إلى القضاء على هذه الحركة ، وتمزيق هذه الوحدة .

كان دخول الدولة العثمانية الحرب في صف ألمانيا من العوامل التي عجلت بالقضاء عليها وتمزيقها كوحدة مقاومة جامعة بين العرب والترك ، وكانت الخطوة التالية لذلك ، هي إلغاء الخلافة العثمانية التي كان يدين المسلمون بالولاء لها من خارج الدولة العثمانية ، ومن حق أن يقال إن هذه الخطوة الحاسمة لم تتم طفرة ، وإنما تمت على مراحل طويلة خلال فترة لا تقل عن خمسة عشر عاما ١٩٠٩ ـ ١٩٢٤ وأن النفوذ الأجنبي قد أحكم العمل بالوقيعة بين عنصري الدولة العثمانية (العرب والترك) ودفع الاتحاديين إلى مواجهة العرب مواجهة حادة بالمشانق والقتل مما فتح ثغرة لم يكن هناك من سبيل إلى أن تلتئم . وبذلك تحققت خطوة أشد عنفا حينما حارب العرب المسلمون الأتراك المسلمين في معارك متعددة على خط ممتد من مكة إلى دمشق ، وكانت ثمرة الحرب لحساب الحلفاء الذين حلوا محل الأتراك في المناطق التي هزمهم العرب فيها . وبذلك أسلم العرب أرضهم إلى بريطانيا وفرنسا بعد أن استخلصوها من الدولة العثمانية . وتلك مؤامرة النفوذ الأجنبي البالغة الخطر .

وقد كانت هناك آراء لها وزنها ، ترى أن الدولة العثمانية على ما هي عليه من الضعف ما تزال تمثل قوة وكيانا ضخما قائما في مواجهة النفوذ الاستعماري ، وأن من واجب العرب والترك أن يحفظوا هذا الكيان حتى لا يسهل ازدرادهم فرادى . ولكن الاتحاديين ومن ورائهم قوى النفوذ الاستعماري ، وقوى القضاء على فكرة الجامعة الإسلامية والوحدة الممثلة في الدولة العثمانية كانوا هم أداة تمزيق الرابطة بين العرب والترك ـ وإسلام هذه المنطقة إلى النفوذ الأجنبي كلية .

ومن هنا فقد كان من السهل ، وقد تحقق هذا الجزء الهام من المخطط ان تحول تركيا العثمانية دولة الخلافة ، ومقر قيادة الجامعة الاسلامية ـ في فترة قليلة ـ الى دولة علمانية تشجب الاسلام وتتخلى عنه تخلياً تاماً في مجال القوانين ونظم المجتمع والحكم ، وتفتح أبوابها للتغريب والعلمانية في كافة صورها ، مخالفة بذلك أبسط قوانين التطور ، ونواميس التحول . حقاً ، لم يكن هذا الاتجاه طبيعياً . ولم

يكن العمل لتغريب تركيا قائماً على مراحل ، وإنما كان يتم تحت سلطة النفوذ العسكري الصارم ، والقوانين الاستثنائية المفروضة ، في محاولة قوامها الطفرة والعنف إلى تحويل أمة من النقيض إلى النقيض .

حقاً لقد مرت الدولة العثمانية بفترة جمود وتخلف في مجال الثقافة والمجتمع ، كان مصدرها متصلاً بالجبرية التي سادت باسم الدين . ولكن هل كان الاسلام في حقيقته مصدر التخلف والضعف والهزيمة ، أم كان التخلف عن مفهوم الاسلام الأصيل القادر على الحركة والقوة والحياة هو سبب الهزيمة . . . ؟

لقد عزي الى الاسلام ما أصاب تركيا من هزيمة وتخلف وضعف . ومن الحق أن يقال إن تركيا تخلفت عن مفاهيم الاسلام في القوة والعدل والحرية . منذ سنوات طويلة ، يوم تجمدت في حركة التقليد والجبرية ، وعجزت عن مجاراة الغرب في تقدمه العلمي . هذا التقدم الذي كان مصدره العالم الاسلامي أساساً ، وكان قادته المسلمون أنفسهم أولاً .

ولكن الاتهام وجه إلى الاسلام رغبة في تشويهه والقضاء عليه ، وخلق جو عام مسمم ضده في العالم الاسلامي والبلاد العربية .

وقد كانت الخطوات التي خطتها تركيا بعيدة الأثر في مصر وأفغانستان وإيران والهند الاسلامية وفي كل مكان . فقد أتاحت الفرصة لدعاة التغريب وخدام الثقافة الغربية الاستعمارية أن ينفذوا إلى مكان الصدارة ، وأن يضربوا المثل بتركيا في مجال التقدم والنهضة .

ولقد كان المفكرون المسلمون المخلصون في أول الأمر يؤيدون النهضة التركية ، بحسبان أنها ستجمع بين قوة الغرب وطابع الاسلام ، وأنها ستمثل أولى مراحل اليقظة في العالم الاسلامي ، وفق مفهوم النهضة عن طريق نقل جوانب القوة الايجابية في الحضارة الغربية . ولكن الأمر كان على عكس ذلك تماماً ، فإن تركيا لم تلتفت إلى جوانب القوة في الحضارة الغربية ، ولكنها عمدت إلى تقبل جوانب التحلل من الحضارة وحدها ، وكان أبلغ مظاهرها : تطبيق قوانين الأحوال الشخصية السويسري ، وفتح أبواب المراقص ، وزواج المسلمة بغير المسلم ، وإلغاء المظاهر الاسلامية كلها . وإلغاء الحروف العربية للغة

التركية ، واستبدالها بالحروف اللاتينية وكتابتها من اليسار . وقد تأكد من عدد من المصادر الموثوقة أن تركيا قد نفذت فعلاً مخططاً كان مرسوماً لها في المعاهدات التي عقدتها مع الدول الغربية . والمعروف أن تركيا قبلت شروط الصلح الذي عقده الحلفاء معها في لوزان عام ١٩٢٣ . شروط كرزون الاربع وهي :

(١) قطع كل صلة بالاسلام . (٢) إلغاء الخلافة . (٣) إخراج أنصار الخلافة والاسلام من البلاد . (٤) اتخاذ دستور مدني بدلا من دستور تركيا القديم . وقد استجاب مصطفى كمال لهذه الشروط ، ونفذها تنفيذاً أميناً ودقيقاً . وكان في تنفيذها أكثر حماسة من الذين فرضوها عليه . وكان هدف النفوذ الاستعماري أن يتخلص تخلصاً نهائياً من أي بؤرة أو نواة للطابع الاسلامي ، أو للوحدة الاسلامية . ولكن هل من حق أن الانقلاب المفروض بقوة النفوذ العسكري ، والقانون العرفي ، ووسائل الارهاب والاعدام ، قد استطاع أن يحقق تحولاً جذرياً في الأمة التركية بحيث قضى فيها على الاسلام . وإن وقائع التاريخ كله منذ قام نظام مصطفى كمال إلى اليوم ، لتدل على أنه كان نظاماً ملفوظاً مهزوماً . قد واجه المعارضة من مختلف الطبقات منذ اللحظات الأولى وإلى أيامه الأخيرة ، وكشف عن تحديات خطيرة ابان عنها الأتراك المسلمون بمختلف الوسائل ، أولاً بالثورات المتوالية عليه ، وثانياً بالصمت وبالتصميم الجماعي الكامل على أداء فرائض الاسلام ، والتمسك بها . فلما سنحت الفرصة بعد وفاة أتاتورك ، تكشف الشعب التركي عن إيمان عميق بالاسلام لم تزده هذه المحنة إلا قوة وصقلاً .

* * *

- ٢ -

حركة الانقضاض على الاسلام

كانت الدولة العثمانية قبلة المسلمين في العالم الاسلامي كله بعد مكة . ولذلك فقد كانت هزيمتها في الحرب الأولى مصدراً من مصادر القلق في الهند ومصر وأندونيسيا . ومن هنا فإن حركة مصطفى كمال لمحاربة اليونان الذين احتلوا تركيا وجدت من المسلمين تقديراً ومتابعة . وكان الكماليون قبل جلاء اليونان يتمسكون بالطابع الاسلامي ، ويستميلون المسلمين لتأييدهم بالمظاهر الاسلامية . فقد اجتمعوا بالسيد أحمد السنوسي[١] ومنعوا الخمور والفجور ، ورفعوا المصاحف علامة على الدفاع عن الاسلام ، فلما بلغوا ساحل الأمان وانتصروا بإجلاء اليونان ، كشفوا خبيئتهم ، وهي السياسة القائمة على التنكر الكامل للدين عامة ، والاسلام خاصة ، والأخذ الكامل بمظاهر الحضارة الغربية ، وإلغاء كل مؤسسات الاسلام . وقد كان المسلمون خلال المرحلة الأولى يحسنون الظن بهم تقديراً . لأن حركة التمدن التركي ، إنما هي الحركة التي تطلع إليها المصلحون المسلمون . وهي تقبل الحضارة الغربية على أساس من القيم الأساسية للفكر الاسلامي . وقد مضى أتاتورك في خطواته على طريقة المراحل . فبدأ بإلغاء الخلافة الزمنية ، وانتهى بإلغاء الخلافة كلية . وفيما بين ذلك أجرى عديداً من التغييرات التي كشفت عن معارضة كاملة للنظام الاسلامي ، ومن هنا تبين أن الأمر لم يكن حركة إصلاح وتطور من خلال إطار الاسلام . وإنما هو عملية انقلاب شامل كامل ، واتجاه إلى الغرب على النحو الذي كان يدعو إليه في تركيا أحمد غايف وزملاؤه حيث كانوا يدعون إلى تقبل الوجود الغربي تقبلاً كاملاً ترتبط فيه الحضارة والثقافة معاً . أي أن تصبح تركيا دولة أوربية في مختلف مناهجها وأنظمتها وقوانينها ، وتخرج خروجاً كاملاً من مجتمع العالم الاسلامي .

---

١ ـ محمد جميل بيهم : العرب والترك

وقد نفذ مصطفى كمال هذا المخطط كاملاً :

(١) اعتماد القانون المدني السويسري وقانون العقوبات الايطالي ، والقانون التجاري الألماني بديلا للشريعة الاسلامية (فصل الدين عن الدولة) .
(٢) إلغاء الحروف العربية ، وكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينبة ، وتصفية اللغة من الكلمات العربية .
(٣) الأذان باللغة التركية ، وترجمة القرآن إلى التركية .
(٤) الأحد عطلة أسبوعية بدلا من الجمعة .
(٥) إلغاء الطربوش وحجاب المرأة .
(٦) إلغاء وزارة الأوقاف والمدارس الدينية ، وحل منظمات الدراويش ، وغلق تكاياهم .
(٧) إحلال التقويم الأوربي محل التقويم الاسلامي .
(٨) قبول نظم الحضارة بلا تحفظ .
(٩) الاتجاه نحو أوربا والانفصال كلية عن العالم الاسلامي والعرب وآسيا .
(١٠) إلغاء الخلافة .

وقد كانت هذه الخطوات عنيفة عاصفة تحمل طابع الاستفزاز ، ويظاهرها النفوذ العسكري الحاكم ، ولم تكن تصدر عن تطور حقيقي ، أو تفاعل أصيل ، وإنما كانت طفرة طاغية تهدف إلى الاسراع في تغريب تركيا . ومن هنا وقف العالم الاسلامي كله مذهولاً إزاء تحول الدولة التي قادت المسلمين ستة قرون مرة واحدة إلى دولة غربية الطابع ، وكان لهذا التحول أثر بعيد المدى ، فقد ارتج العالم الاسلامي رجة عنيفة لالغاء الخلافة ، وقطع أوصال الرباط الذي كان يربط المسلمين ، وقامت في الهند حركة عاصفة لتأييد الخلافة ، وعقدت مؤتمرات كبرى في الهند ومصر والحجاز . وأتاحت فرصة هذه التصرفات لدعاة التغريب في مصر والعالم العربي فرصة إسباغ التقدير والاعجاب على خطوات مصطفى كمال ، وتأييدها والدعوة الى تقليدها . غير أن الطريقة التي اتخذها مصطفى كمال أوجدت رد فعل عنيف بين المسلمين في تركيا الذين رفضوا هذا التحول رفضاً صامتاً . كما واجه المسلمون والعرب خارج تركيا هذه الخطوات

بالنقد . فقد خلق أتاتورك جواً من الاحتقار للعرب . واعتبر الاسلام عربياً ، والنبي محمداً عربياً . ومن هنا حملت صحفه على العرب والاسلام ومحمد . فانقلب ذلك التقدير والاعجاب الذي أسبغه المسلمون والعرب على أتاتورك أولا نقمة ونقداً .

ومهما قيل عن أن مصطفى كمال كان مضطراً إلى ذلك اضطراراً في مواجهة إحساسه بأن الطابع الاسلامي الذي عاشته تركيا العثمانية في سنواتها الأخيرة كان مصدر هزيمتها ـ مهما قيل في ذلك . وهو بعض الحق ـ فإن ما اندفع إليه لم يكن من عمل المصلح ، وإنما هو عمل عميل التقريب الذي وكل إلى قوته العسكرية والدكتاتورية المفروضة أن تنقل دولة الخلافة إلى دولة أوربية خالصة حتى تطمئن أوربا إلى أن على حدودها دولة لا تحمل من طابع الاسلام شيئاً .

وبعد أن كانت الامبراطورية العثمانية هي : الحصن المنيع الذي تقف عند أسواره موجة التوسع الغربي المسيحي . أصبحت هي المعبر الأكبر لهذا التوسع .

ولقد حاول بعض المصلحين أن يردوا مصطفى كمال عن اتجاهه المصمم بإلغاء الخلافة ، وعن التحول وجهة الغرب كلية على أساس القول بأن الخطأ ليس في النظام ، ولكن في التطبيق ، ولكن الغازي كان منصرفاً انصرافاً كاملاً عن الاستماع لأي وجهة نظر أخرى . وكان حريصاً على أن يقدم للغرب أعظم هدية وهي (إلغاء الخلافة) التي كانت في اعتبار المسلمين والعرب عقدة الصلة والرابطة الوثيقة بحسبانها قوة حامية لهم في مواجهة الغزو الغربي .

***

ولقد أكدت مختلف المصادر بأن مصطفى كمال كان يهدف إلى قيام دولة أوربية بكل معنى الكلمة ، لا تسترشد في قوانينها وسائر أعمالها إلا بما يؤدي بالبلاد إلى هذا الغرض . وقد جاء في بيان للغازي أنه تحقيقاً لذلك ، واقتداء بالأمم الغربية ، ولاسيما الجمهورية الفرنسية . فقد تقرر فصل الدين عن الحكومة فصلا تاماً ، وإلغاء الخلافة الاسلامية ، وإلغاء وزارة الأوقاف ومشيخة الاسلام ، والمحاكم الشرعية ، وإقرار قانون استعمال التقويم الغريغوري ،

وعدم تغيير مواعيد العمل مدة شهر رمضان في مصالح الحكومة أو المدارس : مع اعتبار العطلة الرسمية يوم الأحد » أو أنه لكي يكون الترك أمة أوربية بمعنى الكلمة . فقد تقرر أن يكون لأفراد الشعب التركي كلهم ثقافة واحدة هي : الثقافة الغربية . وذلك حتى لا تكون هناك طوائف ذات عقليات مختلفة . وتوحيد الثقافة مبني قبل كل شيء على توحيد التعليم ، فقررت سياسة إلغاء التعليم الديني وجعل التعليم كله علمانياً ، وإلغاء جميع الطوائف والفرق الصوفية الاسلامية والمدارس والكتاتيب المدنية الاسلامية بدون استثناء ، وحصر وتدريس العلوم الدينية في كلية الالهيات بجامعة الآستانة دون غيرها » .

وقد صاحب هذه الخطوات حملات عنيفة في الصحف التركية اتجهت أولا إلى رسول الاسلام نفسه وجرت عادة توجيه خطابات مفتوحة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تحت عنوان (إلى حضرة محمد) . وهذا نموذج مما نشرته جريدة (كنج دوشوبخةلر) أي (الأفكار الفنية) بقلم قومندان أوغلي توفيق . أول نوفمبر سنة ١٩٢٨ و ٨ و١٤ و٢٢ .

قال في ٨ نوفمبر سنة ١٩٢٨ ما يأتي : -

« أرأيت يا رسول الله كيف كنت لا تتحرج عن الاختصاص ببعض النسوة الاسيرات في كل غزوة تغزوها . وأقررت المشايخ والخلفاء على هذه الرذيلة . بل كنت مصدقاً لعقود أنكحتهم بتواضع عاقد الأنكحة . كيف لا . وقد كنت إمامهم والقدوة التي يتبعونه . فهذا الرجل الذي لا يملك قوت يومه يتزوج لعدة نساء . لأنك قلت له إن هذه سنة وصاحبه مأجور عليه ، فكنت بذلك سبب نكبة ملايين العائلات ، وانتشار ملايين الأطفال في الشوارع ، وأنت أنت وحدك . (والخطاب للنبي) سبب تحولهم إلى جناة وأشقياء وأراذل وثرثارين . فهل ترتجف الكعبة كما ترتجف روحك من هول هذا . فلا قيمة للكعبة عنديّ إلا من حيث إنها ركام من أحجار وتراب يتآلف منها بناء عتيق ذو سقف أخنى عليه الدهر ، ولا أعتقد أنها ترتجف إلا بزلزلة أرضية .

وكان ختام الخطاب . . . « لقد خلصنا منك »

وقد أمضت هذه الصحيفة خمسة شهور فى هذه الحملة . حتى إبريل سنة

١٩٢٩ ، وتناولت موضوعات واتخذت عبارات أشد عنفاً .

ومن عجب أن هذا المحامي المدافع عن الانقلاب التركي لم يلبث أن ضبط متلبساً بتسليم خريطة حربية لدار سفارة أجنبية .

***

ويروي العلامة محمد عزة دروزة في كتابه « تركيا الحديثة » وكان قد أمضى هذه السنوات في تركيا أنهم كانوا يلقنون الطالب بأن الثقافة والتقاليد الاسلامية هما من أسباب تأخر التركي وجموده . وما أصابه من كوارث ، وتعرض له من دسائس .

وأشار إلى سفور المرأة التركية وبروزها . إنما تم بدعوة ملحة تولاها الزعيم وشجع عليها بكل وسيلة وكل مناسبة . وكانت الدعوة عامة لم تقتصر على سفور المرأة التركية وبروزها . بل شملت اندماجها في المجتمع ، واختلاطها على أوسع معاني الاندماج والاختلاط . وقد أشار مؤرخ الغازي (محمد محمد توفيق) أنه كان يقيم حفلات الرقص ، ويدفع الضباط دفعاً إلى مخاصرة الفتيات . فإذا تراجعن قال لهم إنما هي أوامر عسكرية (يراجع النص) .

وقد أدى ذلك ـ حسبما أورده دروزة ـ إلى تفكك غير يسير في البنيان العائلي . وخاصة في المدن الكبرى . وكان لمقتضيات البروز في اشتداد رغبة المرأة في التأنق والتبرج ، ولم يكن أثر هذا أقل في الرجل أيضاً . فقد كثرت حوادث السقوط والتدهور . فإن المرأة التي ظلت سنين طويلة جداً محرومة من حريتها ، منطوية على نفسها ، قابعة في عزلتها ، والتي نالت حريتها فجأة قد دهشت ، ولا ريب وصارت في حالة ذهول . ومن هنا فإن مئات الآلاف من الفتيات فقدن الاتزان ، وسرن في الطريق الخاطىء ، واندفعن بدفعة السقوط ، وأصبحت قلوبهن المتفتحة قبل أوانها كالثمرة التي فسدت ، ولم يأت وقت نضوجها . وقد كان للنشرات الفلسفية الوضعية دور خطير في تقوية هذا التيار الجارف . فكم صدر من مجلات وكتب ، وترجم من قصص لعبث فيها السموم ، وكم نشرت الصحف من رسائل وكتابات ، وما نشرته من أحاديث في الصحف عن الراقصات ، بنات الحانات ، ومن أخبار البغايا في حياتهن الخاصة من خفايا

وأسرار بأسلوب مغر فاجر ودرس غرام وعشق لفتاتنا .

أما لبس القبعة فإن الجميع مجبرون على اكتساء القبعة . أما اتخاذ القانون المدني . فقد كان له خطورته لا تصاله بحياة المجتمع التركي الاجتماعية والعائلية والشخصية والاقتصادية . فقد هز الحياة هزاً عنيفاً لقيامه على أسس مغايرة للأسس التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية . وقد قضى منهاج حزب الشعب الذي ألفه الغازي عام ١٩٢٧ على أن العلمانية (اللائكية) هي ركن من أركان مبادىء الحزب ، ثم نص هذا الركن في صلب الدستور . وفي عام ١٩٣٨ حذفت المادة التي كانت تنص على أن الاسلام دين الدولة . وقد فسر معنى « العلمانية » على أن تقوم قوانين الدولة وأنظمتها على أساس ما يقرره العلم والفن ، ويتسق مع أصول الحضارة الحديثة ومقتضياتها . واعتبر « الدين » أمراً وجدانياً خاصاً بالأفراد . وأن فصل الدين عن أمور الدنيا والسياسة أمر أساسي . كما دعا إلى صيانة اللغة القومية أي التركية عن تأثير اللغة والثقافة الأجنبية (أي اللغة العربية والفكر الاسلامي والثقافة العربية) .

وقد أشار واصف بك وزير المعارف إلى أن « الاسلام كان عقبة في سبيل اندفاعهم نحو الحياة الجديدة ، وأنهم ساروا شوطاً ابتدأوه لهدم المدنية الاسلامية التي استعبدت وطنهم ، وحالت بينهم وبين ترقيته » .

والاسلام في عبارة الغازي والحكومة التركية ووزير المعارف ليست إلا الصورة التي كانت تعيشها الدولة العثمانية . أما الاسلام نفسه فقد كان بعيداً عن تقدير هؤلاء جميعاً ، ولم يكن هو مصدر الضعف والتخلف . ولو كانوا هم جادين حقاً في خلق نظام اجتماعي إيجابي سليم في إطار الاسلام لما أعوزتهم الوسائل ولوجدوا من المجددين والمصلحين من يحقق لهم إعداد هذا النظام ولكن الكماليين في الحق كانوا قد قرروا قراراً لا رجعة فيه بشجب الاسلام أصلاً ، والدين بصفة عامة كأساس لنظامهم الجديد . واقتنعوا اقتناعاً كاملا بأخذ النظام الغربي . وكانت هذه في تقديرنا تجربة ضرورية بالنسبة للعالم الاسلامي . وذلك حتى تنكشف التجربة عن فهم مدى النجاح والفشل الذي ساورها . ولمعرفة ما إذا كان العالم الاسلامي قادراً فعلاً على الانسلاخ كلية من أنظمته ومفاهيمه . أي من جلده ،

لينصهر انصهاراً كاملاً في المجتمع الأوربي عقلا وروحاً . بعد تغيير أنظمته وقوانينه وأساليب التعليم والتربية والتكوين الاجتماعي .

لقد أمضى مصطفى كمال (١٩٢٢ - ١٩٣٧) خمسة عشر عاماً كاملة يقود هذا النظام في حماسة خطيرة ، وينتقل به من مرحلة إلى مرحلة ، فهل حقاً تقبلت تركيا المسلمة « الأمة التركية » هذا النظام . أم أنه بقي أسير العاصمة ودوائر الحكم والطبقات العالية التي تدور في فلك الحاكم الديكتاتوري ، وتذعن له ؟ الواقع الذي كشفت عنه التجربة أن ضمير الشعب التركي لم يستجب لهذه الحركة المفتعلة التي خالفت المقومات الأساسية للأمة والقيم الأصيلة لفكرها .

وقد تبين تماماً أن هذا المنهج غير صالح للتطبيق ، وأن طموح النفوذ الغربي في أن يجد من كل بلاد العالم الاسلامي تركيا أخرى قد باء بالخسران . بل إن الدول التي عاصرت حركة مصطفى كمال : كمصر وإيران وأفغانستان قد أخذت التطور والنقل من الغرب بشيء كثير من الحذر . بل أن مستشرقاً بعيد النظر هو : « هاملتون جب » قد قرر في صراحة أن العرب لن يكرروا تجربة تركيا . وأن لهم من عمق إيمانهم بالاسلام ما يعصمهم من الجري وراء هذه الخطوة .

***

ومن الحق أن يقال إن نفوذاً هاماً باسم الدين كان مصدراً من مصادر الضعف والتخلف . ذلك هو عنصر الزوايا والتكايا والطرق والدراويش وما اتصل بها من خطط خلقت جواً من الجبرية .

وكان لها نفوذها في الحياة الاجتماعية ، والحياة السياسية جميعاً ، وهو ما عناه الكماليون بإلغاء الطرق الصوفية وإلغاء وحظر كل أنواع الطرق ومشايخها ومسالك وألقاب الدراويش والمريد والاسناد والسيد والعرافة والسحر والتحكيم وكتابة التعاويذ والأحجبة والتمائم وأعمال كشف الغيب وأخبار المستقبل .

كل هذه الأشياء التي عناها الكماليون بالالغاء ، لم تكن من الاسلام . وإنما دخلت عليه ، وكان الغاؤها عملاً إيجابياً حقاً . وهنا يكون الأمر هو أمر هؤلاء الذين تصدروا وتسموا باسم رجال الدين وليس أمر الدين نفسه . ليس

الاسلام . إذن هو الـذي أخـر تركيا . ولـكن المفـاهيم التـي فرضتهـا مرحلـة الضعف . والمعروف أنه خلال هذه المرحلة غلب نفوذ الدراويش والصوفية على العلماء والقضاة والأئمـة ، وآزروا السلاطـين وحملـوا لواء ترضية الشعـب إلى تصرفاتهم . دون أن يحملوا لواء مناصحة الأمراء والحكام . وبـذلك سيطـرت مفاهيم الجبرية . مما أدى بالدولة إلى الضعف والتخلف . وذلك في نفس الوقت الذي تخلفت فيه الدولة عن ميادين القوة العسكرية ، بينما أخذت نظم الحـرب ووسائل الدفاع تتقدم في الغرب . وقد نشأ عن هذا التخلف الثقافي والانحراف في مفاهيم الفكر الاسلامي موقفاً خطيراً . ذلك أن النفوذ الاستعماري هاجم هذا الاتجاه ونسبه جملة إلى الاسلام في سبيل شجـب مفـاهيم الاسـلام في المجتمـع والسياسة ودحرها وإحلال مفاهيم غربية خالصة محلها . وكان « للدونمة » دخل كبير في الحركة الاصلاحية التركية التي حمل لواءها أدباء تركيا ومصلحوها أمثال : عاكف ونامق ، مما أدى إلى الاتجاه كلية إلى المفاهيم الغربية .

لقد كانت المحاولة أول الأمر تحمل طابع المقاومة للنفـوذ العربـي عن طريق اقتباس بعض الأنظمة الغربية . غـير أن الثقافـة التـي سيطـرت على المدرسـة العسكرية بالذات لم تلبث أن اتجهت بعيداً عن فهم الاسـلام . وبنـت فكرة القومية بمفهومها الغربي ، فكانت نزعة طورانية تحولت إلى نزعة تركية خالصة على يد مصطفى كمال . وبالنسبة لمصطفى كمال بالذات ، فقد كان واحداً من أبناء المدرسة العسكرية التي كانت ثقافتها غربية خالصة . وكان الغازي مقتنعاً بضرورة الاتجاه نحو الغرب والاقتباس منه في التشريع والادارة والثقافة والحياة دون تأثـر بالـدين واعتباراتـه وأحكامـه . ولـم يكن مصطفـى كمال في حياتـه الخاصة ، مستقيم السلوك . فقد عرفت عنه حياة مضطربة صارخة . وعـرف بالسهرات الصاخبة الحافلة بالخمر والقمار . ولذلك فقـد كان مندفعـاً إلى هذا الاتجاه بمزاج نفسي ، بالاضافة إلى الظروف السياسية التي فرضـت عليه توقيع شروط كرزون في معاهدة لوزان .

* * *

وقد حاول الفرد كانتول سميث الدفاع عن مصطفى كمال ، ووصفه بأنه أراد

أن يتخلص من قيود علماء الدين ، وأنه ظل مسلماً . وكل الوقائع تكذب هذا القول . سواء في حياة المجتمع العامة أو في حياته الخاصة ، وأن في دفعه الفتيات إلى المراقص ، ومخاصرة الرجال ، وتحريضهن على الفسق لا يمكن أن يكون هادفاً إلى التخلص من جمود العلماء ، وليس ما تخلصت منه تركيا هو (الخرافة والجمود) على حد تعبير سميث ، وإنما هو التخلص من جوهر الاسلام نفسه ، وليس صحيحاً ما ذهب إليه سميث من أن الأتراك في عهد أتاتورك « لم يكونوا مجرد مقلدين بشكل سطحي . بل مساهمين في هذه المدنية الغربية الحديثة ، وخاصة في إعادة تشكيل بيتهم » . والواقع أنهم لم يتخذوا أسلوباً تطورياً في النهضة . بل نقلوا كل ما في أوربا من فساد المجتمعات ، أو القوانين التي لا تنطبق على البيئات الاسلامية ، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق خطوة واحدة إلى المشاركة في أي عمل حضاري أو علمي أو تكنولوجي يشاركون به الغرب في مجال الحضارة والعلم الحقيقين . فهم لم يصبحوا سادة مصيرهم . بل أصبحوا عبيد تقليد آخر . خلصوا من تقليد إلى تقليد ، وخرجوا من نظام مجتمعهم ، ليس إلى تطور . بل إلى تغيير انقلابي خطير . نعم . كانت هناك خصومة واضحة ، وحقد دفين ، وثمن باهظ في مقابل هذا الاجراء . ويرى لويس ف توماس : أن القومية التركية هي نزعة عاطفية أكثر منها حقيقة علمية ، وأنها ليست في الواقع سوى تقليد للقومية الغربية في كثير من وجوهها .

ويعلق (عجاج نويهض) على انتقاض تركيا على الاسلام ، ويربط بينها وبين إيران وأفغانستان ، ويتساءل هل هناك شعوبية على الثقافة الاسلامية ويقول : إن الاصلاحات في تركيا تقع موقع القبول في طهران ، كما تأثر بها أمان الله خان في أفغان . وأن لكل شعب من الشعوب التركية والايرانية والأفغانية مزاجاً من أقوى مقوماته : العناصر المستمدة من طبيعة الاقليم وشكل الحياة العامة ، وأن الثقافة في القرون الاسلامية الثلاثة الأخيرة كانت قد اكتسحتها العوامل العنصرية ، وأضعفت آثار الروح الاسلامية .

ويتساءل هل العوامل العنصرية الآرية والمغولية هي المكونة لمزاج هذه الشعوب . ويجيب بأن هذا غير صحيح . لأن الثقافة الاسلامية موجودة وحوداً

حقيقياً في كل هذه الشعوب . لأن الروح الاسلامية التي غمرت قلوب الأمم الاسلامية منذ ثلاثة عشر قرناً لم تزل إلى اليوم روحاً أصيلة بأوسع المعاني مهما قيل من ان الاسلام لم يتغلب على الروح العنصرية في كل من هذه الأمم . ومهما قيل ان هذه الأمم ذات خصائص نفسية يختلف بعضها عن بعض . ومهما قيل من ان الفرس منحدرون من الأصل الآري ، والترك من الأصل المغولي . فإن أوربا على اختلاف عناصرها ولغاتها لا تزال مستظلة بظل ثقافة واحدة هي الثقافة المسيحية .

ويقول : إن العراك الواقع (إذ ذاك) بين السلطات والقوة العسكرية في أنقرة وطهران وكابل ، إنما هو عراك بين أفراد قلائل يريدون انتزاع شيء من قرارة نفسية الأمة . أي من النواميس الاجتماعية التي لا تحارب ولا تعاند ولا تحول قهراً . وان هذه المحاولة تهدف إلى خلق روح المباعدة عن أصول الثقافة الاسلامية والانفصال عن العرب فكرياً . ويصل الكاتب إلى القول بأن برنامج « أنقرة ـ طهران ـ كابل » هو برنامج التقصي عن الثقافة العربية الاسلامية . فهم يودون إحياء نفسية جديدة في الأمة بانتزاع نفسيتها الراهنة ـ ا هـ .

***

ومن حق أن مصطفى كمال كان واحداً من جيل استطاع النفوذ الغربي تكوينه في العالم الاسلامي فحمل لواء الدعوة إلى التماس طوالعه ومناهجه ، وحاول أن يتخلص من نفوذ أوربا السياسي بالخضوع لنفوذها الثقافي والاجتماعي . ولسنا نستطيع أن نجحد ما قام به أتاتورك في سبيل تحرير بلاده من اليونان ، ولكن من الحق أن يقال إنه لم يستطع تحريرها من العبودية للنفوذ الأجنبي ، فقد أصبحت به تركيا تابعة تبعية كاملة لأوربا ، كأنما هي ربيبتها . وقد كادت بذلك أن تفقد كيانها الذاتي كأمة مسلمة لها طبيعتها التي لا تستطيع أن تفصل بين الدين والمجتمع .

وقد بلغ الأمر بمصطفى كمال في اتجاهه هذا أن يقول : ليس لتركيا الجديدة علاقة بالدين . أو يقال عنه في الصحف المصرية التي كانت تبتهج بتعصر يحاته مثل جريدة السياسة : انه ـ أي مصطفى كمال ـ ألقى القرآن ذات يوم من يده وقال :

إن ارتقاء الشعوب لا يصلح أن يتقيد بقواعد وقوانين سنت في العصور الغابرة ، أو ينقل عنه قوله « إن حكومة الجمهورية أرادت أن يكون محو النفوذ الديني من الشؤون العامة كاملاً » . ويمكن أن يقارن هذا بموقف مصطفى كمال في أول الحرب الأناضولية عندما أمسك بالقرآن وحرض الناس على الجهاد في سبيل إقراره .

وقد هلل الغرب لخطوات مصطفى كمال وأيدها وألفت عنه عشرات الكتب ، بل مئاتها تمجد جرأته ، وخطواته القوية في سبيل القضاء على الاسلام حتى لتقول جريدة الطان (نقلا) عن السياسة الأسبوعية في ١٥/ ١/ ١٩٢٧ .

« لقد نبذت تركيا الاسلام كنظام وكأساس للسياسة والعدالة ، ونظم التربية . ذلك لأن الاسلام الجمهوري ـ إذا أمكن وصف الاسلام كذلك ـ لم يبق بعد مذهب الدولة العثمانية . فقد حل محل الدين القديم . إن أول أثر للثورة الكمالية في الدين هو حمل الناس على كسر أصفاد هذه الضلالات والأساطير . لقد اختفت الصلوات من المعاهد العامة ، وقلما تغص المساجد اليوم إلا أيام الأعياد ، أو في رمضان ، وقد طلبت بعض الصحف أن توضع في المساجد مقاعد كما هو الشأن في غيرها من المعابد المحدثة . وانتقد بعضها عدم وجود موسيقى دينية تحل محل قراءة القرآن والأذان . إن الاسلام الجمهوري ليس إلا تقليداً ظاهراً للعقلية والمناهج الأوربية .

***

والحق أن مصطفى كمال قد بلغ أقصى الشوط في مواجهة الماضي . واتخذ اتجاهاً معاكساً ومضاداً تماماً لمفهوم الاسلام نفسه . ولو كان قد توقف عند مهاجمة الدولة العثمانية ، أو الخطأ الذي ارتكبه الخلفاء في فهم الاسلام . لكان من حقه ذلك . ولكنه انتقض لاعلى الخلافة أو الدولة العثمانية . بل على الاسلام نفسه . فندد رجاله بالقرآن ، وسفهوا القيم الأساسية للاسلام ، وفي مقدمتها : الرابطة الجذرية بين الاسلام والمجتمع . أو الدين والدولة . وقد وجد النفوذ الأوربي في هذه الحركة قوة له ، وتجربة وضعها أمام مختلف دول العالم الاسلامي ظناً منه أن كل هذه الدول ستجري في نفس الشوط ، ولكن هذه التجربة نفسها كانت عاملا

هاماً في شجب هذا الاتجاه أساساً ، ولم تلبث أن كشفت . بل لقد كشفت في حياة أتاتورك نفسه ـ عن فشلها ، لولا أساليب القمع الشديدة والاعدام بالجملة ، والنفوذ الدكتاتوري المؤيد بالقوانين العسكرية . ولم نكد تمضي سنوات قليلة حتى حطم الأتراك تماثيله في كل مكان ، وهاجموا اتجاهه ، وانبعث الاسلام من قلب تركيا ، واضطرت الحكومة والأحزاب إلى الاعتراف بالدين ، وبالأحرى بالاسلام كقوة أساسية لها قيمتها ومكانها وفاعليتها في المجتمع التركي المسلم .

ـ ٣ ـ

التحول

هل صمدت تجربة مصطفى كمال للبقاء وهل استطاعت أن تدمر الاسلام في أعماق الأمة التركية والعالم الاسلامي ؟

من حق ان يقال أن الغازي ظل ساهراً على تجربته خمسة عشر عاماً بقوة السلطة وسلاح الدكتاتور العسكري المستبد ، غير أن نتائج التجربة في حركة مضادة لم تنتظر هذه الفترة لتكشف عن نفسها ـ بل انها حاولت ذلك مرات متعددة في حياة الغازي وحكمه ، وهي تعرف مدى الخطر الذي يواجهها أو النتائج المترتبة عليها ، ولكنها كان لا بد أن تعبر عن مقاومتها للنظام الذي فرض واقعاً ضد طبيعة الأشياء مخالفاً لمختلف القيم التاريخية والأوضاع الاجتماعية . كان لا بد لهذا النظام الذي لا يقوم على الجذور أو التطور الطبيعي أن يواجه انتفاضاً عليه مرة ومرة . ومنذ اليوم الأول وإلى اليوم الأخير فإن الاجراءات التي حاول مصطفى كمال فرضها لم تجد تقبلا صحيحاً من الشعب التركي ، ولم تجد صدى طيباً في العالم الاسلامي ، بل قوبلت هذه الاجراءات بالانتقاد الشديد والاستياء المزمن بأغلب الزمر والجماعات في تركيا[١] .

وقبل مرور عام على إلغاء الخلافة وقعت الثورة الكردية (شباط ١٩٢٥) مطالبة بإعادة الاسلام ، يقول كرافشوفسكي : (اتهم النقاد مصطفى كمال بأنه كان ثملا بخمرة الحكم ، ونددوا بالأوباش الحقيرين الذين أحاط بهم نفسه ، واستنكروا حلقات السكر التي كانت تعقد في منزله الكائن في خفايا من أرباض أنقرة ، كما طالبوا بالحد من سلطته . وقد عمد إلى القضاء على المعارضة ، فأعلنت وزارته في صيف ١٩٢٦ اكتشاف مؤامرة لاغتياله ، وبادرت إلى اعتقال عدد لا يستهان به من شبان الأتراك السياسيين ومؤيدي السلطان المخلوع وبعض

---

١ ـ الشرق الاوسط (. . كراتشفسكي)

المارقين من حزب مصطفى كمال نفسه وحكم على ١٨ من الذين اعتقلوا بالاعدام وفرضت عقوبة النفي على الجنرال كاظم قرة بكير (وهو الرجل الذي كان له الدور الفعلي في انتصار تركيا في معركة سقاريا مع اليونان) . . وسحق مصطفى كمال المعارضة وأصبح وحزبه سادة البلاد بلا منازع .

ولم تتوقف المعارضة ، وظهرت حركات أخرى تعلن رفض الشعب التركي لنظام مصطفى كمال وإجراءاته ، وكانت هذه المعارضة تقابل بالقمع العنيف ، وفي عام ١٩٣٢ قضى على مجموعة كبرى بلغت أكثر من ١٥٠ من أعلام الفكر ورجال الدولة في تركيا بالاعدام بحجة مقاومة الثورة الكمالية . وكان الغازي قد ظن أنه ثبت دعائم حركته فسمح بإنشاء حزب جديد ، فلم يلبث هذا الحزب أن ضم كل خصوم النظام القائم ، وبدأت معارضة واضحة لآرائه واتجاهاته حمل لواءها حزب النقشبندية وأدت إلى صدام مسلح دفعه إلى إعادة ضم قبضته مرة أخرى .

ولم يقف أمام الغازي رجال الصوفية أو علماء الاسلام وحدهم . بل كشف المثقفون أيضاً عن موقفهم وعلى رأسهم دكتور فؤاد كوبرلي زاده مدير جامعة القسطنطينية الذي كتب في جريدة (حيات) التركية عام ١٩٢٨ وكان ذلك على أثر توغل حركات التبشير في المدن التركية . قال : ليس معنى حادث مدينة بروصة الخاص بانسلاخ الفتيات التركيات الأربع عن الجامعة الاسلامية والتحاقهن بالجامعة النصرانية بتأثير الدعاية النصرانية التي تقوم بها المدارس الأمريكية في بلادنا وحدها . ولكن الذي أعان على تنصيرهن عامل آخر عظيم الخطر ، وإن كان خطره غير ظاهر للأبصار هو انحلال رابطتنا القومية منذ حين ، وبلوغنا في ذلك إلى غاية أصبحت في حكم الواقع ، ان من مظاهر انحلال قوميتنا سواء اعتقادنا بثقافتنا ، والدعاية التي نقوم بها للانسلاخ منها ، والتنازل عنها ، لنذوب في ثقافة الغرب متجردين من شخصيتنا القومية وتقاليدنا الأهلية . ومن المؤسف أن القائلين بتقمص الشخصية الافرنجية يدعون إلى ذلك باسم القومية ويلبسون لباسها المزيف . إن تركيا تعاني الآن أزمة يصح أن نسميها (أزمة الثقافة) إن اختلال التوازن بين ما نحن في حاجة إليه من التجديد ، وبين ما

يدعونا إليه المجددون من نظريات فكرية ، قد نشأ عنه مرض في التجديد . ومن أعراض هذا المرض تهافت أنصار التفرنج على الدعوة إلى التجديد الظاهري في الأشكال والانخداع بالتغيير المقصور على القشور ، ومن أبرع مظاهر هذا الانخداع بالظواهر ما يحاوله القائمون بالدعوة إلى ترك الكتابة بالحروف العربية والاستعاضة عنها بالحروف اللاتينية ، إننا ننسلخ الآن من المدنية الاسلامية لنذوب في المدنية الأوربية ، فنواجه بهذا العمل خطراً عظيماً . وأظهر سجية نشاهدها في أدعياء التجديد استخفافهم بثقافتهم القومية ، وإنكارهم ماضي أمتهم ، وقيامهم بالدعاية لثقافة أجنبية عنا . من شأنها أن تجعلنا في حكم الأمم المغلوبة على أمرها الخاضعة لأنظمة الاستعمار ، بينما الأمة التي تريد أن تكون أمة عصرية حقاً تحتفظ قبل كل شيء بثقافتها وكيانها ليكون لها بين الأمم شخصية قوية ، فعلى أمتنا أن تربأ بنفسها أن تذوب في المدنية الأوربية . إننا لم نأخذ من حضارة أوربا إلا القشور بل أخذنا القشور المخدرة التي انسلخنا بها من سجايانا وخصائصنا ، فنحن على خطر أن نذوب في الافرنج ، فنصبح أمة ممسوخة كهذه الأمم التي أصيبت بمرض الاستعمار ، وسنفقد شخصيتنا القومية ، ثم لا نظفر من حضارة أوربا إلا بسفاسفها » . اهـ .

وقد وجدت هذه المعارضة الوسيلة إلى إزالتها بالقمع ومواصلة الدعوة إلى « الأمجاد » التي حققتها حركة الغازي .

***

وقد رافقت هذا الموقف مؤازرة كاملة من الصحف الغربية ، وتأييد شامل لاجراءات مصطفى كمال ، وكان ذلك طبيعياً من ناحيتين ، من ناحية تأييد هذه الخطة لما كان لنجاحها من أثر بعيد في تركيز ودعم النفوذ الأجنبي ، والتغريب في العالم الاسلامي والبلاد العربية بحسبان أن كبرى دول الاسلام ومعقل الخلافة والباب العالي ، ودار السعادة التي كانت متّجه المسلمين ومصدر التوجيه لهم سياسياً واجتماعياً طوال القرون الماضية ، هي نفسها اليوم التي تحاول أن تقود حركة التغريب . وكانت الصحف المصرية التي تتصل بحركة التغريب وفي مقدمتها الأهرام والسياسة والمقطم تؤازر الحركة ، وتحاول أن تفسر للناس هذه

الاجراءات على أنها ليست هجوماً على الدين ، ولكن تنحية له عن التفاعل في المجتمع : تقول السياسة ٣/ ١/ ١٩٢٦ : « إن الجنوح عن المعتقدات والتقاليد القديمة هي أهم ما يميز الثورة الاجتماعية التركية ، والصبغة المدنية الحرة من كل أثر للدين ، هي أهم ما يقصد به قادة الاصلاح في أنقرة ، هم لا يريدون أن يمسوا الدين في شيء ، غير أنهم يريدون أن يحرروا نظم الحياة الاجتماعية من المؤثرات الدينية » . وكان التباهي عظيماً بأنه « لأول مرة تعدل دولة إسلامية عن تطبيق الشريعة الاسلامية في مسائل الزواج والميراث ، فتقضي بإلغاء تعدد الزوجات وبالتسوية في الميراث بين الذكر والأنثى واعتبار الزواج عقداً مدنياً محضاً » وترى جريدة الطان الفرنسية ٢٣/ ٣/ ١٩٢٦ أن إنساناً لم يجرؤ حتى يومنا هذا أن يناقش الشريعة في مسألة : زواج مسلمة من غير مسلم . وهي حين تؤيد ما جاء بالقانون التركي الجديد ، من أنه يجيز زواج مسلمة من غير مسلم ، لا تلبث أن ترى مدى الأثر العكسي ، لذلك في محيط الأمة التركية والعالم الاسلامي كله فتقول « لا ريب أن أخلاق البلاد لا تجيزه حتى اليوم . ذلك لأنه برغم الجمهورية ومبتدعاتها ما زالت سريرة المسلم تأبى فكرة تمتع كافر بابنته او بأخته ، والظاهر أن سواد الأمة التركية ما زال متشدداً في تلك المسألة . فإذا كان التشريع الجديد بالنسبة للزواج المختلط خروجاً تاماً على الماضي . فإن هذا التغيير لا يشمل سوى النص ، ولا يصل إلى القلوب . ولا ريب أن القانون الأخلاقي لأمة من الأمم يؤثر في مصائرها بأشد مما يؤثر القانون الشرعي .

وهكذا منحت تركيا العالم الاسلامي تجربة مفتوحة لتطبيق القانون الأوربي الغربي وإحلاله محل الشريعة الاسلامية ، وأتاحت فرصة الكشف عن النتائج المترتبة على ذلك ، والذي تؤكده كل المصادر والأبحاث أن قوانين الغازي لم تكن في الحقيقة إلا حبراً على ورق ، وأنها لم تفعل أكثر مما يفعله صاحب السلطان القوي في محاولة رسم صورة غير منبثقة من أعماق الايمان الأصيل .

* * *

وقد وجدت الحركة التركية تأييداً من بعض الصحف في مصر ـ إذ ذاك ـ ولكنه تأييد معروف المصدر ، فالصحف في هذه الفترة كانت أجيرة لأكثر من نفوذ

ولكن كلمة حق كانت تتردد أحيانا ، فتكشف الحقائق كاملة ، فإذا جاءت من كاتب أتيح له أن يسافر إلى تركيا ، وأن يؤيد خطواتها فإن الأمر يكون جديراً بالاعتبار ، ويكشف الأستاذ محمد عبد الله عنان عام ١٩٢٨ (أي في معمعان الحركة) كيف صكت المعارضة الشديدة سمع الحركة التي قام بها الغازي فيقول : تناول الانقلاب أسس المجتمع القديم كله (سياسية واجتماعية وروحية واقتصادية) وظهرت بوادر المعارضة مع ذلك . ولم يتسع صدر الجمهورية التركية لصوت يرتفع بالنقد والمحاسبة ، وسرعان ما لجأت إلى التشريع الاستثنائي ، وقامت محكمة الاستقلال بحجة المحافظة على سلامة الجمهورية . وانتشرت أحكام الموت والأشغال الشاقة والسجن المؤبد هنا وهنالك حينما ظهرت بوادر المعارضة ، على أن إخماد هذه المعارضة في المهد ، لا يعني بأن هذه المعارضة ليست توجد اليوم في تركيا ، فهي قائمة ولكن في خفاء وصمت ، والرأي العام التركي لا يقبل دائما كل المشاريع الجديدة بنفس التأييد والحماسة ، وقد تناولت حكومة أنقرة بالمحو والتغيير كثيراً من الشؤون الدينية ، دعك من الفصل بين الدين والدولة ، وإلغاء الشريعة ، وإلغاء ما يتعلق بدين الدولة من دستور الجمهورية ، ولكن حكومة أنقرة أرادت أن تقوم بنبوة جديدة ، وأن تخلق من شعائر الأسلام خلقا جديداً ، فعهدت إلى لجنة من العلماء ، مما وصف بأنه اجتراء على شعائر الاسلام ، وقد أنكر الرأي العام آراء لجنة تريد أن تلغي فروض الصلاة ، فيؤدي المسلمون صلواتهم ، كما يؤدي النصارى قدسهم بغير الركوع والسجود ، وتغدو المساجد كنائس لا أقل ، فلما حدثت الضجة تراجعت الحكومة وحاولت إخماد الضجة ، ربما كانت خطوة أولى وتمهيداً لدعوة تشهر ضد الإسلام وتعاليمه وما زالت السيادة المطلقة تستند إلى القوة القاهرة . فالقوة هي عماد الثورة التركية ، بل إن قواعد النظم التركية الجديدة ذاتها ، والأساليب التي اختيرت لتنفيذ هذه النظم يجعل من الصعب علينا أن نجد لها مكانا بين النظم البرلمانية . بل النظم الحرة على الاطلاق ، حيث تمزج السلطات الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية في الجمعية الوطنية التي تقوم على قواعد غير تلك التي تأخذ بها كل البلاد الدستورية ، تتولى بيدها فوق سلطة التشريع سلطة التنفيذ ، فتختار الوزراء وتعينهم ، ومنها وإليها يرجع القضاء ، فتنشيء محاكم

الاستقلال متى أرادت ، وينتخب رئيس الجمهورية ، حزب واحد ، هو حزب الشعب أو حزب الغازي ، وهو كل شيء في الجمعية ، وخارج الجمعية يدفع رجاله إلى جميع كراسي الجمعية ، ولا يسمح لسواهم بدخولها ، ويلجأ لذلك إلى كل الوسائل .

ولم يكن نظام أنقرة إلا دكتاتورية عسكرية مقنعة تعمل باسم الشعب التركي ، وقد استطاع دعاة التجديد أن يسبغوا على المجتمع التركي العتيق كل مظاهر المجتمعات الغربية : ثورة الثياب ، وتعلم الرقص وكتابة الحروف اللاتينية ، وما يستطيع التشريع العنيف أن ينتزع في بضعة الأعوام طبائع كونتها ورعتها القرون ، والتاريخ يعلمنا أن للشعوب خواص جنسية وأخلاقية لا يمكن محوها بضربة واحدة ، ولا يغيرها سوى تطور الأجيال . لقد ظهر الشعب التركي في مهاد العقلية والتقاليد الشرقية ، وخرج من أقفاص القفار الآسيوية مزوداً بخواص الجنس الآسيوي ، أو بالأحرى المغولي ، وانفق الشعب التركي عصور المجد والانحلال كلها شعباً تركيا متمسكا بخواصه وتقاليده ، ولم يندمج في المجتمع الغربي رغم أنه نفذ إلى أوربا واستقر في شرقها عصوراً . فهل يستطيع سادة انقرة أن ينزعوا بتشريع الأشهر ذاك الثوب الخالد ؟ اهـ .

وقد تنبه الدكتور هيكل في أغسطس ١٩١٧ إلى مفهوم الانقلاب القائم بالحكم العسكري الصارم ، وليس بإرادة أهله ولا باقتناعهم فقال : إن أمراً يلفت النظر في هذه النهضة التركية ، ويدفع إلى التساؤل عن مبلغ ثباتها ، وعدم تعرضها لرد فعل يعود بتركيا إلى ما كانت . ذلك أن هذه النهضة تبدو وكأنها ليست أثراً محتوما لتطور طبيعي ، وأنها مصنوعة على يد مصطفى كمال وأصحابه الذين فرضوها على تركيا عن طريق التشريع وألزموها الأخذ بها بقوة القانون ، وبما وراء القانون من الجندي وسيفه ومدفعه . فإذا حدث لسبب من الأسباب أن جاءت حكومة غير هذه الحكومة ، وألغت هذه القوانين ، ابتهج الناس أيما ابتهاج بالعودة إلى سيرتهم الأولى . « ولم يجد هذا الإصلاح من يؤيده وينصره » .

ولسبب بسيط يجهل الدكتور هيكل أن الذين أقاموا هذه الحركة سوف يحمونها طويلاً حتى تؤكد الغاية التي ذهبوا إليها ، والتي ستظل ضرورة لبقاء نفوذهم في

العالم الإسلامي .

وقد ذهب حكام أنقرة إلى القضاء على مختلف صور الإسلام في البلاد ، بل انهم أسلموا جامع أيا صوفيا إلى بعض المهندسين الأجانب لإعادته إلى صورته الأولى ، فأزالوا ما فيه من آيات قرآنية وأحاديث ، وكشفوا عما ستره المسلمون من صور القديسين والملائكة والصلبان ونحوها من نقوش المسيحية ، ولم يكن ذلك في نظر كثير من الباحثين والمعلقين « إلا إنقاذاً للمنهاج الذي وضعوه ، وأنهم إنما فعلوا ذلك تقربا إلى أوربا النصرانية التي التزموا محاكاتها في كل شيء » .

وكانت هذه الأعمال تدفع إلى مزيد من حركات المعارضة والانفجارات التي كانت تقمع بشدة ولكنها لم تكن تنتهي حتى كانت تعود مرة ثانية إلى الاختفاء في أعماق الأمة منتظرة فرصة أخرى لتعلن عن نفسها .

وقد جرت في العالم العربي تساؤلات كثيرة في ظل الدعاية التي بثها أولياء النفوذ الغربي ودعاة التغريب حول ما إذا كان على البلاد العربية ومصر بالذات أن تقتفي أثر تركيا . وكان الرأي العام الاسلامي قد بدأ يتطلع إلى مصر بعد أحداث تركيا بحسبانها قلب العالم الإسلامي ، وليتخذ منها « مركزاً لحركة الجامعة الثقافية الإسلامية العامة » كما كان يطلق عليها حيث « لم يزل العالم العربي الأسيوي الإفريقي من أعالي الموصل إلى غربي مراكش ينظر إلى مصر نظرة المهتدي المسترشد ، ويهتم بها ويعطف بكل جوارحه على نهضتها السياسية ، ويقرأ ثمرات مطابعها وصحفها . كل هذا اعتقاداً أن مصر هي أحسن معقل للاسلام ، وأحرز حرز للشرع الحنيف » . وقد تناول في الاجابة عن هذا التساؤل عدد كبير من المفكرين العرب في مصر وسوريا وتونس . أما الدكتور عبد الرحمن شهبندر فيقول : إن الأمة الحية هي كالشجرة الناضرة لها جذور في الأرض من تراث الآباء والجدود ، ونحن مهما كرهنا الجمود وسئمنا التعفن والركود . فلا نريد بوجه من الوجوه أن نجاري القومندة العسكرية في تركيا ، فنقطع هذه الجذور ، ونعرض الشجرة كلها لليبوسة والذبول ، وإنا مع أنصار الإصلاح الاجتماعي والتجديد الصحيح على أنواعه ، ولكنا من أعداء قطع الاتصال بالماضي فنحن أبناء السلف ، وآباء الخلف ، وأصولنا ثابتة في الأرض ،

وفروعنا باسقة في السماء . ويرى فريد وجدي « أن محاولة الاقتداء بالأمم لا تنتج أثرا محموداً . لأن كل ما في الأمم هو : ثمرات نفسياتها فإذا انساق المجتمع الطالب للاقتداء في مظهر من مظاهرها . وأراد تحقيقه أعوزته العوامل . ويرى الأمير مصطفى الشهابي أنه من حيث الدين ، فقد غلا الترك فخلقوا قومية لا دينية ، ومنعوا تدريس العلوم في المدارس الرسمية ، وتتبعوا خُطَا البلاشفة تقريباً . ومن البديهي أن الشرق العربي لا يمكنه أن يسير في هذا الطريق . لأن القومية العربية والدين الإسلامي يمشيان جنبا إلى جنب ، ولو اقتصرت أعمال الترك في هذا الباب على إصلاح بعض التكايا والزوايا والفرق الدينية لكان في تلك الأعمال نفع لا ينكره العقلاء . أما الكفر والزندقة والمناداة في المجالس الخاصة بعبادة الذئب ، فجهالات يأسف لها عدد كبير من الترك أنفسهم » ووصف عبد العزيز الثعالبي الحركة الكمالية بأنها « ليست نهضة شعبية بالمعنى الصحيح يمكن أن تستهوي أخيلة النقاد الاجتماعيين وتستغرق مقاييس الفقهاء المشرعين . بل هي نزوة ديكتاتورية في أزمة مستقلة أنهكتها أنواع الحروب الداخلية والخارجية » .

***

هذا وقد صدقت توقعات الباحثين جميعا الذين أجمعوا على أن هذه الحركة هي من صنع رجل واحد ، وأنها تشق طريقها ضد التيار ، وأنها لم تلبث ان تسقط بسقوطه ، ذلك أنه ما كاد الغازي يصاب بانفجار في المخ ويختفي من الواجهة عام ١٩٣٩ حتى أخذت السفينة تتحول تدريجيا عن مجراها المنحرف وتتجه شطر الاسلام بتأثير مبادئه الراسخ في قلوب الشعب . وتوالت منذ ذلك الوقت حركات التراجع عن الخطوات العصبية التي ضاقت بها ، وإذا كانت هذه الحركة قد أمضت ربع قرن ، ثم لم تجد لها إحساسا بالأصالة أو الاستقرار . فإن ذلك يعني بحق أنها لم تكن أصيلة المجرى ، ولا متجهة إلى الطريق الصحيح .

وقد زار محمد التابعي تركيا عام ١٩٤٦ بعد وفاة الغازي بسبع سنوات ، فلم يجد عبارة يصف بها المجتمع التركي الذي خلفته حركة مصطفى كمال أبلغ من هذه العبارة : « تركيا تعاني آلام المخاض » . يقول : « ما زالت تركيا وبعد ربع

قرن من حكمها الجديد تعاني آلام المخاض ، لأنها لم تلد بعد مولودها الجديد الذي مناها به ، أو منى نفسه به باعث نهضتها أتاتورك « مصطفى كمال » . لقد ألغى أتاتورك بجرة قلم السلطنة ومن بعدها الخلافة ، وفي فجر أحد أيام ١٩٢٤ تسلل آخر خلفاء آل عثمان عبد المجيد من قصر ضولمة بغجة على ضفاف البسفور ، ومن ورائه أحد الأغوات المخلصين يحمل في يده حقيبة متوسطة الحجم ، وتوالت بعدها قوانين وأوامر الغازي أتاتورك » .

والتاريخ وحده هو الذي سيحكم . هل أصاب أتاتورك أو أخطأ في تقدير الحساب ، ألغيت الخلافة ثم فرق بين الدين والدولة ، ثم حورب أو على الأقل - نوهض الدين الإسلامي ، فألغت الحكومة الأوقاف الخيرية وصادرت أملاكها وأموالها وأموال صناديق النذور وأضرحة أولياء الله ، ثم جعلت الزواج عقداً مدنيا صرفا لافضل للدين فيه ، ولا للمأذون ، وجاز بعدها للتركية المسلمة أن تتزوج برجل من أي دين من الأديان ، وأصدر أتاتورك منشوراً أهاب فيه بنساء تركيا أن يخلعن الحجاب ، وأن يسفرن لدى العالم وجوههن ، وأسفرت نساء تركيا .

واتجهت تركيا إلى أوروبا ، وسنت من القوانين والنظم ما يكفل جعل تركيا الحديثة قطعة من أوربا لا جغرافيا فقط . بل معنويا ونفسانيا ، فاستبدلت الحروف التركية الأصل بالحروف اللاتينية ، وحورب كل شيء عربي شرقي ، أو من أصل عربي شرقي ، ووضعت مكان بك وباشا (مسيو ومستر) إلى هذا الحد في الاغراق في الأوروبية أو بالأحرى على سنة الغرب ، سار الأتراك ، والآن بعد نحو ربع قرن يتساءل الباحث :

هل المرأة التركية سافرة أم محجبة ؟ لا هذا ولا ذاك .

أما في المدن فالمرأة سافرة ، أما في الأناضول ، في القرى ، في سفوح الجبال وبطون الأودية فلا تزال كما كانت على عهد السلاطين ، ويحيط برأسها ووجهها قناع من الشاش الأبيض أو الأسود ، هل تركيا اليوم مسلمة أو مسيحية أو ملحدة ؟ لا هذا ولا ذاك . وتستطيع أن تقول إن شباب اليوم في تركيا لا دين له . أما شيوخه وفلاحوه فما زالوا مسلمين .

« واللغة والكتب والصحف تطبع بالحروف اللاتينية والمدارس تدرس بالحروف اللاتينية . بعد أن نبشت الكلمات التركية القديمة لتحل محل الكلمات العربية الدخيلة ، أما تركيا المدنية فهل هي ديمقراطية أو أوتوقراطية أو ديكتاتورية ؟ لا هذا ولا ذاك . ثم إن هناك معارضة أخذت تنمو وتشتد نلمس الآن في تركيا تبرماً ، ولعله نفساني معنوي أكثر منه ماديا ، والسبب عدم الاتساق وعدم الانسجام بين الماضي والحاضر ، وبين القديم والجديد ، فتركيا بعد أربع وعشرين عاماً لا تزال تعاني آلام المخاض لأنها لم تضع بعد مولودها الجديد » .

ولم تلبث أن توالت نذر التحول ففي عام ١٩٥٠ تزعم التيجانون حملة ضخمة ضد أتاتورك وأعماله ، وحطموا تماثيل « منشيء تركيا الحديثة » ووزعت نشرات تحض على معارضة سياسة أتاتورك ومحاصمة كثير من المبادىء التي يعتنقها رجال الحكم في تركيا . ثم تطورت الحوادث ، وعرف المراقبون أن شدة تدين الشعب التركي ما زالت ذات فاعلية ، وأن جماعة التيجانية ـ بعد جماعة النقشبندية ـ التي تولت قيادة الحركة هي : فرع من الطريقة الإسلامية الكبرى التي تنتظم أغلب العالم الإسلامي وعلى الأخص الجزائر .

وقد حاولت الدولة التركية أن تتمحل الأسباب لهذه الحركة المضادة ، ولكنها غفلت عن المصدر الأساسي لها . وقد علق عباس محمود العقاد على هذا التحول فقال : إنه يرجع إلى سبب أعمق من جميع الأسباب ، فهو مظهر من مظاهر الاحتجاج على حركة الفرنجة والاستغراب النى فرضها مصطفى كمال فرضا على الأمة التركية ، فالإجماع على هذه الحركة كامن في الوعي الباطن من أعماق الأمة التركية ، وقد اقترن ظهور التفرنج والاستغراب بظهور الحركة الطورانية في وقت واحد ، ولعل تفسير الحركة الطورانية بالاتجاه إلى الغرب ، هو أعجب تفسير عهده الناس لحركات الشعوب في العصر الحاضر ، وعير قليل منها مدسوس على الحركة عن قصد وتدبير ، وكانت مدينة سالونك كعبة الدعوة الطورانية ، أو كعبة المدرسة الفلسفية التي تبشر بها وتلتمس لها الذرائع في العلم واللغة ، وفي سالونيك يقيم (جوب الب) فيلسوف الحركة ، وسالونيك مدينة تغلب عليها الصهيونية ، واتباع شتياي زيفي الذين دخلوا في دين الإسلام وبقوا في عزلتهم

الدينية باسم الدونمة ليعملوا في البيئة التركية . وقال العقاد : « إن اتباع الطريقة التيجانية جادّون في إعادة الصبغة الإسلامية إلى الحكومة ، وإنهم ينقضون آثار مصطفى كمال فيحطمونها ، ومنها تماثيله في الميادين ، وانهم دخلوا ساحة المجلس الملي الكبير ، وأذنوا للصلاة باللغة العربية . وقالوا إن هزيمة حزب (مصطفى كمال ـ عصمت إينونو) ترجع إلى جهود هذه الجماعة وتضافر دعاتها على التشهير بذلك الحزب .

***

وليس كتّاب المسلمين والعرب في مختلف أقطارهم ، هم الذين عارضوا حركة الغازي فحسب ، ولكن المراقبين الغربيين المنصفين كانوا على ذلك الرأي . وفي مقدمتهم : فرنان ويليه الذي يرى « أن النفوس لم تكن مستعدة لمثل هذا الانقلاب الشامل ، لذلك كان مصطفى كمال كي يتمكن من فرض مشروعاته الإصلاحية مضطرا لأن يمارس حكماً ديكتاتوريا ثوريا حقيقيا طوال حياته ، وكان حزب واحد هو الحزب الجمهوري مسيطراً على الجمعية الوطنية ، وكانت السلطة التنفيذية تطغى على التشريعية ، وإذا نظرنا إلى مثل هذا النظام من الناحية الأخلاقية نجده مشوباً بلطخات مثل محاكمة الديمقراطيين والقمع الوحشي لثورة الأتراك » .

ويتساءل : هل خضع الديمقراطيون لحكم غابت فيه الحرية ، على الرغم من المحاكمات التي لفظت عام ١٩٢٦ أحكاماً بالإعدام والابعاد لعشر سنوات ؟

وقد كانت معارضة المفكرين المسلمين والعرب منصبة على أن الحركة التي قادها الغازي لم تكن هادفة إلى الثورة على مشايخ الطرق وحدهم ، ولو فعلت لما أنكر عليها أحد ـ على حد تعبير السيد : محب الدين الخطيب ، ولكنها كانت ثائرة على « العقيدة » نفسها ، تريد أن تقتلعها من الأمة التركية تدريجيا ، وكل حركاتها وسكناتها ترمي إلى ذلك . ومن الحق أن نقول : إن التغيير الذي أدخلته القوة في أوضاع تركية ، وهدمت به ركنا من الإسلام ، ليس فيه أدنى ضرورة ، ولا يقاس بما أجازه الأوربيون تحت قاسر الضرورة والواقع أن أوربا لها أن تستن من القوانين ما تشاء ، وهي بهذه القوانين لا تكون مخالفة للإنجيل ، لأنه لا يضم

شيئا من أمور المعاملات المدنية ، هذا بخلاف القرآن الذي شرع الدين والدنيا معاً . فلا يقاس أحدهما بالآخر .

وليس ما أخذت به تركيا جديداً . فإن القوانين الأوربية وفي مقدمتها القانون السويسري الذي أخذت به تركيا مأخوذ من القانون الروماني ، ومن الاصطلاحات التي أقرتها الكنيسة وكلها قديم في قديم ، وهذا هو وجه الخلاف . وهذ هو ما يرضي أوربا ويجعلها تقف موقف الدفاع والتأييد لحركة الغازي .

وبعد : فإن الروح الإسلامية تجددت مرة أخرى في تركيا ، وانتقل الزمام ١٩٥٠ من يد حزب مصطفى كمال ، وسمحت السلطات الجديدة للمسلمين الأتراك بالأذان باللغة العربية ، واستعمال اللغة العربية قراءة وكتابة .

ويحق تساؤل المؤرخ « توينبي » الذي شك منذ اللحظة الأولى في جدوى حركة الغازي حين قال : « علينا أن نسأل أنفسنا ما سيكون مآل إدخال هذا المثل السياسي الغربي ذي العاطفة الضيقة في عالم إسلامي تقضي تقاليده السالفة باعتبار كل المسلمين أخوة بسبب دينهم المشترك رغم مرونة العصر واللغة والمنبت ؟ » .

وقد اتسعت فعلا تلك الحرية التي تعمل على مقاومة روح التغريب السائدة في تركيا ، والعود إلى تعاليم الإسلام . ذلك أن وباء التغريب لم يصب إلا المدن الكبرى والطبقات العالية ، التي أخذت تقاوم حركة العودة إلى الإسلام وتعتبرها رجعية . وقد أكدت هذه النقطة العجيبة على أن الحركة التي قادها مصطفى كمال كانت طفرة ، وكانت ضد طبائع الأشياء ، فالعالم الإسلامي متقبل ومرحب للتطور والحركة والنهضة والأخذ من الحضارة الغربية ما يدفعه إلى القوة والحياة ، ولكنه يلفظ كل حركة تحاول أن تخرجه عن مقوماته

* * *

لقد تحولت الصورة على نحو مثير ، كشف عنه كثير من الكتاب الذين زاروا تركيا ـ وهذا تقرير محمد حسين هيكل عام ١٩٤٩ . « لم أشهد قوة الإيمان

بالدين في بلد شرقي إسلامي ، كما شهدته في تركيا ، وربما كان سبب التعصب هو محاربة الحكومة التركية له ، بكل الطرق ، وليس هناك بلد شرقي إسلامي لا يذكر أهله القرآن إلا بقولهم « حضرة قرآن كريم » إذا سمعوا القرآن في أجهزة الراديو أطفأوا السجائر ، وخلعوا الأحذية ، وتربعوا على مفاعدهم . هذا كله برغم الحواجز والعراقيل والحرب التي أعلنت على الدين حتى فرضت الحكومة أن يردد الأذان للصلاة باللغة التركية ـ يقول المؤذن « الله أكبر » باللغة (Tanra uludur) العربية وبالحروف اللاتبنية ، والخطيب يلبس القبعة ويدخل بها المسجد ، ثم يخلعها ويضع عمامة ، والمقاومة السلبية التي قام بها الشعب التركي لهذه السياسة مقاومة بديعة رائعة ، لا تدخل بيتا في تركيا حتى تجد المصحف موضوعا في أعلى مكان فيه ، ولا تركب سيارة تاكسي يملكها مسلم أو يقودها حتى تجد آية قرآنية بخط عربي جميل ، ولا تدخل متجراً حتى تقابل نفس الشيء ، ولا تدخل مسجداً في استامبول (وفي استامبول ألف مسجد) حتى تجد الحلقات غاصة بالمصلين .

ثم بدأت المقاومة تأخذ شكلا عمليا ، وكان خطباء المساجد يصعدون إلى المنابر ويبدأون الحديث . فإذا كل ما يقولونه ينصب على حكومتهم ووصفها بأنها حكومة كفار ، وبدأت روح التذمر . وإذا بمنشورات دينية توزع في الطرق ، ثم رأت الحكومة أنه من الخير أن تسمح بإصدار المجلات الدينية ، فبدأت ست عشرة مجلة دينية تظهر ، وبدأ الاكتتاب لبناء مسجد . وفي أوساط الفلاحين في الأناضول : سلطان الدين هو السلطان .

معظم الناس حتى الآن لا يستعملون الحروف اللاتينية ، بل العربية ، بها يكتبون ، وبها يقرأون حتى الأطفال الذين لا يزيد عمرهم على خمس سنوات .

وفي أنقره تجد بيوتا كثيرة تنتظر موعد إذاعة القرآن من محطة إذاعة القاهرة ، وتجد حلقة كبيرة منعقدة حول الجهاز الذي ينبعث منه القرآن خافتا مرتعشاً بتأثير ضعف محطة القاهرة .

ونوع آخر من المقاومة : ذهب أحد المسلمين إلى المحلس الوطني يوم انعقاده ، وفجأة من شرفة الزوار نهض أحدهم وصاح مؤذنا باللغة العربية بأعلى صوته ،

وهجم الحرس يلقون القبض عليه ، فنهض زميله ليكمل الأذان ، وألقي القبض عليه ، فاندفعت طائفة أخرى فأكملت الأذان .

وفي اليوم التالي شهدت شوارع استامبول منظراً فريداً ، حيث ذهب عدد كبير من أئمة المساجد والخطباء والمؤذنين ، وكان كل منهم يبحث عن جندي بوليس يعثر عليه فيقف أمامه ويصيح : « الله أكبر » وتكرر المنظر في يوم واحد خمسين مرة ، وقدمت الحكومة الذين أذنوا إلى المحاكمة والسجن أربعين يوما . أما هذا العدد الاكبر من الناقمين فأحيلوا إلى مستشفى المجاذيب . ورأت الحكومة أن الحالة ستطول وتتحول إلى حركة خطيرة . فتقدم بعض النواب بمشروع لإدخال التعليم الديني اختياريا في المدارس الابتدائية .

وكانت قد طمست بعض الآيات القرآنية باللغة العربية الباقية على بعض المستشفيات من عهد السلاطين فغادت ورفعت الطمس ، وأظهرت الآيات ، وجدّدتها بماء الذهب . وكانت قد أغلقت قبور الاولياء ، حتى نوافدها سدت بألواح عريضة من الخشب ، فعادت أخيرا ، وفتحت النوافذ . جاء هذا بعد أن ظهر جيلان أو ثلاثة أجيال على درجة مخيفة من الإلحاد .

إن الهوة التي تفصل الاجيال القديمة والاجيال الجديدة الملحدة هوة سحيقة ، وهي من أعقد مشاكل تركيا ، ومسجد أيا صوفيا في تركيا تحول إلى كنيسة . . لقد جاءت الثورة التركية وقررت الحكومة أن لا يصبح مسجداً ولا كنسية . بل يصبح متحفاً ، لا تقام فيه الصلوات ، وكانت تغطي جدرانه الايات القرآنية بالذهب . وقد تبارى السلاطين في إهدائه المنابر ، ثم تقدمت جماعة أمريكية وقالت : إن متحف أيا صوفيا يخفي تحت الآيات القرآنية وتحت نقوشه الإسلامية آثاراً بيزنطية نادرة قديمة ، وأنها على استعداد للكشف عن هذه الآثار ، ووافقت حكومة تركيا فأزالت النقوش الإسلامية والآيات القرآنية ، وظهرت صورة تمثل أحد الاباطرة البيزنطيين يحمل في يده الصليب وفوقه مباشرة الآيات القرآنية . وبعض أهالي تركيا المتدينين يقبلون على زيارة أيا صوفيا ليتنسموا العهد القديم ، وبعضهم يحلو له أن يصلي الجمعة خلسة في هذا المتحف الغريب الذي تحول إلى كنيسة . فإن البعثة الامريكية أزالت نصف المعالم الاسلامية في مسجد أيا صوفيا لتظهر الاثار البيزنطية لدرجة أن مدخل المسجد القديم أزيل ما كان عليه من

آيات قرآنية فظهرت تحتها صورة للعذراء المقدسة فوقها مباشرة الآية الكريمة « إنما يعمر مساجد الله » ولا يحتاج الزائر إلى حدة بصر غير عادية ليرى الدموع في مآقيهم أسًى وحسرة على المسجد الشهير في تاريخ الإسلام الذي تحول الى كنيسة في ظل حكومة تحكم شعبا كاملا من المسلمين . أ هـ .

***

ويقول ناصر الدين النشاشيبي إنه في عام ١٩٥٠ جرت المفاجأة ، فإذا بحزب أتاتورك « حزب الشعب » يكاد يدفن تحت الرماد ، فلا يفوز بأكثر من ٦٩ مقعداً ، بينما فاز الديمقراطي بأكثر من ٤٠٨ مقاعد ـ لقد جاء الحزب الديمقراطي إلى الحكم من باب الدين ، من أصوات المؤذنين في الجوامع .

لقد سقط حزب أتاتورك بعد أن ظل يحكم منذ عام ١٩٢٢ ، ولكن يبدو أن النفوذ الغربي قد أزعجه هذا التحول ، فاتهم الحزب الديمقراطي بالتمرد على العلمانية وعلى تعاليم الجمهورية التركية ، ولكن ردّ الفعل الإسلامي استمر زمناً .

يقول (كراتشكوفسكي) في كتابه : الشرق الأوسط : كم كان رد الفعل الديني قويا . إن رد الفعل هذا كان يمثل من حيث النوعية ، نواة صلبة من أناس غير مسالمين نزروا أنفسهم للمبدأ ، وعزموا على شنّ حرب لا هوادة فيها من أجل تحقيق أهدافهم ، مع أنهم أقلية من الناس ، لقد شهدت الخمسينات في سني هذا القرن انتعاشا واسع النطاق في الطرق الدينية مثل الطرق التيجانية .

وبديع الزمان والبكاتشية والنقشبندية والقادرية والمنظمات الميالة للإسلام مثل : الحزب الديمقراطي الإسلامي ، وحزب النهوض الوطني ، وجماعة بيوك طوفو ، هذه الجماعات تعتنق فلسفة جزئية في ميلها إلى الإسلام ، وتمارس في بعض الاوقات تدمير الاثار ، وعلى الاخص تماثيل أتاتورك . وقد كان الإقبال على الحزب الديمقراطي في تقدير (كراتشوفسكي) أنه يرجع إلى أنه دعا إلى إدخال الدين في المدارس ، وإذاعة القرآن في الراديو بالعربية ، وتكويش جناح إسلامي بين أعضائه ، وفي عام ١٩٥١ تقدم بعدة مطالب أهمها نبذ الحروف اللاتينية ، وإعادة استعمال الاحكام الشرعية الإسلامية . غير أن محاكمة جرت لاعضاء هذا الحزب ، وصدرت قوانين صارمة تحمي ذكرى الغازي ومنع اتخاذ الدين وسيلة

للاغراض السياسية ، وأعلن قادة الحزب أنهم يوافقون على جميع المظاهر الدالة على احترام الإسلام ، ولكنهم ما زالوا يعارصون الاحكام الشرعية . ا هـ .

غير أن الخطوات التي اتخذت منذ ١٩٤٦ واتسعت فيما بعد بإعادة التربية الدينية ، وفتح مدارس لتخريج أئمة وخطباء للمساحد ، وفتح كلة اصول الدين في جامعة أنقره ، لم يلبث أن حقق نتائج في خلال العشرين عاما التالية ، فقد برزت الحركة الإسلامية ، واشتد عودها ، واستطاعت أن تخرج جيلا من الدعاة إلى الإسلام ، وأن توجد قاعدة عريضة ضخمة من جماهير الشعب التركي المسلم المؤمن بأن الإسلام دين ونظام ومجتمع ، وأنه لا يستقيم أمر تركيا إلا بالعودة إلى الإسلام من جديد ، وقد تمكنت الحركة الإسلامية من أن تبرز خلال السنوات القليلة الماضية كحركة لها وزنها ووجودها بالنسبة للمجتمع التركي .

وقد وجهت جريدة بوكون (اليوم) التركية عام ١٩٦٨ نداء تطالب فبه المسلمين أن يقيموا صلاة الصبح بصورة مجتمعة . وقد تحقق هذا عندما « اتجهت جموع المسلمين التي تقدر بآلاف في إشراقة الفجر في هدوء كامل ينسجم مع عظمة الموقف إلى أكثر جوامع استامبول حيث زحف خمسون ألف شخص ليقيموا أكبر صلاة شهدتها تركيا منذ خمسين سنة » ويقول المعلقون إن هذه الصلاة كانت جزءاً من سلاح قوي تستخدمه الحركة الإسلامية لضرب القوى الإلحادية ، والمنحرفة في تركيا . وكان لها رد فعل بين عناصر اليهود والماسون والملاحدة مما حمل بعضهم على التهديد بنسف مسجد انقره . وقد انفحرت عدة قنابل فعلا لكنها لم تخرج أي مصلّ من الصلاة ، وانصرف المسلمون بدون صجة .

(٣)
إيران : الشيعة ومقاومة النفوذ الأجنبي
(١)

ما تزال « إيران » تمثل ثقلاً هاماً وخطيراً في خريطة العالم الإسلامي وتركيبه ، باعتبارها أحد العنصرين الكبيرين الذي تشكل منهما بناء الإسلام في مرحلته الأولى ، وأحد الأجناس الخمسة الكبرى ، العرب ، والفرس ، والترك ، والبربر ، والزنوج ، يتشكل منهم عالم الإسلام . وما تزال منذ العصر الإسلامي الأول تمثل قطاعاً له طابعه بحكم سيطرة اللغة الفارسية ، واستمرارها وبقائها إلى جوار اللغة العربية ودون الانصهار فيها أغلب اللغات في هذه المرحلة ، وإن كانت اللغة الفارسية الجديدة بعد الإسلام قد كتبت بالحروف العربية .

والمعروف أن الإسلام قضى على نفوذ الدولة الساسانية وقوض[١] العرش الكسروي . غير أن فارس ظلت تقاوم انصهارها في العرب ، ثم استطاعت في ظل الدولة العباسية أن تصبغ الحضارة والفكر بطابعها ، وأن تزيد نفوذها وتدعمه . فقد قامت الدعوة العباسية في خراسان بزعامة أبي مسلم الخراساني ، وأقامت عرشها في خراسان ، ثم كان من علو أمر البرامكة في ظل الرشيد ، مما انتهى بالقضاء عليهم . وكان انتصار المأمون على الأمين تركيزاً للطابع الفارسي وضعفاً للعنصر العربي ، ثم تقلص هذا النفوذ في عهد المعتصم الذي استعان بالأتراك . وقد أقام الفرس عديداً من الدول : الصفارية والسامانية والبويهية .

وفي ظل فارس تمت الدعوة إلى آل البيت ، وكونت قطاعا من المعارضة

١ ـ راجع كتابنا (الاسلام وحركة التاريخ)

للقيادة السياسية الإسلامية . ومنذ قتل الإمام علي ، وقتل الحسين من بعده في موقعة كربلاء أخذت دعوة آل البيت تتسع وتعمق .

وبرز مفهوم الشيعة المعارضين لنظام الحكم ، وانصوى تحت اسمهم عدد من الفرق الغالية ، غير أن الإمامية الاثني عشرية ظلت أقرب إلى مفهوم الإمامة العلوية .

وفي إبان غزو التتار للعالم الإسلامي سيطر المغول على إيران ، ثم تركوها نهباً للولاة إلى أن قامت الدولة الصفوية ١٤٩٩ م . واستمرت إلى ١٧٣٦ م . وكانت إحدى الدول الإسلامية الثلاث : العثمانية في تركيا ، والمغولية في الهند . وقد وقع الصراع بين العثمانيين والصفويين عهداً طويلاً . وكان هذا الصراع عاملا من عوامل الشقاق الذي فرض نفسه على المسلمين : بين السنة والشيعة .

كان الشاه إسماعيل الصفوي قد تبنى مذهب الشيعة ، وكان السلطان سليم يناصر السنة ، ومن هنا فقد أصبح الخلاف بين إيران وتركيا ، صراعاً بين المذهبين .

وقد غزا السلطان سليم إيران ١٥١٤ . وهزم الإيرانيين ودخل السلطان سليم تبريز حاضرة إيران . ووالى الأتراك غزو إيران وارتدوا عنها ، ولكنهم تركوا في النفوس خصومة وصراعاً بعيدي المدى، وقد أفاد النفوذ الاستعماري الغربي الزاحف على العالم الإسلامي بهذا الصراع فاتصل البريطانيون بالشاه عباس (١٥٨٧ - ١٩٢٩) ووسعوا نفوذهم داخل إيران ، وكان لهذه الصلات أثرها في تأريث الخلافات بين فارس وتركيا حتى لا تلتقي الجبهة الإسلامية على وحدة واحدة .

ومن ثم عاود السلطان مراد الرابع ١٦٣٥ زحفه على أزربيجان وملك تبريز وقصد إلى بغداد ليسترجعها من الإيرانيين فأخذوها عنوة وظلت العراق في يد العثمانيين منذ ١٦٣٨ حتى استولى عليها اخيراً الإنجليز ١٩٢٠ م .

ثم سقطت إيران تحت حكم الأفغان وعادت مرة إلى حكم أبنائها . فقامت

فيها دول الافشار حتى ١٧٥٠ والدولة الزيدية إلى ١٧٤٩ والدولة القاجارية التي حكمت ١٧٩٤ إلى ١٩٢٥ حيث أحدث رضا خان انقلابه العسكري ، واستولى على حكم إيران .

وقد وقع في هذه المرحلة التدخل المزدوج من الروس والانجليزي في شؤون إيران ، وظل الصراع بين النفوذين مستمرا . وقد وقع حكام إيران تحت نفوذ بريطانيا . وحاول جمال الدين الأفغاني في عهد ناصر الدين شاه (١٨٤٨ - ١٨٩٦) أن يصدر الدستور فرفض الشاه أن يقبل الحريات التي وضعها للشعب ، واختلف معه ، فترك البلاد ، ولقد ظل يناوىء ناصر الدين ويحرض عليه حتى قتل في أول مايو ١٨٩٦ . وكانت الحركة الوطنية في إيران قد تأججت ١٨٩٠ حين منح الشاه شركة انجليزية حق احتكار تجارة التبغ مقابل نصيب من أرباحها ، فأفتى العلماء بتحريم التبغ ، وأضرب الأهالي عن التدخين ، فاضطر ناصر الدين شاه إلى إلغائه ، بعد أن دفع نصف مليون من الجنيهات تعويضا للشركة ، ثم تأججت الثورة الفارسية ١٩٠٤ - ١٩٠٥ . للمطالبة بحكومة دستورية تقيد سلطة الشاه ، وكانت أول ثورة على النظام الاستبدادي في الشرق ، واضطر الشاه إلى إعطاء الشعب الحكم الدستوري - ١٥/ ٨/ ١٩٠٦ - وأعلن الدستور ٣٠ كانون أول ١٩٠٦ . غير أن روسيا وانجلترا لم تلبثا أن اتفقتا فيما بينهما ١٩٠٧ على تقسيم إيران إلى منطقتي نفوذ تجاري ، حيث عقدت بريطانيا مع روسيا الاتفاق الودي الثلاثي باقتسام مناطق النفوذ في إيران ، حيث أصبح القسم الشمالي منها خاضعا لنفوذ القيصر ، والقسم الجنوبي في نفوذ بريطانيا . ولم يبق إلا جزء صغير ينحصر في طهران وما حولها . ووقعت على أثر هذا « الثورة الإيرانية ١٩٠٨ » في مواجهة الثورة الدستورية في تركيا . وقررت خلع الشاه محمد علي ، وتولية الشاه أحمد بوصاية الأمير عصر الملك ، وأعيد الحكم الدستوري . وقد استمر التنافس بين النفوذين الروسي والانجليزي حتى فبراير ١٩١٨ . حين رحلت القوات الروسية عن شمال إيران ، واستطاع الإنجليز الوصول إلى بحر قزوين ، والسيطرة على إيران كلها . وثم بدأ نفوذهم منذ ١٩١٨ يزداد قوة ، حتى استطاعت بريطانيا عقد معاهدة ١٩١٩ التي اصبحت البلاد بموجبها تحت

الحماية البريطانية . غير أن الروس أخذوا في مراجعة بريطانيا من جديد ، حين توغلت قواتهم في شمال إيران ، وكانت ذلك مقدمة لحركة في الجيش الإيراني بزعامة رضاخان ، وقيادة ضياء الدين طباطبا أشهر كتاب إيران لإنقاذ البلاد من النفوذ الأجنبي . وقد اتسعت هذه الحركة حتى استطاعت خلع أسرة قاجار عام ١٩٢٥ ، وبذا بدأت إيران الحديثة حيث حكم رضا خان (١٩٢٦ - ١٩٤١) . وقد استطاع النظام الجديد أن يقوم بكثير من أعمال الاصلاحات ، وفي مقدمتها موقفه من شركة البترول الانجليزية التي تسيطر على استغلال البلاد . إذ ألقى امتيازها عام ١٩٣٢ واضطرها إلى قبول شروط جديدة إذ ألغي الامتيازات الأجنبية (مايو ١٩٢٨) .

(٢)

استطاع النفوذ الأجنبي الزاحف على العالم الإسلامي أن يوسع شقة الخلاف بين الدولتين الكبيرتين في القرن التاسع الهجري (الدولة الصفوية الفارسية) و (الدولة العثمانية) وأن يقوي مركز بريطانيا على فارس فى مواجهة الدولة العثمانية . ومن ثم اتسع النفوذ الأجنبي في فارس ، وبدأ التدخل واضحاً من كلا الجانبين : روسيا القيصرية وبريطانيا فى الميدانين السياسى والاقتصادى .

وفي ظل هذا النفوذ أدخلت إيران النظم العسكرية الأوربية على جبشها . وأنشأ ناصر الدين الدين شاه أكاديمية العلوم والفنون ١٨٥٢ على أساس أوربي ، وكان أساتذتها من الأوربيين الذين يعلمون علم الغرب وثقافته وتاريخه ، وقد ترجموا إلى الفارسية كثيراً من الكتب في هذه العلوم ، وظلت هذه الأكاديمية مركزاً لثقافة الغرب وعلومه حتى القرن العشرين ، وفتح الفرنسيون والأمريكان والبريطانيون ، ثم الروس والالمان ، فيما بعد مدارس حملت مظاهر النفوذ العسكري لهذه الدول وتوزع عليها ولاء الإيرانبين ، ويرى بعض المؤرخين أن بداية ظهور النفوذ الأجنبي بإيران كان إبان حكم الشاه فتح علي شاه (١٧٩٨ - ١٨٣٤) ممثلا في بريطانيا والروس - حيث كانت بريطانيا تسعى إلى بسط نفوذها على إيران خوفا من نفاذ الخطر الروسي والفرنسي إلى الهند .

***

ويمكن أن يقال إن البترول كان أخطر العوامل التي أحاطت فارس بهذا التزاحم والصراع ، وقد بدأ ذلك عندما عقد وليم دارسي (١٩٠١) مع الشاه مظهر الدين امتيازاً لاستغلال البترول (٦٠ عاما) مقابل عشرين ألف جنيه

انجليزي تدفع نقداً ، وحصة ضئيلة من محصول الشركة المستقلة تبلغ ١٦ في المائة من أرباحها كل عام . وقد بدأت مع هذه الامتيازات قصة الصراع الكبرى بين الدول على هذا الامتياز ، حيث استطاع الراهب روزنيلوم أن يحصل عليه من دارسي لحساب بريطانيا عن طريق تلك المؤامرة الرهيبة ، وقد تبين ان هذا الراهب، وهو جاسوس يهودى (سكرنـي ريللي) . كان يعمل في دائرة المخابرات ، وكانت الدائرة قد عهدت إليه بالحصول على امتياز دارسي لشركة نفط بورما التي كانت تمدها إمارة البحر البريطانية بالعون ، والتي سميت في نفس العام ١٩٠٨ شركة النفط الانجليزية الفارسية .

ومنذ ذلك التاريخ والبترول هو العامل الهام والخطير الذي يحرك الأحداث في إيران ، فقد تدخلت بريطانيا لتحول دون وقوع صفقة البترول الإيراني في أيد غير بريطانية ، حيث استطاعت تموين الأسطول البريطاني العامل في الباسفيك وبحار الصين ، والمحيط الهندي والبحر الأبيض . وفي عبادان : بنت أكبر مصفاة : لتكرير البترول في العالم بالإضافة إلى مكانتها الاستراتيجية على خطوط المواصلات بين الشرق والغرب ، وجاءت الحرب العالمية الأولى فكان إنتاج مصفاة عبادان ٢٧٠ الف طن من البترول ، زادت عام ١٩١٨ إلى تسعمائة الف طن . وبعد الحرب العالمية الأولى ، أصبحت إيران الدولة الرابعة في إنتاج البترول في العالم والدولة الثانية المصدرة للبترول بين دول العالم . وفي عام ١٩٥١ حيث قامت أكبر ثورة من أجل تأميم البترول ، كانت الآبار في عبادان تنتج اثنين وثلاثين مليونا من أطنان البترول . وفي ظل نفوذ البترول إبان الحرب العالمية الأولى وقع شاه إيران معاهدة تمثل الحماية البريطانية المقنعة، حيت تعهدت بريطانيا بتنظيم الجيش الايراني ، ومنح إيران ما يلزمها من المال . غير أن الحلفاء لم يلبثوا أن احتلوها ، ثم اتفقوا على اقتسام أسهم شركات البترول في إيران والعراق بين فرنسا وأمريكا وبريطانيا بحظوظ متعادلة .

وتجدد الحديث حول البترول عندما تولى رضا خان أمر إيران ، وبعد أن أنهى حكم أسرة قاجار عام ١٩٢٥ . حيث جرت المفاوضات لتعديل اتفاقية

البترول المجحفة بحقوق الشعب الايراني . وحيث عقدت اتفاقية جديدة تفضل اتفاقية ١٩٠١ في بعض الوجوه ثدفع الشركة فيها ٢٠ في المائة ولكنها تجدد الاتفاق ٦٠ عاما اخرى الى ١٩٩٣ .

ويمثل بترول إيران المركز الاستراتيجي الأول للإمبراطورية البريطانية وللأسطول البريطاني ، والأمريكي في الحرب العالمية الثانية . وكان الأمل معقوداً للجيوش وأسلحة الطيران على مصانع التكرير في عبادان . وكانت إيران صاحبة الفضل الأول في انتصار الحلفاء ؛ غير أن رضا شاه لم يلبث أن استعان بالخبراء الألمان ، وعقد معاهدات تجارية مع ألمانيا الهتلرية فحجب نفوذها نفوذ بريطانيا وروسيا ، وظل يحجبه حتى اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية ، فكان عاملا من عوامل عزل بريطانيا والحلفاء للشاه إفساحاً لجيوشها باحتلال إيران لسلامة وصول الامدادات إلى الجبهات الروسية . بعد أن رفض رضا شاه انذارهما ، احتلت بريطانيا وروسيا البلاد في أيام معدودات ، (١٩٤١) بعد عشرين عاماً من حكم دكتاتوري حقق بعض الأعمال العظيمة ، وكان الشاه في خلال أعوام حكمه العشرين ، قد تحول إلى مثل شاهات فاجار الذين تخلص منهم .

***

وفي ظل الاحتلال البريطاني اليقظ المتنبة إلى ما يريد ، عادت قوة القبائل لنفوذها ، حيث بتسليحها وإفسادها ، وإغداق الأعطيات عليها لاستخدامها في أغراض ، والضغط على القوى الوطنية وقت احتمت هذه القبائل بوجود الجيوش الأجنبية المحتلة ، والتي كانت تقوم بتسليحها. تقوم أغلب هذه القبائل قرب الحدود الإيرانية العراقية . أهمها : (قبائل البختياري) والقشقاي وفي الشمال وفي الشرق على محاذاة الحدود التركية الروسية ، والأفغانية والباكستانية . أولّت القوات البريطانية للقبائل الكردية والتركية المختلفة بحيث أصبحت قادرة على أن توجه الأحداث . وقد كان هذا التحدي استعداداً مسبقاً لذلك الشعور الجياش في أعماق أهل إيران الذين يملكون البترول الغزير المتدفق ، ويقاسون أشد حالات الفقر ، وسرعان ما برزت قوى ثلاث هي :

الحزب الإسلامي ، والكتلة الوطنية ، وحزب توده الشيوعي . تتصارع . والنفط هو القضية . وتصدر الدكتور محمد مصدق ، وآية الله كاشاني قيادة العمل في خطوة جريئة هي تاميم البترول ضد الشاه وبريطانيا .

ولا شك أن معركة النفط عام ١٩٥١ من أحداث العالم الإسلامي الكبرى بما آلت إليه من هزيمة للقوى الوطنية ، وانتصار للاستعمار ونفوذه ، وهي وان انتهت هذه النهاية ، فقد تركت بصماتها في أحداث الشرق كله ، وما تزال تفعل الكثير . ثم لم يلبث أن ظهر عامل جديد في الأمر . فبعد أن كان الصراع بين نفوذي بريطانيا وروسيا ، أصبح النفوذ ثلاثيا بين أمريكا وبريطانيا وروسيا .

وقد كشفت معركة تأميم البترول أن المفاهيم الاسلامية . والثقافة الاسلامية ما تزال عاملاً هاماً في الحركة الوطنية والسياسية . فقد قاد زعماء الشيعة حركة تاميم البترول بزعامة كاشاني . وكان رجال الكتلة الوطنية بقيادة الدكتور مصدق من أتباعهم . وقد ظل النصر معقوداً لهم ، حتى إذا وقع خلاف بين كاشاني ومصدق . بدأت كفة الاستعمار ترجح .

***

لمعت فكرة التأميم في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٤٧ حيث أصدر مجلس النواب الإيراني قراره برفض منح امتيازات جديدة لأي رأس مال أجنبي للبحث عن البترول في إيران ، وأضاف القرار العمل على مفاوضة شركة البترول الانجليزية ـ الإيرانية ـ لرفع نصيب إيران من بترولها إلى ٣٠ في المائة . غير أن لجنة البترول في مجلس النواب برئاسة الدكتور مصدق رئيس الكتلة الوطنية لم تلبث أن أصدرت قراراً مفاده أن خير عمل هو « تأميم البترول » وسقطت الوزارة ، وجاءت وزارة رزأم أراه الذي اتفق الانجلبز والأمريكان والشاه على أنه أقوى رجل في إيران لمواجهة الموقف .

وكان من رأي مصدق أن اتفاق رضا خان الذي عقده عام ١٩٣٣ باطل ، لانه وقع في عهد كمت فيه الحريات ، وليس للشركة سوى (اتفاق دارسي) الذي

ينتهي بعد عشر سنوات ، ولما كانت الشركة قد استهلكت خمس أسداس حقوقها ، فإنه لم يبق لها إلا السدس عن العشر سنوات القادمة ، ويمكن تعويضها عنه .

ولم يلبث رازم أراه في الحكم أكثر من أربعة شهور ، ثم دوت أربع رصاصات أردت رئيس الوزراء قتيلاً ، وقال قاتله (خليل طهمس) : نعم : قتلت رازم أراه ، ولم يكن لي شركاء في شرف قتل الخائن ، وأصدر نواب صفوي رئيس جمعية فدائيان إسلام بيانا قال فيه : إن البطل الذي قتل رازم أراه الخائن أدى واجبه ، وأصدر آية الله كاشاني الزعيم الروحي بيانا قال فيه : إن الرصاصات التي أردت رازم أراه قتيلا قد اكسبتنا معركة البترول وسيؤمم البترول رغم أنف الخائن المضرج بدمه ووجدوا في جيب القاتل ورقة مكتوب عليها (الجنة تحت ظلال السيوف) ورفض جميع أئمة المساجد في طهران أن يشتركوا في جنازة رئيس الوزراء . وأعادت الأحداث صورة جمال الدين الأفغاني والشاه ناصر الدين .

وقد عرف آية الله كاشاني بعدائه الشديد للإنجليز ، وكانت له سابقة في الجهاد خلال ثورة رشيد الكيلاني عام ١٩٤١ . وكان يملك السيطرة على أموال الشيعة الطائلة ، وله ولاء على الكتلة الوطنية التي تضم عشرة نواب في البرلمان . بعضهم تخرج من السربون برئاسة الدكتور مصدق .

وكان كاشاني يردد دائما صيحة واضحة : الإنجليز أضاعوا قرآننا ، وكان غلادستون يقول : لا طريق للإنجليز بين الأمم الإسلامية ما دام فيها القرآن ، ليخرج الإنجليز من كل بلد إسلامي .

ومضت الحركة خطوات في سبيل الهدف ، وحاولت بريطانيا أن توقف الثورة حين أعلنت أنها تدفع ٥٠ في المائة من الأرباح ، واضطرت بريطانيا لأن ترحل مواطنيها . غير أن النواب الذين ناصروا مصدق في مجلس النواب . سرعان ما انقلبوا عليه ، ورفضوا منحه الصلاحيات المطلقة لمدة ستة أشهر ، واضطر إلى الاستقالة ، ولم يستطع خلفه « قوام السلطة » واضطر الشاه إلى استدعاء مصدق مرة أخرى لتأليف الوزارة ، وانتخب آية الله كاشاني رئيسا لمجلس

النواب ، غير أن الخلاف ما لبث أن وقع بين الزعيمين الديني والسياسي .

فقد كان من رأي مصدق أن لا سبيل للإصلاح إلا بتنفيذ قانون الإصلاح الزراعي وتطهير الجيش ، وإعطاء خمس محصول الأراضي للفلاحين المستأجرين الفقراء . وعارض كاشاني هذا القرار ، واشتد الخلاف وبلغ درجة بعيدة من العنف والاتساع ، وكسب النفوذ الاستعماري الموقف ، واضطربت الوحدة الوطنية الإيرانية ، وضربت شركات البترول شعاراً حديداً من الحصار الاقتصادي على زيت إيران في الأسواق العالمية ، ورفضت أمريكا وروسيا شراء البترول ، أو توقيع اتفاقيات أو قروض معها ، ولم يستطع الدكتور مصدق أن يفعل شيئا بالرغم من إعلان خفض سعر البترول الإيراني إلى نصف سعره العالمي ، ولم تغن ثورة الذهب الأسود الإيرانية هذه البلاد شيئا في محنتها . بل ربما كانت عاملا هاما في إسقاط مصدق ، وإن استطاع أن يوازن بين الصادرات ، والواردات على نحو مذهل .

(٣)

لا شك كانت التحديات بين الدولة العثمانية والدولة الفارسية منذ القرن العاشر ، وتلك الحروب والغزوات المتصلة سببا في توسيع شقة الانقسام بين السّنة والشيعة التي ظلت آثارها حية وقائمة إلى أن استطاع الاستعمار الزاحف لتطويق عالم الاسلام الانتفاع بهذا الصراع ودعمه ، والتركيز عليه ، فقد آزرت بريطانيا فارس مؤازرة ضخمة في نفس الوقت الذي كانت تعمل فيه للقضاء على الدولة العثمانية . وفي خلال هذه المعركة عمقت طوابع الخلاف ، واتسعت الشقة بين السّنّيين والشيعيين ، وما زالت عراقيل هذا الخلاف باقية إلى اليوم ، بالرغم من المحاولات المتعددة للقضاء عليها ، وللاستعمار أثر لاشك في بقاء هذه الهوة للحيلولة دون وحدة العالم الاسلامي والتقائه في « رابطة تامة » . وقد أكد هذا المعنى كثير من الباحثين الشيعيين أنفسهم ، تقول مجلة العرفان :[١] « إن الفرقة بين السّنة والشيعة جاءت من الحكام الظلمة الذين لا يحكمون إلا إذا تعددت الكلمة وتفرق الشعب شيعا وأحزابا . ولما جاء الاستعمار عذى هذه الروح ، وعمل على تقويتها ، وقسم البلاد العربية ، وأقام بها الحدود والسدود ، وغذى الطائفيين ، فإذا أردنا أن نحمي الإسلام فعلينا أن نقضي على النفوذ الخارجي وأن نعرض الإسلام عرضا سليما بدون سنّة ولا شيعة .

ولا شك يحمل العثمانيون وزراً في تغذية هذا الخلاف . ولكن النفوذ الاستعماري كان من وراء تعميقه ، ولو ترك العثمانيون والفرس لأنفسهم لالتفوا على جامعة تجمعهم هي جامعة الاسلام وكلمة لا إله إلا الله .

وقد جرت في العصر الحديث محاولات لتصفية هذا الخلاف وما تزال ، وكان للأزهر دور كبير فيها . فقد حدثت لقاءات متعددة بين علماء السنة وعلماء الشيعة في مجالات مختلفة أهمها المؤتمرات الإسلامية الكبرى . وفي طليعة

---

١ - (١٩٥٨/٨/٢٩)

من دعي إلى تصفية هذا الخلاف : جمال الدين الأفغاني . جمال الدين القاسمي . سليم البشري ، محمد حسين آل كاشف الغطاء شيخ جامع النجف الأشرف . محسن الأمين . محسن الحكيم . ومن أشهر من نبه إلى قيمة الكنوز الدفينة في مذهبي الإمامية والزيدية : محمد أبو زهرة . الباقوري . السنهوري . شلتوت ، محمد المدني .

ومن الحق أن يقال إنه ليس بين السنة والشيعة من خلاف في الأصول العامة ، فهم جميعا أهل التوحيد . وإنما الخلاف في الفروع ، وهو خلاف يشبه ما بين مذاهب السّنة نفسها (الشافعية والحنفية) . فهم يدينون بأصول الدين ، كما وردت في القرآن الكريم والسّنة المطهرة ، كما يؤمنون بكل ما يجب الإيمان به . ومن الحق أن السّنة والشيعة هما مذهبان من مذاهب الإسلام يستمدان من كتاب الله وسنة رسوله ، وتتميز الشيعة بتقدير وافر لأهل البيت ، ولا يوجد في أهل السنة من ينكر فضل آل البيت ، ومصر معروفة بحب آل البيت .

ويحاول الشعوبية ودعاة التغريب دوماً إثارة الخلاف بين السنة والشيعة : فيقولون للشيعة إن السنة تنكر استحقاق « علي » للخلافة قبل أبي بكر ، ويقولون للسنة إن الشيعة تفضل علياً على أبي بكر وعمر ، ويقولون للشيعة إن أبا بكر منع ميراث السيدة فاطمة من أبيها . وقد ألّف أحد المستشرقين كتاباً باسم « فدك » في محاولة لإثارة شبهة عن الضيعة التي كانت تطالب بها السيدة فاطمة ، والتي احتج الخليفة أبو بكر في الاعتذار عنها بأن الأنبياء لا يورثون .

وقد أكد كثير من أعلام الشيعة على أن الغالية كالباطنية وغيرها ليست من الشيعة ، وأن الشيعة منها براء . وأن الشيعة لا تتهم ، وإنما توجه التهم إلى الفرق التي ادعت أنها باسمها ، وأن للشيعة أعلاماً عظماء خدموا الاسلام ، وكانوا من كبار رجاله أمثال : عماد بن ياسر وسلمان الفارسي والأحنف بن قيس وسعيد بن المسيب وابي الأسود الدؤلي والفرزدق والكميت وابن الرومي والبحتري ومهيار الديلمي وابن هانيء الأندلسي وأبي فراس الحمداني

الطفرائي والشريف الرضى[1] .

ولا شك أن الشيعي والعلوي والدرزي والاسماعيلي والسني كلهم منضوون تحت كلمة التوحيد ، وخلافهم في الفروع وحدها .. وهو خلاف لا يفرق ، وهم متفقون في الأصول يقرون بأن لا يحكم بالكفر على أحد من أهل القبيلة .

والشيعة الامامية أكثر فرق الشيعة عدداً وانتشاراً ، ويسمون الاثني عشرية ، ويبلغ الامامية سبعين مليوناً موزعون في العراق وأيران ، ومنها ٣٢ في الهند وباكستان و ١٠ ملايين في روسيا وتركستان وبخارى والأفغان ولبنان ، وبعضهم في سوريا والحجاز واليمن ، ومنهم مجموعات في الصين والتيبت والصومال وجاوه وتركيا والبحرين والكويت .

وقد بذل أعيان الشيعة جهداً واسعاً في سبيل تحرير الفقه الاسلامي من أغلاله ولهم اجتهادات دائمة لم تتوقف . وقد حاول المستشرقون ، وخاصة المستشرق رونلدس في كتابه (عقيدة الشيعة) إيقاع الفتنة بين المسلمين ، ودعم هذا الدس بشتى الأساليب . وقد دافع الامامية عما جاء في كتابه من اتهامهم بتحريف القرآن وإنكاره .

وقد دعا كثير من مجتهدي الشيعة ، وفي مقدمتهم العلامة : جواد مغنية إلى عدم التعصب لمذهب فقهي خاص . فإن ذلك تعصب للسياسة التى كانت وراء المذهب . وقال إن الشريعة لها أصول مقررة ، والخلاف والجدل بين المذاهب إنما حصل فيما تفرع عن تلك الأصول وما يستخرج منها .

وقال : إن في كتب الشيعة الامامية اجتهادات لا يعرفها أهل السنة ولو اطلعوا عليها لقويت ثقتهم بالشيعة ومفكريها . نقول : وذلك الشأن بالقياس إلى كتب السنة وعلماء الشيعة .

وجملة القول : إن محاولات الغزو الفكري والاستعمار العقلي والتغريب والشعوبية ما تزال تتدخل إلى حد كبير في توسيع شقة الخلاف بين أهل السنة وبين الشيعة ، وفي إذاعة الشبهات وترديدها وتجديدها في مختلف كتب

---

١ ـ راجع اعيان الشيعة ج١ص ـ ٤٦ .

الباحثين عملاً على تمزيق وحدة المسلمين وتعميق الخلافات الفرعية ، وتحويلها إلى خلافات جذرية ، والحيلولة دون الالتقاء[1] . وما يزال المذهب الجعفري هو المذهب الأساسي للفقه الشيعي .

---

١ ـ فصلنا القول حول هذا في بحثنا الخاص عن الشيعة في كتاب (الاسلام وحركة التاريخ)

- ٤ -

في هذا الضوء ينظر إلى حركة المقاومة للاستعمار التي حملت لواءها إيران ، فهي مرتبطة إلى حد كبير بالمفهوم الاسلامي الشيعي العنيد في مقاومة كل غزو ، والذي حمل دوماً لواء المقاومة للحكام المستبدين .

وقد تجلت هذه المقاومة في مواقف حاسمة .

(١) معركة التنباك . (٢) مقاومة الغزو البريطاني الفرنسي . (٣) مقاومة الاستبداد . (٤) حركة تأميم البترول .

***

ولقد استغلت القوى الاجنبية فرصة الخلاف بين تزكيا وإيران . فأيدت إيران تأييداً أفسح لها مجال النفوذ . فقد شرعت الارساليات الانجليزية والفرنسوية والأمريكية تتوافد إلى إيران منذ أواخر حكم ناصر الدين شاه وتفتح مدارسها في وجوه الايرانيين الذين ينتمون إلى الطبقات العليا والوسطى . وكانت الشركات الأجنبية قد حصلت على امتيازات اقتصادية عظيمة الشأن ، ولم يكن في وسع ناصر الدين ان يوقف هذا السيل الجارف من الاوروبيين الذين يحملون معهم الثقافة الغربية . وكان الشاه قد سمح للانجليز باحتكار صناعة التبغ فقاطع الاهالي الدخان ، وقام العلماء بحملة عنيفة اضطرته إلى أن يلغي الاحتكار (١٨٩٠) . ومن حق أن يقال إن الايرانيين اتجهوا إلى الجامعات الأوربية ١٨٦٥ تقريباً . وأن ذلك الاتجاه الباكر الذي حاول النفوذ الاسنعماري تأكده وتعميقه خلق حاجزاً ضخماً بين إيران وبين العالم الاسلامي وصبغها بصبغة التغريب من ناحية وحال بينها وبين الانصهار في المجموعة . غير أن ثبات علماء الشيعة المسلمين قد حفظ مفهوم الاسلام في مواجهة الغزو العربي سياسياً وعسكرياً وثقافياً ـ قادراً على الحياة . فكان عامل المقاومة في مختلف العصور ، وفي جميع حركات الثورة والمقاومة إسلامي الطابع .

وفي خلال العقود المتوالية من القرن العشرين جرى تحوّل كبير فيه مرونة والتقاء بالعالم الاسلامي بعد أن ظلت فارس تمثل شخصية مستقلة عن العالم الاسلامي بإعلاء مفهومها العقائدي ، ولكنها كانت عرضة لخطر النفوذ الغربي شأنها شأن مختلف أجزاء العالم الاسلامي ، بل لعل موقعها الخطير قد عرضها لنفوذ مزدوج وصراع متصل بينها وبين الروس في الشمال ، والبريطانيين في الجنوب ويرى كتاب الغرب ودعاة التغريب أن فارس كانت دوماً ذات طابع خاص بحسبانها مجموعة شيعية وسط الأغلبية السنية في أفغان والهند والمجموعات السنية في العراق ومصر وتركيا . وأن هذا الخلاف العقائدي قد شكل مع الزمن شعوراً قومياً كان دائماً موضع الصراع بين العرب والفرس ، وبين الفرس والترك من ناحية أخرى .

ولا شك كانت خطة الاستعمار واضحة منذ عاون عباس الأكبر (١٥٨٧) لانشاء جيش مسلح لمواجهة الأتراك ، وهي تستهدف السير في مخطط توسيع الخلاف وتعميقه بين إيران وتركيا ، وبين إيران والعرب كخطة يسعى الاستعمار دائماً إلى إبقائها واستمرارها . غير أن المسلمين الترك والعرب والفرس قد تنبهوا إلى هدف الاستعمار ، وحاولوا إحباطه . فقد تمت خطوات كثيرة في السنوات الأخيرة للتقارب والالتقاء على المستوى السياسي ، والمستوى الفكري أيضاً . عاشت إيران في العصر الحديث مدة طويلة تحت حكم آل قاجار امتدت ١٥٠ سنة حتى أسقط حكمهم رضا خان عام ١٩٢٠ وكان أهم آثار هذه الأسرة تقبل التدخل الأجنبي في الأمور الداخلية ، فقد كان الأجانب يسيرون مختلف أمور إيران ، وكان للنفوذ الأجنبي أكبر الأثر في ترسيخ أقدام رؤساء الاقطاع وتشجيعهم على العصيان والثورة .

وكان تدخل الانجليز في أمور إيران يتمثل في حجج مختلفة منها سياسة المحافظة والدفاع عن الهند . وقد انتهز الانجليز ضعف إيران خلال حكم أسرة قاجار ، فوسعوا نفوذهم في أطراف خليج فارس بحسبانه باب الهند ، وكانت سياسة إيران تضطرها إلى عدم التعرض لرواد البحار والسفن التابعة للدول الكبرى وتجارتها وبعثاتها الاستكشافية . فقد أعطت الحرية التامة لتجارة

الأجانب ، وعلى الأخص الانجليز الذين اكتسحوا الاسبانيين والبرتغاليين من طريقهم . وقد مكنت هذه السياسة بريطانيا من التلاعب في أمور إيران الاقتصادية والسياسية ، بفرض الامتيازات الهامة كالسكك الحديدية لجميع طرق إيران ١٨٨٩ . وامتياز تأسيس المصارف ١٩٠٧ . وامتياز التبغ والتباكو ١٩٠٨ . وكانت حكومة قاجار كحكومة إسماعيل في مصر مدينة مرهقة يحيطها النفوذ الأجنبي من مختلف أقطارها .

وقد وضع الاستعمار البريطاني الخطط لاثارة القبائل وتجهيز الطوائف المختلفة بالأسلحة وشد أزر الأمراء والشيوخ ، ومحاولة تقسيم إيران إلى ولايات ومناطق عشائرية . وكان اتصالها بأكبر القبائل والعشائر لاثارة الخلاف والارتباط مع الأجانب ، وكان ذلك جرياً على القاعدة البريطانية والاستعمارية التي تقول : « ان الوظيفة الكبرى للممثلين البريطانيين في البلاد الشرقية هي اضعاف الحكومات في كل شيء ، وبث التفرقة وتشجيع تعدد المذاهب والآراء والعقائد . ثم تأليب فئة على الأخرى ، وإشعال الحكومة والشعب على بعضهما بغية التدخل ، وسيطرة بريطانيا العظمى على تلك الدول » . غير ان العلماء الشيعيين المسلمين لم يتوقفوا عن العمل في سبيل مقاومة النفوذ الأجنبي . وكان جمال الدين الأفغاني قد قاوم استبداد « ناصر الدين شاه » وحاول أن يحقق لايران دستوراً يكفل للشعب حقوقه إزاء سلطات الشاه المطلقة فأخرج من إيران . ولكن لم يكد يعلن منح حق امتياز التمباك والدخان للمستر تالبوت في ٨ مارس ١٨٩٠ . وكانت مدة الامتياز خمسين سنة حتى كان هو نقطة الانتفاضة بعد أن أسرف الشاه في منح امتيازات مختلفة للشركات الأجنبية بعد ان منح البارون جولياس روتر حق إنشاء البنك الشاهاني ١٨٨٩ كما منحه حق استخراج جميع المعادن في إيران ورأت(١) الأمة الايرانية إسراف الشاه في منح الامتيازات للشركات الأجنبية ، فثارت ثائرتها ولم تطق بعد هذا صبراً . ورأت حكومة الشاه أن تخمد اتجاه الرأي العام ، فألقت

---

١ ـ مزيرا مهدي رفيع مشكي (السياسة الاسبوعية) ٣/ ١٣/ ١٩٢٧

القبض على زعماء الثائرين ـ وكان جمال الدين ـ الذي اقتاده جنود الشاه الى منطقة الحدود العثمانية ـ يعرف مااللحاج مرزا حسن شيرازي كبير العلماء من نفوذ عظيم . فأرسل إليه خطابه المشهور : « هذا يومك يا حجة الاسلام . فإن لم تسمع نداء القوم ، وإن لم تنهض لجمع شملهم ، وتوحد كلمتهم ، وتضم صفوفهم ، وترفع عنهم بقوة الشرع الذي أنت حاميه ظلم الظالمين فقل على ممالك الاسلام السلام . إن العلماء ينتظرون بفروغ صبر كلمتك ، وإن التاريخ ليرمق عن بعد سيرتك ، فماذا أنت قائل والسلام » .

وقد أصدر كبير المجتهدين من مقره في (سر من رأى) فتوى تحريم التمباك والدخان . « تلك الفتوى التي سرت مسرى الكهرباء في جميع البلدان . فأقفلت مخازن الدخان ، وأبى البائعون بيعه والشارون مشتراه . حتى لقد هشم رئيس خدم الشاه كل ما في القصر الملكي من نراجيل ، وأتلف ما فيه من دخان بدون أمر أو استئذان . وعند ما عنفه الشاه على فعلته . قائلا : وهل استأذنتم قبل الاقدام على ذلك ، أجاب بشجاعة وسكون : « لقد أمر الشرع فلا حاجة بنا إلى استئذان السلطان » .

وبرزت منذ تلك اللحظات حركة مقاومة للشاه ، تمثلت في اتحاد شامل وجمعيات وطنية ، وحاولت الحكومة أن تخفف من ضغط الأزمة ، فأعلنت أنها اتفقت مع شركة الاحتكار على ألا توظف في إدارتها أجنبياً ، ولكن إعلانها لم ينقص من حماسة الأمة ولم يزد النار إلا ضراماً . « فهاجم الشعب محلات الشركة في كل مكان ، ومزق إعلاناتها ، فأرسلت الحكومة خمسمائة فارس بقيادة سعد الدولة للقبض على السيد (كالمكير كلاروستي) أحد زعماء الثائرين فلم يتمكن الجنود من ذلك إلا بعد معركة شديدة قتل فيها ما يزيد على مائتي نفس من الأحرار .

« ونزل الشاه على إرادة الحكومة ، وأعلن أن الامتياز قد أصبح باطلاً ، ولكن حجة الاسلام أبى أن يرفع فتوى التحريم حتى يتأكد من بطلانه تماماً . وعلى ذلك استمر الشعب مقاطعاً ، فعز ذلك على ناصر الدين شاه ، فعمد إلى العنف وأرسل إنذاراً الى الحاج ميرزا حسن ميرزا اشتياني أحد كبار علماء طهران

يخيره فيه بين التدخين والنفي ففضل الخروج من بلدته على الخروج على أمته ، وزحفت الجماهير على قصر الشاه معلنة سخطها . وفي أواخر يناير ١٨٩٢ نالت الأمة ما أرادت فألغي الامتياز . وكانت مسألة التنباك فرصة لاعلان الثورة . فكانت على أشد ما تكون في عهد محمد علي شاه حفيد ناصر الدين الذي حاصر نواب الأمة في البرلمان ، ثم سلط عليه المدافع تدكه على من فيه .

وكان من نتيجة ذلك أن أقدم مرزا رضا كرماني تلميذ جمال الدين الأفغاني على اغتيال ناصر الدين شاه يوم الجمعة ١٨ ذي القعدة ١٣١٣ (١٨٩٦) في إبان الاحتفال بمرور خمسين عاماً على سلطة ناصر الدين شاه أثناء زيارته لمقام شاه عبد العظيم . وما حدث عام ١٨٩٢ شبيه بما حدث بعد ذلك سنة ١٩٥٢ من موقف علماء الشيعة في إيران في حركة تأميم النفط ودفعها إلى غايتها . هذه الحركة التي كانت ستؤتي أكلها ، لولا وقوع الخلاف بين الزعيمين : آية الله كاشاني ومحمد مصدق .

وقد ثارت إيران مرة أخرى عام ١٩٠٧ بعد توقيع المعاهدة الانجليزية الرسية التي اقتسمت إيران وأملت عليها شروطهما . ونظمت مخطط النفوذ الروسي والانجليزي ، وتقاسمت مناطق النفوذ (شمال إيران لروسيا وجنوبها لانجلترا) والمنطقة الوسطى محايدة . وهذه المعاهدة شبيهة بالاتفاق الودي الذي عقد بين فرنسا وانجلترا عام ١٩٠٤ باقتسام النفوذ بين بريطانيا في مصر ، وفرنسا في تونس .

وقد أيقظ هذا التنافس الروح الوطنية في البلاد للتخلس من النفوذ الأجنبي . وكانت هذه الثورة معاصرة لثورة ١٩٠٨ في تركيا التي أعلنت الدستور العثماني ، وقضت على حكم السلطان عبد الحميد ، وفتحت الطريق إلى نفوذ الاتحاديين .

غير أن نذر الحرب العالمية الأولى لم تلبث أن وسعت نفوذ الروس والانجليز معاً . فقد سارع الروس إلى احتلال تبريز ، وأرسل البريطانيون قوتهم إلى بوشير والمجرة باسم حماية امتيازات البترول .

ولا شك كان ظهور البترول في إيران ـ الذي حصل الراهب روزنيلوم على امتيازه عام ١٩٠١ ـ قد زاد من خطر النفوذ البريطاني في هذه المنطقة . وكان للبترول أهميته الكبرى في الحرب العالمية الأولى مما ساعد الحلفاء على قهر ألمانيا .

وقد ظلت إيران مسرحاً للقتال والفتن طوال مدة الحرب الأولى .

وفي عام ١٩١٩ تم توقيع اتفاق انجليزي إيراني مجحف ، مهد للثورة على الاستعمار حتى حدث انقلاب ٢١ فبراير ١٩٢١ بقيادة رضا شاه الذي دعا إلى طرد جميع العناصر الأجنبية من الجيش .

يقول جورج لنشوفسكي : إن إيران لم تعامل مطلقاً باعتبارها منطقة من مناطق التوسع الاستعماري . بل دولة فاصلة بين الهند وروسيا .

***

وقع الانقلاب الفارسي الذي قاده رضا شاه في نفس الوقت الذي وقع فيه الانقلاب التركي بقيادة مصطفى كمال . ولقد حاول رضا شاه أن يسير مسيرة مصطفى كمال ، ولكنه لم يجد الطريق ممهداً ، كانت قوة علماء المسلمين الشيعة عاملاً ضخماً في تحفظه : وقد أشار جورج لنشوفسكي في كتابه : الشرق الأوسط إلى أن نفوذ رجال الدين الشيعة . هو الذي أعطاه الحذر والتيقظ ، وأومأ إلى أن الدستور الايراني ١٩٠٧ كان ينص صراحة على أن الدين الرسمي هو الاسلام على المذهب الجعفري ، وكان على شاه إيران أن يعتنق هذا المذهب ، ويعمل على نشره ، كما كان يحظر على المجلس أن يصدق على أي تشريع ينافي مبادىء الاسلام ، وينص على استشارة الفقهاء في عملية التشريع ، والاستشارة ملزمة . لذلك لم يشعر الشاه أن في استطاعته أن يتحدى هذه النصوص كما أنه بدلاً من أن يشن هجوماً أمامياً في خططه الاصلاحية التجأ إلى طرق عدة ملتوية تحاشى فيها رجال الدين الشيعة وتجاهلهم دون أن يعمل على كبح جماحهم بصورة مباشرة .

وقد أشار لشوفسكي إلى الفارق بين رضا خان ومصطفى كمال . فقال إن شاه إيران نجح في الاصلاح والتحرر من النفوذ الأجنبي ، وإن كان لم يصل في

الأخذ بأسباب الغرب إلى ما بلغه أتاتورك وقال « ولا شك كانت مهمته أشق من مهمة أتاتورك . لأن بلاده كانت أكثر تأخراً ، ولأن ثقافته وشخصيته كانتا تختلفان عن ثقافة أتاتورك وشخصيته . ومن حق أن يقال إن رضا خان ومصطفى كمال وأمان الله كانوا في عصر واحد . هو : عصر ما بعد الحرب العالمية الأولى . وكان مصطفى كمال هو أجرأ هؤلاء جميعاً إلى الخطو نحو التغريب . وكان عمله يلقى دهشة كبرى ، بحسبان أن تركيا التي كانت (الدولة العثمانية ودولة الخلاقة) هي التي تقود في العالم الاسلامي حركة التغريب والانفصال عن القيم الاسلامية . وقد سار الثلاثة في خطوط مختلفة ، أما أتاتورك فقد استطاع أن يلغي كل مقومات الحياة الاجتماعية الاسلامية ويفرض نظاماً جديداً كان عرضة للانتقاض بين فترة وأخرى ، ولم يستقم طوال حياته ، ولا بعدها نظراً لخروجه عن طبيعة المجتمع الاسلامي الجذور ، أما أمان الله خان فقد عجز عن فهم مدى قدرة أمته على التغيير فانفصل عنها . أما رضا خان فقد استطاع أن يسير بخطوات بطيئة في سبيل تحقيق إدخال الأنظمة الحديثة فأدخل ١٩٢٧ النظام التشريعي الفرنسي ونظام التعليم الحديث ، وسار في تحرير المرأة سيرة بطيئة ، ولكنه حقق أمرين هامين هما : جعل التعليم إجبارياً ، وألغى الامتيازات الأجنبية .

ولا يخلو أمر الأنظمة المستوردة في العالم الاسلامي من أخطاء وتجاوزات ، وخاصة في إلغاء رضا خان التعليم الديني الالزامي في المدارس الابتدائية والثانوية ١٩٣٠ وتأكيد الناحية المدنية وحدها ، والتخلص من أرضية الفكر الاسلامي في مختلف مجالات الاقتصاد والاجتماع والسياسة والتربية . ·

(٤)
أفغانستان : مقاومة الاستبداد والاستعمار

تمثل أفغانستان طوابع الاسلام على نحو يكاد يكون أشد عمقاً من الهند وإيران وتركيا جميعاً ، ويتمثل ذلك في أمرين خطيرين :

(أولاً) مقاومة الاستعمار الغربي مقاومة حاسمة جبارة اندحرت فيها بريطانيا في ثلاث معارك كبرى امتدت على مدى ثمانين عاماً .

(ثانياً) : دحض الخطة التي حمل لواءها (أمان الله) في فرض الحضارة الغربية في مواجهة حركة (مصطفى كمال) في تركيا ، و (رضا خان) في إيران .

وقد أكد الباحثون والمؤرخون ان أفغانستان حين تلقت الاسلام آمنت به وتقمصته ووجدت فيه نفسها ، حيث عجزت المجوسية والبوذية والهندوكية أن تعطيها هذا الاحساس العميق بالله والتوحيد . يقول العلامة صلاح الدين السلجوقي « عندما دخل الاسلام الى أفغانستان ، لم يكن نوره غريباً عن مشاعرهم وإحساساتهم ، ولاسيما أن هناك اختلافات فكرية عميقة بين العقيدة الأوسطائية وبين الفكرتين البوذية والبرهمانية ، فلما دخل العرب الديار الأفغانية مبشرين بالاسلام استقبل الأفغانيون مقدمهم وأفكارهم التي تتعلق بالحياة بعد الموت أحسن استقبال .

ويدحض السلجوقي اتهامات الغرب في فرض الإسلام على الافغانيين يقول : يزعم الغربيون أن العرب دخلوا البلاد الافغانية عنوة وغصبا ، وهذا إفك مفترى على الحقيقة ، فنحن معاشر الافغانيين أحببنا العرب منذ ثلاثة عشر قرنا وافتديناهم بكل ما عندنا من فكرة وعقيدة ، لاننا رأينا لديهم مبادىء قويمة

لاءمت قلوبنا وضمائرنا وتراثنا . ولذلك فنحن لم نأخذ العقيدة التي أتوا بها إلينا فحسب . بل أخذنا لسانهم العربي المبين ، حتى القرن الرابع للهجرة كانت اللغة العربية هي اللسان الرسمي ، ولا تزال اللغة العربية حتى يومنا هذا لساننا الديني والعلمي ، وليس لدينا لغة علمية غير اللغة العربية . لقد فتح جنكيزخان (أفغانستان) عنوة وغصبا ، وبعد معارك عنيفة ومذابح دامية ، وكذلك دخل الانجليز البلاد ، وما لبث الافغانيون أن أبادوهم عن بكرة أبيهم ، ولكن العرب « حملة لواء الاسلام » فتحوا ديارنا بمبادئهم السامية ، وسواء كانت دينية أو خلقية أو ميتافيزيقية ، وفتح لهم الافغانيون قلوبهم وصدورهم ، متقبلين هذه التعاليم ، حتى أنه عندما ضعف مركز العرب ومركز الخلافة ، وتوقفوا عن نشر الحضارة الإسلامية . كنا نحن معاشر الافغانيين المبشرين بهذه الحضارة والناشرين لها والمجاهدين في سبيلها في أنحاء العالم . ومن حق لقد قدمت أفغانستان إلى الفكر الإسلامي والحضارة عدداً من الائمة الاعلام البارزين : أبو حنيفة النعمان ، وأحمد بن حنبل ، والبخاري ، والترمذي ، وابن قتيبة ، والرازي ، والغزالي . ومن الفلاسفة : ابن سينا ، والفارابي والبيروني ، وجابر بن حيان ، والجرجاني ، ومن الصوفية : البلخي ، والبسطامي . ومن علماء اللغة ، والبلاغة ، والآدب : الزمخشري ، والسكاكي ، والتفتازاني ، والجامي . ومن علماء الكلام : النسغي والقندهادي .

والظاهرة البارزة في أفغانستان هي : أن اللغة العربية لا تزال تسيطر بحسبانها اللغة الثقافية لها . يقول السلجوقي : لا يجد الزائر للديار الافغانية أيّة قرية ـ مهما صغرت ونأت ـ إلا وفيها مكتب أو اثنان على الآقل لتدريس اللغة العربية والإسلام . ولذا فإن لغتنا الغامية تحوي على اثنين في المائة من المفردات العربية ، بينما لغتنا الفصحى تحتوي على ستين في الماثة من الكلمات العربية الصافية الخالصة مما لا يستعمل بعضها أكثر شعوب العالم فصاحة وبيانا . بل إننا نحفظ بعض كلمات عربية جميلة انقرض استعمالها في البلاد العربية . كل ذلك لان اللغة العربية الشريفة هي لغة القرآن الكريم ، لسان الله المبين ، ولان العرب أمة خرج منها رسول الله ولان الإسلام والحضارة العربية الإسلامية قوتا في قلوبنا مبادئنا السامية الخالدة التي ندين بها . وما تزال آثار

هؤلاء الأعلام الذين أنجبتهم أفغانستان (خراسان) تدرس في الافغان ، كما أن التفسير الوحيد الذي يدرس هناك هو تفسير جلال الدين السيوطي .» ويرجع هذا الالتقاء الكامل بين الافغان والإسلام إلى طباع مشابهة لطباع العرب حملة رسالة الإسلام ، وبين الامة العربية والافغانية مئات الصفات والسجايا الخلقية والذاتية المشتركة كالشجاعة والصدق والامانة والكرم ، ومثالية الاخلاق ، وقرى الضيف ، والدفاع عن الحق والخير والحرية ».

وقد دخلت اللغة العربية أفغانستان مع الإسلام ، وأصبحت تمثل نسبة لا تقل عن أربعين في المائة من اللغة الوطنية (أليشتو والفارسية) والعربية تدرس في جميع مدارس أفغانستان لا على أنها لغة أجنبية . بل على أنها جزء متمم للغتين اليشتو والفارسية اللتين يتحدث بهما الافغانيون ، وتتبع أفغانستان في معاملاتها الدنيوية التاريخ الهجري الشمسي ، فهي كدولة شرقية تعتز بالإسلام قد رفضت أن تأخذ التاريخ الميلادي المسيحي كتاريخ رسمي لها ، وهي في الوقت نفسه كدولة حديثة أبت أن تكون أيام الدولة والمواسم عرضة للتغيير ، فاتخذت الهجرة نقطة بداية للتاريخ ، ولكنها اتخذت شهوراً شمسية لا قمرية ، ولا شك لهذا الطابع الإسلامي الواضح في حياة أفغانستان صلة كبرى باللغة العربية التي تدرس في جميع المدارس المتوسطة . وفي المدارس العالية يتم تدريس مواد الشريعة الإسلامية واللغة العربية وآدابها بصورة أكثر توسعاً وعمقا مثل دار العلوم في كابل وهرات وجلاد أباد .

استطاعت أفغانستان أن تؤكد طابعها الإسلامي العميق بموقفها القوي من النفوذ البريطاني الذي زحف نحوها بعد أن دخل البريطانيون دلهي في الهند . إذ كانوا حريصين على أن يسيطروا على الافغان بحسبانها جارة الهند ، ولكنهم فشلوا في كل محاولات احتلالها ، كانت بريطانيا في كل مرة تعود وهي مثخنة بالجراح ، فقد حارب الافغانيون الاستعمار ببسالة منقطعة النظير ، وخاضوا مع بريطانيا ثلاثة حروب دموية طاحنة ، فقد المستعمر جيشا بأكمله في المعركة الاولى ، ومنيت القوات البريطانية بخسائر فادحة في حرب استمرت أربع سنوات حتى ١٨٣٨ . ثم زحف البريطانيون على كابل وقاومهم الافغان

مرة أخرى واستطاعوا أن يبيدوا جيوشا بريطانية بأكملها في معارك استمرت ثلاث سنوات حتى ١٨٧٨ منها جيش بريطاني بأكمله قوامه سبعة عشر ألفا من الجنود المجهزين بأحدث الاسلحة .

وعاد البريطانيون مرة أخرى إلى الافغان بحجة تأمين حدود الهند فقاومهم الافغانيون في كل مكان وأنزلوا بهم خسائر كبيرة ، وظلت هذه المقاومة حتى عام ١٩١٩ حيث استطاعت أفغانستان أن تنتزع استقلالها الكامل .

***

وقد واجهت أفغانستان بعد معركة الاستقلال ، معركة البناء الفكري والاجتماعي لها. وكان أمان الله خان الذي تحققت على يديه هزيمة انكليز، قد اتخذ منزع الحركة التي قادها مصطفى كمال في تركيا هادفا إلى تغليب الطابع الغربي في الفكر والحياة تغليباً كاملاً ، ولم تتقبل الافغان هذا الاتجاه .

وقد اندفع أمان الله خان في محاولته لتقليد المدينة الغربية دون أن يفهم روح النهضة . وقد أولى اهتمامه للمظاهر الخارجية وحدها ، محاولاً مجاراة مصطفى كمال ناسيا الفوارق والخلافات بين البلدين .

ومن أهم المسائل التي حاول أمان الله أن يتخذ منها موقفا : مسألة تحرير المرأة على هدي من الخطة التي اتبعها مصطفى كمال في تركيا . دون تقدير لأوجه الخلاف بين البلدين على نحو أشار إليه أحد المعلقين[1] السياسيين في تركيا حين قال : نظن أنه لا يمكن أن تكون مصر أو الهند أو إيران مثالا لبلاد الافغان ، لا بد للافغان أن تسير بنظامها الاجتماعي وفاق خصوصيتها الجنسية والمحلية ، وإنما يتسنى للافغان أن تستعير بعض المبادىء من تركيا تكميلاً لنظامها ، بل إننا نرى أن الهند وإيران ومصر لا يمكنها أن تهب الافغان تلك المبادىء . لان هذه البلاد لا تنفك مرتبطة بتقالدها .

---

١ ـ حسين مجاهد

ويقول معلق آخر[1] : لا نظن أن ما يتطلبه الامر من أفغان هو من هذا النوع من الإصلاح اللاديني ، بل إننا نعتقد أنها ستهتدي بهداية دينها المتين ، الذي رفع شأن المرأة إلى أعلى عليين وساوى بينها وبين الرجل قبل أن يخطر على بال أحد من المصلحين أن يسوي بينهما . وما دام الوجدان الافغاني الفردي والاجتماعي مرتبطا بالعقائد والمبادىء القرآنية الوحدانية يتحرك في تلك الدائرة ، فلا بد من أن تكون كل حركة إصلاحية مبنية على احترام هذه الحرية الوجدانية في تلك البلاد . إن سفور المرأة (وحده) لا يضمن لها أي رقي وإنما الرقي الحقيقي في تربية المرأة تربية فاضلة تؤ هلها لان تعيش حرة شريفة نقية طاهرة ، فإذا كانت المرأة حائزة على هذه التربية فإنها أشرف وأرقى ، سواء كانت سافرة أم محجبة ، نود أن يكون نصيب المرأة الافغانية من الرقي الحقيقي أعظم مبلغ ، ونود أن نفتح المدارس والمعاهد التي ترى المرأة الافغانية تلك التربية الإسلامية التي تجعلها عامل خير ونجاح في حياة الافغان .

هكذا كان مفهوم الكتّاب المسلمين في النظرة إلى الحركات المستحدثة في تركيا وأفغانستان وإيران ، أما تركيا فقد استمرت في خطواتها تحت نفوذ الحكم الاستبدادي الدكتاتوري المغتصب ، ومع ذلك فقد قاومت تركيا مرة ومرة هذا الحكم ، وقدمت ضحاياها وشهداءها ، أما في إيران فقد خطا رضا خان خطوات متحفظة وئيدة في أعمال الإصلاح ، ولكنه لم يخرج عن دائرة الإسلام ، أما أمان الله خان فقد تحطم ملكه نتيجة لتهوره في الإصلاح .

وقد وصف سردار إقبال علي شاه في كتابه عن أمان الله خان كيف « ظل أمان الله يبتعد عن شعبه يوما فيوماً وهو غافل عن الله سائر في إصلاحاته الحديثة التي أراد أن تصل بها البلاد طفرة واحدة في حين أن غالبية الشعب متخلفة عنه لا ترى مجاراته في هذا الشأن . فلما أن وقعت الكارثة ، واشتعلت الثورة استفاق الملك من غفوته ، والتفت حوله لا يجد معيناً ولا نصيراً ، ذلك أن ذوي الكلمة والنفوذ ـ على حد تعبير سردار إقبال شاه من الزعماء الدينيين كانوا يرون في

---

١ ـ عمر رضا ـ من جريدة الاخبار ـ ١١/ ٢/ ١٩٢٤

أعماله خروجا على الدين والتقاليد ، وقد أحفظهم ذلك عليه ، وكان أعيان البلاد وزعماؤها يرون أن الملك تجاهل أمرهم ، وكان يعمل على تقويض ما لديهم من نفوذ قائم ، أما الشعب فقد كان متردداً حائراً . ذلك أن الإصلاحات السريعة التي ارتأى الملك وجوب إدخالها في بلاده جعلت أفراد الامة يتوجسون منها شراً كبيراً . ذلك أن عقولهم لم تستطع أن تفهمها من جهة لسرعة وقوعها ، وكان الزعماء الدينيون وخصوم الملك يصورونها لهم بأبشع الصور من جهة أخرى . وقد ألقت سياسة الملك (أمان الله) الرعب في قلوبهم ، إذ أرهقتهم بالضرائب حتى أنه جمع منهم ضرائب ثلاث سنين دفعة واحدة لينفق منها على رحلته هو وزوجته إلى اوربا ، وما كاد يعود بعد أشهر قلائل حتى أخذ في جمع ضرائب جديدة ، لان ما جمعه منها كان قد انفقه جميعه .

ويرى سردار إقبال علي شاه : أنه في البلاد التي لا تقوم حكوماتها على أساس إداري متين والتي تتوقف إدارة أعمالها الإدارية والسياسية على شخصية الحاكم وقوته ونفوذه يحدث مثل هذا الاضطراب ، وعنده أن أمان الله خان لم يكن له من الثقافة والتعليم ، ولا من الخبرة والتجربة ما يوحي إليه الخطة المثلى .

وقد كان من نتائج خطة أمان الله أن تعرضت بلاده لسيطرة باجي سقا على الحكم ، وهو ابن سقا استطاع أن يهاجم العاصمة كابول ويستولي عليها . غير أن هذا الحاكم بالرغم من أنه ألغى جميع ما أدخله أمان الله من خطط . فإن علماء المسلمين رفضوا قبوله واليا على البلاد ، مما مهد لنادر شاه أن يقود معركة إسقاطه ، وقد استطاع نادر شاه أن يعيد ميزان الامور ، وأن يحقق إصلاحات معتدلة في إطار الإسلام وخطا خطوات عاقلة حذرة . وبالرغم من أنه أعد قواته في أرض الهند التي تحتلها بريطانيا ، فقد رفض أن يكون ألعوبة في ايدي البريطانيين ، وظل محافظا على التوازن بين بريطانيا وروسيا .

* * *

وتعطي هاتان الصورتان عمق طوابع الإسلام في أفغانستان ، ولعل ذلك يرجع إلى وحدة الامة الافغانية التي لم تعرف يوما نزاعاً طائفياً ، أو صراعاً مذهبياً « فقد كان الدين الإسلامي باحتوائه على الاسس القويمة ، والمبادىء

السامية » عاملا فعالاً في هذا التماسك والمودة .

إن الشعب الافغاني بأسره يدين بالإسلام الحنيف ، ويتمسك بتعاليمه السنية ، وان الديانة الإسلامية مادة أساسية في المدارس والمعاهد . والقانون الافغاني هو الشريعة الإسلامية ، ولا ترى في حياة أفغانستان شيئا يتنافى مع الإسلام ، فالخمر ممنوعة . وعلماء الإسلام لهم نفوذ روحي عظيم .

ومن أفغانستان انبعثت رسالة جمال الدين الافغاني في « اليقظة » إلى مختلف أجزاء العالم الإسلامي ، وما زال اسمه مقترنا بحركات الكفاح والنضال المختلفة في مواجهة الاستعمار والإنجليز بالذات .

وما تزال هزيمة بريطانيا على تراب أفغانستان من المسائل ذات الاهمية البالغة في تقدير الافغانيين . وقد اقاموا نصبا تذكاريا لهذه المناسبة الخطيرة . وقد شهد « تويمبي » الذي شاهد هذا النصب للافغانيين بأنهم دفنوا قتلى الانجليز مثل ما دفنوا شهداءهم . بل إنهم أقاموا تذكاراً لهؤلاء القتلى الانجليز وقال : « وهذا دليل على خلق كريم أصيل في نفوس الافغان » .

(٥)

باكستان ومسلمو الهند

بعد الحرب العالمية الثانية قامت دولتان إسلاميتان : هما أندونيسيا والباكستان . ولكي نعرف حقيقة باكستان علينا أن نرجع إلى عام ١٩٣٠ عندما كتب محمد إقبال يقول : ليستْ الوحدات في المجتمع الهندي إقليمية كما هو شأنها في البلاد الاوروبية . فالهند قارة تضم إليها مجموعات بشرية تعود إلى أجناس مختلفة تتكلم بلغات متباينة ، وتدين بأديان غير متقاربة ، وان المبدأ الذي تعتنقه أوربا الديمقراطية لا يمكن تطبيقه بحال على الهند دون ان يسبق ذلك اعتراف بوجود المجموعات الطائفية ، وعلى هذا فمطلب المسلمين له ما يبرره تماما ، وبودي أن أرى البنجاب وإقليم الحدود الشمالية الغربية والسند وبلوخستان قد توحدت وأصبحت دولة ، ويبدو أنه ليس أمام المسلمين سوى هدف واحد ، هو تكوين حكومة ذاتية لهم ، إما داخل الإمبراطورية البريطانية وإما خارجها : دولة إسلامية هندية تقع في شمال غربي الهند ، وحياة الإسلام كعامل ثقافي وحضاري في هذه الدولة إنما ينهض على تركيزه في حدود معينة فقط ، فإذا ما أتيح لهذه الدولة الإسلامية الحديثة أن تقوم فإنها ستكون المدافع الاكبر عن الهند ضد أي هجوم أجنبي عليها ، وإنا لهذا نطالب بتكوين دولة إسلامية موحدة ، وقيامها هذا سيكون في صالح الهند ، كما هو في صالح الإسلام ، لانها ستعمل على محو الطابع الانستعماري الغربي الذي أجبر على طبعها به ، ولانها ستبيح للقوانين والتعاليم الإسلامية أن تسود ، وللتعليم والثقافة أن يعملا جنبا إلى جنب في تعاون لإظهار الروح الإسلامبة الحقة ، وإمكان تطبيقها في هذا العصر الحديث .

وقد مر عشر سنوات حتى قبل حزب الرابطة الإسلامية فكرة إقبال في الدورة التاريخية التي عقدتها الرابطة في لاهور عام ١٩٤٠ وفي ١٤ أغسطس ١٩٤٧

تأسست الباكستان بقيادة محمد علي جناح الذي حمل لواء فكرة إقبال وسار بها حتى تحققت . ولا بد أن يوضع في التقدير تاريخ المسلمين في الهند أولاً ، والدور الذي قامت به بريطانيا بالنسبة لهم عند احتلالها الهند ، وكيف أقصتهم عن مواطن القيادة ، وكيف أثارت أحقاد الهندوس عليهم بعد أن عاشوا في كنفهم قرونا طويلة في محبة ووئام ، وكيف فتحت أبواب التعليم والثقافة والثروة للهندوس ، وفرضت على المسلمين الفقر والجهل والتأخر .

***

حكم المسلمون الهند ما يقرب من ألف عام ، وكان تاريخاً حافلاً بدأه محمد بن القاسم الذي فتح السند ، وامتد بحركة محمود الغزنوي الذي أسس أسرة جعلت من مدينة (لاهور) أول مركز للحضارة الاسلامية وثقافتها في هذه الأرجاء ، واستطاع محمود الغزنوي أن يمد رقعة الغزو الاسلامي حتى وصل البنغال ، وجاء بعد ذلك المغول : نسل الامبراطور التتري الكبير « تيمورلنك » ففي عام ١٥٢٦ غزا (بابر) شمال الهند ، وجاء بعده (همايون) الذي فتح الطريق أمام النفوذ الفكري الفارسي ، وبلغ المغول ذروتهم أيام الامبراطور (أكبر) ، وقد قامت الدولة المغولية واستمرت وظل سلطانها في الهند إلى عام ١٨٥٨ وهي الدولة التي اتسعْ سلطانها وتولى عرشها ستة ملوك عظام في مائتي سنة من بابر الى محي الدين أورنك زيت وابرزهم جهانجير وشاه جيهان . وقد حكمت الدولة المغولية بالعدل والاسلام الاجناس والأديان جميعاً . ثم جاء الانجليز بوصفهم تجاراً في الوقت الذي كانت الامبراطورية قد بلغت مرحلة الضعف والتفكك . وقد حصلوا على ميثاق للتجارة عام ١٦٠٠ ثم لم يلبثوا أن سيطروا على مقدرات البلاد . وحتى عام ١٨٥٧ كان المسلمون سادة البلاد ، حين اندلعت الثورة التي ألقى المسلمون فيها بكل قواهم بقصد التحرر من النفوذ البريطاني

***

وللنفوذ الغربي في الهند قصة ، فقد بلغ فاسكودي جاما ميناء كالكوت الواقعة على شاطيء ملبار من جنوب الهند ١٤٩٨ وأقام ستة شهور على شاطيء الدكن

الغربي في رحلته الأولى . وكان العرب يحتكرون الملاحة بين موانىء الهند وموانىء الخليج الفارسي . وقد استظهر دي جاما بالهندوس في محاولة للتنكيل بالبحارة المسلمين من ناحية ، ومنافسة التجار المسلمين من ناحية أخرى ، وكان بعض الأمراء الهندوس قد حمل الى ملك البرتغال رسالة يغريه فيها باحتلال الهند .

وعاد دي جاما الى بلاده ، فاستقبل استقبال الفاتحين ، ولم يلبث أن كر عائداً الى الهند في ثلاثة عشر مركباً محملة بالجنود فاحتلوا كالكوت وتتباعث البعثات البرتغالية حتى عام ١٥٠٩ فوصل الى الهند (البوكرك) واحتل ثغر (جوا) باسم البرتغال عام ١٥١٠ وفي ١٥١١ احتل البرتغاليون ملقا في جزر الهند الشرقية .

وقد أيدت السياسة البرتغالية الهندوس في ثوراتهم على الدولة الاسلامية ، وكانت الحملات البرتغالية تحمل في ثناياها شيئاً من التبشير بالديانة المسيحية ، واستطاع ملك البرتغال أن يحصل من البابا على صك رسم فيه بأنه « سيد بحار العرب والعجم والهند والحبشة » وحاول البوكرك ان يثير الهندوس ضد المسلمين ، ثم أثار الهندوس ضد بعضهم بعضاً ، ولم يلبث البرتغاليون أن تواروا أمام أوربيين آخرين ، واقترن انهيار الدولة البرتغالية بظهور دولتي هولندا وانجلترا على مسرح السياسة الدولية والمنافسة البحرية . وفي عصر المغول بدأ موكب القراصنة والمغامرين يفد الى شواطىء الهند من البرتغال وهولندا وفرنسا وبريطانيا حتى استقر الأمر لشركة الهند الشرقية .

وكانت معركة بلاسي في البنغال عام ١٧٧٥ من المواقع الهامة في حركة المقاومة التي بدأها المسلمون في الهند منذ اليوم الأول : وقد سجلت مظاهر واضحة من البطولة والفداء . ولم ينتصر فيها البريطانيون الا بسلاح الخيانة . وقد حمل المسلمون وحدهم عبء المقاوة ضد الاستعمار البريطاني ، وتمثلت في نوعين من المقاومة ، مقاومة الأمراء المسلمين ، ومقاومة الفقهاء المسلمين الذين قاوموا على أساس شعبي شامل ، لأنهم رأوا في الزحف الاستعماري قضاء على الاسلام « وقد بدأ هذه الحركة فقيه مسلم زار نجد واعتنق الدعوة الوهابية ونظم تلاميذه ومريديه بطول الهند وعرضها تنظيماً شعبياً ثورياً ضد

الاستعمار البريطاني ، ودعا الى تطهير الاسلام من البدع . وتطهير الهند من الغزاة ، وكان هذا أعظم تنظيم ثوري شعبي عرفته الهند قبل حزب المؤ تمر ، واستمر صامداً في معركة مقاومة نصف قرن كامل حتى سقط آخر قادته شهيداً في معركة دامية في شمال الهند » .

وقد قام الانجليز بأعمال البطش الرهيبة التي قصروها على المسلمين في نفس الوقت الذي حرموهم فيها من التعليم والمناصب ، وأفسحوا المجال والتأييد والولاء للهندوس الى حد آذن بانفجار ثورة الهند الاسلامية الكبرى عام ١٨٥٧ فجأة[1] « والتي بدأت كحركة تمرد بين بعض وحدات الجنود الهنود في الجيش الامبراطوري ، ثم انقلبت الى حرب تحريرية قادها الأمراء والفقهاء المسلمون ، واشترك فيها المسلمون والهندوس والشيوخ والنساء والرجال ، واكتسحت شمال الهند ومراكز النفوذ البريطاني ، حتى أعلن بعض قواد بريطانيا الكبار أن كل شيء قد انتهى ، وان كل ما بنته بريطانيا قد ضاع ، ولم تستطع بريطانيا استعادة نفوذها إلا عن طريق الخيانة والرشوة .

« وقد حمل الانجليز المسلمين مسؤ ولية الثورة ، فقد أعلنت الثورة باسم (امبراطور دلهي) وقاد معظم معاركها قواد مسلمون ، ونادى الفقهاء المسلمون بالجهاد ، وأعلنوا الهند كلها (دار حرب) حتى يباد الغزاة الغاصبون ، وصب الانجليز كل حقدهم وانتقامهم على المسلمين ، وكان انتقاماً مريعاً ، أعلنوا أنه لن يقف حتى يباد المسلمون عن آخرهم ، وأهدر دمهم ، وأصبح من حق كل بريطاني أو مدني أن يقتل من يشاء من الهنود ، وأعدمت النساء والأطفال ، وأبعدت أسر وعائلات بأكملها في مذابح جماعية لكي « يبادجنين الثورة في أي مكان في الهند » . كما قال القائد البريطاني . ولم يسبق أن عرفت الهند أو عرف المسلمون رعبا ولا هولاً كالذي عرفوه يومئذ ، وسميت هذه بالمحنة الكبرى ولم ينسوها أبداً .

***

١ ـ بتصرف عن بحث للاستاذ محمد اسماعيل الندوي .

والمعروف أن البريطانيين كانوا قد استهلوا سياستهم في الهند باضطهاد المسلمين إذا إنهم كانوا سادة البلاد الذين نظموا المقاومة التي انتهت بثورة ١٨٥٧ وهم الذين نشروا الدعاية الحارة ضد الاحتلال البريطاني لبلادهم ، فضلاً عن أن المسلمين كانوا ينظرون إليهم منذ البداية نظرتهم الى مغتصبي حقوقهم المشروعة في حكم البلاد .

وقد عمد البريطانيون الى اثارة العداوة بين المسلمين والهندوس ، وأوغلوا في سياسة احتضان الهندوس دون المسلمين ، وعملوا على اقرار قوانين التفرقة بينهم تحت ستار من حرية الاعتقادات الدينية . وقد قاطع المسلمون المستعمرين في كل شيء ، ولم يقبلوا على المدارس التي أنشأوها ، بينما أقبل عليها الهندوس . وبذلك رجحت كفة الهندوس على كفة المسلمين في العلم ، واصبحت وظائف الحكومة وقفاً على الهندوس .

في ميدان المال والأعمال ساعدت الظروف الهندوس بعد أن تحطمت مالية المسلمين بعد ثورة ١٨٥٧ التي صادر منها البريطانيون كثيراً من ممتلكاتهم وأوقافهم ؛ وطرق المسلمون أبواب الهندوس يستدينون ، وانتهى ذلك الاقراض إلى انتقال أملاك المسلمين اليهم ، فلم يبق لدى المسلمين ما يوازي خمسة في المائة من عامة الاملاك في الهند .

غير أن المسلمين لم يلبثوا أن تنبهوا الى الخطر الذي يهددهم من سياسة التجميد ، حيث قام المسلمون بانشاء مدارس خاصة على نفقة المسلمين حرصاً على مجاوزة خطر مدارس الارساليات الأجنبية التي ترفض الاسلام واللغة العربية ، وتفرض مناهج معارضة للقيم الاسلامية اساساً .

وقد كانت حركة السيد أحمد خان هي نقطة التحول في تاريخ المسلمين من الناحية الثقافية والاجتماعية جميعها ، فهي التي كسرت قيد التوقف والمقاطعة للمؤسسات الاستعمارية في التعليم ، وذلك بانشاء كلية عليكرة التي أنشأت جيلا جديداً يجمع بين الثقافة الاسلامية والثقافة الغربية .

وقد كان عمل أحمد خان موضع النقد وموضع التقدير في نفس الوقت ، فهو

في نظره الى عصره قد الغى الخصومة بين المسلمين والاستعمار الانجليزي ، وحاول أن يحل بدلا منها تقارباً ووده ، على صعيد الفكر ، وفي هذا الاتجاه أحصيت على أحمد خان آراءه في شجب الجهاد ضد الانجليز ، وموالاتهم ، وما عرف من تفسيرات للقرآن نسبت إليه تحمل معنى الطاعة والاذعان ، كما حملت مناهج مدرسته نفس الاتجاه في اعلاء اللغة الانجليزية والثقافة الغربية .

وقد هاجم جمال الدين هذا الاتجاه ، وكان كتابه (الرد على الدهريين) مُنْصَبّاً على النتائج التي نجمت عنها محاولة أحمد خان ، غير أن النظرة اليوم تختلف . فقد أحدث هذا العمل تحولاً بعيد الأثر كانت له نتائجه الهامة التي جاءت من بعد في صورة النهضة التي حمل لواءها شيلي النعماني وتلاميذه ، ثم محمد اقبال ومدرسته .

ويشبه احمد خان في هذا الاتجاه موقف الشيخ محمد عبده بعد هزيمة الثورة العرابية وسيطرة بريطانيا على مقاليد الأمور في مصر ، وهي خطة اضطرارية احتاج إليها المسلمون خلال الأزمات التي واجهتهم ليتحركوا بدلا من أن يتوقفوا ، ثم جاءت بعد ذلك مرحلة التصحيح للمفاهيم التي حرفت اوحيل بينها وبين الاستقلال الكامل .

وفي الهند اضطر مفكرو المسلمون ـ ويبدو أن ذلك استمر الى وقت طويل ـ الى مثل هذا الموقف الذي فرض عليهم تفسير آيات الجهاد في القرآن على نحو كان نفوذ الاستعمار واضحاً عليه في حجب مفاهيمه الصحيحة .

اما بالنسبة لكلية عليكرة فانها قد استطاعت من بعد أن صححت طريقها أن تعاود تنفيذ الخطة الصحيحة بالنسبة لمفاهيم الاسلام والفكر الاسلامي ، غير أن هذه الحركة التي قام بها أحمد خان كانت قد ركزت مفهوماً للاسلام يشجب الجهاد ، ويفصل بين الاسلام والمجتمع على النحو الذي يحرص الاستعمار على أن يصنع به ، وذلك في مختلف أنحاء البلاد التي احتلتها في محاولة لخلق جيل يؤمن بهذه المفاهيم ، وتكون له الصدارة في تولي مقاليد الامور ، فقد كان أثر هذه المفاهيم بعيد الأثر في أغلب قادة الفكر أو الساسة الذين جاؤوا من

بعد ، وكان هذا تحولاً عن الطريق الأصيل الذي مضت عليه حركة اليقظة ، والتي كانت والحق يقال ، انها لم تستطع مواجهة التحول الخطير الذى أحدثه الاستعمار البريطاني في الهند . غير أن عمل احمد خان في انشاء كلية عليكرة التي كان يطلق عليها (الكلية الاسلامية الانجليزية الشرقية) فد دفع تيار الاصلاح الاسلامي القديم بالتحدى الى تجديد أساليبه ، فنشأت كلية (ديوبند) على الأساليب التقليدية ، ثم لم يلبث أن قام تيار وسط حاول أن يجمع بين دراسات عليكرة ودراسات ديوبند تتمثل في (ندوة العلماء) ودار العلوم في لكنو (١٣١١ هـ) . ولم يلبث المسلمون في الهند أن وسعوا نطاق الثقافة والتعليم . فقامت جامعات اسلامية في دكا ودلهي ، والكلية الاسلامية في لاهور وبشاور ، ثم أنشأت مدرسة كلكتا وكلية الشيعة في لكنو والجامعة العثمانية في حيدر أباد والجامع العباسي في بهادلبور . وقد خرجت هذه الجامعات عدداً ضخماً من أعلام الفكر الاسلامي في الهند الاسلامية : من أمثال شبلي النعماني ، وأمير علي ، ومحمد اقبال ، ومحمد علي جناح ونذير محمد ، والطاف حسين وكثيرون .

ـ ٢ ـ

منذ انبعثت دعوة التوحيد من قلب الجزيرة العربية في منتصف القرن الثامن عشر . وقد تأثر بها العالم الاسلامي كله ، وقد جاء هذا التأثر الواضح نتيجة ورود المسلمين الى مكة في موسم الحج واستماعهم الى هذا الصوت الجهير الذي يحمل لواء فكرة متعددة الجوانب قوامها التحرر الفكري في مجال العقيدة والتحرر السياسي في مجال مقاومة النفوذ المسيطر والزاحف . وقد كان شاه ولي الله (احمد ابن عبد الرحيم الدهلوي) (١١١٤ ـ ١١٧٦ م) معاصراً للامام محمد بن عبد الوهاب . غير أن الهند المسلمة امتازت بأنها قدمت مجدداً ومصلحاً سبق ذلك هو أحمد السرهندي (٩٧٧ ـ ١٠٣٤) والذي عاصر أيام حكم الامبراطور المغولي « أكبر » وكان له دوره في تصحيح كثير من المفاهيم ، ويوصف بأنه مجدد الألف الثاني .

ويعد الدهلوي واحداً من نوابغ المفكرين الاسلاميين : وكانت دعوته الى التوحيد واضحة الأثر وأبرز آثاره الكتابية : « حجة الله البالغة » و « ازالة الخفاجي خلافة الخلفاء » وقد تابعه ابنه عبد العزيز الدهلوي ١٣٢٩ فدرس وألف ووالى عمل أبيه في الدعوة الحق .

ولم يلبث الامام أحمد بن عرفان أن دعا بها الى التوحيد الخالص ، وقام بجولات في الهند كوّن بها جيلا من المخلصين ، ثم لم يلبث أن اتجه الى تأسيس دولة اسلامية تمتد من الهند الى حدود أفغانستان قاعدتها « بشاور » طبق بها نظام الاسلام المالي والاداري تطبيقاً دقيقاً ، وجمع بين العبادة والجهاد ، وقد عرضه موقفه الحاسم الى خصومة رؤساء القبائل الأفغانية ، فثاروا على حكومته ، وكان عمله هذا مقدمة للثورة الهندية الكبرى التي ثارها المسلمون في مواجهة الانجليز . ولم توقف الطريقة العنيفة التي قاومت بها بريطانيا ثورة ١٨٥٧ كفاح المسلمين الا قليلا . اذ لم يلبث ان تجدد مرة اخرى على هيئة جماعات ومدارس ومعاهد .

فقد هب المسلمون لمقاومة التبشير المسيحي ، والتبشير الهندوكي معاً . وكان واضحاً من أسماء جمعياتهم وتشكيلاتهم الاحساس بالمقاومة والدفاع ، أمثال جمعية حماية الاسلام ، وجمعية الدفاع عن الاسلام .

يقول : ك . ك . برج : «كانت كلمة الدفاع هي الصيحة التي ينفر لها مسلمو الهند جميعاً . الدفاع عن الجماعة أو عن الاسلام الذي يواجه ويحدق به خصمان هما : النفوذ الهندوسي والنفوذ البريطاني الحاكم . فقد انبعث المبشرون والمرسلون يدعون الى أديانهم علناً ، ويهاجمون العقيدة الاسلامية ، ويعلنون أن دولة الاسلام قد زالت ، وأن الهند قد أدخلت في الحكم الغربي المسيحي ، وأن هذا هو دين الحكومة ، وقد بدأ ذلك واضحاً في مختلف المدارس والمعاهد التي أنشأها الاستعمار البريطاني .

ولم يكن أمام المسلمين الا خطتهم التي طبقوها في كل مصر ، وهي انشاء مدارس اسلامية خاصة يستطيعون من خلالها تدريس الاسلام واللغة العربية (وقد فعلت ذلك الجمعية الخيرية التي أنشأها الامام محمد عبده وآخرون في مصر ، وفعل ذلك الامام ابن باديس في الجزائر) .

وقد بدأ هذا العمل حين اسس مولانا محمد قاسم النانوتوي مدرسة (ديوبند) عام ١٢٨٣ هـ وأسس مولانا سعادت علي مدرسة مظاهر العلوم في سهاربنور في نفس ذلك العام ، وتعددت المدارس المدنية في أنحاء الهند ، وكان لها أثرها الواضح في نشر الدين والدعوة الاسلامية ، لم تكن هذه المدارس تنال مساعدة ما من الحكومة ، وكانت قائمة على أساس جهد المسلمين واعتماداتهم الخاصة . مما أثار المقاومة والجهاد ، ولم يكن لأبنائها المتخرجين منها أقل أمل في وظائف الحكومة ، ومن ثم فقد اتجه أكثرهم الى الانقطاع للعمل في تربية الشعب وتعليمه والخدمة بعيداً عن المناصب والرواتب . وبذلك نشأ جيل من الدعاة المتجردين المحتسبين الذين يقنعون بالكفاف (وهذا شبيه تماماً بما حدث في الجزائر) . وقد تنبه المفكرون المسلمون الى أن المدارس الدينية القرآنية الخالصة لا تكفي ، فأنشأوا مدارس تجمع بين الدراسات الاسلامية والمدنية ، فأسست ندوة العلماء في لكهنو ،

ثم مدرسة دار العلوم على نمط دار العلوم المصرية ، وقد أبرزت علماء ومؤلفين وفي مقدمتهم : شيلي النعماني ، وسليمان الندوي ، وهما أكبر مؤلفين في السيرة النبوية ، وتعاليم الاسلام .

واذا كان شيلي النعماني قد ساعد احمد خان في انشاء عليكرة ، فانه كان أشد حرصاً منه في الحفاظ على التراث الفكري الاسلامي ، وأشد ايماناً بأهمية هذا التراث ، وكان يؤمن بالتجديد في اطار الاسلام ، ولذلك فقد عمل على بعث تاريخ الاسلام ، فكتب عن عمر والمأمون .

وناقش بعض القضايا التي أوغل فيها المستشرقون ، وكشف عن الرأي الصحيح كمسألة الجزية واحراق مكتبة الاسكندرية ، وعارض الكثير من خلفاء المبشرين والمستشرقين ، وشن هجوماً ضخماً على جرجي زيدان ، وكشف عن أخطائه في كتابه (تاريخ التمدن الاسلامي) وكان شيلي النعماني علامة على التيار الوسط بين مدرستي المحافظة التقليدية ، وبين مدرسة التجديد المندفع الى الاعجاب الكامل بالانجليز والموالاة مفاهيمهم الفكرية ، والداعي الى اخضاع الاسلام لها .

فقد دعا شيلي النعماني الى مخطط جديد للتربية والتعليم بين مسلمي الهند ، وحاول تنفيذه في دار العلوم ، ويرمي هذا المنهج الى اصلاح مناهج التعليم وتغيير الكتب القديمة . كما دعا الى تدريس اللغة العربية كلغة حية للقرآن ، كما كانت تدرس في العصر العباسي ، وأضاف بالضرورة مواد علوم الاجتماع والاقتصاد والشريعة الاسلامية ، والثقافة العربية . وكان قد زار مصر عام ١٨٩١ . وشاهد خطة علي مبارك في انشاء دار العلوم ، وقد نجحت فكرة المدرسة الوسطى في الهند ، كما نجحت في مصر وحققت نتاجاً هاماً ، وتخرج منها كثير من المفكرين مثل : أبي الكلام ازاد ، وسليمان الندوي ، وعبد الماجد الدريابادي وعبد الباري الندوي ممن قادوا فكر المسلمين في الهند .

وقد اتجه المسلمون الى هذا العمل الخصيب البناء في ميدان التربية والتعليم

في مواجهة حركتين قام بهما الاستعمار البريطاني :

أولا : هي تغريب مناهج الدراسة في المدارس التي أنشأها حيث خلت من علوم الاسلام واللغة العربية ، وفي مواجهة حملة التبشير الضخمة التي شنها الاستعمار في مختلف أنحاء الهند ، وقد لفت هذا نظر الذين زاروا الهند من أمثال : دكتور عمر فروخ الذي يقول : ان المستعمر لا يريد ان يعلم ابناء البلاد الخاضعة له . واذا اضطر أن يعلمهم ، علمهم ما يضرهم ، أكثرهم مما ينفعهم ، من أجل ذلك لا نستغرب اذا علمنا ان الانجليز لما غادروا الهند كان عدد الاميين فيها قد أصبح ثمان وثمانين من المائة من مجموع أربعمائة مليون نفس . أما الذين يستطيعون قراءة شيء من لغاتهم المحلية ، فكانوا نحو اثني عشر بالمائة ، والذين تعلموا شيئاً من الانجليزية اثنين بالمائة فقط . ويستطرد فيقول : فالجهل هو أحد أوجه التراث الذي يخلفه الاستعمار في كل بلد ، هذا اذا اضطر الى ان يغادر ذلك البلد ، على ان الامية كانت أكثر تفشياً بين المسلمين منها بين غير المسلمين ، ولما استولى الانجليز نهائياً على الهند أخذوا يقضون على عناصر القوة ، وعلى مظاهر القوة في الهند ، ثم حاولوا ان يخضعوهم لمناحي حياتهم تماماً ، كما يفعل كل مستعمر ، وقضوا ما استطاعوا على الحركة الثقافية ، وفرضوا على الموالين لهم من أهل البلاد تعليماً انجليزياً استعمارياً ، قد ابتعد المسلمون في الهند عن التعليم بعاملين أولهما : أن الانجليز أخذوا يذودونهم عن العلم حتى يغمرهم الجهل ، فيغفلوا عن ماضيهم ، ويفقدوا ادراكهم بقيم الحياة الحرة ، والمسلمون في الهند كانوا اشد سكانها مقاومة للانجليز .

ثانياً : كان كره المسلمين أنفسهم للعلم الذي جاء به الانجليز ، لأنه علم غربي أجنبي ، ولقد كان لهذه السلبية أسوأ الأثر في المسلمين فقد غرقوا في جهل بعيد القعر ، وخسروا الجزء الأوفر من نفوذهم السياسي ، ولكن سلبية المسلمين لم يكن مقدراً لها أن تطول ، وأشار الى دور أحمد خان الذي أدرك أن انكماش المسلمين عن العلم مضر بهم ، فحثهم على طلب العلم الغربي ، والى تعلم اللغة الانجليزية ، ثم اسس جامعة عليكرة الخ .

ومع ذلك فقد ظل المسلمون متخلفين في مضمار العلوم نحواً من خمسين سنة عن الهندوس ، وكان تأخرهم في الحياة السياسية على مقدار ذلك .

وقد عمد احمد خان في تنمية كلية عليكرة الى جمع التبرعات من المسلمين من مختلف الأنحاء « ولم يكن ليترك باباً من أبواب سراة المسلمين . بل أبواب فقرائهم الا طرقه مستندياً الأكف لهذه الجامعة » . وكان احمد خان قد أعلن ان أسباب ما حل بالمسلمين من ضعف وتخلف انما يرجع الى انهم لم يتعلموا العلوم الحديثة ، واللغة الانجليزية « لغة الغزاة » . وقد استجاب له كثير من المسلمين واطلق عليه اسم المنقذ الأعظم . قدر البعض أنه لولاه لا نقرض المسلمون نهائياً . وان عارضه جمال الدين الأفغاني وعدد من الفقهاء والعلماء عارضوه في آرائه لا في عمله التعليمي لما عرف عن آرائه ومنحاه في تفسير القرآن . ويرى العلامة محمد اسماعيل الندوي (الذي انتفعنا بأبحاثه المتعددة في هذه الدراسة) أن جمال الدين الذي ألف كتاب (الرد على الدهريين) في مواجهة ما أذيع عن أحمد خان لم تتح له فرصة طيبة لكي يطلع على الدعوة التي قام بها « وأن أحمد خان كمصلح ديني يذود عن كيان الدين تلك الحملات الفكرية الصليبية ، ولم ترقه الكتب التي وضعها المستشرقون مثل : وليم موير وغيره من الذين طعنوا في الاسلام ، وصاحب الشريعة وتعاليمه ، وقد صنف في الرد عليهم بالأردية . وقد أنكر الندوي ما تردد من أن هناك صلة ما بين دعوة أحمد خان ، وبين القاديانية ، وكل ما وجه الى احمد خان أنه خالف دعوة الجهاد ضد الانجليز ، وكان هذا رد فعل لنزعة العلماء الذين أفتوا بأن الهند دار كفر ، وعند الندوي أن مسالمته للانجليز كانت لمصلحة المسلمين وترقية أحوالهم ، وهو يشبه في ذلك الشيخ محمد عبده » . ويذكر في هذا الصدد أن احمد خان رد على كتاب مسلمي الهند الذي ألفه احد المستشرقين بكتاب (أسباب العصيان الهندي) وضح فيه للبريطانيين فداحة الاخطاء التي ارتكبوها في الهند ، وأبان عن مسؤ ولياتهم ، وانعدام الاختلاط الاجتماعي بين الحكام والمحكومين ، وتدخل الحكومة في الشؤ ون الدينية تدخلا غير مرغوب ، ويرى بعض الباحثين أن الانجليز قد استطاعوا ان يكسبوا الى صفهم طائفة ممن يتسمون بسمة الاسلام ، وقد أتاحوا لهم من الشهرة ما يجعل لارائهم مكانة ،

وأن هؤلاء قد حرفوا مفاهيم الاسلام الاصلية بما يخدم مصالح بريطانيا ، وان هؤلاء قد حملوا لواء الدعوة الدهرية والطبيعية ، فكانوا اعواناً للانجليز في افساد العقيدة الاسلامية ، وأن دور الدهريين كان أخطر من دور المبشرين الذين هاجمهم الناس وأنكروهم ، ويصل هؤلاء الباحثون أحمد خان بهذه الفئة . وقد جعلوا من انشاء جامعة « عليكرة » وسيلة الى بث هذه الاراء . واحصوا عليه ما ردده في تفسيره للقرآن من أمور أهمها : تهوينه من فرض القتال على المسلمين ، والتقليل من شأنه تحت ستار التسامح الانساني ، والتعاون العالمي ، وكذلك ما يتصل برأيه في نفي المعجزات .

ومن هنا كانت حملة جمال الدين عليه وكان ما قيل من أن آراءه كانت تمهيداً لظهور المذهب القادياني ، ولا بد أن يكون لما ورد من ذلك أثر ما . عير أنه لا بد من الاحتياط في تقدير اختلاف النظرة الجذرية في موقف جمال الدين من الانجليز ، وموقف أحمد خان منهم . فالأفغاني رجل ثائر وخصم عنيد لبريطانيا ، وحامل دعوة تنكيس أعلام بريطانيا في كل مكان يذهب اليه . أما أحمد خان فهو مصلح قد اقتنع بأن من مصلحة المسلمبن الهنود اتخاذ خطة مسالمة مع البريطانيين حتى يستطيعوا البقاء والنهوض ، ولا شك أن ما صنعه احمد خان كان بعيد الأثر ، وان كان ذلك لا يمنع من المؤاخذة على تطرفه في بعض الاراء ، وان كانت كلية عليكرة قد صححت بعد ذلك مناهجها حتى لا تصادم القيم الأساسية للفكر الاسلامي .

ويبدو ان اليقظة الاسلامبة في الهند كانت مضطرة الى ان تأخذ طابعاً معيناً اختلف شيئاً ما عن طابع اليقظة الاسلامية العربية ذلك في سبيل السماح لها ان تنطلق من تحت مدافع البريطانيين .

ذلك ان بريطانيا والاستعمار جملة كان حريصاً على ان يقوض روح الاسلام في المسلمين الهنود ، ويحل محلها طابع الذلة والفقر والجهل جميعاً في شماتة وحقد بالغين . وقد أشار الى هذا (ك . ك . برج) في كتابه « وجهة الاسلام » حين قال : « واخذ المسلمون يتقهقرون بانتظام حتى ألفوا أنفسهم في منزلة من الانحطاط والمهانة ، ذاقوا ذل الحقيقة المرة ، وهي انهم بغد ان

كانوا سادة الهندوك منذ ستمائة سنة اصبحوا كالهنود رعية (للانجليز) .

وقد تمثلت هذه الضربات في جعل اللغة الانجليزية لغة التعليم ، وابطال قانون العقوبات والغاء القضاة الذين كانوا يطبقون الشريعة ، ووجد المسلمون ان جاههم ولّى ، وان قوانينهم زحزحت عن مكانها ، وان لغتهم اهملت جانباً ، وان تعليمهم فقد قيمته . ثم وقعت ضربات اخرى اقوى . . . . انتهت بمحو آخر ما بقي من مظاهر حكم المغول ، وبمصادرة املاك المسلمين مصادرة واسعة النطاق . هذه النكبة الاخيرة انزلت المسلمين الى اسفل درك من الكبرياء المثلوم واليأس القائم مما لاح أنهم لا يقدرون على الخلاص منه .

نعم بهذه اللهجة الحاقدة السيئة يتحدث مستشرق عن صورة الاحتلال البريطاني للهند . ثم هو لا يتوقف عند هذا الحد ، بل يهاجم علماء المسلمين ويصفهم بالتعصب ، لانهم أنشأوا جماعة « الرجوع الى القرآن » ورفضوا ـ ما أسماه ـ الفرص التي أتاحها لهم الانجليز لتحصيل « العلم الأوربي » . ولكن (ك . ك . برج) لم يكن منصفاً وتحمل شعاراً واحداً هو : يغفل كل الحق ، فقد واجه المسلمون الاحتلال البريطاني بارادة صلبة ، وقوة ودرامة . ولم تتوقف حركات المقاومة منذ يوم الاحتلال ، واستمرت برغم كل ما فعلته بريطانيا من مجازر ومن وقيعة بينهم وبين الهندوس ، ومن تسييد الهندوس عليهم رغبة في اذلالهم بحسبان أنهم كانوا هم الحكام والامراء . وكانت كل الحركات والجماعات والجهود التي قامت على أثر انقضاض بريطانيا تحمل شعاراً واحداً هو : « الرجوع الى القرآن » .

وان المسلمين حين رفضوا العلم في مدارس الارساليات التبشيرية البريطانية كانوا كراماً على أنفسهم ، لأنهم أنشأوا مدارسهم بنقودهم القليلة ، ولم يقفوا عند المدارس وحدها . بل أنشأوا الكليات . ثم برزت جمعياتهم من تحت حراب الاحتلال . فكانت جمعية علماء الهند في امبالا وفي البنجاب ، ولها فروع في مختلف البقاع مهمتها المزدوجة هي :

(١) مكافحة حركة (ارياسماج) التي شجعها البريطانيون بالدعوة الى

تخليص الجنس الاردي ، وهي حركة تدعو الى الوثنية القديمة ، وهي شبيهة بالدعوات التي أثارها الاستعمار في مصر بالفرعونية ، وفي لبنان بالفينيقية ، وفي المغرب بالبربرية .

(٢) ارسال مبشرين يعلمون المسلمين المتأخرين .

وبرزت ايضاً جمعية (حماية الاسلام) في كل مدينة تعنى بتعليم المسلمين (ومركزها في لاهور) وتعمل على دحض الافتراءات ، والشبهات الموجهة للاسلام ، والعناية بأيتام المسلمين .

وعدا هذا عشرات من الجماعات والمدارس والمعاهد (الجامعة العثمانية ، الجامعة الملية ، دار العلوم ، ندوة العلماء ، مدرسة ديوبند) ولم يكن احمد خان وحده ، ولا كلية عليكرة وحدها هي مصدر اليقظة ، ولكنها كانت عملا مشاركاً لأعمال اخرى كثيرة ، وكان ايمان زعماء الجماعة الاسلامية في الهند في مواجهة الاستعماز البريطاني منصباً على قاعدة أن « التعليم اول ما يلزم كل انسان) وهي نفس القاعدة التي دعا اليها الامام محمد عبده في مصر بعد الاحتلال البريطاني .

ولقد كانت بريطانيا حريصة على أن تقضي على الاسلام كأساس ابقاء لنفوذها في الهند ، وذلك بالقضاء على علماء المسلمين او تحويلهم عن القيم الاساسية لمفاهيم الاسلام الجوهرية ، وخاصة مفهوم الجهاد ، وترابط الدين والمجتمع ، ويحفظ المسلمون الهنود في هذا قول لورد البنرو : « ان العنصر الاسلامي عدو اصيل العداوة لنا ، وان سياستنا الحقة ينبغي ان تتجه الى تقريب الهندوس » ومن هنا فلما بدأت اليقظة الاسلامية واستشرت ، عمد الاستعمار البريطاني الى ان يحول بينها وبين كمال ذروتها وانطلاقها ، واستطاع ان يحجب قادة المسلمين الذين فهموا الاسلام فهماً صحيحاً ، عن مكان الصدارة والقيادة . وكان من أهم الظواهر في هذا الشأن أن الذين حملوا لواء الرابطة الاسلامية « كانوا ممن تخرجوا من الكليات العصرية ، ولم يكن لهم سابق علم ولا معرفة بالاسلام ومبادئه ونظمه الخالدة[1] » . ومن هنا لم يتصدر للقيادة

---

١ ـ كتاب نظرة اجمالية في تاريخ الدعوة للاسلام في الهند وباكستان : مسعود الندوي

السياسية اصحاب المفاهيم الاسلامية ، وشأن الهند في هذا شأن جميع السياسيين الذي تصدروا بعد الحرب العالمية الأولى في اندونيسيا وفارس وتركيا وافغانستان والعالم العربي . والمعروف إن الاستعمار في الهند ـ كما في مصر وغيرها قد حرص على الفصل بين التعليم الديني والتعليم المدني ، وحال دون اندماجها . وبذلك خلق « ثنائية ثقافية » ادت الى الصراع الفكري والنزاع التربوي . وقد اتاح لاصحاب العلم المدني الوصول الى المناصب القيادية بينما جمد الاخرين . غير انه فيما عدا قطاع السياسة فقد ظل المجتمع الاسلامي مؤ مناً بمفهوم الاسلام متكاملاً قوياً في أخص خصائص جوهره . وقد تبلور هذا التيار واتسع في الحركة الثقافية التي تمثل المدرسة الوسطى والتي فهمت الاسلام متكاملا بقيادة شبلي النعماني ، وحافظ نظير ، ومحمد حسن ازاد ، وأمير علي ، وسيد ألطاف حين ، وكانت كتاباتهم شعراً ونثراً) دعوة الى انهاض الاسلام والكشف عن سر الازمة التي أخرت المسلمين ، وتوصف قصيدة (مدّ الاسلام وجزره) التي نظمها سيد ألطاف بأنها من قمم هذه الدعوة الى التحرر والمقاومة المستمدة من مفهوم الاسلام ، فقد دعت المسلمين الى اطراح الاستسلام والايمان بأن ارادة الله تدفع المسلم الى العمل والمقاومة ، ورددت مفهوم القرآن في دعوة المسلمين الى الحرية والكبرياء والكرامة ، وهذا هو الخط الذي نماه أمير علي في كتابه المشهور « روح الاسلام » وتابعه (خدابخش) ثم بلغ قمته في أعمال « محمد اقبال » .

ويدور مفهوم النهضة عند هذه المدرسة حول تنقية الاسلام من الشوائب والتماس « أساسيات الاسلام كما أوحاه الله في القرآن ، فالاسلام ليس جامداً ، ولكنه قادر على مسايرة العصور والحضارة ، وعلى المسلمين أن يحتفظوا بقيمهم الأساسية ، ثم يحصلوا علم أوربا » وكان لجمعية أهل الحديث دورها في هذه الحركة ، فقد عملت عن طريق مدارسها ووعاظها وصحفها على تطهير الاسلام في الهند من المفاهيم الوثنية ، وكانت جماعة « أهل القرآن » تدعو الى تأكيد قيمة القرآن أساساً . وقد دحض هؤلاء جميعاً الاراء الخاطئة التي رددها خصوم الاسلام بغية القضاء على مقومات العزة والقوة

في نفوس المسلمين ، ومن رأي « أمير علي » أن الاصلاح يجب أن يسبقه التعليم وتحرير العقل من القيود ، وهو من المؤمنين بأن للاسلام قدرة على صبغ ما عداه بصبغته . أما العلامة : « خدابخش » فيرى ان الاسلام يجب ان يدافع عن نفسه امام الغرب بنفس الأسلحة التي صاغها الغربيون . وعلى المسلمين أن يستفيذوا من أساليب التعليم والثقافة ، وطرق الغرب في البحث ليجعلوا ذلك في خدمة تقدمهم . وهو من المؤمنين بأن روح الاسلام الحقيقي قادر على الوفاء بمقتضيات الزمان والمكان ومفتاحه وحدانية الله وشعاره الأخوة الانسانية .

وقد بلغ محمد إقبال غاية القوة والعمق في الدعوة إلى إيقاظ المسلم ، وشجب نزعة (الجبرية) التي سادت من خلال استشراء فهم خاطىء للتصوف ، ويعد « إقبال » رمزاً على المثقف المسلم الذي أتيحت له فرصة إحراز أرقى الدرجات والرحلة إلى الغرب ، والاقامة فيه ، دون أن يقضي ذلك على روحه المسلمة العميقة ، الإيمان بالله وبالاسلام ، ويرى إقبال في الإسلام « المثل الاعلى » الذي لو تحقق تماماً لاوفى بكل مطالب الإنسان في هذه الحياة ، وفي الحياة الاخرى . وإذا كان (أمير علي) قد حقق بمحاولته الضخمة في كتاب (روح الإسلام) أن يكشف عن جوهر الإسلام على نحو يبني المجتمع المسلم ، فإن (إقبال) قد عني ببناء الفرد المسلم كأساس لبناء المجتمع . وعنده أن الفكرة الاساسية الإسلامية هي إقامة أخوة شاملة بين الناس ، غير أن انتصار العرب السياسي الذي لم يكن متوقعا ، وأن ما طبعه من طابع امبراطوري قد عاق تحقيق فكرة إقامة الاخوة الشاملة بين الناس ، ويرى إقبال أن الخطر العظيم الذي يهدد الإسلام هو روح العصبية في الشعوب ، تلك الروح التي لها دلائل كبيرة في معظم البلاد الإسلامية « فالفرس الذين دعتهم عصبيتهم إلى الانحراف عن جمهور المسلمين طالما افتخروا بما كان لهم من تاريخ قبل الإسلام ، كما اشتد الشعور الجنسي في تركيا ومصر ، حيث أخذ الناس يفخرون بتاريخهم الوثني القديم بحذافيره وفراعنته ، ويرى إقبال « أنه ليس في الاسلام قوميات ولا نزعة امبراطورية . بل هو « جمعية أمم » تعترف بالحدود الصناعية والفروق الجنسية لسهولة الإشارة فحسب . لا

لتضييق الافق الاجتماعي » . وقد طفق إقبال منذ عام ١٩٠٨ حتى وفاته يردد في شعره أن تعاليم الإسلام المستمدة من القرآن هي وحدها التي في استطاعتها إعادة الحياة إلى المسلمين ، كما دعا إلى العمل والحركة في بناء الحياة والارتفاع بالإنسان ، والإخاء الإنساني والتوحيد والإيمان بالذات ـ وقد حملت دعوته أساس مقاومة الجبرية التي تأثر الإسلام بها حين اتصل بفلسفة البراهمة وبالمذاهب الفلسفية المنحرفة كوحدة الوجود والحلول والاتحاد مما كان سبيلاً إلى ضعف المسلمين وهزيمتهم وتواكلهم ، وسيطرة الاستعمار الغربي عليهم ، وعنده أن العمل واليقظة والقوة هي من مقومات الإسلام أساساً قبل أن تكون من أدوات الحضارة المدنية .

ومذهب « الذاتية » في فلسفة إقبال يعني : « الروح المنشىء الذي أودعه الله في الإنسان ، وجعل العمل والدأب أساسه . وقد دعا إلى نمو الذات بالسعي والعمل الذي لا ينقطع في سبيل تجديد الحياة والقوة والقدرة على التحرر من تحكم الغير . كما دعا إلى أخوة الإسلام .

ومن أبرز القضايا التي حمل لواءها : الدعوة إلى إنشاء باكستان ، إيماناً بأن أساس الحياة في المجتمع الإسلامي يختلف عن أساس الحياة في المجتمع الهندوكي .

***

ومما يضع العلامات الاساسية لاتجاه « إقبال » العبادة التي صكت أذنه حين قال له والده : « اقرأ القرآن كأنما أنزل عليك » فهو يرى في القرآن أعمالا وحقائق ، ويعتقد أن كل آية تنطوي على حركة وحياة تدفع المسلمين إلى الامام ، وأن الإسلام كشف القناع عن أسرار الكون ، ولذلك فلا ضير أن يأخذ المسلمون الحضارة الحديثة « فإنها ليست سوى ازدهار لبعض الجوانب الهامة في الفكر الإسلامي . هذا الفكر الإسلامي الذي حمله الاوربي ونماه حتى سيطر على الطبيعة ، بينما تخلى عنه المسلم ، وعاد إلى الاستكانة مع تصوف البوذية وجبرية البرهمية » ويقول إقبال : إن النبي محمداً هو روح الثقافة الإسلامية ، هذا النبي العظيم يبدو أنه يقوم بين العالم القديم والعالم

الحديث ، فهو من العالم القديم باعتبار مصدر رسالته ، وهو من العالم الحديث باعتبار الروح التي انطوت عليها ، وان مولد الإسلام هو : مولد الاستدلال العقلي القائم على الاستقراء .

وقد وقف إقبال ضد نظريات الحلاج وابن عربي ، وهاجم الرياضات الصوفية وقال : إن قصد الرسول هو إنشاء أمة صاحية ، ويؤكد أن الامة الإسلامية لم تتأخر ولم تتراجع إلى السلبية القاتلة إلا بعد انهيار سلطانها السياسي ودخول التيارات القرمطية والفارسية بمختلف أقطارها الداعية إلى الهرب من الحياة ، والداعية إلى قتل الذات وإفنائها ، وكل أمة يصيبها ضعف كالامة الإسلامية تتبدل أنظارها ، وتحمل الاستكانة في أعينها ، وتركن إلى ترك الدنيا . وفي ترك الدنيا تخفي ضعفها وهزيمتها في تنازع البقاء .

وعنده أن النظرات التشاؤمية قد استمدت زادها من الفلسفات اليهودية والمسيحية ، وأن هذه الفلسفات كانت مصدر كل تشاؤمية جبرية قاتلة لكل مفاهيم الحرية والارادة والإيمان الصحيح بالله والحياة « فإذا درسنا القرآن نجد أنه صحح المفاهيم التي أخطأ النظر فيها قارئو العهد القديم والجديد حين أوضح أن الله سبحانه وتعالى جعل الارض مستقراً ومتاعاً ومكاناً للسعي ، وتمكيناً للمعاش ، ولم يجعلها لعنة ، أو ساحة تعذيب سجنت فيها البشرية الشريرة العنصر بسبب ارتكابها الخطيئة ، فإن المعصية الاولى للإنسان تدل فيما تدل عليه أنها أول فعل تتمثل فيه حرية الاختيار والارادة . ومن هنا كانت المسؤولية ، لهذا تاب الله على آدم وغفر له .

ومن هنا كانت نظرية إقبال هي توكيد بالذات في هدم نظرية وحدة الوجود بكل مفاهيمها المنفصلة عن روح التوحيد .

- ٣ -

بدأت الحركة الوطنية لتحرير الهند في أحضان الحركة الإسلامية ، وقد أزعجت الاستعمار البريطاني هذه الخطوة ، فعمد إلى القضاء عليها بأسلوب غاية في المكر والبراعة نحى بها المسلمين عن قيادة الحركة الوطنية وأسلمها إلى الهندوس ، وأجراها على الاسلوب الذي أراده . فالاستعمار البريطاني الذي سيطر على الهند بعد ثورة ١٨٥٧ التي قادها المسلمون كان حريصا ألا يتحقق للمسلمين السيطرة على الهند التي ظلت تحكم الهند أكثر من خمسمائة عام مرة أخرى بعد أن أسقط دولتهم . والمعروف أن المسلمين قاطعوا مدارس الاحتلال ، وعزفوا عنها حتى أتيح لهم إقامة نهضة تعليمية ، داخل إطار دينهم وثقافتهم ، وذلك بإنشاء عدد من المعاهد ، جاءت في مقدمتها الكلية المحمدية الإنجليزية التي أقامها أحمد خان ، وأطلق عليها من بعد كلية عليكرة . ثم تعددت الجامعات والمعاهد في لاهور ولكنو ، ولم تلبث أن حققت تقدماً واضحاً في هذا المجال ، ثم اتجه إلى العمل لتحرير الهند فألفت الجمعية الإسلامية العامة في لكنو (بومباي) وكان يشرف على أعمالها أكابر المسلمين في الهند :(أغاخان ، وفاضل حسن ، ومظهر الحق الهادي) مطالبين بحقوق المسلمين الهنود كوطنيين ، بدأ ذلك عام ١٩٠٧ واتسع وتعمق بإنشاء جمعية عامة تشرف على أعمال الاحزاب السياسية بقيادة شيخ المسلمين في الهند مولانا محمود الحسن . وقد استمرت تعمل في الخفاء عشر سنين ، وإليها يعود الفضل في يقظة المسلمين السياسة في الهند .

وكان الهندوك قد أعلنوا إنشاء المؤ تمر الوطني العام ، وسموه المجلس الملي الوطني الهندي العام ، وكانت غايته كما أشار تقرير (عبد العزيز الثعالبي)[١] أن

---

١ ـ راجع تقرير الثعالبي : البلاغ ابتداء من ٢٢ يونيو ١٩٣٧ وما بعده

ينالوا حقوقا سياسية تخولهم السيادة على الاقليات (وهم لا يريدون من كلمة الآقليات غير المسلمين) وفي عام ١٩١٦ تنبهت حكومة الاحتلال إلى حركة الجمعية الإسلامية فأوعزت إلى محمود الحسيني أن يغادر الهند وقبض على أعوانه : أبو الكلام أزاد ، حسرت مهاني ، ظفر الله خان ، محمد علي ، شوكت علي .

ولما عقدت الهدنة في ١١ نوفمبر ١٩١٨ أعلنت الحكومة البريطانية استعدادها لإجراء إصلاحات في قانون الهند ، فاتفق الفريقان (المسلمون والهندوس) على عقد مؤتمر في لكنو يجتمع فيه زعماء الفريقين ، وفي عام ١٩١٩ أطلقت الحكومة المسجونين السياسيين المسلمين ، فاجتمع زعماؤهم في لكنو بدعوة مولاي عبد الباري . رئيس علماء افرنجي محل ، فتداولوا في تأسيس جمعية إلاسلامية لتنظيم مطالب الاستقلال ، وكان قد ظهر في هذا الوقت تآمر الدول الكبرى مع تمزيق شمل الدولة العثمانية ، فأطلق على هذه الجماعة ، (جمعية إنقاذ الخلافة من مخالب الاعداء الطامعين) . وتأسست جمعية الخلافة في بومباي (١٨ فبراير ١٩٢٠) برئاسة غلام محمد فتو ، ميان محمد حاجي خان . ودخل في عضويتها الزعماء الملمون المعروفون في الهند ، ودعت اللجنة المسلمين إلى جمع الإعانات للدفاع عن حوذة الخلافة فأقبل المسلمون بسخاء وجمع ما لا يقل عن سبعة عشر مليون روبية إلى أضعاف ذلك . يقول : عبد العزيز الثعالبي في تقريره : كان (غاندي) إلى تلك الآونة غير معروف في الهيئات السياسية في الهند ، وكان متطوعا في فرقة تمريض الجنود ، ولما انتهت الحرب وانفصل عنها ، كانت جمعية البخلافة في بدء تأليفها فأقبل عليها . . وكان اسمه غير معروف إلا بين الافراد القلائل الذين عرفوه في الناتال وجنوب أفريقيا فتيامن به زعماء المسلمين رغم تحذير الملولوي (خوجندي) وكان على صلة به من قبل ويعلم من أمره ما لا يعلمون . وبالاخص من ناحية تعصبة للهنادكة ضد المسلمين ، وشاءت الغفلة أن تنطوي هذه الحركة العظيمة على يديه ، فقعد في جمعية الخلافة مقعد الناصح الامين ، وجعل يشير عليها باستئلاف الهنادكة ، فقبل الاعضاء نصحه عن حسن نية وندبوه للسعي إلى ذلك . ففام وطاف الهند على حساب الجمعية

يدعو إلى الوفاق . ويقول المطلعون على خفايا الامور إنه كان يتصل بالهنادكة ويتآمر معهم على شل الحركة الإسلامية ، ولما عاد من الرحلة سعى في إقناع جمعية الخلافة بالانضمام إلى الكونجرس (المؤتمر الوطني) الذي تأسس لملاحقة المسلمين ، وانتزاع حقوقهم في الهند ، فانضمت إليه جمعية الخلافة وتبعتها بقية الاحزاب الاسلامية المعروفة ارتكاناً على الثقة بغاندي ، وعقد الكونجرس اجتماعا فوق العادة بعد انضمام المسلمين إليه في مارس ١٩٢٠ في بلدة باكبور حضره ١٥ ألف مندوب أكثرهم من المسلمين ، ولما تلي عليهم القانون الاساسي اقترحوا تعديل المادة التي تقول باصلاح حالة الهند إلى عبارة (استقلال الهند) فوافق على ذلك المؤتمر ، وشرعت الاحزاب الهندوكية منذ ذلك اليوم تطالب بالاستقلال التام طبق رغبة المسلمين . وكانوا قبل لا يطالبون إلا بإجراء إصلاحات . فارتاعت الحكومة (البريطانية) لهذا التغيير وعدته فاجعة في سياسة البلاد ، وعلى أثره ألقت القبض على الزعماء وزجتهم في السجون (واجتمع قادة الحركة) وعرض أبو الكلام أزاد اقتراحا باسم الاعضاء المسلمين يتضمن إعلان الامة الهندية بأن الحكومة الحاضرة غير مشروعة مع دعوة البلاد إلى مقاطعتها ، فوافقت الجمعية وانعقد على أثره (مؤتمر جمعية الخلافة) فأعلن موافقته أيضاً بالاجماع ، وبعد أن جرى تصديق المؤتمر على قرار المقاطعة ، قام غاندي خطيباً وقال : إن اتحاد الهنادكة مع المسلمين يبقى متينا ما لم يشرع المسلمون في مناوأة الحكومة ، ويشهروا السلاح في وجهها ، ورد عليه أبو الكلام أزاد فقال : إن كان غاندي يتصور أن أعمال المسلمين في الهند لا تقوم إلا على مساعدة الهنادكة . فقد آن أن يخرج هذه الفكرة من دماغه ، وليعلم أن المسلمين لم يعتمدوا قط على أحد إلا على الله وعلى أنفسهم . . . وشرعت الامة الهندية عقب ذلك في مقاطعة الحكومة واظهار العصيان المدني فامتنعت عن دفع الضرائب والرسوم ، وتخلى المحامون عن الدفاع أمام المحاكم ، وأعاد أصحاب الرتب النياشين والبراءات الحكومية ، وأحرق التجار المسلمون جميع ما في مخازنهم من البضائع الانجليزية ، وترك المسلمون الموظفون مناصبهم في الحكومة ، فحل الهنادكة محلهم ، وهاجر عدد كبير من أكابر المسلمين إلى الافغان بعد أن تركوا أملاكهم وأرضهم في

الهند واشتدت المقاطعة في البنغال اشتداداً عظيماً ليس له مثيل . فقد امتلات سجونها بالمقاطعين من المسلمين ، حتى إذا أعيا الحكومة أمرهم صارت تقبض على يوم على ألف شخص في الصباح وتطلقهم في المساء ، لان السجون لم تعد تسع المعتقلين ، وخطب اللورد ريدنج (الحاكم العام) في كلكتا فقال : إنني شديد الحيرة من جراء هذه الحركة ، ولست أدري ماذا أصنع فيها ، ومن هذا السياق تستطيع أن تتصور قوة المسلمين في الحركة الوطنية وضعفها في الهندوكية .

ولا شك أن الهندوكي بالغ ما بالغ من النشاط السياسي لا يستطيع أن يجابه الحكومة كما لا يستطيع أن يحارب المسلمين إلا بسلاح الدس . وقد اجتمع الزعماء عام ١٩٢١ وأعلنوا استقلال الهند استقلالاً فعليا ، وعينوا ولاة الولايات وحكام المقاطعات ، وقضاة المحاكم في جميع المدن ، فكان الوطنيون يرفعون قضاياهم أمامهم ، ويتجاهلون محاكم الحكومة ، وبسبب ذلك تعطلت أعمال الحكومة والبوليس ، وحدث ارتباك شديد في الدوائر العالية بالهند . غير أنها بدلا من أن تستعمل القوة القاهرة لكفاح الشعب الاعزل لجأت إلى المناورات السياسية . وهي أشد خطراً . وكان بطل هذه الحركة المهاتما غاندي زعيم الهند . فقد اتفق اللورد ريدنج مع غاندي على حل الوفاق القومي بين المسلمين والهندوك . وقد أذيع الحديث بواسطة المصادر البريطانية عقب ستة أشهر . فقد نقل أن اللورد قال لغاندي : إن مصدر الحركة الاستقلالية في الهند المسلمون ، وأهدافها بأيدي زعمائهم ، فلوا أسرعنا وأجبناكم إلى طلباتكم وسلمنا لكم مقالبد الاحكام . الا ترى ان البلاد آيلة للمسلمين ، فماذا يكون حال الهنادكة بعد ذلك . هل تريدون الرجوع إلى ما كانوا عليه قبل الاحتلال البريطاني .

وهل تفيدكم يومئذ كثرتكم ، وأنتم محاطون بالامم الإسلامية من كل جانب وهم يستمدون قوتهم منها عليكم . إذا كنتم تريدون أن تحتفظوا لانفسكم باستقلال الهند فعليكم أن تسعوا أولا لكسر شوكة المسلمين ، وهذا لا يمكنكم بغير التعاون مع الحكومة ، وينبغي لكم أيضا تنشيط الحركات الهندوكية

للتفوق على المسلمين في جميع الاعمال الحيوية ، وفي بلوعكم الدرجة المطلوبة ، فإني أؤكد لكم أن حكومة بريطانيا لا تتهمل في الاعتراف لكم بالاستقلال . وقبل انصراف غاندي أوعز اللورد إليه أن يتير على (مولانا محمد علي) كتابة تعليق على خطاب كان ألماه في مؤتمر الخلافة ، وحمل فيه على الحكومة حملة عنيفة ، يقول فيه : « إن ما فهمته الحكومة كان مخالفاً لمرادي » فصدع غاندي بالامر ، ودعا محمد علي لكتابة هذا البيان بعد أن أفهمه أن الكتاب سيكون سريا لا يطلع عليه أحد غير اللورد ، فكتب البيان تحت التأثير السحري الذي كان لغاندي عليه ، وما كاد الخطاب يصل إلى اللورد حتى أذيع في جميع أقطار الهند بعد أن صدرته الحكومة بمقدمة قالت فيها : « إن محمد علي تقدم إلى الحكومة يطلب منها العفو عن الهفوة التي ارتكبها » واتهم محمد علي من المسلمين بالتراجع ورمي بالخور والضعف ، غير أنه لم يحاول أن يصحح موقفه إلا حين عقد مؤتمر الخلافة في كراتشي (اغسطس ١٩٢٠) حين أعلن سياسة المناوأة للحكومة لا موالاتها فتلقى منه الهنادكة والمسلمون هذا التصريح بالارتياح التام ، ولكن عقب انفضاض المؤتمر أمرت الحكومة باعتقاله مع ستة آخرين منهم : شوكت علي . حسين أحمد ، كثار أحمد بير غلام محمد . الدكتور سيف الدين كتشلو . وساقتهم جميعاً إلى المحكمة الخصوصية للمحاكمة فرفضوا الاعتراف بالحكومة وهيبة المحكمة عملا بقرار المؤتمر السابق ، وامتنعوا عن الدفاع عن التهم ، ولكن المحكمة أدانتهم بمجرد الاتهام وحكمت عليهم بالحبس عامين مع الاشغال الموجهة إليهم ، وبعد الحكم أصدر محمد علي وسيف الدين كتشلو منشوراً بتوقيعهما يخاطبان فيه الشغب وينصحانه بعدم الاهتمام بما حصل ، ويعدان بأن الزعماء المعتقلين سيحضرون اجتماع الكونجرس القادم في ديسمبر بمدينة أحمد أباد سواء رضيت الحكومة أم كرهت . لاعتقادهما أن الكونجرس سيعلن بصفة رسمية استقلال الهند ، وتأليف حكومة وطنية هي التي ستقرر الإفراج عنهم ، ولكن الحكومة لم تأبه لهذا المنشور لأنها كانت واثقة أن الكونجرس لن يفعل . ولما عقد اجتماع الكونجرس (ديسمبر ١٩٢٠) حضر غاندي وقال : بما أن الزعماء معتقلون ولا سبيل للمداولة معهم في منهاج

أعمال المؤتمر ، فأقترح عليكم تعييني ديكتاتوراً للمؤتمر ، وتخويلي السلطة المطلقة لتنفيذ ما أراه صالحاً من الإجراءات فوافقته اللجنة على ذلك دون أن تتنبه ما كان يضمره هو من المقاصد التي قد لاتتفق مع خطة المؤتمر ، وتقرر فيها أيضا إسناد رئاسة مؤتمر الخلافة إلى أجمل خان ، ومؤتمر مسلم ليك لحسره مهاتى . وقبل اجتماع مؤتمر الخلافة قال غاندي للحكيم أجمل خان إن إعلان الاستقلال في الظروف الراهنة غير مناسب ، وما زال حتى أقنعه بالعدول عن إعلان ذلك . مع أن الزعماء المسجونين كانوا ينتظرونه بفارغ الصبر ، وكانت الحكومة تتوقع صدوره من أحزاب المسلمين بقلق شديد . وماذا عساها تصنع لو تخلف غاندي عن الوفاء لها بوعده .

وفي اغسطس ١٩٢١ اجتمع الكونجرس تحت رئاسة غاندي في أحمد أباد ، فأعلن أن الوقت الذي يصرح فيه المؤتمر باستقلال الهند لم يحن بعد ، فهاج الاعضاء وماجوا ، وعقب انتهاء جلسات المؤتمر انعقد مؤتمر الخلافة وتهيب الحكيم أجمل خان أن يثير عاصفة من قبل المسلمين ، فأمسك عن اعلان الاستقلال ، أما حسرت مهاتي فقد أعلن في مؤتمر مسلم ليك أن الهند تريد أن تعرب بواسطتهم عن إرادتها في الاستقلال ، فعلى الهنود أن يشعروا اليوم بأنهم مستقلون ، وألا يعترفوا بقوانين الحكومة الملغاة ، فأمرت الحكومة بالقبض عليه وأودع السجن عشر سنين مع الاشغال ، وأجمعت الصحف الهندية على نقده ووصفه بالشدة ، وخفضت العقوبة إلى سنتين ، وعقب ظهور هذا الفشل العظيم في سياسة البلاد اعترت المسلمين شكوك في تصرفات غاندي واستيقنوا « بأن زعماء الهنادكة متفقون على ذلك فدب الانشقاق بين الطرفين » .

هذا هو النص الذي اورده العلامة (عبد العزيز الثعالبي) عن دور المسلمين في الحركة الوطنية الهندية ، وكيف قضى عليه ، وانهار مخطط الاستقلال ، ومن المعتقد أن هذا العمل كان أكبر مقدمات الدعوة إلى مطالبة المسلمين بكيان خاص لهم . فقد بدأت من خلال ذلك حركة مقاومة خطيرة للكيان الإسلامي ، مرتبطة بحركة تبشير هندوكي وتبشير عربي بريطاني في محاولة لاقتلاع الإسلام والقضاء على دعائمه .

وقد أشار عبد العزيز الثعالبي إلى ضخامة مخطط التبشير في الهند عام ١٩٣٧ حيث توجد ٣٧٧ إرسالية تضم (٣٦٣٤) مبشراً بإضافة الى ٥٠ كلية و ٣١٨ مدرسة ثانوية و٤٢١ مدرسة ابتدائية و٢٧٠ مدرسة منوعة أخرى بالاصافة إلى ١٧٠ جريدة وصحيفة ونشرة تدار كلها لحساب الإرساليات التبشيرية الغربية .

وقد بلغ حجم النفقات السنوية للارساليات بالهند ٣٣١ و٢٢٧ مليون روبية . وقد واجه المسلمون هذه الغزوات بإنشاء جمعيات التبليغ بفروعها المختلفة الإسلامية في أنحاء الهند . وذلك لصيانة عقائد الضعفاء من المسلمين والدعوة إلى الاسلام .

***

وفي أعقاب هذه الحركات أخذت الدعوة إلى القومية الهندوكية طريقا متطرفاً أحس المسلمون معه إلى حاجتهم الشديدة إلى تعميق مفهوم الرابطة الإسلامية .

يقول مسعود الندوي : « إنه في الثلاثينيات ظهرت حركتان وحزبان متناقضان : حركة تدعو إلى القومية الهندية المشتركة ، والانضمام إلى حوزة المؤتمر الوطني الهندي ، وحركة تدعو إلى القومية المسلمة ، وغير خاف على المسلم المتبصر ما في الحركتين من خروج على الإسلام وخطر على مستقبله في هذه الديار .

فالقومية الهندية المشتركة كانت تريد إدماج المسلمين في خظيرة القومية الهندوكية تمهيداً للقضاء على الإسلام وشعائره في هذه الديار .

وكذلك القومية المسلمة المتطرفة في المقاومة للقومية الهندية لم تكن أقل خطراً على الإسلام من ضرتها . لان القائمين بها والداعين إليها وإن كانوا من أبناء المسلمين يتسمون بسمة الإسلام ، ويصيحون ويصرخون باسمه في المحافل والمنتديات ما كانوا يعرفون من الدين إلا اسمه ، وكان جل همهم أن يحصلوا على مملكة على طراز الجمهورية التركية الكمالية وأخواتها من الجمهوريات اللادينية في الغرب ، وكان من نتائج خطتهم المعوجة أن كثر

التبرج والاختلاط ، وجهر زعماؤ ها بالقضاء على آداب الإسلام واخلاقه الزكية الطاهرة ، بالاضافة إلى ما كانوا يبدون من اعتزابهم تتبع معالم الغرب في الحياة الاجتماعية والسياسية .

ويمضي فيقول : ظهرت هاتان الحركتان المتعارضتان بعد سنة ١٣٥٠ هـ ١٩٣١ م . واشتد الخلاف بينهما بعد بضع سنين . إذ بلغ الامر بأنصار الحركتين أن جعلوا يتنازعون في كل ناد ومجلس ، وأخذت صحف الحزبين تمعن في التنابز بالالقاب ، وعنده أن الرابطة الإسلامية لم تكن على مستوى الاحداث . فقد حشدت في دائرتها كل غث وسمين من مطايا الاستعمار وأذناب الشيوعية ، وأتباع الكمالية من أبناء المسلمين ، وقال إنها ليست من الجماعة الإسلامية في شيء ، وإنما هي جمعية المسلمين الجغرافيين توحدت كلمتها ، وانتظم عقدها لمحاربة القومية الهندوكية والمؤتمر الهندي . وقال إن بعض صحف الرابطة الإسلامية وأنصارها سخروا من الدعوة الإسلامية ، وفريضة اقامة الدين .

ويمكن القول إن الرابطة الإسلامية كانت شبيهة بالاحزاب السياسية التي ظهرت في العالم العربي في نفس هذه الفترة ، وتحررت من كل علاقة بين السياسة والاخلاق ، أو بين الدين والمجتمع .

(٦)

أندونيسيا

مرت أندونيسيا في تاريخها الاسلامي بمراحل ثلاث :

* المرحلة الأولى : منذ دخول الاسلام حوالي ١٤٠٠ م إلى عصر الاستعمار الهولندي .
* المرحلة الثانية : عصر الاستعمار الهولندي ١٥٩٦ ـ ١٩٤١ .
* المرحلة الثالثة : عصر الاستقلال منذ سنة ١٩٤١ إلى اليوم .

- ١ -

دخل الاسلام أندونيسيا عن طريق الهنود والعرب الذين قدموا الى البلاد للتجارة وحملوا معهم الاسلام واللغة العربية ، فقد وفد المسلمون على سومطره في القرن السادس الهجري (١٣م) وهبطوا جاوه في القرن التاسع الهجري (١٥م) جاؤوا من الهند أولاً ، ثم تتابع سيلهم من حضرموت والبلاد العربية بعد القرن العاشر الهجري (١٦م).

فقد نشر الحضارمة الاسلام في أندونيسيا التي تمثل سلسلة من الجزر الهندية الشرقية تمتد الى سيلان واليابان والصين واهمها : جزيرتان هما : جاوه وسومطرة . وكان الأندونيسيون الأقدمون وثنيين ، ثم جاءت بعد ذلك البرهمية والبوذية فانتشرتا بينهم ، وبعدهما جاء الاسلام . وقد دخل الأندونيسيون في الاسلام سراعا ، واعتنقوه باعداد هائلة حتى لم يبق على البرهمية والبوذية في الجزر الألف الا أقلية ضئيلة ، معظمهم يوجدون في جزيرة بالي . وقد تم اعتناق الاسلام في اندونيسيا بطريقة سليمة ، وبسرعة منقطعة النظير . إذ أقبل الناس

عليه ، ووجدوا في سماحة تعاليمه ما أنقذهم من الاضطراب النفسي الذي كان يسيطر عليهم نتيجة العقائد المتضاربة ، فدخلوا في دين الله أفواجاً . وما هي إلا فترة قصيرة حتى اكتسح الاسلام جميع الأديان الأخرى التي كانت منتشرة هناك . وسطع نور الاسلام في أرجاء الأرخبيل من أقصاه الى أقصاه . بدأ الاسلام في جاوه ، ثم امتد منها إلى سومطرة ، ثم الى سائر الجزيرة ، وحمله التجار العرب والهنود المسلمون الذين كانوا يتحركون بهمة فائقة عبر مختلف الموانىء بين الهند والصين ، ويرى المؤ رخون ان الفضل في ترسيخ أقدام الاسلام وتوطيد أركانه في كل من الملايو وأندونيسيا انما يرجع الى دخول « ملقا » في الاسلام واطراد قوتها في شبه جزيرة الملايو بحسبان انها مركز تجارة التوابل في الشرق . وما لبث حكامها أن دخلوا في القرن التاسع الهجري (١٥م) وشجعوا إقامة علاقات ودية مع أهل جاوه ، فأدى العمل إلى دخول هؤ لاء في الاسلام ، ومضى مسلمو ملقا يعملون للدعوة الاسلامية في شبه جزيرة الملايو ، وعلى محاذاة ساحل جزيرة سومطرة ، وأبرز الدعاة في جاوة تسعة يعرفون بالأولياء في مقدمتهم مولانا الملك إبراهيم اول من دعا للاسلام في أندونيسيا وهو مغربي الأصل .

وعندما فتح البرتغاليون ملقا (٩١٧هـ ـ ١٥١١م) كان الاسلام قد استقر واتسع في مختلف أرجاء الملايو وجزر أندونيسيا . ولكنه لم يتوقف عن الانتشار . ففي القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي ، كان الاسلام قد استقر في سومطرة ، الملايو ، ملقا ، جاوة . غير أن حركة تطويق العالم الاسلامي التي شقت طريقها من أوربا عن طريق التجار بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح لم تلبث ان أصابت ارخبيل الملايو بضغوط شديدة . فقد جاء البرتغاليون ثم تبعهم البريطانيون والهولنديون . وبذلك خضع مسلمو الملايو للسيطرة الأوربية قبل غيرهم من أجزاء العالم الاسلامي ، والمعروف أن البرتغاليين بعد أن استعادوا الأندلس « أسبانيا الاسلامية » كانوا قد قطعوا على أنفسهم عهداً بشنّ حملة صليبية ضاربة على الاسلام ، ولما لم يتمكنوا من ضربه في مكان القلب الذي كان العثمانيون يحرسونه ، فقد اتجه تفكيرهم الى إجراء تطويق واسعة ، وعندما بدأت أعمال التبشير الغربي في أرخبيل الملايو بدأت حركة هجرة كبرى من مسلمي الصين والهند إلى اندونيسيا كرد فعل للاسلام في جنوب شرق آسيا للعودة إلى

المجتمع الأم لانعاش الاسلام ، واتصل بها إرسال الطلاب لدراسة عميقة في مدن الحجاز المقدسة ، وفي الجامع الأزهر في القاهرة . وكان هؤلاء عند عودتهم ينشطون للقيام ببرامج تثقيفية اسلامية . ومن هنا استقر هذا الترابط العميق بين الأندونيسيين وبين المراكز الاسلامية القديمة في مكة والقاهرة ، وفي أواخر القرن الخامس عشر جاءت البعثة الهولندية إلى ميناء بنتام بجزيرة جاوة سنة ١٨٩٦ وأقامت شركتها (الشركة الهولندية لجزر الهند الشرقية سنة ١٦٠٢) فامتلكت الأراضي ، واتخذت الجيوش والأساطيل باسم التجارة ، ثم لم تلبث عام ١٦١٠ أن عينت حاكما عاما لها في مدينة نجاركتا .

وقد قاوم الوطنيون هذا النفوذ الجديد مقاومة عنيفة حتى أجبروا الشركة على الانتقال إلى جاكرتا بعد ان عقدت معاهدة مع سلطانها ، ثم تنازلت التركة عن املاكها في أندونيسيا للحكومة الهولندية عام ١٨٠٠ ، ولم يتوقف الأندونيسيون عن المقاومة ، فتوالت ثوراتهم وفي مقدمتها ثورة الأمير ديبونجارا في جاوة الذي استمرت الحرب بينه وبين الهولنديين خمس سنوات كاملة (١٨٢٥ - ١٨٣٠) خسرت هولندا خلالها عشرات الملايين من الجنيهات ، ولم تتمكن من آخماد الثورة الا بعد أن ألقت القبض على الأمير وهو جالس إلى مائدة المفاوضات . وفي سومطرة استمرت الحرب بين الهولنديين والوطنيين بقيادة علي الدين محمود شاه حتى يناير ١٨٧٤ وبقيادة تنكو عمر حتى قتل سنة ١٨٩٩ فتولت زوجته الفيادة إلى أن استطاع المستعمرون بعد خسائر فادحة أن يخمدوا الثورة سنة ١٩٠٤ .

وكانت هولندا قد تخلت عن نفوذها لفرنسا على اثر هزيمتها في أوربا . ثم عادت بعد هزيمة نابليون في معركة وارتلو ، فاستردت مستعمراتها ، وتم الاتفاق عام ١٨٢٤ . وكانت بريطانيا قد استولت على جاوة في هذه الفترة ، ثم تنازلت عنها مرة أخرى إلى هولندا مقابل نزول هولندا للانجليز عن شبه جزيرة الملايو .

ولم تتوقف روح المقاومة ولم تنطفىء حيث بدأت مرحلة جديدة هي : مرحلة جهاد الهيئات الاسلامية وكفاح الأحزاب السياسية وفي مقدمتها (حزب شركة اسلام - والحزب الوطني الأندونيسي) انتشر مبدأ المقاومة السلبية وعدم التعاون مع المستعمرين الذي حقق نجاحا باهرا عام ١٩٢٢ . ثم اندلعت الثورة

١٩٢٦ . واستمرت الى عام ١٩٢٧ . ولم تستطع هولندا اخمادهـا الا بعـد أن استعانت بانجلترا ، واستعملت أشد الأساليب وحشية ، وتزعم الحزب الوطني بقيادة سوكارنو ثورة جديدة ولم تلبث الأحزاب الأندونيسية أن تكتلت في جبهة واحدة عام ١٩٤١ مطالبة باتباستقلال . وفي مارس ١٩٤٢ استسلم الهولنديون في أنـدونيسيا للجيش الياباني بعـد أن احتـل الألمان هولنـدا ، واستـأنف الأندونيسيون مقاومتهم لليابان ، وقاموا بثورات عدة . وانهزم اليابان في الحرب العالمية واستسلموا في أندونيسيا ، هناك أعلن الشعب الأندونيسي استقلاله في ١٧ أغسطس سنة ١٩٤٥ . وقام الأندونيسيون في كل أنحاء وطنهم يهاجمون القوات اليابانية وينتزعون السلطة . غير أن بريطانيا كانت تدبر لهم مؤامرة جديدة لاعادة سيطرة هولندا مرة أخرى على أندونيسيا ، وقاوم الأندونيسيون بريطانيا وهولندا معا . وشنوا حربا غير متكافئة . وفي سورابايا دارت أضخم معركة حيث هاجم البريطانيون المدينة الباسلة من الجو والبحر والبر ليل نهار . وجرت عام ١٩٤٦ مفاوضات للاعتراف بسيادة أنـدونيسيا ، ولـكن الهولنـديين سرعـان ما غدروا بالاتفاق وشنوا هجوما جديداً عام ١٩٤٧ . واستمرت المقاومـة حتـى عقـدت الهدنة سنة ١٩٤٨ ولكن الهولنديين ما لبثوا ان غدروا مرة اخرى بشعب أندونيسيا الذي قاوم العدوان ببسالة حتى اعترف بالسيادة الكاملة لاندونيسيا عام ١٩٤٩ وان بقيت (الاجزاء الغربية) محتلة بالقوات الهولندية . وهكذا قاومت اندونيسيا المحتلين ثلاثـة قرون كاملـة ، وصارعـت البرتغـال والهولنـديين والفـرنسيين والانجليز واليابان .

- ٢ -

لم يتوقف الأندونيسيون عن المقاومة طوال حكم النفوذ الهولندي ، هذه المقاومة التي ترجع أساسا الى يقظة المسلمين ، وتأسيس اول جماعة من جماعات الاصلاح والمقاومة (شركة إسلام) وكان طابع المقاومة اقتصاديا وثقافيا . وقد كان لدعوة الشيخ محمد عبده ومجلته المنار أثرها في هذه الحركة . كما استفادت من تجارب قادة المسلمين في الهند . وقد كان من الطبيعي أن يتصدر المسلمون المقاومة لأمرين ، لأنهم أغلب سكان اندونيسيا حيث يبلغ عددهم أكثر من ٩٠ في المائة ، فهم يكونون بالحق مجتمعا اسلامياً . ولأنهم بحكم إيمانهم بالاسلام ووفق منطق القرآن لا يتوقفون عن مقاومة الغاصب . وقد تنبه المسلمون إلى خطرين أساسيين من أخطار الاستعمار الهولندي وهما : الاقتصاد والتعليم . ولذلك فإن الجماعة الأولى التي تكونت قد عمدت الى التركيز على هذين الخطرين . ولقد كان الاستعمار الهولندي حريصا على القضاء على القوة المعنوية لأندونيسيا روحا وعقيدة ولغة وثقافة ، مستهدفاً أن تصبح البلاد جزءاً من هولندا ، أو على حد تعبير المستشرق الهولندي جورنجيه : « أن تصبح أندونيسيا أمة هولندية تعيش في الشرق بروح هولندية قلباً وقالباً فتبني مجد هولندا في ثقافتها ، وتستعمل لغتها ، وتتخلق بعاداتها وتقاليدها .

ومن هنا فقد عمد الاستعمار الهولندي الى ابتزاز ثروات اندونيسيا الضخمة وفرض الثقافة الهولندية واللغة الهولندية على التعليم . فأصبحت لغة الدراسة في جميع المدارس الأولية والابتدائية والثانوية باللغة الهولندية التي اصبحت اللغة الأولى في اندونيسيا كما عمد الاستعمار الهولندي الى بث البعثات التبشيرية في مختلف أنحاء البلاد ، واعتمدت هولندا على هذه الارساليات في تثبيت اقدامها .

وقد كان التعليم الذي قدمته الحكومة الهولندية لأهالي اندونيسيا يتسم بأمرين :

(الأول) انه قاصر على نسبة صغيرة من الـذين يحتضنهـم الاستعمار ليكونـوا موظفين في الدواوين (الثاني) انه يقدم لهم الثقافة واللغة والتراث الهولندي .

وكان هذا المخطط شبيهاً بالمخطط الذي قامت بتنفيذه بريطانيا في مصر وفرنسا في المغرب ، فإذا اضفنا الى هذا مخطط التبشير المسلوق لمخطط التعليم عرفنا كيف واجـه الأنـدونيسيون هذا التحـدي بانشـاء المدارس والجمعيات لنشر التعليم الاسلامي .

غير أن الذين استفادوا من الدراسة الاسلامية كانوا قلة بالنسبة للذين اتصلوا بالمدارس التي أنشأها الاستعمار الهولندي ، والتي حملت لواء التجرد من الدين بكافة .

ومن خلال حركة التعليم الوطني الأهلي القائم على اعانات الأهـالي والتعليم الحكومـي القائـم على مناهـج غربية خالصـة ، والتعليم الـذي تشرف عليه الارساليات ، قامت مظاهر الازدواج الخطير في مجال الثقافة ، حيث نجد نوعين من التعليم : اسلامي خالص بعيد عن الدراسات العصرية ، وعصري خالص لا يمت إلى أصول الاسلام او الدين بسبب . والاستعمار في كل المناطـق التـي احتلها من عالم الاسلام كان حريصا على خلـق هذا الازدواج . وقـد حرص الاستعمار من بعد على أن يوكل أمـور الحـكم والسلطـة الى خريجـي مدارسـه بحسبانهم اقرب إلى التعاون معه ، واقل حماسة لقيم بلادهم وأممهـم ، أو على تعبير بعض المؤ رخين : « جعل منهم أداة صالحة لخدمة السياسة الاستعمارية ، والتعاون مع الهولنديين بروح الولاء . » ويتصل بهذا إرسال البعثات الى هولندا لاعداد ولاة منهم للفكر الغربي .

وقد كان لظاهرة البعثات التبشيرية في أندونيسيا أثرها وخطرها ، فقد نشرت المدارس في مختلف الأنحاء ، واستطاعت ان تضم عدداً كبيراً من التلاميذ نظراً لفقر البلاد وعجزها عن إنشاء المدارس . ومن ثم غلبت الثقافة الاجنبية واللغة الهولندية ، وظهر جيل يجهل أغلبه لغة قومه ودينه ، ولم تلبث أندونيسيا المسلمة التي غلبت البوذية والهندوكية ان واجهت منافسة خطيرة من البعثات المسيحية

فالاستعمار قد أدخل النصرانية إلى اندونيسيا ، واستطاع استغلال الظروف في اخضاع القلوب ، واعتمدت هولندا على غير المسلمين في تثبيت أقدامها ، واتخذت منهم جيشا ، وكونت منهم انصاراً وأصبحت منطقة (سولاويس) ملأى بالنصارى وكانوا أنصار هولندة ويتحدثون باللغة الهولندية بطلاقة منذ ليونة أظفارهم ، ويمتزجون بالهولنديين في المعاشرة الزوجية حتى أطلقوا اسماء هولندية على أولادهم وبناتهم ، وتطبعوا بأخلاقهم وصفاتهم وعاداتهم .

ولم يقف الاستعمار عند هذا الحد فقد « قيد الشعب الأندونيسي في حياته وشؤونه وفي الظروف المحيطة بحياته تفكيراً وعقيدة وثقافة ، وضغط على روحه ». وكما حمى الاستعمار الهولندي حرية الحركة للبعثات التبشيرية ، وأتاح لها فرصة العمل . فقد وضع نصوصا صريحة قوامها ان : « كل انسان حر في عقيدته وضميره ودينه . هذا الحق يشمل حرية تغيير العقيدة والدين ، وحرية القيام بطقوس دينه ، واظهار عقيدته » وبالطبع فما دام النفوذ الاستعماري مسيطراً على البلاد ، فإن حرية إظهار العقيدة وطقوسها سيكون أمراً موسعاً فيه لابداع الهولنديين ومضيقا فيه على غيرهم . وقد كشف باحث هولندي مسلم قدم إلى القاهرة في سنة ١٩٣٤ يدعى (فان بتيم محمد علي) خطة الاستعمار الهولندي في مجال التبشير فقال : إن الخطة التي تقوم بها هولندا في اندونيسيا ترمي الى افناء الاسلام واخضاعه والتحكم فيه . وفي أندونيسيا تتصارع الكاثوليكية والبروتستانتية والتعاليم الموجودة في كل منهما تناقض بعضها بعضا حتى انهم مختلفون في اعتقادهم في المسيح . وقال ان سياسة التبشير في اندونيسيا تمدها الحكومة بالنقود والمال ، كما نشر صحفا بها مقالات عاصفة في الهجوم على الاسلام . حتى ليمكن القول بأن سلطة الكنيسة في مستعمرات هولندا أقوى من سلطة الحكومة نفسها ، كما يجري تنصير من يذهب إلى هولندا من الأندونيسيين والصينيين ، ولا سيما طبقة الطلبة والمتعلمين الذين سيصبحون فيما بعد قادة البلاد وزعماءها . واذا تمكن رجال البروتستانت من تنصير الطلبة الأندونيسيين الذين هم الآن متحمسون للروح الوطنية القومية التي ترمي إلى استقلال اندونيسيا . فانهم باعتناقهم الدين المسيحي يشعرون بمساواتهم بالهولنديين في الدين ، فيتضاءل شيئاً فشيئاً هذا الروح الوطني و ويشحب نوره وبعد قريب ينطفىء

انطفاء تاما . وقد فتحت الحكومة أبواب أندونيسيا لهيئات التبشير من سائر الدول ، ويبدو تحيز الحكومة الهولندية في أنها خصصت ٧٦٥٠ روبية لاعانة الدين الاسلامي الذي يضم ٩٠ في المائة من السكان بينما خصصت مليون و٧٩٥ الف روبية لمساعدة عدة آلاف من الاندونسيين .

وتشير كثير من الأبحاث والتقارير في هذه الفترة أن حركة التبشير في أندونيسيا كانت تتلقى مساعدات خارجية من بلدان كثيرة غير هولندا ، ومنها كندا وفرنسا والفاتيكان وأمريكا والمانيا الغربية . وقد استطاع هذا العمل المستمر ان يكون طبقة من أعوان هولندا . هم في نفس الوقت خصوم النضال التحرري ، وذلك على نفس النمط الذي فعلته بريطانيا في مصر إبان الاحتلال - وقد اعتمدت هولندا على هذه القوة لقمع حركات التحرر في أندونيسيا . وان ظل موقف المسلمين منهم هو موقف « التسامح التام » بيد أن هؤلاء الاعوان كانوا يستغلون هذا التسامح استغلالا غير محدود ، فراحوا يشيدون الكنائس الضخمة في أحياء المسلمين ، وزادوا نشاطهم التبشيري في المراكز الآهلة بالسكان المسلمين . وقد باشر النفوذ التبشيري عملاً واسعاً في مجال تشييد الكنائس والملاجيء ودور الأيتام والمستشفيات ، وكانوا يدفعون أثماناً خيالية لامتلاك الأراضي الواقعة في أحياء المسلمين ، تمهيدا لاقامة مباني التبشير عليها . وقد تمركز التبشير الكاثوليكي في جزيرة تسمى (فاوديس) حيث تواجد بها . اذ بها أقليات اسلامية متناثرة في القرى .

****

ولا شك كان للتبشير أثره في مجال التعليم والثقافة بالمدارس الحكومية والمدارس التبشيرية ، التى كانت تعمل وفق مخطط واحد ، حيث تغرس مدارس الاستعمار في نفوس الطلاب المسلمين الالحاد في الدين ، كما تعمل مدارس الارساليات لتنصيرهم ، وكانت كلتاهما تغلب اللغة الهولندية والثقافة الغربية ، وكان طلاب هذه المدارس الحكومية من أبناء الطبقة العليا القادرة على دفع مصاريف التعليم . اما المدارس التبشيرية فقد فتحت أبوابها على مصراعيها أمام الشباب الأندونيسي في محاولة لتنصيره.

وكانت اهداف السياسة التعليمية جملة فهي ابعاد النشء عن دينه وحضارة أسلافه ، وتجاهل تاريخ مجد بلاده مع احياء اللغات الاقليمية المختلفة بقصد تفريق عناصر الأمة بعضها عن بعض ليشعر كل منهم أنه مستقل بلغته وتقاليده ، وتعليمه تاريخ بلاد المستعمرين : سياسيا وجغرافيا واقتصاديا بتوسع .

وعند مقارنة نسبة المتعلمين في أندونيسيا قبل الاحتلال الهولندي نجد أنها كانت عالية ، وان ثلاثة أرباع سكانها يعرفون الكتابة والقراءة ، فلما دخل الهولنديون أغلقوا أغلب المدارس ، وغيروا مناهج الباقي منها ، وحالوا دون نسوء تعليم أهلي .

في مواجهة هذا العمل التبشيري الواسع واجه الأندونيسيون مسؤ وليتهم الاسلامية بقوة ، وتقدموا باموالهم وتضحياتهم في سبيل الوقوف في هذه الموجة العاصفة . واذ كانت حركة المقاومة للاستعمار ، وحركة المقاومة للنفوذ الاستعماري في مجال الاقتصاد والتعليم والثقافة عملاً واحداً .

وكانت أندونيسيا شأنها في ذلك شأن مصر والعالم العربي ومختلف أجزاء العالم الاسلامي كله ، قد انبثقت فيها حركة المقاومة من خلال الهيئات الاسلامية التي حملت لواء النضال لفترة طويلة ، ثم انبثقت منها بعد ذلك الأحزاب والهيئات . وفي مصر كان الأزهر هو مصدر حركة المقاومة والوطنية . وفي السودان وليبيا بدأت المقاومة من خلال الحركتين المهدية والسنوسية . وفي العراق كانت الحركة الاسلامية في النجف هي مقاد الحركة الوطنية والثورة .

وفي أندونيسيا كما في مصر ظهرت اليقظة متمثلة في حركة الاصلاح الثقافي الاسلامي في الجزء العربي من سومطرة في أوائل القرن التاسع عشر بزعامة المجاهد المعروف (إمام بونجول) سنة ١٧٧٢ ـ ١٨٦٤ ـ وكان شعار الحركة « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده » وقد واجهت انتشار البدع والخرافات وما بلغته العقائد من تشويه بعادات وتقاليد لا تتفق مع التوحيد الصحيح . وقد كانت حركة الاصلاح الديني ضرورة حاسمة في أندونيسيا ، حيث لم يمض على استمرار الاسلام في أندونيسيا ثلاثة قرون .

وفي أواخر القرن التاسع عشر تجددت حركة الاصلاح بقيادة الشيخ أحمد الخطيب الأندونيسي الذي جاور في مكة وتلقى عليه الأندونيسي ، فلما عادوا اظهرت حركتهم في سومطرة الغربية منهم عبد الكريم امر الله وكان خطيباً شجاعا مجادلا بارعا ، وزين الدين يونس الذي أصدر مجلة المنبر لسان أنصار الاصلاح ، وهي أكبر المجلات الاسلامية في أندونيسيا ، وقد أنشأت هذه الحركة عديداً من المدارس جمعت بين الاسلام والعلوم العصرية ، وألف لها عبد الكريم أمر الله كتبا للدراسة بها وبسطها حسب عقول التلاميذ .

وقد كانت شركة اسلام هي أقدم هيئة احتضنت الحركة والمقاومة في مجال الاقتصاد والثقافة معاً . فقد أنشئت عام ١٩١١ بقيادة الحاج عمر سكر وأمينوتد . ثم الجمعية المحمدية التي أنشأها احمد دحلان ، وقد تقدمتها جمعية الأخلاق الفاضلة (بودي اوتومو) التي الفت في جاركتا ١٩٠٨ برئاسة الدكتور وحيد الدين الذي يعد بحق واضع أساس التنظيم للحركة الوطنية الحديثة . ويرى المؤ رخون الأندونيسيون ان جمعية الاخلاق الفاضلة كانت عماد الحركة القومية . فقد كانت الجمعية ثقافية اجتماعية ، ولكنها تحولت إلى جمعية سياسية وطنية لها الأثر الفعال في تحرير اندونيسيا ، ثم لم تلبث هذه الجماعات أن توحدت واندمجت بعد في جمعية ماشوى ، وواجه المصلح أحمد دحلان البدع والخرافات ، كما هاجم شبهات المبشرين .

وقد عرف بالصلاح والتقوى وصدق الايمان ، وقد انتصب زعيما اسلاميا ، ومعلماً اشتهر باللين من غير ضعف ، والكياسة مع صدق العزيمة في مواجهة الارساليات التي كانت تقوم بدعاية منظمة ضد الاسلام تعضدها قوات الاستعمار . وكانت الجمعية المحمدية هي ثمرة عمله حيث جعلها وسيلته المنظمة للعمل ، وعن طريقها أنشئت المدارس وانبعث الدعاة للتبليغ ، وقد أولت الحركة الاسلامية التي تحمل طابع الوطنية والاصلاح معاً اهتماماً كبيراً بالتعليم . بحسبانه الطريق الحاسم لمواجهة الغزو الهولندي ، والارساليات . فمنذ أسس الدكتور عبد الله بن أحمد ، والدكتور عبد الكريم امر الله جمعية المدرسين للمعاهد الاسلامية كثر من اعضائها البارزين من أتموا دراستهم في مصر

والحجاز ، ثم انشئت الكلية الاسلامية في سورابايا التي اشرف عليها الدكتـور سوتومو . وبذلك أخـذت الحـركة قيادة التـربية والتعليم ، وقـل الاقبـال على المدارس الحكومية التي تهدف إلى تعليم الهولندية وتاريخ أوربا . غير أن الحكومة الهولندية لم تترك هذه الحركة تمضي في طريقها رخاء . بل أخذت في عرقلتهـا وتوقيفها ، حيث اصدرت قانون رقابة المدارس الأهلية الذي أطلقت عليه قانون (المدارس المتوحشة) ١٩٢٣ . ومظهر القانون حماية المدارس القومية ، ولكنه في مضمونه يقوم على عرقلة تلك الجهود والقضاء على انطلاقة الحـركة الاسـلامية الاندونيسية في اختيار التعليم الذي يتفق مع عقائد الاندونيسي ووطنيته .

وقد كان من نتائج تنفيذ القانون ان اقفل الاحتلال ابواب المدارس الاسلامية بالقوة ، وشرد تلاميذها ، وزج مدرسيها في غياهب السجون .

وهذه الخطة أشبه بما فعلت فرنسا في الجزائر حين قامـت جمعية العلماء بقيادة العلامة : عبد الحميد بن باديس بإنشاء المدارس القـرآنية في مواجهـة مدارس فرنسا التي تقوم على اللغة الفرنسية والتاريخ الأوربي . غـير أن هذا التحـدي الذي واجه الأندونيسيين قد أدى الى عمل ايجابي حاسم . فقد اتحـد الشعـب بمختلف احزابه وهيئاته على الاحتجاج ، وكان للصحافة الاسلامية في أندونيسيا جهودها في هذه الحركة ، معلنة أن القانون عامل خطير في محو حرية الشعـب الأندونيسي في اختيار التعليم الصالح ، ومن ناحية أخرى فقد عمدت الحـركة الاسلامية إلى تعديل أساليب التعليم الديني . وادخال العلوم الحديثة ، وكانت مهتدية في ذلك بحركة إصلاح الأزهر وبما فعلته الحركة الاسلامية في الهند . وقد نجحت الفكرة وقامت مدارس جمعية نهضة العلماء ، وكان أبرز ما حققته هذه الحركة هي انها جمعت بين العلوم الحديثة والعلوم الاسلامية . وكان العلامة أحمد دحلان هو أول من نادي بذلك ، وحققه في مدارس الجمعية المحمدية في جاكارتا حيث يقول : « لا نريد من التعليم الحديث ان يكون على شاكلة تلك العلـوم المدنية الحديثة التي تطبع الاجيال المقبلة بالطابع المادي وتجعلها عبيداً للمادة كما هي الحال في أوربا اليوم ، وانما نريد فوق ذلك جعل الدين الاسلامي الصحيح أساساً للتعليم القومي لانقاذ تلك الأجيال من التيار المادي الجارف ، وجعله ركناً

من أركان قوى الشعب المعنوية التي لا يستغني عنها البشر في يوم من الأيام .

ويمكن القول إن السلاح الوحيد الذي اتخذه المسلمون في مصر والهند وأندونيسيا والمغرب كان هو اعتماد الهيئات الاسلامية على نفسها في إنشاء مدارس تجمع بين العلوم الحديثة والاسلام واللغة القومية .

***

ومن خلال هذه الهيئات الاسلامية انبثقت الأحزاب التي تعددت وتنوعت ، وكان في مقدمتها حزب ماشومي الاسلامي ، والحزب الوطني الذي قام على أساس سياسي قومي ، وقد حمل حزب ماشومي لواء الدعوة الى اقامة صرح الاسلام ، ويمكن ان نعتبره التشكيل الذي انصهرت فيه الحركة الواسعة النطاق . وكانت الجمعيتان الكبيرتان الجمعية المحمدية ، وجمعية نهضة العلماء قد تضامنتا مع هيئات اخرى في تشكيل ما اطلق عليه « المجلس الاعلى الاندونيسي » وقد حل هذا المجلس اثناء الحرب العالمية الثانية . وبعد الحرب واعلان الاستقلال التقت جميع الجماعات والهيئات الاسلامية في اندونيسيا على صعيد ، واعلنت تأليف منظمة : « مجلس الشورى لمسلمي أندونيسيا » وكلمة ماشومي هي اختصار لهذا الاسم ، وقد وضع حزب ماشومي تعاليم الاسلام في صلب مبادئه حاملا لواء التقدم ومقاومة الالحاد والدعوات المختلفة المعادية للاسلام .

وتهدف الحركة الاسلامية في اندونيسيا الى المطالبة باقامة النظام الاسلامي والاخذ بتعاليم القرآن وتطبيق احكامه .

وما زال الفكر الاسلامي في اندونيسيا قائماً وقوياً في مواجهة تحديات القوى الالحادية ، والتغريبية . وفي الجملة يمكن القول بان الحركة الاسلامية في اندونيسيا استطاعت ان تقاوم : النفوذ الاستعماري وحركة الارساليات ، والدعوات الالحادية ، وكل دعوة الى ابعاد الاسلام عن مجال المجتمع ، وخاصة في مجال التربية والتعليم .

وقد عملت الحركة الاسلامية في المجال الثقافي عملا كبيراً ، فكشفت عن

مقاصد الاسلام والتشريع الاسلامي ، وحاربت التقليد الاعمى ، والقت الضوء على حقائق كبيرة اهمها سماحة الاسلام وجوده ومعطياته ، وخاصة فيما يتعلق بأن باب الاجتهاد لم يغلق لمن تتوفر له شروط الاجتهاد . وقد استطاعت هذه الحركة وخاصة في مجال التربية والتعليم ان تحفظ للشعب الاندونيسي لغته ودينه في نفس الوقت الذي قدمت له معطيات الثقافة الحديثة العصرية . وقد سد هذا النشاط الثقافي كثيراً من النقص الناتج من احجام الحكومة الهولندية عن التوسع في نشر التعليم ، كما قضى ـ جزئياً ـ على خطة الارساليات التبشيرية .

وقد كانت للصحافة الاسلامية في أندونيسيا دوراً هاماً . فقد أظهرت كثيراً من الكتّاب والباحثين ، وهاجمت كثيراً من المواقف الاستعمارية مما أدى الى بروز الطابع الاسلامي في الحياة السياسية ، فاتخذته بعض الأحزاب أساساً لجهادها الوطني .

***

وقد واجهت حكومة الاحتلال الصحافة الوطنية والاسلامية بقوانين غاية في الصرامة والتضييق فأسقطت ٢٧ صحيفة في ساعة واحدة ، وسجنت الكثيرين ، وفرضت الرقابة على الصحف ، ومنعت الاجتماعات . وقد استطاعت الحركة الاسلامية أن تثبت وجودها عن طريق صحف تتحدث عن عظمة الاسلام وحسن تعاليمه ، وتراجم رجالاته ، وما بذلوا من جهد في سبيل نشر تعاليمه . وفيما يتعلق باللغة الاندونيسية فقد حرص النفوذ الاستعماري على أن يحول (أولا) : دون قيام لغة موحدة . (ثانياً) : أن يحول دون ارتباطها باللغة العربية . وذلك عن طريق نشر اللغة الهولندية ، وجعلها أساس التعليم في المدارس منذ المراحل الأولى . وللحفاظ على تعدد اللهجات حتى لا تتوحد أندونيسيا في لغة واحدة . ومع ذلك فقد استطاعت اللغة الأندونيسية « باهاسا هندونيسيا » وهي مشتقة من لغة الملايو الشائعة أن تفرض نفسها كلغة موحدة بدلا من ٢٥ لغة كان يتخاطب بها السكان وتتشعب الى ٢٥٠ لهجة محلية ـ اذ استطاعت الحركة الاسلامية والنهضة الوطنية ان تحقق تأكيد الوحدة

الاندونيسية بلغة واحدة . وقد كانت اللغة الأندونيسية تكتب بالحروف العربية . ولكن الهولنديين عمدوا الى تحويلها الى الحروف اللاتينية في أوائل القرن العشرين . ومع ذلك فان في اللغة الاندونيسية الان كثيراً من الكلمات العربية . ومنذ سيطر النفوذ الاستعماري على اندونيسيا ، اضمحلت اللغة العربيةٔ فيها ولم يبق لها نفوذ الا في مجال الدراسات الثقافية .

أما اللغة الهولندية فقد انتشرت انتشاراً كبيراً . اذ بقيت اللغة الرسمية للحكومة ثلاثة قرون كاملة ، حيث كان الهولنديون يعلمونها في المدارس دون سواها في الوقت الذي كانوا يحاربون فيه اللغات الوطنية في جميع الجزر المحتلة . وقد كان للاسلام دوره الواضح في الحركة الوطنية القوية العارمة التي استمرت ولم تتوقف ازاء نمو النفوذ الاستعماري الهولندي ، ويظهر ذلك في كتابات الحاج عمر سعيد عام ١٩١٣ .

« ان الاسلام يدعونا الى الجهاد لاعلاء كلمته ، وسيعلو الاسلام في هذه البقعة الاسلامية التي يعيش فيها ما يزيد على سبعين مليوناً من المسلمين » .

وبالقاء نظرة الى حزب شركة اسلام الذي قام في مواجهة الاحتلال الهولندي نرى ان العمل بدأ في مجال الاقتصاد أساساً للمحافظة على الثروة الأهلية ، وأشاد صناعات تقوم بها الأيدي الوطنية ، ويتجلى ذلك في برنامج الجمعية الأساسية ـ.

(١) ملاحظة شروط الدين الاسلامي في العبادة والمعاملات .
(٢) القيام بأعباء الحياة التي يتطلبها الدين .
(٣) انهاض الحركة الفكرية .
(٤) الدفاع عن الاسلام .

وقد كان الاهتمام بالناحية الاقتصادية مرتبطاً بالعمل في مجال الاقتصاد والتعليم ايماناً بمفهوم الاسلام نفسه المتكامل ، ومواجهة الاثار الخطيرة التي ترتبت على الاحتلال الهولندي لأندونيسيا حتى قيل انه لو جمعت الأموال التي سلبتها الحكومة الهولندية من الأندونيسيين منذ استعمارها أندونيسيا الى اليوم

لأمكن بناء جسر عظيم من ذهب يمتد من أندونيسيا الى هولندا .

وفي أنـدونيسيا يوجـد زيت البتـرول ومـزارع المطـاط ، ومنتجـات البحـر والذهب . والمعروف أن عصر الاستعمار في أندونيسيا استمر من سنة ١٧٩٩ - ١٩٤٥ وان كانت طلائع الاستعمار الهولندي في جاوة بدأت سنة ١٥٩٥ باسم شركة الهند الشرقية الهولندية .

(٧)
افريقيا : قارة الاسلام

- ١ -

اقتحم الاسلام القارة الافريقية من جهتين . وكان لكل جهة منهما مسارها وتكوينها وعمقها : شرق افريقيا وغرب أفريقيا .

أما شرق أفريقيا فترجع الى اتصال الموانىء الافريقية بالجزيرة العربية ، ويمكن القول بأن الاسلام قد دخل أثيوبيا قبل أي بلد افريقي آخر ، وذلك عن طريق الهجرة الأولى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم تلبث الدعوة الاسلامية أن انتشرت على أيدي القبائل التي هاجرت الى أرتريا ، والصومال ، واثيوبيا . حتى أصبح الاسلام هو دين الغالبية في هذه المناطق . والمعروف ان هذا الساحل (شاطىء الصومال وكينيا وتنجانيقا) كان مجال التجارة العربية ، فلما جاء الاسلام واعتنقه العرب تحولت تلك الى مراكز اسلامية على الشاطىء الشرقي الافريقي تتحكم في طرق التجارة الى داخل تنجانيقا ، وقلب الكونغو ، وتمتد الى بحيرة فكتوريا . وكان من نتيجة اتصال العرب بالاهالي ان ظهرت اللهجة السواحلية ، وهي تمتد من اللهجات المحلية الافريفية التي يتحدث بها اغلب شعوب القارة ، وهي خليط من الفاظ زنجية وعربية وفارسية وهندية[١] .

ويعلق المؤرخون اهمية كبرى على الدفعتين القويتين اللتين فدمتا احداهما من الشمال ، والاخرى من عمان عن طريق الخليج العربي في القرن الثاني الهجري . وقد اتجهت الاولى الى ارتيريا ، والثانية الى صومال ، واثمرتا

---

١ - (محمد عبده مخلوف) مجلة نهضة افريقيا ١٩٥٧ .

نجاحاً هائلاً ، حيث تأسست (موجاديشو) سنة ٨٦٠ التي أشادها عرب وفدوا من الأحساء على الخليج العربي ، ومن الصومال نفذ الاسلام جنوباً الى سواحل تنجانيقا وكينيا في القرن الثالث الهجري .

- ٢ -

أما منطقة غرب أفريقا فقد انتشر الاسلام فيها عن طريق قبائل البربر المغربية التي اعتنقت الاسلام ، وعن طريق غرب السودان ، حيث يوجد خط القوافل التجارية المسافرة الى غرب افريقيا . ومن المغرب انتشر الاسلام في السنغال ومملكة غانا القديمة ، وامتد الى داهومي الشمالية . وكذلك نيجيريا وسائر غرب أفريقيا انتشر فيها الاسلام عن طريق اهل المغرب ورجال الطرق الصوفية ، ولم يلبث النيجيريون ان اصبحوا دعاة للاسلام في ترحالهم على الأقدام للحج سنوياً مخترقين قلب أفريقا الى غرب السودان فشرقه ، ثم عابرين البحر الاحمر ، ومن غب افريقيا وسع الاسلام آفاقه وسط القارة .

وترجع أهمية التوسع الاسلامي في غرب افريقيا الى مقام دولة (المرابطين) القرن الخامس الهجري . حيث توصف هذه الفترة بانها فترة انتعاش للاسلام ، وكان ابرز مظاهر هذه الحركة الاندفاع نحو الجنوب الى جبال ادرار ، ثم الى البلاد المعروفة باسم موريتانيا ، ثم الى نهر السنغال ، حتى اذا كان القرن التاسع الهجري (١٥ م) اتسعت حركة انتشار الاسلام واللغة العربية في هذه المناطق ، ولم تلبث ان اتسعت في القرن العاشر الهجري حيث استطاع الاسلام ان ينتشر بين القبائل ، ويحل محل الديانات الوثنية في السنغال حيث اعتنق الاسلام حوالي مليون و ٣٠٠ الف من مليونين هم مجموع السكان[١] . وفي مالي والسودان الفرنسي سابقاً تأسست في القرن الخامس الهجري (١١ م) دولة بربرية عن طريقها انتشر الاسلام في قبائل السودان الفرنسي . فلما تولى المغاربة حكم هذه البلاد زادت نسبة المسلمين فيها الى اكثر من ٦٠ في المائة ، وفي جامبيا وغينيا انتشر الاسلام انتشاراً هائلاً . وكان

---

١ ـ دكتور عبد الرحمن بدوي (مجلة نهضة افريقيا)

لقبيلتي الفولا والألمامية أثر كبير . وكذلك كان لرجال الشيخ عمر أثر واضح ، فأصبحت الأغلبية اسلامية . وكذلك في اقليم النيجر ، قامت دولة اسلامية واسعة ، وأنشأ الطوارق سلطنة بربرية منذ القرن العاشر الهجري . فانتشر الاسلام في هذه المناطق .

***

أقبلت بعد ذلك مرحلة الغزو الاستعماري الذي بدأته البرتغال وأسبانيا وتبعتهما باقي الدول الأوربية . وقد استطاع المسلمون في أفريقيا مقاومة الغزو البرتغالي والأسباني المتقدم الذي بدأ في أوائل القرن التاسع الهجري (١٥ م) بعد سقوط الأندلس . غير أن الاستعمار الفرنسي والبريطاني لم يلبث أن حل محل النفوذ البرتغالي والأسباني . وقد استطاع هذا النفوذ ان يستمر طويلا ، ويمكن القول بأن العقدين الاخيرين من القرن التاسع عشر ، كانا اشد مراحل الغزو الأوربي لأفريقيا قسوة واندفاعاً . وفي خلال الفترة بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر ، استطاع الاسلام ان يحقق توسعات ذاتية كبيرة . فعندما انهزم البرتغاليون في القرن الثامن عشر ، نقل سلطان مسقط عاصمته إلى زنجبار ، وأصبح الساحل الشمالي لشرق أفريفيا اسلاميا . غير أنه في القرن التاسع عشر الميلادي ، وفي إبان حركة التوسع الغربي في أفريقيا كان الاسلام يمر بأزهر فترات توسعه التي أوقفتها حركات الاحتلال والغزو وعوقتها . وإن كانت قد استطاعت من بعد أن تحقق نتائج هامة في مجال التحدي للارساليات التبشيرية . ففي هذه الفترة استطاع التاجر المسلم ورجال الصوفية والدعاة المنقطعون للاسلام إدخال عديد من القبائل الوثنية في الاسلام في تنجانيقا وكينيا وزنجبار ، واستطاعت بعض هذه الأمم أن يصبح الاسلام دين الأغلبية فيها كما حدث في أوغندا . وكان للتجار العرب الوافدين من الخليج الفارسي أثر واضح في نشر الاسلام في كومور وجزر المحيط الهندي (مدغشقر - سيشل - البرلوتبون - موريس) . حتى بلغ المسلمون في مدغشقر وحدها مليون نسمة .

وكان للجاليات الاسلامية التي وفدت من الهند والملايو واستقرت في

المناطق الواسعة الممتدة من الكاب في جنوب أفريقيا الى كينيا شمالاً اثرها في نشر الاسلام . وقد بلغت ٥٠ ألف هندي (٤ الاف ملاوي) حتى لقد اعتنق الاسلام في هذه المناطق من السكان السود . وكان للاسماعيلية والاحمدية (وهما طائفتان من مسلمي الهند) أثرهما في نشر الاسلام ايضا . كما كان للتجارة أثرها الواضح في ادخال الناس في الاسلام نتيجة لهجرة العمال من قبائلهم انتجاعا للرزق .

ويرجع الكثير من الباحثين الفضل في انتشار الاسلام بين قبائل الزنوج في أفريقيا منذ القرن ١٨ الى نشاط الدعاة من أرباب الطرق الصوفية الاسلامية . وقد وجد فيه الزنوج الطمأنينة بفضل نظامه الاجتماعي ، وما يتمتعون في ظله من أمن خلال أسفارهم للتجارة ويسر في فرائضه . والاسلام دين فطرة سهل التناول ، سهل التكيف والتطبيق على مختلف الظروف . ولعل هذا من أهم العوامل التي سهلت اعتناق الوثنيين للاسلام .

وقد بدل الاسلام مظاهر الحياة في البقاع التي دخلها ، وأسبغ روح النظافة حيث يتميز المسلم عن بقية الناس بلباس فضفاض فضلا عن تخريم لحم الخنزير .

ومشايخ الطرق في هذه المناطق يتمتعون بالتقدير بحسبان أن الله أرسلهم هداة ، ويعتبرهم الخاصة مربين روحانيين يوجهون النفوس ، ومن أهم مظاهر الاسلام مسايرته لطبيعة الثفكير الخاص بالعقلية الزنجية (هوبير ديشان) .

وقد أشارت صحيفة دي وشنطون بوست إلى أهمية الدور الذي يقوم به الاسلام فقالت :

ولا شك كان لعدد من الطرق الصوفية أثرها البعيد وفي مقدمتها : الطريقة القادرية : التي توسعت في أفريقيا السوداء في جنوب أفريقيا الطريقة التيجانية : في القرن ١٨ بمدينة فاس حيث تتميز بشدة معارضتها للوثنية وهي طريقة الحاج عمر التي حققت انتشاراً واسعاً في أفريقيا السوداء . وتركزت في أفريقيا الغربية جهود المرابطين المغاربة ، وجلهم من اتباع الطريقتين القادرية

والتيجانية . وقد امتد نشاطهم من السنغال إلى غينيا والسودان حتى سواحل العاج ومستعمرة النيجر .

وهناك دور هام لا سبيل إلى تجاوزه هو : أثر الدعوة السنوسية في طرابلس وأفريقيا ، وكذلك أثر الحركة المهدية في السودان .

(٢)

لقد حقق انتشار الاسلام في أفريقيا نتائج بالغة الخطورة لا يمكن تقديرها الا بتصوير قوة زحف الارساليات التبشيرية الغربية والمبالغ الطائلة التي تنفقها الدول الأوربية عليها ، ويمكن القول بأن تزايد قوة التوسع الاسلامي الذاتي راجع إلى مواجهة هذا التحدي أصلا ، ويعترف هوبر ونشان مؤلف كتاب « الديانات في أفريقيا السوداء » وهو أحد حكام المستعمرات الفرنسية بأن انتشار الدعوة الاسلامية ـ في غالب الظروف ـ لم يقم على القهر والتسلط ، بل قام على الاقناع ، لأن الذين قاموا به كانوا مشايخ متفرقين لا تحوطهم قوة ، او تحميهم دولة ، وإنما كان الاخلاص دافعهم الى اظهار محاسن الاسلام وسماحته ، وقد يسر انتشار الاسلام ، أنه دين فطرة سهل التناول ، خال من التعقيد لا يفرض على المسلم طقوساً ما . بل لا يتطلب سوى النطق بالشهادتين ولذلك كان التجار والمسلمون من الديولا او الهوزا يحملون بذور الدعوة الاسلامية في سماحة ويسر . بل إن الاسلام قد خالف ظن المبشرين والمراقبين الغربيين الذين كانوا يظنون أنه لا يستطيع الانتشار الا في مناطق الشمال حيث تكثر الفيافي والقفار ، دون أن يستطيع اجتياز حاجز الغابات الحادة في الجنوب والتوسع في أوساط سكانها ، فإن تقدم الاسلام في سيراليون وشاطىء العاج وشاطىء الذهب وداهومي أثبت بما فيه الكفاية ـ على حد تعليق جريدة نيويورك تايمس ـ كم كان ذلك الاعتقاد بعيداً عن الصواب .

وقد شهد بالحقيقة بعض الباحثين أمثال بورورت سمث في كتابه : Mohamed and Morpmmedons الذي أوضح كيف انتشر الاسلام سريعا في افريقيا ودانت له ، وكيف اجتاح اغلب دول أفريقيا دون مقاومة تذكر ، وكيف امتدت موجة الاسلام جنوبا الى الشمال الغربي من مراكش حيث بلغت في زمن

الفتح النور ماندي تخوم تمبكتو ، ووصلت شرقاً وجنوباً حتي بلغت في القرن الثالث عشر (١٩م) بحيرة تشاد التي تصافح علي ضفافها العرب القادمون من الشرق مع اخوانهم القادمين من الغرب . وقال « انا لنسمع عن قبائل بأسرها تطرح جانبا الوثنية والشعوذة وعبادة الشيطان لترقى إلى أعلى مستويات العقيدة الدينية . وقد لاحظ المسافرون الغربيون رغم كل رغبة من جانبهم في عكس هذا ـ ان الزنجي الذي يعتنق الاسلام لا يلبث أن يجتلي شعوراً بالعزة والكرامة الانسانية لا تلمس مثلها عادة بين هؤلاء الذين ينضمون الى عيره ، ونقول ونحن متأكدون من جميع النواحي أن للسكان المسلمين رغبة عاطفية في التعليم وحيثما يوجد عدد المسلمين يسرعون إلى انشاء مدارسهم الخاصة ، ومنهم غير قليل يقطعون المسافات الشاسعة للحصول على أفضل تعليم .

ويلاحظ مراسل صحيفة ذي وشنطون بوست أنه في خلال هذا القرن فد تحولت قرى بأكملها الى الاسلام في بحر سنوات قليلة ، ففي فولتا العليا اعتنق الاسلام « موغانايا » ملك الموسى مع مئات من رعاياه . ومنذ الحرب العالمية الثانية تقدم الاسلام تقدما مماثلا في ليبريا وساحل العاج والكونعو . ويوجد الأن في السنغال وجامبيا وغينيا ومالي وموريتانيا والصومال وزنجبار والنيجر وتشاد اكثر من ٨٠ في المائة مسلمون ، ونفس الشيء تجده في شرق أفريقيا . ويعلل اسباب تفوق الاسلام الى أنه أكثر بساطة . إذ ليس فيه أسرار مذهبية او تعذيب للضمير ، فالاعتقاد بالله واحد وتمجيد نبيه هما الشرطان الأساسيان في الاسلام ، فضلا عن أنه يجيز تعدد الزوجات .

وقد لاحظ جنتر في تطوافه في أفريقيا حسبما سجله في كتابه : « داخل أفريقيا » أن أهم عوامل انتشار الاسلام أنه ليس فيه تمييز عنصري ، ومن ثم لا يقوم حاجز يمنع تحول البانتو أو الزوج إلى رحابه . وفد انتشر انتشاراً شاملاً عميما بين عباد الأوثان والحيوان ، لأن شعائره مبسطة للغاية ، وترجع أهمية الاسلام في نظر الأفريقيين الى أنه نظام اجتماعي كما هو دين ، يمنح المومن اعتقاده بالمساواة بين جميع المؤمنين .

ولقد أشار ولفرهامبتون في بحث له نشرته جريدة التيمس عام ١٨٨٧ نتائج

انتشار الاسلام فقال : إنه عندما تدين به أمة من الأمم الافريقية تختفي من بينها في الحال ، عبادة الأوثان ، وتحرم أكل لحم الانسان ووأد البنات ، وتضرب عن الكهانة وتأخذ أهلها في اسباب الاصلاح وحب الطهارة ، ويصبح عندهم قرى الضيف من الواجبات الدينية ، وشرب الخمور من الأمور الممنوعة ، ولعب الميسر والأزلام محرمة ، والرقص القبيح ، ومخالطة النساء اختلاطاً دون تمييز منعدمة ، يرون عفة المرأة من الفضائل . أما الغلو في الحرية والتهتك وراء الشهوات البالية فلا تجيزه الشريعة الاسلامية ، والاسلام هو الذي يعمم النظافات ويقمع النفس عن الهوى ، ويحرم إراقة الدماء ، والقسوة في معاملة الحيوان والأرقاء ، ويحض على الخيرات ، ويقول بالاعتدال في تعدد الزوجات والعدل في الاسترقاق ، وزيادة على ذلك فالاسلام عفيف بالكلية عن الشركات الدينية والتجارية وفي غنى عنها بالمرة ، والتجارة الأوربية تمهد وسائل المسكرات ، وتسوم الشعوب خسفا واذلالا ، والاسلام ينشر لواء المدنية القائلة بالاحتشام في الملبس والنظافة والاستقامة وعزة النفس .

وفي نفس العام يكتب جوزيف توميسون في التيمس عن انطباعاته بعد رحلة استكشافية في قلب أفريقيا : إذ بلغنا غربي أفريقيا والسودان الأوسط نجد الاسلام كجسم قوي تدب فيه روح الحياة والنشاط ، وتتحرك فيه عوامل الحماسة والاقدام ، كما كان في أيامه الأولى فترى الناس تدخل فيه أفواجاً أفواجاً ، وتقبل عليه باقبال عجيب يشبه أيامه السالفة ، نرى أشعة نوره منبعثة من شوارع سيراليون ، واخذه في انارة بصائر القبائل المنحطة في وهاد الجهالة الآكلة لحوم البشر عند منبع النيجر ، رأيت أن أعظم فتوحات الاسلام في أواسط السودان وغربه كانت على يد جماعة سليمي الطوية منخفضي الجناح ، وكان قائماً بنشره واتساع دائرته رجل يدعى « فيللاني » وكان يفترش الأرض ويلتحف السماء ، وفي الأزمان الحاضرة كان القائم بأمره تاجراً ذا همة واقدام يقال له « هوذا أونوبيه » وفي أوائل القرن الثاني عشر (١٨م) كان ذاك الراعي يجهد نفسه في نشر لواء ديانته من بحيرة تشاد إلى الأقيانوس الأتلانتيكي فحصل من ذلك أن أشرقت شمس الاسلام في سماء هذه الجهة بأجمعها ، وظهرت في أواخر القرن الماضي عدة فئات من المسلمين لم يكن يعوزهم الا رئيس يحمي

ديارهم ،، ويدفع عن هذه البلاد غائلة الوثنية ، فلما قيض لهم في هذا الجيل رجل يسمونه « فودبو » لم يمض غير قليل زمن حتى ساد الاسلام ، وامتد جناح سلطانه بسرعة غريبة في بلاد شاسعة واسعة ، وانتشرت سلطته على القبائل المتبربرة ، فأصاب فوزاً عظيماً .

ويضيف الكاتب عن سلوك دعاة الاسلام في أفريقيا وطريقة عملهم :

ان زعيم الاسلام في هذه السنوات هو التاجر السوداني الذي كان يعتمد في مهماته على تقواه ويستعين بها على أعماله ، وكان يتوغل في كل قبيلة على مسافة بعيدة من بلده ، ويختلط بالوثنيين المتبربرين ، وكان يبيت معهم ويأكل معهم من طعام واحد ، وكان أينما حل أو ساد لا يألو جهداً من توسيع نطاق ديانته وإظهار مزاياها الخالية من الالتباس والوعظ بها بين الناس ، وفي الحقيقة ان الفرائض والسنن التي يعظ بها لا يعسر فهمها على أخيه الوثني ، ولا تخرج عن قوة إدراكه . هذا التاجر كان يقيم تارة شهراً وطوراً ستة أشهر او سنة في خلال هذه المدة تراه موضع التعجب والاستحسان لنظافة ملبسه . ولذلك ينكب الناس الذين حوله على تقليده واتباع طريقته ، وهم لا يرون شيئاً نصب اعينهم الا ويتطلع اليه امامهم ، وليس في ديانته شيء مبهم عليه معرفته ، وعلى هذا انغرست بذور المدنية في عدة قبائل همجية ونما بينها الاسلام نمواً هائلاً .

هذه صور توسعات الاسلام الذاتية في العصر الحديث كما يصورها عدد من المراقبين الأجانب ، ترسم طبيعة هذا الدين وقدرته على الذيوع في مواجهة التحديات التي تعرض لها من خلال جائحة الاستعمار التي واجهت القارة الأفريقية في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر .

والحق أن الأمور لو مضت على طبيعتها دون تدخل القوى الأجنبية والاستعمار ، وترك لدعاة التبشير من الأديان المختلفة حرية العمل لاستطاع الاسلام واللغة العربية معه أن تحرزا تفوقاً واضحاً وتوسعاً ضخماً في أفريقيا . غير أن النفوذ الاستعماري كان حفيا بأن يوقف هذا النشاط ويعوقه .

- ٣ -

الاستعمار والتبشير

والمعروف أن النفوذ الاستعماري الزاحف قد أفسد المجتمع الأفريقي وقضى على عوامل الازدهار فيه ، وحاول ان يغير صورة التاريخ ، والحاضر القوي ، ويقضي على آثاره الحية ، وذلك كمحاولة لتصوير الوجود الاستعماري بأنه كان عاملاً من عوامل التنوير والثقافة ، والنهضة ، والحق أن المتسعمرين ادخلوا [١] نظمهم السياسية وقواتهم العسكرية الأوربية ومنظماتهم التبشيرية إلى أفريقيا ، وقضوا على السلطات الاسلامية ، أو سلبوها سلطانها ، ووضعوها تحت الوصاية ، وفرضوا العزلة على هذه البلاد وقطعوا صلاتها بالعالم الخارحي ، وطوقوا المارة الأفريقية بالقواعد العسكرية ، ونهبوا ثرواتها ، واستعبدوا اهلها ، وحاربوا الثقافة الاسلامية حرباً غير متكافئة ، فرفضوا اللغات الأوربية على أفريقية ، وانشاؤا المدارس التي ثبت ثقافتهم وافكارهم ، وخاض الاسلام في أفريقيا معركة حياة أو موت ، وهي حركة يرى الدكتور حسن محمود أنها لم يؤرخ لها بعد تاريخاً شافياً .

والمعروف أن الاستعمار في أفريفيا قد حرص على أشياء هامة في مقدمتها : طمس معالم الحضارة الاسلامية والتراث الاسلامي بها حتى لا يستطيع المسلمون التعرف عليه ، واقامة دعوى حطيرة بأن هذه البلاد كانت مجهولة وغير متحضرة ، وان رجال الاستعمار الأوربي أمثال (لفنجسون وبكرك وستانلي) هم الذين اكتشفوها مع انها كانت مكتشفة فعلا ، وللمؤرخين والرحالة المسلمين أبحاث مسجلة عنها ، وكذلك عمدوا الى نقل التراث

---

١ - حسن محمود - الاسلام والثقافة العربية .

الاسلامي الى العواصم الأوربية رغبة في اخفائه والقضاء عليه ، ثم مضى الاستعمار فحمل على التجار العرب في أنحاء أفريقيا . والذين كانوا يحملون معهم الاسلام حملات عنيفة متهما اياهم بانهم تجار الرقيق . وبذلك وضع قيوداً على تنقلاتهم حتى يفسح المجال للبعثات التبشيرية التي تدفقت على مختلف الاماكن تبني مداوسها وكنائها ومستشفياتها وتحاول اغراء المسلمين قبل اغراء الوثنيين ـ بتقديم خدماتها .

وقد أشار الزعيم محمد فريد في ابحاثه عام ١٨٩٨[١] الى خطة الاستعمار في افريقيا . وكان ذلك في ابانها فقال : ان مبادئهم ارسال الرواد اولاً بدعوى اكتشاف المجهول من البلاد ، ثم يتبعهم التجار والمرسلون الدينيون لتمهيد الطريق . وعندما تنتشر تجارتهم في البلاد ويصبحون اصحاب منافع عظيمة يؤلفون الشركات الكبرى التي تمنحها الحكومة حق تعبئة الجيوش وضرب العملة ووضع القوانين والاحكام حتى اذا ما فتحت البلاد ودوخت العباد حلت محلها الحكومة نفسها ـ بعد التعويض على مساهمي الشركة ، فتملك الدولة المحتلة بذلك بلاداً واسعة لو ارادت أن تفتحها بالقوة بادىء بدء لكلفتها الأموال الطائلة والنفوس العديدة .

* * *

وقد استهدف الاستعمار الفرنسي والبريطاني في أفريقيا ـ وهو أبرز القوى الاستعمارية ـ القضاء على مقومات المسلمين في أفريقيا ، وذلك بوسائل مختلفة أهمها القضاء على اللغة العربية والثقافة الاسلامية والتراث الاسلامي ، وكل ما يتصل بتاريخ الفترة المزدهرة التي عاشها المسلمون قبل اتساع النفوذ الأجنبي . ولذلك فان التركيز الاستعماري كان على الثقافة أساساً عن طريق : نشر المدارس والمؤسسات التبشيرية والارساليات والقضاء على المدارس الوطنية ، واعدد المدارس التي تشرف عليها الحكومة ، واعداد الارساليات ، وينصب عملها على نشر لغة المستعمر ودينه وتاريخه وتغذية اللغات الاقليمية

١ ـ مجلة الموسوعات ١٨٩٨ .

القومية وايقاف اللغة العربية الأم وتجميدها .

ويتجاهل الاستعمار الفرنسي اللغات واللهجات المحلية منذ التعليم الأولي والابتدائي حتى ينشأ الجيل كله يتحدث بالفرنسية ـ ويختار الصفوة فيرسلهم الى فرنسا ليتشبعوا بثقافته ومفاهيمه ، وهؤلاء هم الذين يعملون في دولاب الحكومة مع رجال الاحتلال بينما يترك بقية الأهالي على اميتهم . كما يعتبر الفرنسي الأرض الأفريقية جزءاً من فرنسا ، ولذلك فهو يوزع صحفه الفرنسية (الفيجارو والموند) في غرب أفريقيا ويعتبرها صناعة وطنية .

أما أسلوب الانجليز فيختلف قليلا ، ولكنه يرمي إلى نفس الغاية حيث يفصل الانجليزي بينه وبين الذين يحتلهم ، ويدرس اللغات المحلية في المراحل الأولى ، ثم يدرس لغته في المراحل المتقدمة وهو ينمي الاقليمية في اللغة والتراث ، ويدعو إلى بعث الثقافات القديمة البالية السابقة للاسلام رغبة في الفصل بين المسلمين وبين ماضيهم القريب .

ويعمد البريطانيون[1] الى عزل مختلف المناطق الأفريقية عن الجو العربي الذي قد يكون موجوداً بين الافريقيين ، ومن ذلك أنهم حولوا أهالي شرق أفريقيا (كينيا وأوغنده وتنجانيقا وزنجبار) من كتابة اللغة السواحلية بالحروف العربية إلى كتابتها بالحروف اللاتينية .

كما يعمد الاحتلال البريطاني إلى السيطرة على الصحف ، وذلك بتحريك قضايا وشبهات من شأنها أن تثير الخلافات بين المذاهب المختلفة ، وتحول دون وحدة الأمة ، فهو يثير مشكلة الأقليات أحياناً ، والخلافات المذهبية او السياسية احياناً ، او ينادي بانفصال مناطق معينة ، ويتلخص مفهوم الاحتلال الغربي (بانواعه): فرنسا وبريطانيا وبلجيكا هو أنه رسول الحضارة ، وناشر المدنية وصاحب الرعاية الأبوية ، والتوجيه الديني ، ولطالما اعلنوا في كتاباتهم « أنهم أصحاب رسالة إلى شعب ليس له أن يبدى رايه في أمور يعرفونها هم ، وإنما عليه ان يقبل الرعاية الأبوية كطفل صغير » .

---

١ ـ حلمي شعراوى ـ في بحث له عن الثقافة العربية في افريقيا (مجلة نهضة افريقيا) .

هم ، وإنما عليه أن يقبل الرعاية الأبوية كطفل صغير ».

ويغلب على التوجيه الثقافي والعلمي روح التبشير والارساليات ، حيث يترك الاحتلال البلجيكي للبعثات التبشيرية الاشراف الكامل في المجال التعليمي ، وخاصة التعليم الابتدائي . وقد كان للبلجيكيين ٧٢٠ مجموعة تبشيرية تضم حوالي (٦) آلاف مبشر معظمهم من الكاثوليك ، ولغة التعليم هي الفرنسية .

غير أن الاستعمار الفرنسي والانجليزي والبلجيكي قد رأى معظم الذين يسافرون إلى اوربا من صفوة أبناء البلاد الممتازين لقيادة مجتمعاتهم ، وأصحاب الولاء الواضح للنفوذ الاستعماري انما يعودون بروح غير روح الولاء ، ويسجل ذلك جورج باديمور حيث يقول : نحن نرى الذين يزورون أوربا ويتلقون تعليما عاليا فيها لا يعودون الى بلادهم بروح الحضارة من البلد الأم ، ولكنهم يعودون بروح معادية للبلد الذي فتح لهم أبواب الحضارة .

***

ويمكن القول بأن الغزو الاستعماري في أفريقيا حمل لواء ثلاث عمليات خطيرة :

(اولا) : عملية تجارة الرقيق حيث عمد إلى خطف اكثر من عشرين مليونا من أهالي أفريقيا ، وأرسلهم الى أمريكا . وقد مات منهم في الطريق عدد كبير . وقد فعل هذا ، بينما كان يثير حملات عنيفة متهما التاجر المسلم المتنقل بين أرجاء أفريقيا بأنه يعمل في تجارة الرقيق ، وقد شهر للمسلمين والعرب كثير من الباحثين المنصفين ، وردوا هذه الشبهة المضللة وفي مقدمتهم بوذورت سميث حين قال : ما كان التجار العرب الذين توغلوا في القارة الأوربية ليقترفوا في يوم من الأيام جرائم الخطف والاسترقاق التي اقترفها المستعمرون . بل كانوا رسل حضارة وايمان الى هذه القارة .

(ثانيا) : عمليات التبشير حيث تدفقت البعثات التبشيرية الأوربية المختلفة من الكاثوليك والبروتستانت لنشر المسيحية واللغات الأوربية ، ومقاومة الاسلام ، والثقافة الاسلامية ، وقد سار التبشير في ركاب الاستعمار وارتبط

(ثالثا) : ادخال جماعات بيضاء بكميات ضخمة في كثير من المناطق للاستيلاء على الأراضي الخصبة ، وطرد أهلها الافريقيين منها ، وخلق كيان أوربي يجعل الوطنيين أقلية في بلادهم . والمعروف ان البعثات التبشيرية لم تستطع أن تحقق كثيراً مما كانت تتطلع اليه ، فقد واجهتها حركة التبشير الاسلامية السلمية ، واكتسحت المجال أمامها ، وبلغت أقصى مكان في القارة ، وقد أشار الدكتور زويمر في أوائل هذا القرن دهشاً الى ما وحده في جنوب أفريقيا من نهضة اسلامية في مدن الكاب ، وناتال والسنغال وروديسيا . فقد اشار في تقريره الى انه وجد في مدينة الكاب وحدها ما يزيد على ثلاثة عشر مسجداً ، وحيث يجري تعلم اللغة العربية لنحو ٤٠٠ طالب يتلقون هذه اللغة في مدرسة واحدة ، يوجد بالكاب ٢٤ الف مسلم ويدهش لانه عثر على كتاب صرف عربي انجليزي في ثمانية مجلدات في احدى المكتبات ، ويقول إن زعماء النهضة لتعليم اللغة العربية في الغالب من الحجاج الذين يعودون من مكة[١] .

والمعروف أن المنظمات الاسلامية قد خاضت معركة مريرة مع الغرب وقوانه ، ومراكز تبشيره . وتسابق الطرفان مع المبشرين الذين تسندهم اموال ، أيهما يكسب مزيداً من الزنوج الوثنيين . وقد استطاع الاسلام أن ينتصر في هذا الحرب . وتطرق الدعاة المسلمون إلى اقاليم لم يكونوا قادرين على أن يبلغوها من قبل ، وكسبوا الملايين إلى الاسلام . واحرزت هذه المنظمات نصراً بعيد المدى على المنظمات المسيحية رغم اموالها وسلطانها ، ولما بدأت قبضات المستعمرين في افريقيا تتهاوى ولاحت نزر التحرر تطلع الأفريقيون الى الفكاك من الأسر . فكانت الجماعات المسلمة هي الخمائر التي خرجت منها صيحات التحرر حيث لعبت الجمعيات الاسلامية دوراً هاما في قيادة الحركة الاستقلالية في غرب افريقيا وشرقها ، وأسهم الزعماء المسلمون بدور فعال في تقدم الحيركة الاستقلالية . واشترك المسلمون في المنظمات السياسية ،

---

١ - المقتطف سنة ١٩٢٥ .

واقبلوا على التعليم وأسهم الاسلام بنصيب كبير في تحقيق الوحدة الأفريقية . (دكتور حسن محمود) .

❊❊❊

ويؤكد الباحثون والمؤرخون ان أفريقيا هي القارة الوحيدة التي يزحف فيها الاسلام اليوم ، وأن الاسلام قد ضاعف نفسه في أفريقيا خلال عشرين عاما ، حيث ارتفع عدد المسلمين بين عام ١٩٣١ و١٩٥١ من ٤٠ مليونا إلى ٨٠ مليونا .

ويرى الدكتور جمال حمدان ان عدد المسلمين في أفريقيا اليوم يعادل عدد العرب في مجموعهم ، وأن افريقيا أكبر القارات في نسبة الاسلام ، وقد تمددت أطراف الاسلام منها إلى كل ركن وصقع في القارة ، ويصف حركة الاسلام في أفريقيا « بالثورة الصامتة التي تكتسح القارة تحت ناظرينا » وعنده أن الاسلام في حدود انتشاره الحالي في افريقيا . يرتبط بكل أنواع البيئات المختلفة ، وان هذا النمو على كافة المستويات يكذب ما ذهب اليه البعض من أن الاسلام دين الرعاة أو دين الصحارى ، او دين السهول ، فهو دين الرعاة والصحارى والسهول جميعا . والاسلام ممثل اليوم في كل وحدة سياسية في أفريقيا وعددها خمسون وحدة ، وهو قوة سياسية كبرى في أفريقيا .

وعنده أن الاسلام قوة لاحمة سياسية ، فهو حسر امتد بين أفريقيا العربية ، وأفريقيا الزنجية ، ويمثل قاسماً مشتركاً أصغر بينهما برد خرافة « زنوج وعرب » وسيظل الاسلام يزحف في آسيا المدارية وينتقل من نجاح الى نجاح .

ويؤكد الباحثون ان الاسلام في أفريقيا يتحرك في فراغ ديني ، وانه يعمل دون صراع مع المسيحية ولا يصادمها ، وانما يتخذ مجال عمله بين الوثنيين ، والظاهرة الواضحة أن التبشير قد ارتبط بالنفوذ الاجنبي والاستعمار الأوربي ، وان تناقضات المذاهب وصراعها قد قلل من اهمية التبشير نفسه ، بينما يبدو

---

١ ـ دكتور جمال حمدان ـ مجلة المجلة ـ نوفمبر سنة ١٩٦٣ : الاسلام في افريقيا .

الاسـلام بسيطـاً وسمحـاً . وقـد اصبـح الافـريقيون يقرنــون بين المسيحية والاستعمار ، ويرون أن المسيحية دين البيض . ومن هنـا فإن الاسـلام يكاد يكون محتوما كدين المستقبل ، ويشير إلى الدكتور جمال حمدان حين يقول : ربما سجل التاريخ قريبا أن تحرر أفريقيا كان معناه موجة حديثـة في انتشـار الاسلام . وقد تصبح افريقيا قارة الاسلام بالضرورة .

***

وبالجملة فإن الاستعمار قاوم الاسلام والثقافة العربية والتاريخ واللغة العربية جميعا خلال أكثر من قرن كامل في نفس الوقت الذي شق الاسلام طريقه ، وتوسع حتى احاط بالقارة احاطـة شاملـة ، وفـرض نفـوذه الفـكري والثقافـي والاجتماعي كتيار تقدمي واضح الأثر .

العالم الاسلامي وحركات الوحدة

الوحدة الاسلامية

الجامعة الاسلامية

الخلافة الاسلامية

(١)

الوحدة الاسلامية

ليس من متطلب منهج البحث في هذه الدراسة التعرض للخلافة ومفهومها الفقهي الاسلامي ، وانما نتعرض لها بقدر مكانتها من قضايا العالم الاسلامي الحاضر .

والخلافة في الاصطلاح الفقهي الاسلامي هي الامانة الكبرى ، وامارة المسلمين والمقصود بها أصلا الولاية العامة على شؤ ون المسلمين من دينية ودنيوية .

ترك النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين الحرية في اختيار الخليفة فلم يفرض أحداً ، واتفق المسلمون على اختيار أصلح المسلمين من قريش ، ثم انتقلت الخلافة من مرحلتها الراشدة حتى أصبحت ملكاً عضوضاً بتولي الأمويين الحكم ، ثم انتقلت الى العباسيين ، ثم تعددت مراكزها في مصر والمغرب والأندلس الى أن سقطت عام ٦٥٦ هـ بسقوط بغداد في أيدي التتار ، ثم أعيدت في القاهرة الى أن حمل السلاطين العثمانيون لقب الخلافة منذ القرن الرابع عشر الميلادي الثامن الهجري ، واعترف بهم جمهور المسلمين بعد اتساع الامبراطورية العثمانية .

ومن خلال الخلافة العثمانية نبعت فكرة الجامعة الاسلامية في مرحلة حكم السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٨) وكان مصدرها الأساسي الدعوة الى تجمع المسلمين في جبهة واحدة لمواجهة النفوذ الاستعماري الغربي الزاحف .

وقد لمعت هذه الفكرة على لسان جمال الدين الأفغاني الذي جاء مصر ١٨٧١ تقريباً . والذي كان قد عاش تجربة مثيرة في فارس وأفغانستان والهند

قبل هذا التاريخ بقليل ، دفعته الى أن يحمل لواء حركة اليقظة الاسلامية ، ويقصد بها الى المجال الخيوي الاوسع لها : الى استامبول حيث مقر دولة الخلافة والى القاهرة حيث الازهر الشريف . وقد آثر البقاء في القاهرة عند ما وجد البيئة الصالحة لفكرته فاستقر بها سبع سنوات .

ولم تكن « الجامعة الاسلامية » هي الفكرة الوحيدة التي حملها جمال الدين ، ولكنها كانت القالب الذي صاغ فيه الايدلوجية الاسلامية التي أراد تحقيقها ، كان جمال الدين يطمع أساساً في تحرير العالم الاسلامي من أدوائه : الجمود والتخلف والنفوذ الاستعماري والتفكك . وله في كل هذه القضايا اراء حصيفة واعية ، ومتقدمة على فكر العصر نفسه ، ولكنه كان يؤ من بأن هذه النهضة المرتقبة لا تتحقق الا عن طريق عمل سياسي يبدأ من احدى الدول الاسلامية ، ويحمل لواء الوحدة الاسلامية الجامعة للمسلمين تحت لواء القرآن . ومن الحق أن يقال ان جمال الدين الافغاني كان هو « المصلح » الذي يمكنه أن يحقق هذا البرنامج وينفذه سياسياً وكان يرى أن مصر هي أصلح المواقع لقيام هذه الحركة على أساس التقاء فكري وسياسي جامع أشبه بالالتقاء الذي تحقق بين الامام محمد بن عبد الوهاب وامير الدرعية من نجد ، ولذلك كان أمله معلقاً بالأمير توفيق كخليفة للخديوي عباس . وقد التقى به كثيراً ، وتحدث معه ، وكان يرتقب الفرص لتوليه السلطة خلفاً لأبيه ، غير أن توفيق قد عق عهده ، وأخلف وعده للأفغاني ولم يلبث ان أخرجه من البلاد متهماً اياه بأنه رئيس جمعية سرية ، ثم حددت اقامة أكبر تلاميذه محمد عبده في قريته ، وأصاب المدرسة التي كانت تتجمع حوله التمزق والتفرق .

وكانت آماله معقودة يوماً بشاه فارس ، أو بمهدي السودان ، ولكن آماله جميعاً لم تتحقق ، فالتجأ أخيراً الى قبول دعوة كانت دائمة ومتصلة من السلطان عبد الحميد الذي كان قد أخذ فعلا في تحقيق هذه الفكرة ووضعها موضع التنفيذ على النحو الذي ارتآه .

فقد التقط السلطان عبد الحميد فكرة الجامعة الاسلامية عندما وجدها خير سلاح يحارب به النفوذ الاستعماري الغربي الزاحف على العالم الاسلامي ،

وكان مفهومه أن يتوحد المسلمون تحت لواء الخلافة الاسلامية ، وان لم يكونوا اجزاء من الدولة العثمانية ، وهو بذلك يفتح الطريق لاقامة جبهة مقاومة واسعة تضم مسلمي الهند وايران وافغانستان والجزائر والملايو وأفريقيا . وكان شعاره هو : « الوحدة الاسلامية » ودعوته الى مسلمي العالم للتجمع والاتحاد مع الدولة العثمانية في وجه الخطر الغربي الأوربي الزاحف ، وذلك بحسبانها أقوى الوحدات الاسلامية وأقدرها على مقاومة العدو . ومن حق أن يقال ان هذه الحركة هزت دول العالم الغربي ، وخاصة بريطانيا وفرنسا ، وكلفتها جهداً كبيراً في سبيل مقاومتها ورميها بكل نقيصة ، واتهام السلطان عبد الحميد والتشكيك فيه ، ورميه بالجمود والتعصب والاستبداد على نحو لم يوجه لأحد من الزعماء من قبل ولا من بعد ، وقد جعل كرومر حملته على الجامعة الاسلامية في مصر عملاً أساسياً وضخماً ، وأتاح لصحيفتي المقطم والجريدة اعلان الحرب العنيفة على هذه الدعوة ، وأشارت تقاريره المتصلة اليها ، واستطاع ان يرسم في سبيل مقاومتها خططاً خطيرة حمل لواءها لطفي وسعد زغلول .

وكان من أقوى الاسلحة التي واجهت بها الدول الاوربية حركة الجامعة الاسلامية : الدعوة الاقليمية واعلاء شأن الجنسية والوطن والعرق ، وقد استنفذت هذه الحركة جهداً كبيراً ، واستطاع الكتاب المارون الذين تركزوا في مصر أن يحملوا لواء مقاومة فكرة الجامعة الاسلامية على نحو مؤ يد بالنفوذ الأجنبي ، وكانوا في الحق انما يحملون على الاسلام نفسه بالحملة على وحدة المسلمين . وقد جرى في سبيل مقاومة فكرة الجامعة الاسلامية مغالطات كثيرة ، كان أبرزها أنها حرب مقدسة يحاول المسلمون القيام بها ضد اوربا والغرب والمسيحية ، ولم تكن كذلك في الحق ، حيث لم يكن المسلمون يملكون من الاسلحة ما يمكنهم من الدفاع عن أنفسهم . بل مقاومة أوربا وغزوها . فقد جرد الاستعمار الغربي العالم الاسلامي من كل سلاح وقوة حربية ومادية ، وتسلط على جيوشه وحكوماته ، ومقدراته ، فلم يكن ذلك الاتهام معقولا شكلا .

كذلك جرى الادعاء بأن المحاولة ترمي الى انشاء حكومة اسلامية واحدة ، وجرى التشكيك في امكان قيام مثل هذه الحكومة . والحق أن دعاة الجامعة الاسلامية سواء أكان جمال الدين الأفغاني مفكراً أم السلطان عبد الحميد حاكماً ومن معهما من النصراء لم يكونوا يهدفون الى ذلك أو يطلبونه لاستحالته عقلا ، وانما كان تطلعهم يستهدف تقارباً وتوثقاً والتقاء على مستوى الأحلاف والاتفاقات السياسية والعسكرية والاقتصادية المعروفة .

وعبارة جمال الدين الأفغاني في هذا الصدد واضحة صريحة « لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً ، فان هذا ربما يكون عسيراً ، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الاخرين ما استطاع فان حياته بحياتهم وبقاءه ببقائهم » .

وقد استطاعت الدعوة الاقليمية والجنسية والعرفية أن تنمو بسلطان الاستعمار ونفوذه ، حتى تقاوم الجامعة الاسلامية وتكتسحها خلال حياة جمال الدين الأفغاني حتى وفاته ١٨٩٧ وحكم السلطان عبد الحميد حتى عزله ١٩٠٩ .

ومن الطبيعي أن الأطماع الاستعمارية والأطماع الصهيونية أيضاً تلك التي كانت قد تشكلت معاً في مخطط واحد هي التي كانت تطمع في القضاء على هذه الدعوة . ولكن هل ماتت خطة الجامعة الاسلامية وانطوت ؟ .

ذلك ما تستبعده جميع الدلائل والمخططات والدعوات التي ظهرت حتى بعد ذلك ، ولكن يمكن القول ان الاستعمار شغل الوحدات الاسلامبة بقضاياها الخاصة ، وأنه حال دون قيام مخطط للوحدة الاسلامية بالقضاء على نواتها حين قضى على الدولة العثمانية نفسها عام ١٩١٨ بعد هزيمتها في الحرب العالمية الاولى وحين اسقط الاستعمار الخلافة باتفاق سري ملحق بمعاهدة لوزان التي أقرها مصطفى كمال حاكم تركيا بعد الحرب العالمية الاولى .

واذا كانت الجامعة الاسلامية قد انطوت في ظل الاحتلال الغربي للوحدات الاسلامية ، فان روح الوحدة الاسلامية ظلت قائمة في خلق جميع حركات

التحرر واليقظة والمقاومة وانها كانت تبرز بين حين وحين لتؤكد وجودها .

أما سقوط الخلافة الاسلامية عام ١٩٢٤ فقد كان حدثاً بالغ الأهمية بالنسبة للعالم الاسلامي كله ، وبالنسبة للأمة العربية خاصة بحيث يمكن القول انه ترك آثاراً بعيدة المدى ظهرت واضحة في حركة الخلافة في الهند ، وفي انشاء جمعيات الشبان المسلمين العالمية التي بدأت في القاهرة ، وحملت في أول نصوص تشكيلها العمل على اعادة الخلافة . وهو نص التزمت به مختلف الجمعيات والحركات الاسلامية في العالم الاسلامي كله ، والتي انبعثت اساساً من حركة الشبان المسلمين .

وقد كانت تحديات الصهيونية في فلسطين عاملاً اساسياً في قيام وتشكيل المؤتمرات الاسلامية العالمية المتوالية ، التي واجهت هذه القضية كأول وأخطر قضايا العالم الاسلامي ، ثم كان من قيام دولة باكستان عاملا هاماً وأساسياً لبروز دعوة الجامعة الاسلامية والوحدة الاسلامية الى الوجود ١٩٤٧ . وقد توالى انعقاد مؤتمرات اسلامية مختلفة بعد هذا التاريخ . في الهند والقدس ومكة والقاهرة تكاد تكون متابعة للخط الواضح ، خط الالتزام بالوحدة الاسلامية . أما الخلافة الاسلامية فقد اتخذت حكومة أنقرة لاسقاطها مخططاً له مراحل وحاولت أن تنسب اليها كل عوامل التأخر والجمود والضعف التي عاشتها تركيا ، ولم يكن ذلك في الحق الا تعلة لاجهاض هذا الحدث الضخم ولو كان قادة أنقرة يهدفون الى الاصلاح لاستطاعوا اعادة تصحيح مفهوم الخلافة على النحو الذي يقرره الاسلام ، والذي كانت الخلافة بعيدة عنه في الواقع ، بعد أن تأثرت بمفاهيم البابوية الكاثوليكية في روما ، وقد عرض عبد العزيز جاويش الى هذا المعنى في حديث مع مصطفى كمال حين التقى به ، وتحدث معه حول بقاء الخلافة وزوالها . وقد لمس في حديث مصطفى كمال الاصرار مسبقاً على الالغاء ، وانما كان البحث حول التماس الأسباب لهذا الالغاء ، ولم يلمس جاويش في كمال أي رغبة في اصلاح نظام قائم قد انحرف عن مفهومه الاسلامي .

لقد كان الغاء الخلافة حلقة اساسية من الحلقات التي جرى بها ضغط النفوذ

الاجنبي الهادف الى تمزيق الوحدة الاسلامية ، والقضاء على الدولة العثمانية الجامعة بين أكبر عنصري الاسلام : « العرب والترك » وايقاع الخلاف الدموي بينهما كما حدث تماماً بعد اقصاء عبد الحميد ، وتولي الاتحاديين للحكم وهدفهم الاساسي هو تصفية الدولة العثمانية تمهيداً لتحقيق أكبر هدف للاستعمار الغربي في ازالة قوة الاسلام كعامل فكري وعامل وحدة من ناحية ، وفي اتاحة الفرصة للدول الأوربية لتقسيم هذا الميراث بينها ، والسيطرة عليه ، وبلوغ اقصى ما كانت تحكم به أوربا منذ بدأت عملية تطويق عالم الاسلام في القرن الخامس عشر بعد سقوط الأندلس ، وتحقيقاً لهدف مرسوم هو عودة أوربا الى العالم الاسلامي مرة أخرى بعد هزيمتها في الحروب الصليبية قبل ذلك (١٢٩١ ـ ١٩١٨) بستمائة عام ، وهو ما عبر عنه اللورد اللنبي حين دخل مدينة القدس واعلن عبارته المثيرة : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » .

لقد كان تمزيق الوحدة التركية العربية مقدمة لازالة الدولة العثمانية كبرى الوحدات الاسلامية ونقطة التقاء المسلمين حول الخلافة . وكانت هزيمة الدولة العثمانية مقدمة لالغاء الخلافة . وبذلك ضاعت « نقطة » التقاء المسلمين بحيث أصبح من العسير تحقيق هذا الهدف . اصراراً من النفوذ الاجنبي على الحيلولة دون وجود نقطة بدء جديدة لهذه الوحدة .

كان هدف النفوذ الاستعماري اذن منذ أول الأمر هو تمزيق الرابطة بين العرب والترك أساساً للقضاء على نقطة الوحدة ، تحت شعار الخلافة ، وكان رأي غير المتحمسين لدعوة الانفصال هو ان الغرب لن يسمح بعد اسقاط الدولة العثمانية من قيام وحدة جديدة ، ولو على مستوى الأمة العربية كما كان يتوقع الكثيرون بقيام وحدة جديدة ، ولو على مستوى الأمة العربية كما كان يتوقع الكثيرون والصراع بين العرب والترك . ولم تكن النتائج لحساب العرب ، كما يظنون ، ولا لحساب قيام دولة عربية ، وانما لحساب التقسيم والنفوذ الاستعماري . غير أنه لا بد من القاء تبعة ذلك على العثمانيين . ليس كل العثمانيين ، وانما على الاتحاديين الذين حكموا بعد أن أزالوا السلطان عبد الحميد ١٩٠٨ حتى الحرب العالمية الأولى ، هؤلاء وحدهم ، وفترة حكمهم هي التي يمكن أن

توجه اليها اتهامات :

(١) تمزيق الوحدة العربية . (٢) القضاء على الدولة العثمانية . (٣) ارغام العرب بمختلف الوان الظلم على الانفصال عن تركيا .

هؤلاء « الاتحاديون » هم ثمرة الدعوة التي كان طابعها في أول الأمر الحرية والدستور والتقدم ، والتي بدأت عملها منذ وقت طويل ، وكانت خصماً عنيداً طوال فترة حكم السلطان عبد الحميد تحت شعارات براقة مغرية هي : شعارات الحكم النيابي ، والخروج من الجمود والتأخر . نعم : ان الدعوة في مضامينها ومنهجها دعوة يقظة . ولكن الأيدي التي قادتها ، والمخطط الذي كان يدفعها ، لم يكن هادفاً الى خير المسلمين والعرب ، ولم يكن عاملاً على دعم المواجهة امام الغزو الغربي الاستعماري الزاحف ، بل على العكس من ذلك كان أداة هذا الزحف ، وكانت الحرية والخروج من الاستبداد ، انما تعني اسقاط السلطان عبد الحميد ، والخلافة والجامعة الاسلامية جميعاً ؛ وجميعها من عوامل المقاومة ، ولذلك فان أي مقارنة بين حكم السلطان وبين حكم الاتحاديين دعاة الحرية والاخاء والمساواة يكشف مدى الفارق البعيد ، ويصور كيف تحولت دعوة الحرية في أيديهم الى تسلط وعنف وطغيان لا حدّ له . وخاصة بالنسبة للعرب شركائهم في الدولة حتى أنهم سمحوا لأنفسهم بتعليق احرارهم على المشانق .

ولقد عمت الفرحة انحاء المملكة العثمانية بعد سقوط عبد الحميد ، ودقت طبول البشرى معلنة في مختلف صحفها أن المملكة تخلصت من كابوس الاستبداد الممثل في عبد الحميد ، ولكن ماذا تقول صحف التاريخ بعد ذلك . هل دامت هذه الفرحة كثيراً ؟ هل استطاعت ان تقول ان الذين احتفلوا بها كانوا صادقين ؟ الحق أن لا . فقد كشف الاتحاديون عن حقد دفين للوحدة الاسلامية ، وللعرب ولكل القيم التي قامت عليها حركة المواجهة والمقاومة والتجمع أمام النفوذ الغربي . فكان الاتحاديون هم سلاح العرب والاستعمار ، وأداته في القضاء على هذه القوة الباقية ، وتسليم البلاد العربية للاحتلال الفرنسي والانجليزي ، وتسليم تركيا الى نفوذ استعماري تغريبي أشد عنفاً

وقسوة ، قاضياً وماحقاً لكل ما هو اسلامي .

ولقد انخدعنا طويلا وراء ما ترويه كتب التاريخ الحديث في هذا الصدد ، وجرينا وراء العبارات التي حاولت أن تصور الدولة العثمانية في صورة الاستبداد والظلم والتاخر ، وتركز هذا كله على رجل واحد ، وعصر واحد ، هو : السلطان عبد الحميد ! فما أظن أن قائداً في التاريخ كله أمكن ان توجه اليه مثل هذه الاتهامات الزائفة ، وأن تعيش طويلا ، فتظل تغذي أجيالا بعد أجيال دون أن تتكشف حقيقة الأمور التي تختلف كثيراً عما زيفه الكتّاب المارونيون اللبنانيون الذين كانوا عملاء النفوذ الأجنبي ، والذين نفذوا خطة دقيقة رسمتها أيدي وعقول غربية قادرة على الغزو الفكري ، تعرف ما وراء الكلمة من قدرة على اقناع الشعوب والأمم على الاعتقاد بوقائع زائفة توضع موضع الحقائق وتسبغ عليها كل عوامل البقاء والاستمرار .

فالواقع الذي تشهد به الحقائق التي ما تزال تتكشف بين أيدينا . أن السلطان عبد الحميد لم يكن بهذه الصورة التي جرى تصويره بها ، وأنه كان على عكس ذلك تماماً ، وأن دعوته الى الجامعة الاسلامية التي أحيطت بشيء كثير من المبالغة والتحريف ، انما كانت تهدف الى خلق رأي عام اسلامي ينضم مع الدولة العثمانية في مواجهة النفوذ الاستعماري الزاحف ، وان هذه الدعوة التي حمل لواءها : دعوة الجامعة الاسلامية قد هزت الدول الاستعمارية من الأعماق ، ودفعتها في حقد وعصبية الى كيل الضربات العنيفة لهذا القائد في أكبر بقعة يمكن أن يصل منها الرأي المضلل ويتسع ، ومن قلب القاهرة حيث صحف المقطم والهلال والمقتطف والجامعة والمجلة المصرية ، وعشرات من المجلات الى اطراف العالم الاسلامي كله .

لم تكن هذه الحملة في الحق على السلطان عبد الحميد الا ثمناً لكلمة حق ، عندما وقف في اصرار دون محاولة تمزيق الدولة العثمانية ، وحال دون تمكين الصهيونية من فلسطين ، ورفع راية الجامعة الاسلامية في وجه الغرب الزاحف .

ومن هنا كانت الحملة باسم العروبة لا تستهدف للعرب خيراً . بل تستهدف

تمزيق الوحدة والقضاء على البلاد العربية ، كما وقع بعد الحرب العالمية الأولى . وكانت الدعوة الى الحرية لا تستهدف تحقيق مساواة او عدالة بقدر ما كانت تستهدف اسقاط عبد الحميد بحسبانه صاحب اللواء المنصوب في وجه التقسيم والسيطرة الأجنبية ، والا فأين الحرية التي تحققت بعد عبد الحميد في عهد الاتحاديين أو العروبة التي تحققت بعد انفصال العرب عن الدولة العثمانية . ان ما وقع بعد الحرب الاولى . انما كان انتقالا الى السيطرة الغربية الكاملة .

كانت الشعارات والدعوات وسائل لخداع الشعوب وتمزيق الأواصر والقضاء على القوى الموحدة ، حتى اذا تمزق المسلمون لم يعد في الامكان تجميعهم ، لا في وحدات عربية ، ولا في وحدات من أي نوع كان . ولقد استغل هؤلاء الدعاة كل كلمة صادقة وحرة ، وذهبوا بها الى أبعد مدى واستخدموها أكثر مما كانت تقصد أو تحمل كما حدث بالنسبة لآراء عبد الرحمن الكواكبي . ولذلك فان الدعوة الى العروبة واللغة العربية التي بدأت تحت ظلال المؤسسات التبشيرية والارساليات ما كان يمكن أن تكون صادقة اساساً وهادفة الى مصلحة العرب ، وإنما كانت في الحق سلاحاً ضد وحدة العنصرين وضد جدار الدولة العثمانية الجامعة بين العرب والأتراك باسم الاسلام . وكذلك الدعوة الى الحكم العادل والتخلص من نفوذ الفرد ما كان يقصد بها الا التخلص من السلطان عبد الحميد المتهم بأنه مستبد وديكتاتور ، والا فأين أثر هاتين الدعوتين بعد سقوط عبد الحميد ، وتمزق الدولة العثمانية . لقد تحول دعاة العروبة في الارساليات الى اعلاء لغاتهم الأساسية ، واغضوا نهائياً عن اللغة العربية ، وذاقت الدولة التي دعا الاتحاديون فيها الى الحرية والدستور والتخلص من الاستعداد ، أسوأ مظالم الاستبداد في عهد الاتحاديين وفي عهد مصطفى كمال .

لقد كان عبد الحميد الثاني هو آخر الحصون التي دافع بها الاسلام عن وجوده ، وكان اسقاطه هو آخر حلقة من حلقات المقاومة للسيطرة الغربية الكاملة على العالم الاسلامي : سقوط الدولة العثمانية الجامعة بين الترك

والعرب ١٩١٨ والغاء الخلافة الاسلامية ١٩٢٤ .

وقد كشفت وثائق الصهيونية كيف حاول هرتزل ودعاة الصهيونية بعد عقد مؤتمرهم الأول في بادل بسويسرا عام ١٨٩٧ الالتقاء بالسلطان واغرائه لفتح الطريق الى فلسطين . وقد كانت أولى المحاولات هي محاولة هرتزل (١٩٠٠ - ١٩٠١) وكان رئيساً لتحرير جريدة نيوفري في فينا الذي تقدم بعرض مفاده أن يتعهد الصهيونيون بدفع الدين العثماني البالغ « ٢٢ مليون ليرة انجليزية » وبناء أسطول كامل للدفاع عن أراضي الدولة العلية ، وعقد قرض بمبلغ مائة مليون فرنك تصرف في سبيل التسليح العام . وذلك نظير نزول اليهود المضطهدين في انحاء العالم بفلسطين ، وقد سجل هرتزل في مذكراته رد السلطان عليه حيث قال : « بلغوا الدكتور هرتزل ألا يبذل بعد اليوم شيئاً من المحاولة في هذا الأمر (التوطن بفلسطين) فاني لست مستعداً لأن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد ليذهب الى الغير ، فالبلاد ليست ملكي . بل هي ملك شعبي الذي روى ترابه بدمائه ، وليحتفظ اليهود بملايينهم من الذهب » . وفي المحاولة الثانية تقدم ثلاثة من اليهود (مزراحي ، جال ، ليون) الى السلطان عام ١٩٠٢ بعرض ضخم مغر ، يتضمن . (١) الوفاء بجميع الديون المستحقة على الدولة العثمانية . (٢) بناء أسطول لحماية ثغور الامبراطورية العثمانية . (٣) تقديم قرض بخمسة وعشرين مليون ليرة ذهبية دون فائدة لانعاش مالية الدولة .

وذلك مقابل : (١) اباحة دخول اليهود الى فلسطين للزيارة (٢) السماح لليهود باقامة مستعمرة ينزل فيها أبناء جلدتهم قرب القدس الشريف . وقد رفض السلطان عبد الحميد هذا العرض في اصرار عجيب .

غير ان جمعية الاتحاد والترقي التي تأسست باسم الحرية والتقدم ، ثم لم تلبث عناصر الدونمة المقيمة في سالونيك بالاشتراك مع المحافل الماسونية التي تستهدف اقامة عرش سليمان . أن سيطرت عليها ووجهتها وجهة خدمة أهدف الصهيونية الماسونية اليهودية ـ هذه الجماعة هي التي سمحت لليهود باستيطان فلسطين ، وليس السلطان عبد الحميد .

وقد أكد الباحثون المثقفون أن جمعية الاتحاد والترقي كانت القناع الخارجي الذي تقنعت به جماعة الدونمة المتظاهرون بالاسلام من يهود أسبانيا الذين اتخذوا من مدينة سالونيك مقاماً لهم بعد فرارهم من محاكم التفتيش التي نصبها الأسبانيون لمخالفيهم في العقيدة سواء من المسلمين أم اليهود .

ولما كان السلطان عبد الحميد قد تفادى مؤ تمرات النفوذ الاستعماري باعلان المُشروطية ١٩٠٨ فان ذلك قد دفع الصهاينة والنفوذ الاستعماري معاً خطوة الى الأمام للتآمر لاسقاطه ، وقد تحقق ذلك بالخطة التي نفذوها باسم حركة الارتجاع قاصدين من ذلك احراج السلطان ودفع الاتحاديين الى الثورة عليه ، والتخلص منه نهائياً تمهيداً للتخلص من الاسلام نفسه فيما بعد . وقد حققت هذه الحركة نتائجها فقام الجيش بحركته لعزل عبد الحميد ، وكان أحد المتقدمين الى السلطان عبد الحميد يطلب التنازل « مزراحي أفندي قراصوه » أحد الذين تقدموا عام ١٩٠١ بطلبات الصهيونية ، وكان هذا الموقف خاتمة للموقف الأول ونتيجة له .

ومن حق أن يقال انه كان لليهود محاولة سابقة لمحاول هرتزل .

وقد سجلت مجلة الشرق الكاثوليكية في مجلدها الثاني ١٨٩٩ ص ١٩٠٤ موقف الصهيونية من الدولة العثمانية فقالت : « لما كان اللورد غوش الاسرائيلي سفيراً بالأستانة عرض على الحكومة السنية أن تجعل تلك النواحي (مافاد ومؤ داب من عبر الأردن) التي مساحتها نحو ستمائة ألف هكتار مستعمرة لليهود ، تحت نظارة الباب العالي ، يسوسونها كما يشاؤ ون بشرط أن يدفعوا لمولانا السلطان مبلغاً من الدراهم لا يقل عن بضعة ملايين من الفرنكات ، غير أن الدولة السنية لم تلب دعاء غوش وأغنياء اليهود ، فذهب مالهم أدراج الرياح . وكانت غايتهم أن يمهدوا لأبناء جلدتهم انشاء مملكة مستقلة بالأراضي المقدسة كما كانت قبل المسيح اهـ .

والمعروف أنه بعد أن تولى الاتحاديون السلطة لم تفتح أبواب فلسطين وحدها أمام تدفق اليهود ، بل أتيحت لهم الفرصة للسيطرة على الدولة كلها . وذلك بحسبان أن الدستور العثماني ـ قد أعطى جميع الطوائف حق المساواة ،

وكان اليهود في مقدمة هذه الطوائف وأذكاها وأقدرها على العمل . فقد قفزوا الى الوظائف العالية في الدولة ، وكان اعلان الدستور في تركيا بالنسبة لليهود شبيهاً بأثر الثورة الفرنسية بالنسبة لهم في أوربا . فقد أخذت سيطرتهم تظهر على المراكز التوجيهية العامة ، ومن ثم بدأوا عملهم في الوقيعة والدس بين العرب والترك ، وبين الأتراك وسائر الشعوب المسيحية في المملكة العثمانية . وقد أشارت الى ذلك مجلة المشرق الكاثوليكية أيضاً حين قالت : لم يمض وقت طويل (على صدور الدستور العثماني) حين تبين أن مديري دفة جمعية تركيا الفتاة هم يهود ، وأنهم أخذوا بواسطة أعوانهم يثيرون كوامن البغضاء بين الأتراك المسلمين وبين سائر الشعوب المسيحية في المملكة العثمانية .

ومما يؤكد هذه الحقيقة أن جريدة التيمس الانجليزية احدى الجرائد المشهور بممالأتها ، رأت أن تذكر لعباً لعبوه شبيهاً بالدور الذي لعبوه في تهييج النصارى ضد الاسلام . وجملة القول ان الاتحاديين هم الذين سلموا فلسطين لليهود ، والدولة العثمانية للنفوذ الأجنبي .

وكانوا العامل الاساسي الفعال خلال فترة ثمانية سنوات (١٩٠٨ - ١٩١٦) على تمزيق هذه العروة العربية التركية مستمرين بذلك لاسقاط الخلافة . وأن مصطفى كمال يعتبر امتداداً أشد وأعنف للاتحاديين ومفاهيمهم ، وأنه هو ثمرة الحركة الاتحادية كما كان نابليون ثمرة الثورة الفرنسية .

ومن حق ان يصحح اليوم هذا التاريخ ، وان تجلى هذه الشبهات التي أحيط بها قائد مسلم ظل يقاوم النفوذ الاجنبي الزاحف بقوة خلال اربعين عاماً في بسالة لا تبارى ، وأن يكشف عن زيف الاتهامات التي وجهت اليه من أمثال قولهم : انه كان يلقي في البسفور الآلاف من الأحرار . فقد ثبت أن ذلك لم يقع أصلاً ، وأن انساناً واحداً لم يسقط في البسفور ، واذا كان دعاة هذا القول صادقين فان عليهم أن يذكروا اسماً واحداً .

ويرجع الأستاذ المحقق سعيد الأفغاني تاريخ انشاء جمعية الاتحاد والترقي من جماعة يهود سالونيك على نمط المحافل الماسونية اليهودية الأصل الى نفس العام الذي تمت فيه المقابلة بين هرتزل والسلطان عبد الحميد. . ومن

خلال هذا المخطط المشترك بين النفوذ الاستعماري الزاحف ومطامع الصهيونية ، رسمت خطط الدعوات المتطرفة الى العنصرية الطورانية ، واذكاء العداء بين عناصر المملكة العثمانية من عرب وأكراد وأرمن وشركس وأرناؤ وط . وكان رد الفعل أن اعتنقت هذه الشعوب نفس الدعوة العنصرية ، وكان هذا اخطر تآمر صهيوني غربي في وجه دعوة الجامعة الاسلامية والوحدة العربية التركية الممثلة في كيان موحد للمسلمين في مواجهة الغزو الغربي هو المملكة العثمانية .

وبذلك فقد كان خلع السلطان عبد الحميد خطوة أساسية نحو تحقيق المخطط الذي تم بعد الحرب العالمية الثانية في ثلاث مراحل .

(١) وعد بلفور وتسليم فلسطين للصهيونية .
(٢) تقسيم العالم العربي بين دول الاستعمار .
(٣) تسليم تركيا لأبشع حركة تغريب وتدمير للقيم الاسلامية .

ومن حق ان يوجه الاتهام ، كل الاتهام ، حول قطع اواصر اقوى رابطة في العالم الاسلامي بين الأتراك والعرب ، الى اتحاديين الذين ما ان تولوا الحكم ١٩٠٨ حتى عمدوا الى اعلان الجامعة الطورانية وتتريك العرب ، واضطهاد العناصر التي تضمها الدولة .

ويروي سعيد الأفغاني أن الزعماء العرب الذين ترددوا بالصهيونية وأحابيلها في اقتطاع فلسطين قد قتلهم الاتحاديون ، ومن بينهم شكري العسلي ، وعبد الوهاب الانجليزي . بل إن هناك ما يثبت أن اليهود وقوى النفوذ الأجنبي الزاحف قد دفعوا الاتحاديين الى خوض الحرب بحوار ألمانيا . بينما كان اليهود في جانب انجلترا وفرنسا يمولون الحرب . كانت النتيجة ان تمزقت تركيا . وأعلن وعد بلفور ، ولم يكن بين هذا وبين خلع السلطان عبد الحميد الا تسع سنوات .

- ٢ -

الجامعة الاسلامية

قال بعض الباحثين في دعوة جمال الدين الى الخلافة الاسلامية Pan Islam-ism بأن أساس الفكرة عنده « سياسي لا ديني » وهذا مما يخلط به الكثيرون ممن لا يفهمون أن الاسلام نظام متكامل « ديني وسياسيّ واجتماعي واقتصادي وقانوني معاً » .

وأن مفهومها أساساً إنما هو تجمع المسلمين في جبهة واحدة لمواجهة النفوذ الاستعماري الزاحف ، وقد انتقلت الفكرة الى حيز التطبيق حين حمل لواءها السلطان عبد الحميد ، خلال أغلب فترة حكمه حتى عام ١٩٠٨ حين تولى الاتحاديون الحكم ، حيث توقف مجرى الدعوة للجامعة الاسلامية وغلب عليه الصراع بين العرب والترك .

ومن الحق أن يقال إن مختلف الدعوات التي ظهرت منذ فجر اليقظة الاسلامية العربية كانت تجعل الجامعة الاسلامية هدفاً من أهدافها على نحو من الأنحاء . وكان ذلك ظاهراً منذ حركة التوحيد الوهابية ، وحركتي السنوسي والمهدي ، ثم حركة جمال الدين ، وكذلك كانت بالنسبة للحركات الاسلامية التي ظهرت في الهند والمغرب وأندونيسيا .

غير أن حركة السلطان عبد الحميد تختلف عن هذه الدعوات كلها على أساس أن حامل لوائها كان في سدة الحكم . وكانت قدرته على العمل أكبر ، وقد استطاع فعلا أن يقرب الى هدفه الوحدات الاسلامية المختلفة خارج الدولة العثمانية ، فأصبح قبلة آمال العالم الاسلامي .

وسرعان ما استطاع النفوذ الاستعماري تدمير هذا الاتجاه والقضاء عليه ، وذلك باثارة الحملة الضارية على السلطان عبد الحميد ، والدولة العثمانية ،

وخلق دعوات الاقليمية والوطنية الضيقة ـ وتغذيها بشعارات وقوى وفلسفات ، واستعانت في ذلك بنقل صورة الحركات الاوربية القومية التي قاومت الكنيسة البابوية ، وانفصلت عنها ، وحاولت أن تعقد وجها للمقارنة بينها وبين دولة الخلافة .

وكان كرومر في مصر أقوى خصوم الجامعة الاسلامية ، وقد حمل عليها حملة عاصفة ، وسرعان ما حمل حزب الأمة بقيادة لطفي السيد لواء الدعوة الى الاقليمية الضيقة « مصر للمصريين » مشفوعة بالخصومة العنيفة للاسلام فكرياً وجغرافياً وتاريخياً .

وفي تركيا استطاع الاتحاديون أن يثيروا دعوة الطورانية يضعوها موضع التنفيذ لتمزيق وحدة العرب والترك داخل الدولة العثمانية .

ومن ثم فقد توقفت حركة الجامعة الاسلامية عن الحركة بعد الاحتلال البريطاني في مصر سنة ١٨٨٢ . حيث أصبحت القاهرة مقر الدعوة المعارضة برفع شعار العروبة أم شعار المصرية ، وكان الدعاة لهما هم كتّاب الصحف المارونيين ، وأصحاب المقطم ولطفي السيد في الجريدة . وفي سنة ١٩٠٧ قدم إلى القاهرة زعيم من مسلمي القوقاز يحمل لواء الدعوة إلى مؤتمر اسلامي عام يضم جميع أمم العالم الاسلامي على اختلاف أجناسهم لمواجهة الأحداث ، ومحاولة الاتفاق على خطة موحدة ، واستطاع « اسماعيل عصبرنسكي » أن يقنع مجموعة من أعلام الفكر الاسلامي في مصر ، وفي مقدمتهم : البكري شاكر ، نجبت ، العدوي ، والي ، أحمد تيمور ، الهلباوي ، أحمد زكي ، محمد فريد ، وفيق العظم ، طلعت حرب ، حافظ عوض ، علي يوسف ، رشيد رضا ، وقد أراد « عصبرنسكي » أن يتفادى خصومة أوربا وانزعاجها من الجامعة الاسلامية فحدد هدفه بأنه بحث الشؤ ون الاسلامية على غير الصورة التي يتشاءم منها الأوربيون (بانسلانيزم) وقال : إنما غرضي البحث عن أسباب انحطاط الأمة الاسلامية ، وفتح أبواب النجاح في الأمور الاقتصادية والاجتماعية ، واختيار السبل القويمة التي تصل بنا إلى أن نأخذ نصيباً من المدنية الغربية الحاضرة ، وقال مؤتمره « لا يتطرق قط إلى

البحث في الأمور السياسية » وقال ان هناك تهمة ألقيت على عاتق الاسلام وهو براء منها وهي انه (أي الاسلام) « علة الانحطاط » ومدعاة التأخر ، ولكن التاريخ يكذب هذه الفرية ويدحضها ، وقال ان هذه القضية : قضية دراسة أسباب انحطاط الأمة الاسلامية لا تتيسر تيسراً كاملا لفرد أو فردين ، فلا مندوحة من عقد مؤتمر اسلامي عام[1] .

٣ ـ وفي نفس هذه الظروف صدر كتاب « المستقبل للاسلام » للسيد توفيق البكري الذي تناول أثر الصوفية في بناء « الجامعة الاسلامية » .

وقد أشار البكري الى الجامعة الاسلامية في مؤتمر عصبرنسكي فقال : « الجامعة الاسلامية قسمان : دينية وسياسية . أما السياسية فهي التي يعنيها الافرنج بلفظ « بانسلانيزم » . اما الجامعة الدينية : فهي غير موجودة لوجود روابطها وهي العقيدة الاسلامية أولا وآخراً الاسلام » .

أما الجامعة الاسلامية فهي غير موجودة ولم توجد ولن توجد كما يتوهمون لعدم وجود الرابطة في كل أمر سياسي ، فاذا أوجد المسلمون جامعة اسلامية ، أوجد الأوربيون ازاءها جامعة مسيحية ، أو جامعة سياسية وثنية ، فتكون المضرة عليهم من جراء ذلك أكثر من المنفعة . وكان البكري يجري في هذا القول في ركاب الاستعمار . غير ان الاحداث لم تلبث ان فرضت الدعوة الى الجامعة الاسلامية مرة اخرى حين اعتدت ايطاليا على طرابلس المغرب ١٩١١ . وبرزت الدول الاسلامية متحدة في مواجهة العدوان ، وكانت مصر في المقدمة مما احفظ لورد كرومر . فشن خادم افكاره لطفي السيد جملة عاصفة على مؤازرة العرب والمسلمين لمجاهدي طرابلس . وقد شهدت معارك طرابلس مجاهدين من تونس والجزائر والمغرب ومصر والسودان والشام والترك والأفغان على اختلاف أجناسهم ، وجمع اهالي مصر ١٥٠ ألف جنيهاً ذهبياً في يوم واحد تبرعاً لها .

ثم كانت الحرب العالمية الأولى عاملا هاماً في عودة الحديث عن الجامعة

---

١ ـ للتوسع في بيان فكرة المؤتمر راجع كتابنا « يقظة الفكر العربي »

الاسلامية ، فقد اهتزت أجزاء العالم الاسلامي المختلفة للغزو الأوربي للدولة العثمانية بعد انتصار الحلفاء وهزيمة ألمانيا وحليفتها تركيا .

وقد كان موقف المسلمين في مختلف أنحاء العالم موقفاً موحداً ازاء دولة الخلافة ، وقد بعثوا بالمتطوعين والأموال الى القائمين بالحركة الوطنية . وكان يمكن أن يصبح الأمر أبعد أثراً لو لم تكن مصر محتلة بانجلترا وطرابلس بايطاليا ، وايران بروسيا ، والهند ببريطانيا . وقد اعترفت الحكومة البريطانية بمدى الأثر البعيد لهزيمة تركيا في البلاد الاسلامية من المغرب الى الهند .

وكان اقوى رد فعل لذلك في الهند الاسلامية . فقد تجمع المسلمون فى وجه بريطانيا المحتلة في حركة عنيفة ، وألفوا حزب الخلافة وتدافعوا الى مساعدة الدولة العثمانية .

وكان موقف العالم الاسلامي غاية في المعارضة الصريحة الواضحة لموقف حكومة انقرة من الغاء الخلافة الزمنية ، ثم الغاء الخلافة نهائياً . ثم شغل العالم الاسلامي تماماً بقضاياه الوطنية ، وبأمور احتلاله بعد الحرب العالمية الأولى على نحو لم يكن يسمح له بالتفكير في قضية الجامعة الاسلامية أو الوحدة . غير ان العواطف المشبوبة والالتقاء الروحي والفكري كان قائماً بين المسلمين اساساً ومتمثلا في روابط الجماعات الاسلامية كالشبان المسلمين . وبعض الطرق الصوفية ، وتأكدت اكبر صورة كل عام في موسم الحاج .

وقد كان المسلمون يرون ان هذه السدود والقيود التي وضعت بين الوحدات المختلفة والأنظمة التي اقامها الاستعمار لعزل المسلمين ، انما هى قيود مادية ، وسدود شكلية محضة ، لن تستطيع ان تقضي على وحدة الفكر والروح الاسلاميين ، وكانوا دائماً يؤمنون بانه سياتي اليوم الذي يتحقق فيه لقاء جامع . ولقد أثبتت الاحداث عمق التجاوب الواضح بين مختلف أجزاء العالم الاسلامي ، وابان ثوراته المختلفة ، ومعاركه مع الاستعمار .

وكان كرومر هو أول من ألب أوربا والعالم العربي على الجامعة الاسلامية . فقد كان الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ وقدوم كرومر الى مصر ١٨٨٣ واستمراره ممثلا لبريطانيا وحاكماً فعلياً حتى عام ١٩٠٧ تقريباً عاملا هاماً في

رسم هذه السياسة ، فقد بثت انجلترا وفرنسا الدعوة في أرجاء أوربا للفزع من الجامعة الاسلامية واستبشاعها ، ورسمت مختلف الخطط لمقاومتها ، وفي مقدمتها التبشير ، ودعوات الاقليمية الضيقة ، ومحاربة اللغة العربية وغيرها .

وقد حرص كرومر على أن يتحدث في تقاريره السنوية عن الجامعة الاسلامية ببغض شديد وفي نفس الوقت نشرت الاهرام تصريحات مثيرة لوزير فرنسي هو « هانوتو » هاجم فيها الجامعة الاسلامية . وكانت مهاجمة الجامعة الاسلامية تستتبع بالتالي مهاجمة الدولة العثمانية بحسبان أنها عقدة التقاء المسلمين خارج الدولة وداخلها ، وكانت هذه العقدة هي الهدف المحدد الذي ترمي بريطانيا وفرنسا وروسيا الى قطعها حتى تتفرق الوحدة التي تجمع من حولها الدول الاسلامية لتواجه النفوذ الاستعماري الزاحف الذي قد رسم مخططه على أساس التهام هذه الوحدات ، والحيلولة دون التقائها مرة أخرى في أي نوع من الوحدة ليستديم سيطرته عليها . ولم يكن كثير من زعماء العالم الاسلامي ومفكريه يصرون على الاستمساك بالجامعة الاسلامية الا من أجل هدف واحد هو بقاء جبهة المقاومة في مواجهة النفوذ الاستعماري ، ولم يكن ذلك يعني تبعية من اي نوع .

وقد كان ذلك رأي كبار المستنيرين في هذه الفترة ، جمال الدين الأفغاني الذي قصد الى الدولة العثمانية اخيراً وقبل بالعمل معها لدعم الجامعة الاسلامية ، وقدم الى عبد الحميد مشروع الخديويات كمقدمة لانضمام الدول الاسلامية خارج الدولة العثمانية الى الوحدة الاسلامية باسم الخلافة . والشيخ محمد عبده الذي عرف عنه قوله ١٨٨٦ « ان المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله ، فانها وحدها الحافظة لسلطان الدين الكافلة لبقاء حوزته، وليس للدين سلطان في سواها » .

وموقف مصطفى كامل والحزب الوطني واضح ومعروف في الايمان بالجامعة الاسلامية ، والعمل على تأكيد بقاء الدولة العثمانية كقوة مواجهة للغزو الاستعماري الغربي .

وقد هاجم كرومر بعد خروجه من مصر مشروع الجامعة الاسلامية ، واشار

الى تمسك المصريين بعقيدتهم الاسلامية المتغلبة على الوطنية بمعناها الاقليمي التي تؤمن بالوحدة الكاملة بين المسلمين في سائر اقطار الارض .

وقد واجهت حملته تلك هجوماً عنيفاً من مختلف المفكرين والكتّاب . الذين تسجل آثارهم وكتاباتهم المختلفة الايمان بالوحدة بين المسلمين . وكذلك رد الشيخ محمد عبده على الاتهامات المماثلة التي وجهها هانوتو للجامعة الاسلامية .

وفي مواجهة هذه الدعوة اجج النفوذ الاستعماري عشرات الدعوات منها : فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية . وذلك حتى لا يصبح الخليفة جامعاً بين رئاسته الاسلامية ، وبين منصبه السياسي كحاكم ، وضربت الامثلة بالبابا الكاثوليكي . وكان ذلك بالقطع مخالفاً لمفهوم الاسلام الجامع بين السلطنة الدينية والسلطنة المدنية معاً في المجتمع وفي يد خليفة المسلمين . كما برزت دعوة الى الخلافة العربية أو الولاية الدينية على شؤون المسلمين العرب ، وجرت حملات عنيفة على السلطان عبد الحميد بالذات بعد الحملة على الجامعة الاسلامية والخلافة ، ورميه بالتهم المختلفة واثارة الشبهات حوله . وقد ثبت اليوم وبعد مرور اكثر من ستين عاماً ان كل هذه الشبهات كان مبالغاً فيها . وان بعضها كان ملفقاً لا أساس له . وقد تأثر الكواكبي بالنظرية الغربية المسيحية في البابوية ، وحاول تطبيقها في مجال الجامعة الاسلامية والخلافة .

وقد عرض كرومر للجامعة الاسلامية في كثير من تقاريره وآرائه ، ومجمل رأيه فيها هو ما أورده في تقرير عام ١٩٠٦ حيث قال : « المقصود من الجامعة الاسلامية بوجه الاجمال اجتماع المسلمين في العالم كله على تحدي قوات الدول (الأوربية) المسيحية ومقاومتها .. فاذا نظر اليها من هذا الوجه وجب على كل الأمم الأوربية التي لها مصالح سياسية في الشرق ان تراقب هذه الحركة مراقبة دقيقة لأنها يمكن ان تؤدي الى حوادث متفرقة فتضرم فيها نيران التعصب الديني في جهات مختلفة من العالم .

ثم أشار الى ان للجامعةالاسلامية معان كثيرة منها : الخضوع للسلطان

العثماني (أي الخليفة) وترويج مقاصده ، ثم اشار الى ان من اهم اهـداف الجامعة الاسلامية ما يلي : ـ

« السعي في اصلاح امر الاسلام على النهـج الاسلامـي ، وبعبـارة اخـرى السعي في القرن العشرين لاعادة مبادىء وضعت منـذ الف سنـة هدى لهيئـة اجتماعية في حالة الفطرة والسذاجة ، وقال : ان عيب هذه المبادىء والسنن والشرائع هي المناقضة لآراء اهل العصر في علاقة الرجال والنساء ، اهم من ذلك هو افراغ القوانين المدنية والجنائية والملية في قالب واحد لا يقبل تعقيداً ولا تحويراً . وهذا ما أوقف تقدم البلدان التي دان اهلها بالاسلام .

هذه هي الصورة التي حاول كرومر أن يرسمها لمفهوم الجامعة الاسلامية ، وحاول بها الحملة على الاسلام ومهاجمتـه في صميم عقائـده ومقاصـده من ناحية ، وتأليب الغرب على المسلمين الذين تدفعهم مقاومتهـم للنفوذ العربي الزاحف ، اذ ذاك على التجمع ، وتوحيد خططهم في جبهة موجودة فعلا هي الدولة العثمانية حتى لا تخترق هذه الوجهة ، مهما كان من أمـر ضعف هذه الجبهة .

وقد اعلن كرومر في نفس الوقت استحالة سماح أوربا باتفاق المسلمين حين قال : « اني لاثق بقوة أوربا واقتدارها الاقتضاء على تلافـي هذه الحـركة من الجهة المادية .

وقد أشار السيد رشيد رضا الى هذه الاراء وعلل هدفها حين قال : ان السبب الأول لكون الدولة البريطانية هي الخصم الاشد الأقوى من خصوم الخلافـة الاسلامية هي انها تحس ان بها تتجدد حياة الاسلام ، وتتحقق فكرة الجامعة الاسلامية ليحول ذلك دون استعبادها للشرق كله . كما أورد رشيد رضا في رده على كرومر ـ وقد رد عليه كثيرون في مقدمتهم فريد وجدي ومصطفى الغلاييني وعلي يوسف (تراجع الصحف عام ١٩٠٧) ـ فقال ان جمال الدين ومحمـد عبده هما في مقدمة الداعين الى الجامعة الاسلامية ، وان جمال الدين قد اعلن انه لا يهدف من دعوته ان يكون للمسلمين امام واحـد . فان هذا ربمـا كان متعذراً . وانما عنى ان يكون امامهم القرآن . واشار رشيد رضا الى انه يسير

على نفس الدعوة الى الجامعة الاسلامية ويفهمها على هذا النحو « ان الاساس الذي يجب ان يبنى عليه حال المسلمين هو تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والبدع . وقال ان الدعوة الاسلامية تنحصر في ترك البدع والجمع بين الدين وبين العلم والمدنية .

وقد احس الأوربيون بخطر دعوة الجامعة الاسلامية ، فحاربوها بكل قوتهم بصحفهم ومؤتمراتهم ، لما تبين لهم قوتها وخطرها اذا تحققت ، لذلك فقد اتخذوا لذلك عدة أعمال اساسية :

(١) تعميق الدعوات الاقليمية والخاصة بالوطنية والارض والامة والعرق .
(٢) خلق جو فكري عام لمحاربة الوحدة الاسلامية وتصفيتها .

وكان ذلك من الاعمال التي ركزت عليها مؤتمرات المبشرين وفي مقدمتها (مؤتمر سبتمبر ١٩١١) الذي كان من اهم موضوعاته : الجامعة الاسلامية وكيفية مقاومتها . فقد اشار زويمر الى هذا الامر الخطير في نظرهم وقال : ان الاسلام تمخض في السنوات الخمس الاخيرة عن حوادث خارقة لم يسبق لها نظير هي :

(١) الانقلاب الفارسي .
(٢) الانقلاب العثماني .
(٣) امتداد خطوط السكة الحديدية .
(٤) تأسست في الهند مجالس ثورية .
(٥) دخلت الامور الاسلامية في قالب يلائم العصر .
(٦) انتشر الاسلام في افريقيا والهند الغربية والجزائر الجنوبية ، وكل هذا يحتم على المبشرين ان يعملوا بحزم وجد . وقال : ان يقظة العالم الاسلامى ليست شيئاً اخترعهِ المبشرون بين ضفتي النيل وشرقي أفريقيا وبلاد النيجروالكونغو ، ثم لخص المؤتمر الموقف بان الاسلام متمخض الان عن ثلاث حركات اصلاحية .

(١) اصلاح الطرق الصوفية .
(٢) تقريب الافكار من الجامعة الاسلامية .

(٣) افراغ العقائد والتقاليد القديمة في قالب له بريق .

وكان تركيز الاستعمار والنفوذ الغربي على العصبية الجنسية هو عمله الاكبر في سبيل القضاء على الجامعة الاسلامية . ولكن جميع الدعوات القومية والوطنية التي ظهرت انما كانت دعوات مؤقتة تهدف الى تحرير الاوطان اولا ، ثم تجمعها في وحدات قوامها الامة واللغة ، كمقدمة لوحدة فكرية أكبر ، هي الوحدة الاسلامية . وليست دعوة الوحدة العربية اساساً في جوهرها (وبعيداً عن كل ما حرفت اليه او ادخل اليها من مفاهيم القوميات الغربية) الا نواة الجامعة الاسلامية . فقد كان المسلمون ولا زالوا يؤمنون بانه اذا ذلّ العرب ذلّ الاسلام ، فلا بد ان يتحرر العرب أولا ويأخذوا بمقاليد الأمور ، بحسبان أنهم أصحاب اللغة وحماة الكعبة ، وبحسبان أنهم مركز القيادة الفكرية الاسلامية أساساً ، ولن يستطيع المسلمون اقامة وحدة أو جامعة الا اذا تحرر العرب أساساً .

وقد كتب المستر بلانت في هذا المجال كتابه المشهور (مستقبل الاسلام) الذي تحدث فيه عن الخلافة الاسلامية وقال : ان مكانها يجب ان يكون في مكة ، وان الخليفة في المستقبل يجب ان يكون رئيساً دينياً لا ملكاً دنيوياً . وقد مهد لدعوته هذه بشعر عربي جميل حين قال :

لا تقنطوا فالدر ينثر عقده

ليعود أحسن في النظام وأجملا

أي أنه يطمئن المسلمين الى ان ولاية بريطانيا للعالم الاسلامي بديلا عن السلطنة العثمانية لن يضر المسلمين ولن يزعجهم . بل سيعود بنتائج هي خير مما هو موجود الان . وقد هاجم « مصطفى كامل » هذه الدعوة التي كانت تحاول ان تمهد للخطوات التالية لها في محاولة خلق رأي عامل لتقبلها فقال :

لقد رأت انكلترا ان بقاء السلطة العثمانية يكون عقبة في طريقها ، ومنشأ للمشاكل والعقبات في سبيل امتلاكها مصر . وان خير وسيلة تضمن لها البقاء في مصر ، ووضع يدها على وادي النيل هو هدم السلطة العثمانية ، ونقل

الخلافة الاسلامية الى ايدي رجل يكون تحت وصابة الانجليز وبمثابة الـة في أيديهم . لذلك أخرج ساسة بريطانيا مشروع الخلافة العربية مؤملين استمالة العرب لهم وقيامهم بالعصيان في وجه الدولة العلية .

وقد جعلت جريدة المقطم (فارس نمر) لسان كرومر وجريدة (لطفي السيد) لسان حزب الامة . من اهم أهدافهما الدائمة مهاجمة الجامعة الاسلامية .

وقالت المقطم ان الدعوة الى الجامعة الاسلامية مصدرها الجهل بسنن الرقي الطبيعي ، وان ذلك يهدد الدول الاوربية . وكانت دائماً تردد قولها : نحن ضعفاء والاعداء يحيطون بنا من كل جانب . كما شاركت الاهرام لسان حال الفرنسيين هذه الدعوة وقالت ان الدعوة الى تحقيق الجامعة الاسلامية مضر بالدولة وبالمسلمين . ثم تصل الى الغاية حين تقول : « تأييد الجامعة الاسلامية في ظل الخلافة العثمانية سياسياً ودينياً امر مستحيل لا يتسنى الحصول عليه الا بالحرب ، وأين لنا أن نقاوم أوربا بأسرها » .

وقد كان الرد على خصوم الجامعة الاسلامية في ذلك الوقت يجري على اساس الكشف عن الاخطاء التي تهدد المسلمين والتعرف على ما يقاسيه اخوانهم في جاوة من مظالم الهولنديين ، والهنود من مظالم جمهورية الترنسفال ، وما يقاسيه المسلمون في داغستان وفازان ، وما يقاسيه اخوانهم المسلمون في الهند ، وان ليس في هذا ما يستدعي قيام حرب عوان تقاوم بها أوربا بأسرها . كما لا يستدعي مايقول المقطم من حشد الألوف من الالبان والأكراد والأتراك والعرب لمهاجمة أوربا .

ويقول صاحب الأهرام باستحالة الوصول الى تحقيق الجامعة الاسلامية اعتماداً على أن ذلك لم يحصل في الماضي . حيث كان الاسلام عزيز الجانب ، شديد البأس ، فكيف يحقق في حال ضعفه ما عجز عنه في حال قوته ـ ويعتقد ان العمل لتحقيق الجامعة الاسلامية الان مضرة كبرى على الاسلام والمسلمين. لان دول أوربا المسيحية التي لا يروعها ان تصلح الدولة العلية امورها لتقوى ، كذلك لا يروقها من باب أولى أن تشاهد المسلمين تحت

سلطتها يتآلفون مع المسلمين تحت ظل الخلافة الاسلامية . لذلك ننصح بترك الجامعة الان لما فيه من اغراء أوربا على المسلمين لتفريق شملهم .

وقد أجابت المؤ يد بان الجامعة الاسلامية لم تكن من مطلب المسلمين أيام قوتهم حتى يقال كيف يدركون بعد ضعفهم ما عجزوا عنه أيام قوتهم ، وقالت : اما الآن ونحن ضعفاء والأعداء محيطون بنا من كل جانب . فقد حسن ان يكون تحقيق هذه الجامعة مطلبهم ، وليس اقدر على العمل للالفة والاتحاد اكثر من الضعفاء .

وتقول المقطم : « ان معنى الدعوة الى الجامعة الاسلامية هو : الدعوة الى الجهاد ، ويعني تعزيز الاسلام عندهم اهلاك غيرهم ، فهم لا يفهمون ان يكون الاسلام عزيزاً ، الا بابادة خصومهم كما كان ذلك في زمن الصليبيين ، وكما حدث في جبل لبنان (١٨٦٠) .

ولا شك ان ما ذهبت اليه المقطم فيه مغالطة كبيرة ومبالغة لا شك فيها . فالمسلمون لم يكونوا معتدين قط . بل معتدى عليهم دوماً . وفي الحروب الصليبية ـ زحف المئات من أوربا الى بلاد المسلمين لحربهم والسيطرة عليهم ، وكان موقف المسلمين هو موقف الدفاع والمقاومة . اما ما حدث عام ١٨٦٠ ان وثائق التاريخ المنصفة تشهد بأن المستعمرين هم الذين أثاروا المارون على الدروز . وكانت فرنسا من وراء المارون ، وبريطانيا من وراء الدروز . ولو ان المسلمين والمسيحيين تركوا لأنفسهم لما وقع بينهم ما وقع من خلاف او خصومة ، كما كان ذلك على طوال تاريخ العلاقة بينهما . ولكن المقطم في هذا انما تنقل تهديدات بريطانيا ومغالطاتها . وتذهب المقطم الى القول بان الجامعة الاسلامية الدينية المحضة المجردة من المعاني السياسية هي التي يمكن اخراجها من القوة الى الفعل . وهي بهذا تنكر امرين : (اولهما) مفهوم الاسلام الجامع بين الدين والسياسة ووجود الدولة العثمانية التي تحمل لواء الخلافة والجامعة الاسلامية معاً .

هكذا كان يدور السجال في قضية الجامعة الاسلامية يحمل طابع الخوف الشديد من جانب الدول الغربية وطابع التحريض الشديد من جانب حلفاء

النفوذ الغربي وتصويره بصورة اعتداء المسلمين على النصارى ، بينما يعرف الجميع كيف وقف لمسلمون والنصارى في وجه الحملات الصليبية وفي وجه الاستعمار الغربي . ولكن الاستعمار كان دائماً يحاول الوقيعة بين الأديان والاجناس في سبيل احتفاظه بالبقاء .

ومن عجيب ان تخشى اوربا في ذلك الوقت بلاد المسلمين محتلة او شبه محتلة ، وليس في ايديهم قوة اوربا او سلاحها من ان تؤدي الدعوة الى الجامعة الاسلامية الى خطر داهم يتهدد الحضارة الغربية او يؤدي بهم الى اكتساح اوربا . ففد مزق الاستعمار الغربي العالم الاسلامي وسيطر عليه ، وكان عليه ان يتم آخر خطواته وأخطرها بالقضاء على عقدة الدولة العثمانية والخلافة الاسلامية ، وذلك حتى لا يصبح من المستطاع تنفيذ اي مخطط للوحدة ، او التجمع تحت أي شعار كان .

وقد سقط اكبر دعاة الجامعة الاسلامية : جمال الدين وعبد الحميد في الميدان محاربين ومن بعدهما تمزقت الدولة العثمانية وازيلت الخلافة . ولكن الدعوة الى الجامعة الاسلامية لم تتوقف بعد ذلك . فقد ظلت ابرز النقاط في برامج الجمعيات والهيئات الاسلامية المختلفة في اندونيسيا والهند والبلاد العربية .

وكان ابرز العوامل الداعية اليها تاجج مسألة فلسطين والاحتلال الصهيوني لها . حيث عقد عديد من المؤتمرات الاسلامية التي كانت تحمل طابع الدعوة الى الجامعة الاسلامية ، وفي مقدمتها مؤتمر القدس ١٩٣٢ ومؤتمرات الباكستان بعد استقلالها ١٩٤٧ وما بعدها . وقيام المؤتمر الاسلامي في القاهرة وفي كراتشي ، والرابطة الاسلامية في مكة . ومن الحق أن يقال ان مضمون الخلافة الاسلامية ظل في مفهوم عامة المسلمين . انما هو أمر بعيد كل البعد عن الاحلاف او خدمة نفوذ اجنبي معين . وليس من وسائله عندهم الاستعانة به على عمل غير مشروع . وما تزال فكرة الجامعة الاسلامية على المحيط الشعبي الاسلامي فكرة نقية بعيدة عن محاولات السياسة والدول الكبرى التي تحاول الانتفاع بها عن طريق بعض الحكومات .

هذا ويؤكد مختلف الباحثين حتى من خصوم الاسلام الى ان الوحدة الاسلامية هي مآل المسلمين مهما طال الزمن واختلفت الوسائل .

فالشيوعيون بمفهوم احد زعمائهم (تاق ما لاكا) يقول : ان الوحدة الاسلامية هي نضال وطني للتحرر . لان الاسلام هو كل شيء بالنسبة للمسلم ، فهو ليس فقط ديناً وانما هو كذلك دنيا ودولة . ومن الناحية الاخرى يقول احد ممثلي الفكر الغربي (روبرت بيكر) « الاسلام في صورته الاولية فكرة شاسعة عن مهمته في الدنيا . فلا القرآن ولا الاحاديث ولا اقوال الصحابة تفرق بين الاجناس او اللغات . وعلى اساس هذا قامت نظرية وحدة سياسية ، وهي وحدة ، وان لم تتحقق عملياً أبداً ، الا ان المتمسكين بالدين بقوا على مر الظروف مؤمنين بان تحقيقها رهن بوجود ظروف اصلح ، ووجود حلفاء اقوى » .

لقد توالت محاولات المسلمين للتجمع ، وهي محاولات تبدأ دوماً في ظل تحد خطير ، وهي وحدة طبيعية اساساً . ولكن النفوذ الاجنبي والقوة الاستعمارية قد حالا دائماً دون تحقيقها بخطوط دفاع كثيرة . ولقد كانت دوماً مرتبطة بالتحديات . وهي تبرز دائماً على اثر الاحداث الكبرى كما ظهرت بعد احتلال الصليبيين للقدس . ومنذ بدأ النفوذ الاستعماري العربي الحديث . ولقد توقفت حركة الجامعة الاسلامية خلال حركة النضال في العالم الاسلامي خلال الحربين العالميتين ، ولكن ضياع فلسطين واستقطاعها ، وقيام دولة اسرائيل قد اعاد من جديد فكرة تجمع المسلمين .

يقول المؤرخ فلسن في تقريره عن الجامعة الاسلامية : « ان حركة الجامعة الاسلامية قد ضعفت جداً بعد خلع عبد الحميد ، ولكن لا تزال في المسلمين روح تضامن مع ملازمة للاسلام » . ان الالوف يتجهون كل سنة الى مكة ، ويشربون ماء زمزم ، الا انه بالرغم من وجود كل اسباب الارتباط الخارجي . وبالرغم من وجود الاتحاد الذي يجعل فكرة الجامعة الاسلامية قوة حقيقية الى حد يستدعي اهتمام المبشرين ، فانه يستحيل ان يكون من المسلمين عنصر حقيقي في استطاعته ان يجمع شمل السنّيين والشيعة معاً ويضم الاتراك

والفرس والهنود الى العرب ليكافحوا ويدافعوا يداً واحدة على ثقة واتفاق متبادلة .

ويقول زويمر : ان مدينة مكة والطرق الصوفية هما من اكبر العوامل الدافعة الى بث شعور الوحدة بين المسلمين والنفرة من كل شيء عير اسلامي . وهذا ما يسمونه بالجامعة الاسلامية . ومن المحقق ان التاجر المسلم يبث في هؤلاء الوطنيين مع بضاعته التجارية دينه الاسلامي وحضارته الراقية .

ويقول لوثروب ستوارد : ان الجامعة الاسلامية قامت على اساسين هما : الطرق الصوفية الحديثة النظام كالطرق السنوسية والدعوة التي قامت بها فرقة من أجلة العظماء واكابر المفكرين والحكماء ، وفي مقدمتهم جمال الدين الافغاني . وربما ظفر الاسلام في افريقية اليوم اعظم ظفر بما لإقاه المبشرون المسلمون حديثاً ، ففي بلاد التتر الروسية ، وفي الصين وفي الهند وفي جزائر الهند نهضات اسلامية رائعة ، ويرى كثير من الباحثين والمراقبين ان هناك عوامل كثيرة تقرب المسلمين الان من النظر في فكرة الجامعة الاسلامية واعتناقها : اهمها ضياع بيت المقدس ، واستيلاء الصهيونية عليه ، ومنها ذلك الانتعاش الاسلامي في تركيا ، وبروز الدول الاسلامية الجديدة في آسيا (الملايو واندونيسيا والباكستان) بالاضافة الى الدول الافريقية المسلمة الجديدة . هذا فضلا عن ان فكرة الوحدة العربية اخذت تتحرر من المفهوم الغربي للقومية ، وتعود الى التماس مفهومها الفطري المستمد من مزاجها النفسي وروحها وعقليتها ، والقائم على الترابط بين الاسلام والعروبة . وذلك لتنسيق روابطها مع العناصر غير العربية والانفتاح على دول العالم الاسلامي في اخوة وترابط ثقافي واقتصادي واجتماعي ، يضاف الى ذلك التقارب والالتقاء بين فقه السنيين والفقه الشيعي ، واجتماع السنيين والشيعيين على اليقظة والوعي والعمل على كشف اهداف الاستعمار في الوقيعة والقطيعة بينهما .

ولا شك ان الكتابات الجديدة في تحليل العلاقات بين الفكر الاسلامي والثقافات العربية والتركية والايرانية ، وتقارب المذاهب الاسلامية ، واعادة تفسير العلاقة بين العروبة والاسلام على اساس اكثر نضجاً وانصافاً . كل هذا

اخذ يقيم « وحدة فكر » بين المسلمين ستؤ دي الى بناء ثقافة اسلامية موحدة . وهناك دعوة ذائعة تجد صداها اليوم في كل مكان الى جعل اللغة العربية هي لغة العالم الاسلامي الثقافية ، وان تصبح لغة الدول الاسلامية فى افريقيا وآسيا .

قامت فكرة الجامعة الاسلامية اذن في مواجهة التوسع الغربي وزحف النفوذ الاستعماري ، فهي ردّ فعل للتحديات الخطيرة التي واجهها المسلمون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وكانت هدف دعوات التوحيد الىي قادها محمد بن عبد الوهاب ، والسنوسية التي قادها محمد بن علي السنوسي ، والمهدية التي قادها محمد احمد المهدي ، ثم دعوات جمال الدين ومدرسته ، ثم دعوة القرآن . وقد استطاع النفوذ الاستعماري تحطيم هذه الدعوات والقصاء على نفوذها السياسي واحدة بعد الاخرى ، وان ثبت بعصها وتحول الى المجال الفكري الخالص .

ولعد كانت حركة المقاومة العسكرية منبثقة من فكرة الحامعة الاسلامية ايضاً . وقد قاومها الاستعمار وقضى عليها : قضى على حركات الامير عبد القادر ، وعبد الكريم ، واحمد عرابي ، والشيخ شامل وثورة الهند ١٨٥٨ .

وكان النفوذ الاستعماري قادراً على اجهاض هذه الدعوات والحركات ، وضرب بعضها ببعض ، فان اكبر عوامل الفوة التي ظهرت في خلال الفرن التاسع عشر قد قضى عليها الاستعمار . وفي مفدمتها حركة محمد علي في مصر التي حاولت ان تخرج الدولة العثمانية من جمودها ، وحركة الوهابية في الجزيرة العربية ، ثم حركة احمد عرابي في مصر ، وحركة المهدي فى السودان ، وحركة جمال الدين الافغاني ، وحركة الجامعة الاسلامية التي قادها السلطان عبد الحميد . كل هذه الدعوات التحررية التي حاولت دفع البفظة الاسلامية الى مكان الفدرة .

وقد ظهرت هذه الدعوات في مراكز حساسة متعددة من العالم الاسلامي في الجزائر ، في مصر ، في الحزيرة العربية ، فى الهند ، في طرابلس ، في السودان . ولو ان هذه الدعوات اتيح لها حرية الحركة لتمت وتوسعت والتقت . فاذا قال بعض كتاب التغريب عنها انها انطفات . او فصرت .

فليعلموا انها انما كانت تتحرك من تحت مدافع النفوذ الاستعماري وقواته .

ولكن القول الحق انه ما من حركة منها الا وتركت آثارها القوية البعيدة المدى . وكانت عاملا هاماً دفع حركة اليقظة الاسلامية العامة الى الامام قوة ، وزادت المسلمين يقظة وتماسكاً وتجمعاً من جديد لمواجهة النفوذ الاستعماري .

فهذه الدعوات لم تفشل ، ولكنها اجهضيت نتيجة للقوى الاستعمارية المتربصة التي استطاعت ان تقضي على هؤلاء الدعاة ، او تفسد مخططاتهم بالتاليب عليهم او سحقهم ، واذا كانت هذه الدعوات قد ظهرت وانطفأت كالشهب ، فان الظاهرة الاساسية انها والت الظهور ولم تنقطع في عصر من العصور ، وانها كلها اتصلت كحبات في عقد واحد . وذلك آية صِدْقِها ونَجَاحِها ، والحاجة الأكيدة اليها .

ولم تكن هذه الدعوات في مجموعها تجهل ضرورة التلاقي مع روح العصر ، والانتفاع بالحضارة الغربية الحديثة ، ولكنها كانت تفرق بينها وبين الاستعمار من ناحية ، وبينها وبين الغزو الفكري ومحاولة الغرب فرض قيمه ، والقضاء على قيم الاسلام نفسه ، وكانت تعرف أن الاستعمار لن يسمح لها ان تنال من ثمرات الحضارة الغربية ما يزيدها قوة ، وان ما سمح به الاستعمار من وجوه حضارية ، انما اتصل بالجوانب الاستهلاكية والمادية والمتصلة بالترفيه واللذات والمتع ، وليست تلك الجوانب الايجابية المكونة للامم ، البانية للقوى العسكرية او الصناعية .

وليس صحيحاً ما يذهب اليه الغربيون ومن تابعهم من دعاة التعريب الذين يكتبون باللغة العربية من ان السلطان عبد الحميد التمس من الجامعة الاسلامية سبيلا الى دعم سلطانه ، وانما التمس من الجامعة الاسلامية سبيلا الى دعم مركز الدولة العثمانية باعتبارها قوة قائمة وموجودة وقادرة على ان تكون نقطة التقاء وبلورة للقوى الاسلامية المختلفة في مواجهة النفوذ الاستعماري .

وقد استطاعت قوى النفوذ الاستعماري ان تواجه هذه القوة حين بدأت تتجمع وتنضج بحركة الاتحاديين المغرقة في العصبية الجنسية والدعوة الطورانية .

❋❋❋

ويمكن القول ان هذه الحركة المتجهة الى الجامعة الاسلامية في هذه المرحلة كانت منبثقة من داخل المجتمع الاسلامي حقيقة، ولكنها كانت فيما يبدو تشوبها شائبة النفوذ الاستعماري الذي كان يطمع في توجيهها وجهة معينة يغلب ان تكون وسيلة الى ان تسير في فلك الغرب .

والمعروف ان الجامعة العربية كانت قد قامت بين الحكومات العربية خلال الحرب العالمية الثانية على نحو مقيد لا يسمح لها بالحركة الكاملة .

واذا كان من طبيعة الاستعمار ان يضرب الحركات بعضها ببعض ، فان المفكرين المسلمين في العالم الاسلامي كله ظلوا يحملون لواء الدعوة الى الوحدة الاسلامية ، ومن خير ما كتب في هذا بحث للشيخ محمد ابو زهرة صدر في القاهرة عام ١٩٥٨ .

فقد حاول من خلاله معالجة عوامل الفرقة . ودعا الى وضع مخطط شامل للتقارب والتقريب ، واستبعد فكرة « دولة اسلامية ذات حكومة موحدة » نظراً لتباعد الافكار وتنائي الامصار وهو في ذلك يقول : لا يصلح ان يكون مقصدنا من الوحدة تكوين دولة اسلامية متحدة يدخل في تكوينها كل الاقاليم الاسلامية . وعنده انه يصح ان تكون صورة الوحدة في شكل كومنولث اسلامى او عصبة امم اسلامية او جامعة اسلامية ، وانما يجب ان يتحقق فيه اتحاد السياسة في كل الاقاليم الاسلامية بحيث يوالي كل اقليم اسلامي من يوالى المسلمين ويعادى من يعاديهم .

وقد ركز الباحث على العناية بالتعارف الاسلامي وسبيله ان تشمل المدارس في البلاد الاسلامية كلها على دراسة جغرافية لكل اقليم اسلامي ، وتنظيم الرحلات ، واولى للحج اهمية كبرى في التعارف ، وكذلك اولى اللغة العربية اهتماماً بالغاً باعتبارها لغة المسلمين الجامعة .

***

والمعروف ان حركة جمعية الشبان المسلمين والجمعيات التى انبثقت منها ، وجماعة مصر الفتاة قد وسعت مجال الحديث في مصر عن الجامعة الاسلامة قبل الحرب العالمية الثانية ، فتكون رأي عام اسلامي متقبل للحديث مرة اخرى

عن الجامعة الاسلامية ، ثم كان لقيام الباكستان عام ١٩٤٧ اكبر الاثر في تجدد الدعوة الى الجامعة الاسلامية ، وكذلك ظهور الدولة الاندونيسية التي تضم اكثر من ٨٠ مليوناً من المسلمين . وفي هذه المرحلة شاب اغلب الدعوات الى الجامعة الاسلامية طابع السياسة العالمية وكفاح الاستعمار .

ففي نوفمبر ١٩٤٨ نشأت في باريس فكرة انشاء جامعة اسلامية على الأساس الذي نشأت عليه جامعة الدول العربية على ان يكون اها نظام آخر ، فتضم جميع الشعوب سواء أكانت مستقلة أم غير مستقلة . والهدف الاول من انشائها كما ذكر دعاتها هو احياء مجد الاسلام ، والمحافظة على شعائره من الاستعمار والدعوات الالحادية .

ثم تعددت التصريحات والمؤتمرات الصادرة من باكستان والتي تشير الى التمهيد لتشكيل هيئة سياسية عالمية لقيام دولة اسلامية عالمية ، واشارت البرقيات الى ان المؤتمر الاسلامي الذي عقد في باكستان ١٩٤٩ قد وجه اهتماماً كبيراً الى فكرة اقامة دولة قرآنية تحتضن الدول الاسلامية المستقلة . وتحدث احد زعماء باكستان عن انشاء اسلاميتان (أي ادماج الدول الاسلامية تحت لواء واحد) .

ورددت تركيا في تصريحات اشارت الى انها لن تقبل الاشتراك في وحدة دولة اسلامية ، وتلا ذلك تصريحات من المسلمين في ايران من ان قيام كتلة اسلامية انما يعود بالخير على الشعوب الاسلامية . ويعزز مركزها الدولي . ورددت اندونيسيا نفس التصريحات التي تقول بالتفكير في انشاء كتلة آسيوية تضم الهند وباكستان واندونيسيا وسيلان وايران وتركيا والبلاد العربية .

وشملت الدراسات التي قدمت في هذا الشان كثيراً من الخطوط العامة . وكان أهمها مشروع من أربع نقاط لتوحيد البلدان الاسلامية قدمته مراكش . وهذه النقاط هي :

(١) استخدام اللغة العربية كاحدى اللغات الرسمية لجميع البلاد الاسلامية .

(٢) اقامة كتلة اسلامية مستقلة في هيئة الامم ، واقامة هيئة اسلامية

منفصلة .

(٣) استخدام عملة مركزية منفصلة تتخذ وسيلة لتبادل العملة بين البلاد الاسلامية .

(٤) رفع القيود والحواجز على حركة النقل والانتقال بين البلاد الاسلامية .

وفي المؤتمر العالمي الاسلامي الذي عقد في مراكش (١٩٥١) جرى الحديث حول الوحدة العربية وانها ليست الا جزءاً من الاتحاد الاسلامي العام .

واجمعت الاراء على « ان المسلمين يستطيعون المساهمة في قضية السلام ، وتقدم البشرية على هدى من مبادىء الاسلام وتعاليمه » وان العالم الاسلامي اذا اتحد أمكن أن يتحول الى قوة فعالة قد تجعله القوة الثالثة التي يسعى العالم اليها . ودعا آغا أخان المسلمين الى التعاضد ، واعلن الحاجة الى قيام اتحاد متماسك تام بين شعوب هذه الدول المسلمة .

وكان مؤتمر العالم الاسلامي الذي انعقد عامي ١٩٤٩ و ١٩٥١ قد جعل من اهم اهدافه :

(١) النظر في احوال المسلمين وما يحيط بهم ، ثم تعاونهم على خطة اسلامية تهديهم سواء السبيل وتنجيهم من الاضطراب الذي يعم العالم ، ومن الشر الذي يهدد ذلك العالم .

(٢) محو جميع الفوارق المذهبية والقبلية والاقليمية من بين جميع شعوب العالم الاسلامي واحكام الرابطة الاسلامية بين الجميع باتخاد القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة مصدرين للهداية.والتوحيد ، والعمل على تحقيق الاتحاد بين زعماء الشعوب الاسلامية وادخال عناصر التعليم الاسلامي في جميع مناهج الدراسة .

(٣) العمل على نشر لغة القرآن باعتبارها لغة للشعوب الاسلامية عامة في جميع انحاء العالم .

(٤) تأسيس شركات ووكالات لنشر الانباء الصحيحة عن الدول الاسلامية وعن شعوبها .

(٥) جعل التشريع في اساسه قائماً على المبادىء الاسلامية .

(٦) تنظيم الزكاة وتخفيف تكاليف الحياة عن عاتق العمال والزراع بتوفير المطعم والمسكن والملبس والتعليم والعلاج لهم .

(٧) توجيه التعليم في الاقطار الاسلامية توجيهاً اسلامياً حتى يحال بين ناشئيها وبين طغيان الجانب المادي في الحياة . ذلك الجانب الذي تقتضيه طبيعة العلوم التي اصبحت دراستها جزءاً لا غنى عنه في هذا العالم المملوء بالنزاع والكفاح . اما في البلاد الاسلامية المستقلة فيجب ان يكون التعليم الديني الزامياً كافياً مع تسهيل الطرق للباحثين على التعمق في مظاهر الثقافة الاسلامية في كل بلد .

(٨) انشاء مجمع علمي اسلامي دولي يضم اعلام العالم الاسلامي في جميع مجالات الثقافة .

***

وكانت المؤتمرات الاقتصادية الاسلامية العالمية تضم بعض هذه المناهج :

« المسلمون يؤلفون وحدة جغرافية بالاضافة الى ما يوجد بينهم من دين مشترك ، وشعور مشترك ، وطراز مشترك فأكثر الاقطار الاسلامية مناطق متجاورة . وهناك عامل ثالث من عوامل اشتراك المصالح بين هذه الشعوب . ذلك هو طراز اقتصادياتها . اذ انها كلها ذات اقتصاديات زراعية لا تزال في مرحلة الزراعة ، والعامل الهام هو اننا اذا كنا مستقلين نوعاً ما سياسياً ، الا اننا لا نزال من الناحية الاقتصادية في قبضة الامم الغربية القوية . ولم يستطع بعضنا حتى بعد الحصول على الاستقلال التخلص من العبودية الاقتصادية .

- ٣ -

الخلافة الاسلامية

من أكبر قضايا العالم الاسلامي : قضية الاجهاز على الخلافة الاسلامية عام ١٩٢٤ كجزء من مخطط النفوذ الاستعماري لالتهام مختلف وحدات العالم الاسلامي ، والقضاء على آخر معقل لتجمع المسلمين وتوحدهم في وجه الغزو الاستعماري الزاحف .

فقد كان النفوذ الاستعماري يرى أن الدولة العثمانية هي عقدة الترابط بين المسلمين سواء في داخلها ، ام بالنسبة للدول الاسلامية خارجها كالهند وأندونيسيا وفارس وأفغانستان . لذلك فقد كانت تلك الحملة المرتبة الدقيقة لتحطيم هذه القوة (مهما كانت درجتها من الضعف)، فقد كانت الدولة العثمانية تجمع عنصرين من أكبر عناصر الاسلام (العرب والترك)، وكانت حركة الجامعة الاسلامية التي حمل لواءها . جمال الدين الأفغاني شعبيا ، وعبد الحميد بوصفه خليفة المسلمين وسلطان العثمانيين ـ وهي دعوة مناضلة متحررة من دعوات المجتمع للمقاومة والوقوف في وجه الغزو الغربي ـ ولم تكن دعوة عدوانية سواء لغير المسلمين في العالم الاسلامي او للغرب المسيحي ـ وقد ألح النفوذ الاستعماري وفي مقدمته فرنسا وانجلترا على هذه الدعوة وهذه الدولة بحملات متصلة استمرت منذ ١٨٧١ الى تولي الاتحاديين عام ١٩٠٨ وتحقق اسقاط عبد الحميد عام ١٩٠٩ . وقد استطاع النفوذ الاستعماري بمعونة الاتحاديين اسقاط الدولة العثمانية عام ١٩١٨ . ثم كان مصطفى كمال بحركته المناهضة للوحدة الاسلامية ، والاسلام عاملا هاماً في قطع آخر العلائق . وذلك بفصل الخلافة عن السلطة أولاً ، ثم الاجهاز على

الخلافة نهائيا عام ١٩٢٤ . وبذلك استطاع النفوذ الاستعماري تحقيق آخر اهدافه في القضاء على وحدة المسلمين والدولة العثمانية ، وتمزيق شمل هذه الوحدات والتهامها ، والسيطرة عليها ، والحيلولة دون قيام اتحاد بينها من اي نوع . حتى الاتحاد بين اجزاء الامة العربية لقي من معارضة النفوذ الاستعماري والائتمار به عنتاً كبيراً بحسبانه اول تجمع في سبيل الوحدة الجامعة .

كان إلغاء الخلافة الاسلامية اذن هو خاتمة ما أسماه الاستعمار « الحروب الصليبية » كنتيجة لمخطط وصفه احد الوزراء الفرنسيين دوجوفار بانه « مائة » مشروع لتقسيم تركيا .

ولقد كانت قلوب المسلمين في مختلف أنحاء العالم الاسلامي تخفق خلال المعركة التي قادها المحاربون الأتراك في مواجهة الاحتلال الذي قام به الحلفاء بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ، وأيدوا كاظم قرة بكير وزملاءه الذين قادوا حركة المقاومة والتحرير ، والتي كادت تصل الى النصر قبل أن يستولي على زمام الحركة مصطفى كمال ، فيقصي جميع القادة المجاهدين ويضع فوق أكتافه وحده اكليل النصر ، وكانوا يعلنون تأييدهم لهذا الجهاد مشاركين فيه بالمال والأنفس من كل اجزاء العالم الاسلامي ، وكانت الهند أكثر بلاد العالم الاسلامي تأثراً وعملاً وتأييداً ، وكانت اكثرها ثورة على بريطانيا المحتلة للدولة العثمانية .

غير ان العالم الاسلامي لم يكن يعرف أن معاهدة لوزان قد الحقت بها معاهدة سرية قبل بها مصطفى كمال تقضي بتصفية الروح الاسلامية في مختلف مجالات القانون والاجتماع والتربية واللغة ، وتقبل الأنظمة الغربية قبولا كاملاً ، واتجاه الدولة التركية الى الطابع العلماني الصرف ، ليس المتحرر من الدين فحسب ، بل المعادي له ، هذا الاتجاه الذي كان في مقدمة خطواته الاجهاز على الخلافة الاسلامية ، واعلان دعوى عريضة تحمل الاسلام اتهامات التأخر والضعف الذي منيت به تركيا . وقد أتم مصطفى كمال مشروعه هذا على مرحلتين :

الأولى : الغاء الخلافة الزمنية ، واقامة خلافة روحية مجردة عن السلطة .
الثانية : الغاءالخلافة نهائياً .

وقد جاشت اقلام الكتاب بنقد بالغ لحكومة انقـرة في اقدامهـا علـى الغـاء الخلافة بحسبان انها ليست ملكا للأتراك وحدهم ، ولأنها خلافة المسـلمين جميعا ، والترك لا يتجاوز عددهم جزءاً من مائة جزء من المسلمين ، ووصف ما وقع « بانه بلغ اقصى ما استطاع اعداء الاسلام واشد ما كانوا به ائتماراً وأعدى ما كانوا عليه عدوانا ، واصدق ما كانوا رغبة في الكيد له ، والنكاية به أن يبلغوا ما بلغه هؤلاء الكماليون على مرأى ومسمع من المسلمين ، فاقدام الكماليين على الغاء الخلافة أكبر جريمة في عهد الدولة عل الدولة ، وأبشع جريمة في تاريخ الاسلام ، ووصف عملهم بأنه نقض موثق استمر ثمانية قرون وبعض قرن .

***

لم يتوقّف المسلمون منذ ذلك الوقت عن الدعوة الى اعـادة الخلافـة . وكان الأزهر على رأس الهيئات الاسلامية التي حملت لواء الدعوة الى اعادة الخلافة ، فاجتمع المؤتمر الاسلامي (٢٥ مارس ١٩٢٤) الذي أفتى ببطـلان بيعـة عبـد المجيد الذي كان الكماليون قد نصبوه قبل الغاء الخلافة ايمانـاً بأن الاسـلام لا يعرف الخلافة على النحو الذي تولاها عبد المجيد منفصلة عن السلطة ، وأعلن دعوة جميع ممثلي الأمم الاسلامية الى مؤتمر يعقد في القاهرة برئاسة شيخ الاسلام للبت فيمن يجب أن تسند إليه الخلافة الاسلامية .

ولكن هذا المؤتمر اجل مرة بعد مرة حتى اجتمع في ١٣ مايو ١٩٢٦ دون أن يسفر عن شيء ايجابي . وذلك أن النفوذ الاستعماري كان قد حطم كل محاولة لاحياء الخلافـة ، ووضـع مختلف العـراقيل والصعوبـات ، وتبـارى الملك فؤاد ، وامان الله خان ، والحسين بن علي في تولي الخلافة .

وكان الانجليز قد أعلنوا معارضتهم الشديدة لعودة الخلافة الاسلامية في أي صورة من الصور وكانوا يعملون على تعقيد المساعـي المبذولـة في اعادتهـا بوسائل ملتوية خفية .

وقد أدى التدخل الاستعماري والنفوذ الاجنبي الى خلق جبهة معارضة للجبهة التي ترشح الملك فؤاد ، فانقسم علماء الازهر بين مؤيدين ومعارضين . وكان

الخلاف بين الملك فؤاد وسعد زغلول عاملاً من عوامل الصراع . وكان سعد زغلول منذ بدء حياته السياسية معارضا للجامعة الاسلامية ، وظن أن الانجليز يدفعون الملك فؤاد للترشيح للخلافة تحقيقا لمشروعهم القديم . مشروع الخلافة العربية .

ووقفت الصحافة نفس الموقف ، فهاجمت جريدة السياسة لسان حزب الأحرار الدستوريين موقف المعارضة ، وشاركتها صحف الوفد . وانتهى المؤتمر المنعقد في ١٣ مايو ١٩٣٦ الى قرار يقول :

« إن الخلافة الشرعية المستجمعة لشروطها المقررة في كتب الشريعة الغراء . التي من أهمها الدفاع عن حوزة الدين في جميع بلاد المسلمين وتنفيذ أحكام الشريعة الغراء فيها لا يمكن تحقيقها بالنسبة للحالة التي عليها المسلمون الآن » .

وعمد حزب الأحرار الدستوريين في سبيل معارضة اتجاه الملك فؤاد الى تولي الخلافة بأن كلف أحد رجاله (علي عبد الرازق) ان يضع بحثا مراوغاً يحمل طابعا علميا فقهيا يقرر فيه وجهة نظره السياسية . وقد اعتمد علي عبد الرازق على المؤلفات التي نشرها حكام تركيا يعززون بها موقفهم من الغاء الخلافة . وكان مجمل هذه الآراء يقول بأن الخلافة ليست نظاما اسلاميا خالصاً .

بينما وقف رشيد رضا ومصطفى صبري ، ومحمد بخيت في مواجهة هذا الرأي كاشفين عن حقيقة مفهوم الخلافة في الاسلام .

وفي الحق أن كتاب علي عبد الرازق لم يكن يهدف الى اعلان رأي في الاسلام خالص لوجه العلم بقدر ما كان يهدف الى استغلال فقه الاسلام وتشريعه وتاريخه الى تأييد رأي باطل عن الخلافة ، هذا الرأي ليس له أهمية ، ولا خطر الا بقدر ما يتعرض لأصل من أصول الاسلام ، وهو قوله بالباطل إن الاسلام دين روحي لا صلة له بالمجتمع ولا بالسياسة منكراً اكبر معلم من معالم الاسلام الذي يختلف اختلافا اساسيا عن الأديان الاخرى .

ولم يكن لهذا الرأي الذي أثاره علي عبد الرازق ليرجح كفة سياسية على كفة اخرى ، أي اهمية أساسية لولا أنه من الآراء التي تلقفهـا المبشـرون ودعـاة التغريب ، وأعطوها اهمية كبرى في إثارة شبهة من أخطر الشبهات ، وهي أن الاسلام دين لا صلة له بالمجتمع ولا السياسة . وقد حاولوا ان يعتـدوا بهـذا الرأي الفرد الذي لم يصدر في مجال بحث علمي ، ولم يلق من العلمـاء أي تأييد او تقدير ، ولم يقبل به جمهرة العلماء المسلمين او يرتضوه . والذي كان في حقيقته صادراً عن غرض سياسي وذاتي ، ولم يكن يراد به وجه الله والعلم والحق .

وقد واجه الشيخ مصطفى صبري جميع الحجج التي ساقها مصطفى كمـال وحكومة أنقرة متعللين بها لالغاء الخلافة . كما كشف عن الدوافـع الحقيقية والأسباب الخفية لهذا العمل . وقال إن السبيل للاصلاح كان ممكناً بتبـديل المصلحين بالمفسدين لا تبديل الشريعة والدين ، وفصل الدولة عن الدين . وقد دحض الشبهات التي أثيرت حول الدين والحرية وموقف الاسلام منها . فقال : إن الاسلام لا ينافي الحرية ، والاستغلال أن تكون حكومته ممنوعة من التخطي ما وراء حدود الدين . وان المقصود بالحـرية هو حرية الأمـم تجـاه الحكومات لا حرية الحكومات في القيام بأمور الأمة .

وكشف عن أن الاتحاديين هم الذين زجوا بتركيا في الحرب على غير رغبة السلطان . وعلى غير رغبة كثير من المعارضين . ثم وقعوا عقد الاحتـلال . ومع ذلك كله فهم يلومون الخليفة لاستسلامه لعواقب هذه الهزيمة التي جلبوها عليه بأيديهم .

وأورد الشيخ مصطفى صبري ادلة العارف الخبير بالأمور عن أن الكماليين الذين حكموا بعد الحرب العالمية الأولى هم والاتحاديون الذين حكموا قبل الحرب ، وبعد خلع السلطان عبد الحميد حزب واحد . وأن الخلاف بينهم ليس خلافـا علـى المبـادىء ، ولكنـه خلاف شخصـي مبعثـه التنـافس علـى الزعامة ، وكلاهما يستند على السلطة العسكرية في زعامته ، وعندهـم أنهـم المسؤ ولون عن ضياع الامبراطورية العثمانية منذ وضعوا ايديهم على الدولـة بعد خلع عبد الحميد .

وكشف مفتي الاسلام العثماني عن علاقة مصطفى كمال بالانجليز فقال إن الانجليز قد تشددوا في معاملة السلطان وحيد الدين حتى أعجزوه ، ثم تساهلوا بعد ذلك مع مصطفى كمال ، ليجعلوا منه بطلا فتعظم فتنته في أبصار المسلمين وبصائرهم « والرجل من لا تجد الانجليز مثله ، ولو جدت في طلبه ، من حيث انه يهدم من ماديات الاسلام وادبياته في يوم ما لا تهدم الانجليز نفسها في عام ، فلما أثبت كفايته وقدرته من كل الجهات استخلفته لنفسها وانسحبت من بلادنا ».

وإذا كان مؤتمر الخلافة عام ١٩٢٦ في مصر . ومؤتمر مكة في نفس العام لم يسفر عن شيء في أمر الخلافة . فان البحث في امر الخلافة لم يتوقف فيه ثمة ، والى امد طويل ، فاتجهت الانظار الى مصر ، واتجهت الى الجزيرة العربية ، وأثبتت جمعية الشبان المسلمين في برنامجها الذي أعلنته سنة ١٩٢٧ . أن من أهم أهدافها « اعادة الخلافة ». كما أثبتت ذلك عديد من الجمعيات الاسلامية التي انبثقت من جمعية الشبان المسلمين ، وتناول الدكتور : عبد الرازق السنهوري هذا الموضوع الخطير في رسالة الدكتوراه التي قدمها الى جامعة باريس في هذه السنوات تقريباً تحت عنوان « الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية » كتبه عقب سقوط الخلافة . وقد كان التساؤل باسم العالم الاسلامي كله ، وهو ماذا بعد الخلافة من رابطة تجمع المسلمين وتعيد وحدتهم . وقد وصل الدكتور السنهوري في بحثه الى ان يتطور نظام الخلافة ، فيصبح عصبة أمم شرقية . وكان مجمل رأيه هو أن تشتد القوميات وتبلغ الرشد ، وتصبح قادرة على أن تكون نوعا من الوحدة بين الأمم . بعد ان تكون قد اصبحت أمماً ، وهذه عبارته : « حتى إذا توافرت لكل قومية كيانها وحرياتها الداخلية ، كان من الطبيعي أن تفكر هذه القوميات المختلفة في التعاون والتضامن على أساس نوع من الوحدة لا يزالون حتى الآن يلتمسون اليه السبيل .

ثم يتساءل : أيحسن التفكير في تكوين المجموع قبل استكمال الاجزاء لمقاومتها ، أو يحسن ترك الاجزاء تستكمل ذاتيتها ، ثم التفكير بعد ذلك في تكوين المجموع . فلنترك الشرق تستكمل كل قومية فيه مقوماتها ، ولكن

لننفخ في هذه القوميات روحا شرقية واحدة ، تسترشد بها كل أمة في نهضتها الوطنية حتى يسود التآخي والتعاون فيما بين هذه الأمم ، ويسهل بعد زمن قريب أو بعيد أن نحقق نوعا من الوحدة في الشرق لا تزال أوربا تتلمس الطريق اليه .

وعرض السيد رشيد رضا لأمر الخلافة وقال : إن اقامة الخلافة الاسلامية يسوء رجال دول الاستعمار ، وانهم قد يقاومونها بكل ما أوتوا من قوة ، واحرصهم على ذلك الدولة البريطانية . وقد دعا البحث في أمر الخلافة من جديد قبيل الحرب العالمية الثانية وحوالي سنة ١٩٣٠ وتعددت فيه الآراء . وكان من رأي الدكتور عبد الحميد سعيد أن الخلافة الاسلامية في الشرق لازمة للاسلام والمسلمين ، وانها في العصر الحاضر الزم منها في أي عصر مضى . غير أنه يقدر ما تحمله فكرة الخلافة من تهديد لسياسة أوربا الاستعمارية والقضاء على أطماعها في الأمم الاسلامية ، والتي عمل الغرب زمناً طويلًا على تمزيق شملها ليصل الى ما وصل اليه ، ذلك أن الذي يرعب أوربا حقا ويخيفها أن قيام الخلافة يؤ دي الى اتحاد الأمم الاسلامية ، وتعاونها في سبيل نهضتها ، ونهضة الشرق كله . وهذه النهضة إذا قويت باتحاد الأمم الاسلامية تحطمت مطامع الدول الأوربية وشهواتها الاستعمارية .

واذا كانت هذه وجهة نظر . فان هناك دائما وجهة النظر الأخرى المعارضة ، يحمل لواءها كتاب سياسيون لهم ارتباطاتهم باحزابهم وما وراء الأحزاب من علاقات دولية .

فعبد القادر حمزة يرى أن الخلافة في مصر تكون مصدر خطر عليها من الدول القوية ، وأن الخلافة ستجد من يعارضها كتركيا والمغرب الأقصى ، ولا فائدة من قيام نظام لا يعترف به الجميع ويقول : « ولا ريب أن الخلافة في مصر تستدعي أن تصير حكومتها دينية ، ومعنى هذا أن جميع القوانين التي سارت عليها منذ ستين عاماً يجب أن تتغير ، وتوضع بدلها أحكام شرعية تسري على المصريين والأجانب ، وهذا العمل ينافي ما ارتبطت به مصر في المعاهدة المصرية البريطانية . فقد نصت هذه المعاهدة على أن أي تشريع مصري يطبق على الاجانب يجب أن لا يتنافى مع المبادىء المعمول بها في التشريع الحديث » .

ويورد عباس العقاد قريباً من هذه العقبات ، ويضيف اليها أعباء الخلافة التي تتحملها ميزانية مصر . وفي مجال نقد واقع الخلافة الاسلامية في الدولة العثمانية عرض عبد العزيز جاويش ورشيد رضا ما وصلت اليه الخلافة من انحراف عن مفهوم الاسلام حيث نقل العثمانيون مفهوم البابوية والامبراطورية . وفي هذا يقول رشيد رضا « ليس في الاسلام فوق الشرائع والأحكام أمير ولا خليفة ولا سلطان . فقد قلدت تركيا أوروبا في شتى القوانين الرومانية في قاعدة تقول بأن الخلفاء فوق القانون والشرائع ، فأصبح الخلفاء بهذا خلفاء رومانيين لا خلفاء اسلاميين » .

ومن ذلك ما أشار اليه عبد العزيز جاويش حين ناقش مصطفى كمال في أمر الخلافة حين قال : « إن الأعاجم أفسدوا أمر الخلافة بما دست الباطنية ، وبما أفرط الترك والفرس في الغلو باطراء الخلفاء حتى فتحوا لهم باب الاستعباد ، وقهروا الأمة على الخنوع . ولقد كان تقديس الخلفاء العثمانيين سبباً لاسقاط دولتهم .

كما دافع الفاتيكان عن اتهام جريء طالما ردده الكماليون ، وهو أن ما وصلت اليه الدولة العثمانية من تأخر . انما كان مرجعه الى الاسلام . والاسلام بريء مما وصلت اليه تركيا ، وأنه لا علاقة بين الاسلام وما اضطربت به الدولة من استبداد وفساد . فالاسلام لا يؤ يد الاستبداد ، ولكنه يشجعه ، ولذلك فإن الرأي القائل بأن النهضة لا تتم الا بترك التقيد بالاسلام في حكومتهم لم يكن رأيا منصفا . واغلب الظن أنه كان باغراء النفوذ الغربي الطامع في ان يقضي على الطابع الاسلامي وهدمه بعد اتهامه ، والصاق شبهة التأخر به .

وبعد فإننا نصل من هذا العرض التاريخي الى حقيقتين :

أولاً : ان الخلافة هي بؤ رة الجامعة الاسلامية . وان الجامعة الاسلامية يمكن أن تقوم اولاً ثم تنبثق منها الخلافة ، وان حركات التحرر والوحدة والتقارب التي تجري اليوم في عالم الاسلام يمكن ان يتحقق من خلالها نظام جامع للدول الاسلامية ترتبط به ثقافيا واجتماعيا قبل أن ترتبط به سياسيا وعسكريا .

ثانياً : ان المسلمين بعد الغاء الخلافة لم يتفرقوا كما كان يتصور الاستعمار . وان الهدف الذي كان يطمع فيه النفوذ الاستعماري ، قد فشل تماماً . وان العالم الاسلامي قد تلاقى على مستويات كثيرة سواء في مجال الوحدة العربية ، أو الوحدة الثقافية العامة ، وأن الفكر الاسلامي ما زال هو المصدر الأول للثقافات العربية والفارسية والتركية والهندية الاسلامية .

وإذا كانت الخلافة قد سقطت بعمل سياسي استعماري دفين اخفى امره طويلاً ، وبدقة وراء غلالات وتمويهات . فإن المسلمين قد بدت امامهم الحقائق سافرة ، وتنبهوا لما يراد منها ، فسارعوا الى اتخاذ وسائل اخرى تحل محل الخلافة فاندغمت رابطتهم في مؤتمر الحج السنوي . وفي الاتجاه نحو الأزهر ، وفي مؤسسات مختلفة تقوم الآن بالربط بين المسلمين على صعيد الفكر والثقافة والتعليم .

وزاد من قوة هذه الروابط تمرد دولتين كبيرتين بعد الحرب العالمية الثانية هما : الباكستان واندونيسيا ، وعشرات الدول الاخرى ذات الاغلبية المسلمة في جنوب شرق آسيا وأفريقيا . وكانت أزمة فلسطين والصهيونية عاملاً بعيد المدى في التقارب والالتقاء ، وخاصة بعد سقوط القدس في يد الصهيونية . وقد دفعتهم الأزمات الى نسيان خلافاتهم ، وتقريب مفاهيمهم ، والالتقاء على الاسس العامة ، وخاصة فيما يتصل بالسنيين والشيعيين والأكراد والعرب والبربر . فقد توثقت الصلات وازدادت عمقاً ، وخفت حدة الخصومات والخلافات التي أججها الاستعمار والنفوذ الغربي خلال فترة احتلاله بين الحربين ، كما كشفت الوقائع حقائق كانت مطمورة عن السلطان عبد الحميد :

الواقع أن تاريخ السلطان عبد الحميد لم يكتب بعد الا من جهة واحدة ، هي : جهة خصومه واعدائه من اليهود والاستعماريين والغربيين وأتباعهم من أصحاب الأقلام التي تكتب باللغة العربية . كأصحاب المقطم وسركيس وغيرهم ، وكتاباتهم عن السلطان فيها كثير من المبالغة الصادرة عن الخصومة الشخصية او المذهبية .

ومفتاح تصحيح شخصية السلطان عبد الحميد انما يتصل بنقطة واحدة هي : موقفه من الصهيونية ومقاومته لها . وتآمر الصهيونية مع النفوذ الاجنبي على اقصائه .

فالنفوذ الأجنبي قد أحس بالعمل الخطير الذي أزعج اوربا . وهو دعوة عبد الحميد المسلمين ان يتجمعوا في جامعة اسلامية تواجه الزحف الاستعماري . وأن هذه الدعوة وجدت استجابة تحت تأثير الغزو العسكري والسياسي الذي كان يجتاح اجزاء العالم الاسلامي . ولم يجد المسلمون نقطة التقاء ، او عروة تجمع الا في الدولة العثمانية التي تضم العرب والترك . ومن هنا كان الضغط شديداً على هذه العروة لفصمها وتمزيقها . وقد ضاعف من هذا العمل ما تطلعت اليه الصهيونية بعد عقد مؤتمر بال ١٨٩٧ من الزحف على فلسطين ، والاستيلاء عليها . ومقاومة السلطان لهذا العمل .

وتبدأ نقطة الحملة عليه من اصطفاء النفوذ الاجنبي للاتحاديين واعدادهم للسيطرة على الدولة العثمانية . وقد نمت الحركة الاتحادية في احضان المحافل الماسونية التي اقامها الصهيونيون كوحدات متنقلة للعمل . والتي كانت مبعثرة في سالونيك . وصلة الاتحاديين باليهود مؤكدة وثابتة ، وليس هناك سبيل الى دحضها .

وقد بدأ الاتحاديون عملهم من نقطة التمزيق . بينما كان يعمل عبد الحميد من نقطة الوحدة . وكانت الدعوة الطورانية هي رسالة تمزيق الامبراطورية . والقضاء على الجامعة الاسلامية ، وايقاع الخصومة الدموية بين العرب والترك . وقد صاحب الدعوة الطورانية مفاهيم غربية جريئة تعارض القيم الاسلامية اساسا ، وتهاجمها في عنف ، وتدعوا الى العلمانية واللادينية ، والالحاد ، وشجب الدين من المجتمع اساسا . وقد اشار الذين تعرضوا لهذه القضية : أن السلطات عبد الحميد كان يخشى من أن يؤدي اصدار الدستور الى تسلط هذا التيار . ومن هذا يبدو أن السلطان عبد الحميد كان ضحية المطامع الصهيونية من ناحية ، والنفوذ الغربي من ناحية اخرى .

وقد جرت على أقلام الكتاب عبارة « الاستعمار التركي » بالنسبة للعرب ،

وهي كلمة غربية دخيلة وليست صحيحة فلم تكن الرابطة الجامعة للعرب والترك في الدولة العثمانية « استعماراً » بقدر ما كانت « امتزاجاً » على اساس مفهوم الرابطة الاسلامية وحدها . ويمكن ان يقال : ان النفوذ الغربي هو الذي مزق هذه الرابطة باثارة الدعوة الاقليمية المنبثقة من احياء تراث طوران وجنكزخان ، وهي دعوة حمل لواءها كتاب معروفون في هذا الوقت في مقدمتهم ضياء كوك الب وسيد بك واحمد اغايف ويوسف اقشورا وآغا او غلي احمد وحمد الله صبحي وجلال نوري ، وقد كان هدف هذه الدعوة في ظاهره العمل على اخراج الدولة العثمانية من التأخر والجمود والعزلة ، غير ان النفوذ الغربي الكامن وراءها والمغذي لها كان طامعاً في ان يحقق بها اهدافه جميعا التي تحققت فعلاً بعد الحرب العالمية الاولى وهي :

(١) القضاء على الجامعة الاسلامية والخلافة .

(٢) القضاء على الدولة العثمانية .

(٣) السيطرة على البلاد العربية واحتلالها .

(٤) نقل تركيا من دولة ذات طابع اسلامي الى دولة غربية الطابع .

وقد عمدت جمعية الاتحاد والترقي ـ التي سيطر عليها الدونمة (يهود سالونيك) من الداخل وحولوها عن أهدافها الى خدمة اغراضهم . وذلك حين قرروا لها اثناء عقد ندواتها في المحافل الماسونية تاليف الجمعيات واللجان ، ونشر الكتب الطاعنة في الاسلام ، الداعية الى التحول الى الرابطة الطورانية بدلاً من الاسلام . وكان لهم اناشيد وقصائد ينشرونها سراً . وقد استطاعوا بقوة النفوذ الاستعماري من اسقاط عبد الحميد ، وكان قره صوه اليهودي الذي اشترك في مفاوضة السلطان واغرائه بالملايين لمنح اليهود حق دخول فلسطين واحداً من الذين اشتركوا في خلعه علامة على اعلان اثر اليهود في خلع الرجل الذي عارض نفوذهم .

يمكن القول بأن الفترة التي بدأت من تاريخ تركيا بخلع عبد الحميد ، وتولي الاتحاديين للحكم هي الفترة التي اجتمعت فيها ارادة الحاكمين والاستعمار على تصفية الدولة العثمانية ، وابراز طابع الجامعة الطورانية ، وابلاغ العلاقة بين الترك والعرب أشد مراحلها عنفاً وقسوة مما مهد الى زوال الدولة ، والتهام

الغرب للاجزاء العربية ، ومنح اليهود وعد بلفور الذي يعطيهم الحق في اقامة دولة في فلسطين .

في ضوء هذه الملاحظات يمكن النظر الى موقف السلطان عبد الحميد من التاريخ بعين الانصاف . وفي السنوات الاخيرة اخذت تظهر وثائق كثيرة تكشف حقيقة هذا الرجل ، وتدفع عنه كثيراً مما شاب اسمه من اتهامات وشبهات الصقها به النفوذ الاستعماري والصهيونية على السواء .

الأمة العربية وعالم الاسلام

الأمة العربية ومصر العربية الاسلامية
الوحدة العربية
الاسلام وحركات المقاومة
ثورة الجزائر
جذور الوحدة العربية

الأمة العربية ومصر العربية الاسلامية

« الامة العربية » حقيقة واقعة ملموسة بوضوح في تاريخ المسلمين منذ فجر الاسلام الى اليوم ، لم تختف يوماً وإن جنحت إلى الضعف والانطواء في فترات قليلة . وفي العصر الحديث ، وحيث ضعفت قوة الوحدة الاسلامية القائمة على الرباط بين الترك والعرب ، برز دور الأمة العربية من جديد في مجال اليقظة والاصلاح ، وعاد العرب إلى تسلم مقاليد مركزهم الاجتماعي والحضاري في بناء العالم الاسلامي .

ويمكن القول إن عوامل اليقظة الفكرية والاجتماعية في العالم الاسلامي كله قد بدأت من قلب الأمة العربية ، ومن قلب الجزيرة العربية التي انبثق فيها ذلك الضياء الوهاج . ولقد ظل العرب أوفياء للوحدة الاسلامية حفظاء عليها حتى اضطرهم الاتحاديون ـ وليس الأتراك جميعاً ـ الى الانفصال ورفع لواء الثورة .

كان العرب يطالبون بحقهم ـ حق الأمة ـ من خلال الرابطة الاسلامية والدولة العثمانية ، وكانت حركاتهم جميعا تستهدف قيام نظام لا مركزي ، يقيم لهم حكومة مستقلة داخل اطار الدولة العثمانية ، وكانوا يؤ منون بالوحدة في مواجهة الغزو الزاحف ، فلما ضعفت الدولة العثمانية بعد سقوط السلطان عبد الحميد ، وغلب طابع الاتحاديين مستهدفا تصفية الدولة العثمانية ، والقضاء على الرابطة الموحدة بين العرب والترك خدمة للنفوذ الاجنبي الرامى الى تمزيق هذه الأواصر وابتلاع هذه الأجزاء . اتجه العرب الى افامه حركه المقاومة من خلال وحدتهم كأمة ، وهذا هو المفهوم الحقيقي للوحدة العربية كما فهمها العرب الذين أحسوا بان كيانهم الذاتي قد بدأ يصيبه خطر كبير نتيجة الدعوة التي حمل لواءها الاتحاديون وهي « الجامعة الطورانية » وهي

جامعة تقوم على الجنس والدم وتحاول أن تجمع العناصر الطورانية في قومية واحدة ، كما احسّ العرب بخطر يواجه كيانهم من حيث غزو اللغة التركية لمجتمعاتهم في مجال المدرسة والتعليم والمحكمة والمجتمع . ومن خلال العمل الدائب على « تتريك العناصر » الداخلة في الدولة العثمانية ومن بينها العرب .

كان هذا هو التحدي الخطير الذي واجه العرب ، ودفعهم الى التجمع من حول فكرة الوحدة العربية . وقد نمت الدعوة وتطورت حيث ضعفت الدولة العثمانية ، وزادت تحديات حكامها الاتحاديين للعرب حتى علقوا على المشانق في دمشق وبيروت عام ١٩١٦ . فكان هذا هو الحد الفاصل بين الوحدة العربية وبين الدولة العثمانية ، ثم توالت الاحداث وظل كثير من العرب خلال الحرب العالمية الاولى ـ وقد دخلها العثمانيون الى جوار المانيا ـ يحذرون ويحذزون حرصاً منهم على تفويت الفرصة على النفوذ الاستعماري الذى انتفع وحده من هذا الخلاف ، والذي خدع العرب حين دعاهم الى الانضمام لصفه في مقابل اقامة دولة عربية لهم بعد الحرب ، ثم لم يلبث الحلفاء ان خفروا عهدهم واحتلوا البلاد العربية ، وسيطروا عليها ، وأقاموا حكم الاحتلال والانتداب والوصاية على معظم هذه الأجزاء ، ووجد العرب أنفسهم قد وقعوا في براثن وضع استعماري اشد قسوة من الوضع الذي كانوا يشكونه في الدولة العثمانية .

ولما سقطت الخلافة عام ١٩٢٤ وانطوت الدولة العثمانية ، كانت مرحلة الدعوة الى القوميات في العالم الاسلامي كله قد اخذت تلعب دوراً خطيراً ، وتمثل مرحلة جهيرة . وواجه الاستعمار الأمة العربية بالتحدي . فأثار في مختلف اجزائها دعوات اقليمية ضيقة ، سميت بالقومية المصرية ، والقومية السورية ، وحملت لواء الارتباط بالماضي التاريخي ، الغامض البعيد السابق على ماضيها الاسلامي الحي ، فبشرت دعوات بالفرعونية في مصر ، والفينيقية في لبنان ، والبربرية في المغرب ، وعلت هذه الصيحة التي كانت في اول امرها عاملاً من عوامل المقاومة الوطنية ، وطابعا ضروريا في مرحلة مقاومة الاحتلال الذي كان يلقي الى كل هذه البلاد شبهات تقول بانهم ليسوا « امة »

فالمصريون ليسوا امة ، والعرب ليسوا امة ، كما حاول الاستعمار عن طريق المدارس والكتب والصحف ان يقول بان هذه البلاد عاشت منذ اول التاريخ في احتلال : احتلها الفرس والرومان ، ووصف العرب بانهم محتلون . وهكذا اثيرت دعوات اقليمية خطيرة ، وفرضت قيود كبيرة تحول دون التقاء هذه الاجزاء العربية معاً ، واستسلمت الاقطار لهذه الدعوات في مرحلة « الوطنية.» حيث كان الصراع دائراً بين المستعمر واهل القطر الواحد. فكانوا يتشبثون بالوطنية ويتخذون من تاريخهم الخاص وسيلة للمقاومة والاستعلاء . فكان المصريون حين يدعون الى الفرعونية في هذه الفترة انما يريدون ان يقولوا ان لهم ماضيا وتاريخاً يبلغ خمسة الاف سنة من العمر ، وانه اقدم من تاريخ بريطانيا وامريكا جميعاً .

وفي العراق والشام باجزائه (فلسطين وسوريا ولبنان) كانت الدعوة تحمل طابع الماضي العربي ، ثم تذهب الى مرحلة ما قبل تاريخ الاسلام ، فتحاول التفاخر بالفينيقية والأشورية والبابلية ، وغيرها . غير ان الاستعمار حاول الاستفادة من هذه الدعوات لتأريث الاقليمية . وخلق كيان محدود ، وكانت دعوة المصرية في مصر في هذه الفترة تحاول ان تنفصل عن الامة العربية والفكر الاسلامي جميعا ، وترتد الى ماض من الفرعونية غير واضح التاريخ او الثقافة او التراث ، وفشلت هذه الدعوات جميعاً فى مصر والشام والمغرب ، واهتدى العرب الى ان رابطتهم بالاسلام وتاريخه هي اقوى هذه الروابط . ومنها ينبعث كيانهم الحقيقي ووجودهم الواضح المؤصل . وكانت مسألة الاحتلال الفرنسي لسوريا ولبنان والجزائر ومراكش وتونس . والاحتلال البريطاني لمصر والسودان والعراق والجنوب العربي والاحتلال الايطالي لليبيا . هذه مسألة الجهاد الذي لم يتوقف بالكلمة والمفاوضة والدعوة الى الحرية في حركات متصلة لم تتوقف . وقد سبقتها مرحلة الكفاح المسلح ، والجهاد المحارب على ايدي : عبد القادر الجزائري في الجزائر ، واحمد عرابي في مصر ، والمهدي في السودان ، والسنوسي في ليبيا ، وعبد الكريم في المغرب الأقصى . غير ان هناك قضية اخرى كانت اخطر من ذلك كله : هي قضية الغزو اليهودي لفلسطين ، والذي اتخذ خطواته الاولى منذ سنوات طويلة

بعد عقد مؤتمر بال ١٨٩٧ ، والمفاوضات التي جرت بين هرتزل والسلطان عبد الحميد ، والتي قضت على آمال اليهود في فلسطين ، والتي عمد الاستعمار والصهيونية الى تحقيقها باسقاط عبد الحميد ، وفتح الطريق اليها في ظل نفوذ الاتحاديين ، والذي تحقق بصورة قاطعة في وعد بلفور الذي وجهه وزير خارجية بريطانيا الى روتشلد عام ١٩١٨ . والذي كان نقطة تحول خطيرة في الوجود العربي . حيث اقام فاصلاً بشريا بين جزأي الأمة العربية الأفريقي والآسيوي . وفي اخطر موقع على البحر الأبيض المتوسط وعلى البحر الأحمر ، وفي نفس المنطقة التي سيطرت عليها الحملات الصليبية ، وقد تدافعت خطوات هذا الغزو في العصر الحديث حيث انتهى باحتلال الصهيونية لفلسطين ١٩٤٨ . واحتلال القدس عام ١٩٦٧ . وتشكيل اخطر تحدّ واجه الأمة العربية . هذا الخطر كان علامة القوة في التركيز على الوحدة العربية ، حيث بدأت هذه الحركة تتضح وتستحصد حتى بلغت مرحلة هامة من مراحلها بقيام الجامعة العربية ١٩٤٦ (قبل احتلال الصهيونية للقدس بعامين) ثم انتقلت حركة الوحدة العربية الى مرحلة اشد قوة وعمقا منذ عام ١٩٥٦ عندما اعلنت مصر انها جزء من الأمة العربية ، وتصدرت لقيادة الحركة العربية بالاشتراك مع الهيئات العاملة في مجال الوحدة العربية في سوريا والعراق والأردن .

وقد حققت هذه الحركة خطوات بعيدة المدى في سبيل البناء القومي العربي ، ومن خلاله حدثت تجربة الوحدة بين مصر وسوريا التي اعطت العمل العربي خبرة واسعة ، ثم اتسع نطاق الحركة العربية حتى شمل العالم العربي كله .

مصر العربية الاسلامية

ولقد كانت مصر دوما قلب الأمة العربية ، ومنار العالم الاسلامي كلّه ، وذلك بوجودها الجغرافي والتاريخي والثقافي الفريد . ومن هنا فقد حرص الاستعمار والنفوذ الاجنبي على التركيز عليها منذ وقت بعيد ، حيث زحفت الحملة الفرنسية ١٧٩٨ لاحتلالها ، ثم ارتدت عنها ، ثم تبعتها حملة فريزر الانجليزية ، ثم كان انشاء قناة السويس عاملاً هاماً وخطيراً في مكان مصر من اطماع النفوذ الاستعماري الزاحف الذي قضى على الحركة الوهابية في الجزيرة العربية ، وحركة محمد علي في مصر ، وهما حركتان كانتا من عوامل اليقظة العربية . ثم كان احتلال فرنسا للجزائر ١٨٣٠ . واحتلال انجلترا لمصر ١٨٨٢ مقدمة لاحتواء هذه المنطقة داخل النفوذ البريطاني الفرنسي .

ومع ذلك فقد ظلت مصر هي قلب الأمة العربية بالرغم من الدعوات التي دعت الى تمصيرها ، وظلت منار العالم الاسلامي لوجود « الأزهر » وهو ثالث القوى الاسلامية في هذه الفترة : حيث مكة هي قبلة المسلمين والدولة العثمانية مقر الخلافة الاسلامية ، وكانت مصر مقر الازهر مصدر الثقافة الاسلامية .

ولقد لعبت مصر دورها على المدى الطويل في حركة الغزو الفرنسي ، وفي مقاومة استبداد محمد علي وفي الثورة العربية وفي ثورة ١٩١٩ ، وكان الأزهر هو مصدر جميع الحركات ومباينتها ، وكانت مفاهيم الفكر الاسلامي في العالم كله هي مصدر حركات المقاومة والتجمع والوحدة .

ولقد كانت مصر رابطة جامعة لكل الدعوات والحركات التحريرية ، وكانت تؤ من بانها مصرية وعربية واسلامية في وقت واحد . ففي مجال الوطنية كانت

تؤمن بالأرض وتدافع عنها ، وفي مجال القومية كانت تؤمن بالأمة العربية ورابطتها الاكيدة معها ، وفي مجال الفكر كانت تؤمن بالاسلام كمصدر لفكرها وقيمها ومفاهيمها ، وتؤمن بالأخوة الاسلامية التي تربطها بالمسلمين في كل مكان .

وفي العصر الحديث دعمت مصر دورها في هذه المجالات عن طريق هيئاتها العربية والاسلامية ، فهي مقر الأزهر ، ومقر الجامعة العربية ومقر الهيئات الاسلامية المختلفة (المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ومجمع البحوث والمؤتمر الاسلامي) وقد ربطت نفسها بالعالم الاسلامي كله ، فلها طريقها الى الدول الأفريقية المسلمة وطريقها الى ارخبيل الملايو وطريقها الى تركيا والباكستان والهند واندونيسيا وأفغانستان ، تؤدي دورها القيادي الاسلامي الحضاري بالنسبة للاخوة الاسلامية والوحدة العربية فهي لم تتخل قط عن ايمانها المصري ممثلاً في الوطنية والعناية بالتراث الفرعوني والقبطي ، ولم تتخل عن دورها القومي في الايمان بالعروبة وروابطها مع الأمة العربية ، ولم تتخل عن دورها الاسلامي في الأخوة الاسلامية مع المسلمين في مختلف انحاء العالم الاسلامي ، وشاركت في مختلف المؤتمرات والحركات والدعوات التي حملت لواء التحرر والوحدة والمقاومة وتصفية الاستعمار وتحرر الشعوب بايمان صادق اكيد .

(٢)
الوحدة العربية والدعوات الاقليمية

عاش المسلمون في تاريخهم الحديث بين ثلاث روابط :
الرابطة الاسلامية العامة .
الرابطة القومية المرتبطة بالأمة وبالقوم .
الرابطة الوطنية المتصلة بالوطن والأرض .

أما الرابطة الاسلامية العامة . فقد كانت تتمثل في مفهوم فكري واحد يجمع المسلمين ، قوامه الاسلام نفسه : دين الأغلبية الساحقة في العالم الاسلامي ، ولذلك وصفت هذه الرابطة بأنها رابطة دينية أو جامعة دينية في مواجهة الرابطة الأخرى التي بدأت تغزو المجمع الاسلامي ، وهي الرابطة القومية ، أوكما كانوا يطلقون عليها الجامعة الجنسية .

ولقد كان الصراع بين الجامعتين الاسلامية والقومية طويلا ، وبعيد المدى ، وقد مر بمرحلتين : المرحلة الأولى خلال الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى ، وقبل سقوط الدولة العثمانية ، وقد تمثل في هذه المرحلة في دعوتين : دعوة الجامعة الاسلامية التي تحمل لواءها الدولة العثمانية خلال حكم السلطان عبد الحميد الذي انتهى عام ١٩٠٨ . وهي دعوة ترفع لواء الاسلام بحسبانه جامعة لأهله ليس داخل الدولة العثمانية وحدها . وإنما للمسلمين عامة من حيث إن الدولة العثمانية تحمل لواء الخلافة . وقد كانت هذه الدعوة دعوة ضرورة في هذا الوقت بالذات ، حينما اتسع نطاق الغزو الاستعماري الزاحف ، وتوالي سقوط الوحدات الاسلامية في قبضة النفوذ الغربي ، فكان اعلان شعار الوحدة الاسلامية ، او الجامعة الاسلامية ، انما يستهدف تجمع المسلمين ومقاومتهم ، وقيام جبهة

صامدة قوامها الدولة العثمانية التي تضم عنصري العرب والترك الى باقي المسلمين في الهند وأفغانستان وايران وأفريقيا وأرخبيل الملايو .

أما دعوة الوحدة العربية أو الجامعة العربية ، أو القومية العربية ، أو الجامعة الجنسية . فإنما كانت قد برزت اساساً من خلال الاتجاه الذي نما في الشام بالذات . ومن خلال منابر الارساليات الغربية ، وبثته بيروت بالذات ، ولها وضعها الخاص القائم على أنها كيان مستقل داخل الدولة العثمانية . وكانت الدعوة إلى العروبة انما تعني تمزيق الرابطة السياسية القائمة بين العرب والترك في كيان الدولة العثمانية ، ولم تكن الدعوة في هذا الوقت وبالصورة التي برزت بها نتاجاً طبيعياً وإنما كانت محاولة أولى لاعلاء شأن الجنس والدم والعرق رغبة في تمزيق وحدة العناصر المختلفة التي تضمها الدولة العثمانية ، وفي معارضة وتضارب مع حركة الجامعة الاسلامية التي دعا إليها جمال الدين الأفغاني وحاول تحقيقها السلطان عبد الحميد .

ولم تكن غاية الدعاة الى تحقيق مطالب العرب إلى أبعد وقت . بعد ذلك تطالب بأكثر من حكم قوامه اللامركزية ، او خلق وضع عربي مستقل داخل كيان الدولة العثمانية ، أو على اكثر تقدير ما دعا اليه عزيز المصري وزملاؤه من أن يتم إقامة كيان عربي داخل اتحاد فيدرالي تكون قيادته عثمانية (أي عربية وتركية) يبقى به وضع الدولة العثمانية قائماً وجامعاً بين الترك والعرب .

ولقد اقترب العرب كثيراً من الجامعة الجنسية او الوحدة العربية ، ولكن ذلك إنما تم على مراحل طويلة ولم يبرز في صورة واضحة إلا بعد سقوط السلطان عبد الحميد ، وانطواء دعوة الجامعة الاسلامية وزاده قوة وتأكيداً تمزيق الاتحاديين للرابطة التركية العربية ، ودفعها إلى آخر مراحل الخلاف والصراع والتمزق بتعليق أحرار العرب على المشانق .

ثم كانت الدعوة إلى الوحدة العربية ضرورة حتمية بعد أن مزق الغرب الأمة العربية إلى دول وكيانات اقليمية منفصلة بعد الحرب العالمية الأولى . وفي ظل اخطر تحد واجه العرب وهو التحول الذي فرضه الاستعمار على فلسطين وتأهيلها لتقوم بها دولة صهيونية ، ونضال العرب في سبيل مقاومة هذا التحول الخطير .

فالوحدة العربية في الحق لم تصبح جامعة أساسية في تقدير العرب ، ولم يتجه اليها نضالهم الا بعد أن سقطت الرابطة الكبرى : الجامعة الاسلامية ، أو الوحدة العربية التركية الممثلة في الدولة العثمانية وذلك بحسبان أن تحل هذه الجامعة محل الجامعة الاسلامية في مقاومة الغزو الغربي والنفوذ الأجنبي والاستعمار الأوربي .

ولقد كان للاستعمار دور كبير مؤثر في الاضطراب والصراع بين هذه الدعوات المختلفة . إذ كان قد اتجه إلى سلاح التفرقة ، وتمزيق الكيان الأكبر وسيلة إلى القضاء على وحدة العالم الاسلامي . وذلك في سبيل خلق كيانات متعددة يحكمها وتتوزع بين قواه الاستعمارية : المغرب والجزائر وتونس لفرنسا ، وليبيا لايطاليا ، ومصر والسودان والعراق لانجلترا ، وفلسطين لليهود .

ومن هنا فقد أبرز الاستعمار الدعوة القومية وأعلاها ، وأتاح لها فرصة النماء والقوة في حدود محدودة إلى مراحل معينة . فقد بدأت الدعوة إلى القومية العربية من بعض المؤسسات الأجنبية التبشيرية في بيروت تحمل لواء الحرية والديمقراطية واللغة العربية في مواجهة ما وصفت به الدولة العثمانية في هذه الفترة من الاستبداد واعلاء اللغة التركية ، فلما تحقق سقوط النظام الذي كان يقوم عليه السلطان عبد الحميد من الجامعة الاسلامية ، تحولت هذه المؤسسات عن دعواتها ، وأخذت تخاصم اللغة العربية ، وتعلي من شأن لغاتها الأجنبية ، كما سكتت عن الكلام عن الحرية والديمقراطية . فقد قامت حكومة قوامها الاتحاديون الموالون للنفوذ الاستعماري في حرية للوحدة الاسلامية وفي توسيع نطاق الدعوة إلى القومية التركية باسم الجامعة الطورانية ، ومحاولة اعلاء شأن الجنس التركي ، والعمل على تتريك العناصر المختلفة في الدولة العثمانية ومن هذه العناصر العرب .

هناك وقع الخلاف وقامت الخصومة بين الاتحاديين والعرب أساساً ، وبدأ الصدام بين الجامعة الطورانية والجامعة العربية . وبذلك سقط الحاجز الضخم الكبير الذي كان يجمع العرب والترك في الوحدة الاسلامية الجامعة .

***

ولقد كان العالم الاسلامي يتمثل في ثلاث قوى إسلامية هي : الدولة العثمانية (تضم العرب والترك) والدولة الفارسية ، والدولة المغولية في الهند ، ولقد سيطر الاستعمار على هذه المناطق الثلاث بدرجات مختلفة .

أما الدولة المغولية في الهند فقد اجتاحها الاحتلال البريطاني في نفس الوقت الذي سيطر الهولنديون على جاوة وسومطرة بالاشتراك مع الانجليز الذين سيطروا على الملايو .

أما الدولة الفارسية فقد تقرب اليها النفوذ البريطاني منذ وقت بعيد في مساندة لصراعها مع الدولة العثمانية حتى تظل أكبر قوتين في هذا الوقت في صراع دائم .

أما الدولة العثمانية فقد كانت الشغل الشاغل للنفوذ الاجنبي ولأوربا وللغرب كله بحسبان أنها الدولة التي اقتحمت أوربا واحتلت القسطنطينية ، وسيطرت على البلقان ، وصارعت الغرب كله خلال ثلاثة قرون ووصلت قواتها ونفوذها إلى أسوار فينا .

ولذلك فقد حرص النفوذ الأجنبي المتمثل في فرنسا وانجلترا وروسيا إلى اقتطاع اجزائها واحدة بعد الأخرى . وأطلق يد روسيا في مناطق آسيا وسبيريا ، كما أطلق يد بريطانيا في مصر والسودان والخليج الفارسي والبحر الأبيض ، وأطلق يد الفرنسيين في المغرب والجزائر وتونس .

ولم يبق في يد الدولة العثمانية الا الجزيرة العربية والشام بأجزائه والعراق . ومن خلال هذه البؤرة بدأت معركة الصراع الأخير للقضاء على الدولة العثمانية وتمزيقها ، ومن هذه المنطقة ظهرت دعوة الوحدة العربية التي تحولت إلى ما أطلق عليه الثورة العربية بحسبان وعد بريطانيا باقامة دولة عربية كبرى بعد الحرب العالمية الأولى تضم هذه الأجزاء التي حملت لواء الحرب مع الدولة العثمانية ، وقد كان مفكرو المسلمين والعرب في هذه الفترة بين رجلين : احدهما : يرى أن بريطانيا ستفي للعرب بما وعدت ، وتمكنهم من اقامة دولة عربية بعد الحرب نتيجة للمؤازرة الضخمة التي قدمها العرب لبريطانيا في مواجهة الدول التي انضمت الى اعداء بريطانيا. اما الآخر فيرى الابقاء على دعم الكيان العثماني كقوة قائمة في وجه النفوذ الأجنبي الزاحف ، إيماناً بأن بريطانيا والغرب لن

يسمحا بقيام دولة للعرب . فإنهم بسبيل تمزيق الدولة العثمانية والتهامها . ومن ثم فإنهم سوف يخدعون العرب حتى يقدموا معونتهم . فإذا انتهت الحرب ، فسوف يغدرون بهم .

وقد تحقق فعلاً ما توقعه أصحاب هذا الرأي . وكان أصحابه أصدق نظرة إلى الاستعمار من الآخرين الذين أيدوا بريطانيا ، وبالحق فقد خدعت بريطانيا العرب ، ثم مزقت المنطقة بعد الحرب إلى كيانات وضعتها تحت نفوذها باسم الانتداب أو الوصاية لتمنعها من الالتقاء والتكامل ، وكان أخطر نقطة تآمر للاستعمار هو تمكين الصهيونية من فلسطين لاقامة كيان غريب في قلب الأمة العربية .

وبهزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى ، انتهت المعركة بين الاستعمار والدولة العثمانية التي سقطت وتمزقت ، وقامت بدلاً منها دولة تركية قومية ذات صبغة غربية خالصة منفصلة عن العرب والاسلام جميعاً . وبذلك غلب طابع القومية العربية مع تمزق الكيان الموحد الذي كان يجمع العرب والترك . وأصبح العمل للجامعة العربية في نظر العرب هدفاً كبيراً ، من خلال محنة تمزق الكيانات وإعلاء الاستعمار للاقليميات ، وإثارة الدعوات القديمة كالفرعونية والفينيقية والأشورية والبربرية لعزل هذه الأجزاء عن بعضها والتفريق بينها تفريقاً يحول دون التقائها على وحدة عربية .

ولقد كانت دعوة القومية العربية في مفهومها الفطري والطبيعي أنها تنفصل عن الأساس الاسلامي الذي يشكل فكرها وثقافتها وقيمها الأساسية ، غير أن بعض دعاة القومية لم يلتمسوا مفهومها من تاريخ الأمة العربية وموقعها من العالم الاسلامي ومن الاسلام نفسه ، وإنما التمسوا مفهومها من نظريات القوميات الأوربية التي كان لقيامها وتشكيلها ظروف تختلف ، وأوضاع تتباين .

ولذلك فقد حرص دعاة القومية العربية ذات المفهوم الغربي أن يؤكدوا ابتعاد أسس الوحدة العربية عن الدين ، والدين هنا هو الاسلام ، ومن الحق أن يقال ان القومية تختلف عن الدين ىْ مجالات عده ، فإن القومية دعوة جنس ودم وقوم ووحدة أمة ، وان الدين بمفهوم اللاهوت الغربي له مجال آخر يرتبط بالعقول

والأرواح والروابط المتصلة بين الانسان وربه . ولذلك فمن هذه الناحية ليس الدين أساساً من أسس القومية . ولكن هذا الأمر على اطلاقه في مفهوم الدين لا يتفق مع الاسلام نفسه ، فليس الاسلام دينا كالأديان الأخرى التي واجهتها نظرية القومية في أوربا . بل الاسلام دين وزيادة ، دين ونظام مجتمع . ومن هنا فإن مفهوم الاسلام بالنسبة للقومية يختلف عن مفهوم الدين وحده .

ومفهوم الاسلام هنا بالنسبة للقومية العربية ، أو الوحدة العربية يختلف عن مفهوم الأديان في القوميات الأوربية . ذلك أن الأسس الكبرى والقيم الأساسية للثقافة العربية ، واللغة العربية ، والتاريخ العربي وهي العناصر الأساسية للقومية في المفهوم الغربي . إنما تستمد وجودها من الاسلام والفكر الاسلامي ، ولا تنفصل عنه ، فالإسلام بحسبانه نظام مجتمع قد أثر تأثيراً كبيراً في اللغة والتاريخ جميعاً . وليس هناك لغة عربية منفصلة عن لغة القرآن والاسلام . وليس هناك تاريخ للعرب منفصل عن تاريخ الاسلام . ولذلك فإن القيم الأساسية للوحدة العربية أو مقومات القومية العربية لا تجد إلا الاسلام نفسه بحسبانه فكراً ونظام مجتمع هو القاعدة الأساسية له . وليس للدين في الإسلام كبير دخل في هذا المجال . ومن هنا تسقط دعوى التصارع المفتعل بين الإسلام والعروبة ، وبين القومية العربية والاسلام .

ومن الحق أن يقال إن الدوائر الثلاث : دائرة الوطنية ، وتسمى « دائرة الأرض » ودائرة القومية وتسمى « دائرة الأمة » ودائرة الاسلام وتسمى « دائرة الفكرة » .

ليس بين هذه الدوائر الثلاث صراع أو تقابل ، ولكنها دوائر متداخلة متساندة ، الوطنية أصغرها والقومية أكبر منها وتليها في الدائرة والاسلام هو الدائرة الكبرى . ولقد كانت الدعوة الوطنية في مواجهة النفوذ الاستعماري دعوة ضرورية وهامة ، وحيث كان النفوذ الاستعماري يمحق كيان الأمم فيقول : إن مصر مثلاً ليست أمة وليست وطنا ، وانها لم تكن يوما من الأيام حرة ، وقد تواتر عليها المستعمرون من الفراعنة والترك والفرس والانجليز . ويقول مثل هذا عن كل أمة ووطن ، فكان لا بد ان تقوم في مصر دعوة وطنية مصرة على أن مصر أمة ووطن يجري النيل بين شاطئيه ، وله تاريخ قوامه الفراعنة أصحاب الحضارة

الأولى ، وممدنوا العالم ، وأنه رد الغزاة وحمى الحضارة ، وامتد إلى السودان والحجاز والشام ، وهكذا .

ومن هنا كان الضغط على مفاخر التاريخ ، ومفاخر الأرض وسيلة أساسية ، ومرحلة طبيعية في طريق اليقظة والحرية .

ثم كانت المرحلة الثانية : مرحلة الأمة : فمصر جزء من الأمة العربية يربطها بها تاريخ موحد ولغة ومقومات جغرافية وسياسية واجتماعية لا سبيل إلى انفصامها . ولذلك فإن الأوطان حين تبلغ درجة من الحرية تتداعى أجزاؤها الى وحدة الأمة . وهذا هو مفهوم الوحدة العربية .

ولكن هذه الدعوة الوطنية : وحدة الأرض ، وهذه الدعوة القومية : وحدة الأمة . انما تتحرك في إطار واسع هو إطار الوحدة الفكرية الاسلامية التي جمعت هذا العالم منذ أربعة عشر قرناً من خلال ثقافة موحدة وقيم أساسية واحدة صاغت العقل والقلب والضمير . ومن هنا فإن الوحدة الاسلامية ليست وحدة سياسية إلا كنتيجة لوحدة اساسية : قوامها الروح والمجتمع ، وعوامل الوحدة الفكرية .

هذا هو المفهوم الواضح الطبيعي ، ولكن النفوذ الأجنبي يحاول أن يجعل من دعوات الجامعة الوطنية والجامعة القومية ، والجامعة الاسلامية جامعات متعارضة متضاربة متخاصمة ، بينما هي مراحل طبيعية تاريخية فرضتها ظروف النفوذ الأجنبي والاستعمار التي سيطرت على العالم الاسلامي .

فالدول الاسلامية قد عمقت وجودها الوطني ووجودها القومي ، ولكنها لم تنفصل عن دائرتها الواسعة واطارها العام ، وإن بعدت عنه فترة من الزمن ، فإنها في الفترة الأخيرة تتقارب وتلتقي وتحاول أن تقضي عن العوامل الخلافية الفرعية التي عمقها الاستعمار ليجعل منها عوامل تمزيق ، ويحول بها دون الالتقاء والتوحيد .

وقد كشفت مقررات المؤتمرات الكبرى العامة التي ضمت دول العالم الاسلامي مرات متعددة عن سلامة مفهوم الرابطة الاسلامية والالتقاء الجامع .

وعمق هذا المفهوم وضرورته واستمراره دون أن تقلل منه عملية العزل والتمزيق الواسعة التي امتدت حتى الآن أكثر من مائة عام .

وما تزال الرابطة الفكرية والروحية معاً قائمة في مختلف أجزاء العالم الاسلامي بالرغم من الكيانات ووجود الخلافات الفرعية التي أثارها الاستعمار وأكدها وعمقها في خلال مرحلة الاستعمار ، وما تزال ردود فعل هذه الرابطة الفكرية والروحية واضحة في كل موقف او تحد أو حدث من الأحداث المختلفة التي تواجه أي وحدة من وحدات العالم الاسلامي .

وهي تتجلى واضحة في قضية فلسطين ، وفي مختلف معارك الصراع بين الاستعمار والعالم الاسلامي ممثلاً في التطورات المختلفة ومن أقرب هذه النماذج : معركة الجزائر .

(٣)

الاسلام وحركات المقاومة العربية

إلى ما قبل أن تندلع الحرب العالمية الأولى كان العالم الاسلامي يتمثل في الدولة العثمانية ويضم العرب والترك ثم أفغانستان وإيران . وكانت هناك ثلاث مجموعات اخرى :

(١) الهند التي سقطت فيها الدولة الاسلامية بالاحتلال البريطاني .
(٢) أرخبيل الملايو بمجموعه الاسلامي الذي قسمه الاستعمار إلى أندونيسيا تحت الاحتلال الهولندي والملايو تحت الاستعمار البريطاني .
(٣) أفريقيا الاسلامية التي مزقها الاستعمار وتوزعتها دولة ، والتهمتها قبل نهاية القرن التاسع عشر ، وكان الزحف الاستعماري الذي بدأ منذ اوائل القرن الخامس عشر على العالم الاسلامي قد اتجه نحو أفريقيا ، ودار حول رأس الرجاء الصالح ومد خطواته الى كانتون .

ثم تواصلت موجاته المتدافعة : البرتغال والأسبان والهولنديون والفرنسيون والبريطانيون . ومنذ اتصل الأوربيون بالعالم الاسلامي لم يتوقف الصدام ، ولم تتوقف المقاومة . هذه المقاومة التي حمل لواءها العالم الاسلامي في مختلف أجزائه دون توقف . وقد تمثلت هذه المقاومة في الحرب والمعارك العسكرية حيناً . فلما ازدادت سيطرة الاستعمار وتمثلت في صور أخرى من المقاومة ، ولكنها لم تتوقف قط ، ولم يستسلم جزء من العالم الاسلامي إلا بالخدعة والمكر وتأليب الخيانة على حركة المقاومة ، ولم تسلم قوة من قوات المقاومة إلا بعد أن نفذ كل ما تملك من عتاد وزاد .

وقد واجه النفوذ الاستعماري هذه المقاومة بالعنف وبالحيلة معاً . أما العنف فقد قضى به على قادة حركات المقاومة . ثم فرق جموعها بالسجن او الاغراء .

أما الحيلة فقد كانت تتمثل في تكوين أجيال جديدة تؤمن به وترضاه وتصادقه وتتعاون معه . وقد اختار بعض مفكري الاسلام وقادته مبدأ المصالحة مع الاستعمار ، ورأوا أنه « طريق ضرورة » لا بد منه في هذه الفترة . وأن من الحمق أن يستمر المسلمون في طريق واحد هو : طريق المقاومة والتجمد ، بينما العناصر الأخرى تتقدم عليهم وتسيطر على مجالات القيادة السياسية والفكرية .

ويحضر هنا ممثلان أحدهما الشيخ محمد عبده في مصر . واحمد خان في الهند . فقد دفع الاستعمار من غير المسلمين في كل مكان حل فيه ، وفتح لهم آفاق التعليم والثقافة والبعثات . ثم جعل منهم ركائزه وخدامه . وبذلك تخلف المسلمون حتى جاء مثل محمد عبده واحمد خان . فدعيا إلى ضرورة مهادنة الاستعمار وفتح الطريق أمام الطلائع المسلمة ، لأن تتعلم تعليما منحرفاً ، ولكنه على كل حال خير من الجمود والتوقف .

ولذلك فقد كان إقبال المسلمين على البعثات وارساليات والمدارس الأجنبية التي نثرها النفوذ الأجنبي في العالم الاسلامي مسألة ضرورة . وكان قادة المسلمين يعلمون ما تحفل به هذه المعاهد من مقاومة للاسلام واللغة العربية وقيم الأمة ومقدراتها ، ولكنهم كانوا في سباق مع الزمن فإما أن يتعلموا هذا التعليم أو يموتوا . فقد جمد المستعمرون المعاهد الاسلامية المختلفة في العالم الاسلامي ، ولم يجعلوا لخريجيها أهمية تذكر في مجال العمل والحياة ، وفتحوا الطريق أمام الثقافة الحديثة عن طريق المدارس التي وضعوا برامجها واستهدفوا بها خلق أجيال ترضي بالاستعمار وتصادقه وتعاون المستعمرين ، وتحتقر القيم العربية والاسلامية والوطنية ، وتقدر بطولات التاريخ الأوربي الانجليزي والفرنسي .

غير أن هذه المجموعات من المثقفين التي أتيح لها أن تتصدر لقيادة أوطانها في العالم الاسلامي ممن تأثرت بأفكار المستعمرين لم تخلص كلها للنفوذ الاستعماري . بل تحرر كثير منها نتيجة لقوة الضمير العربي الاسلامي الموجود ، والقائم في طوايا الثقافة العربية ، وفي جماهير العالم الاسلامي التي كانت تقود

من مواقعها العامة ، وتفرض نفوذها على قادتها ، وتحول اتجاه بعض المفكرين إلى الطريق الأصيل . بل إن من سار في طريق الغرب ثمة ، لم يلبث ان عاد إلى حمل لواء القيم الأساسية بإصالة أمثال : منصور فهمي . وهيكل . والعقاد . وكان لا بد أن تبقى مجموعة قليلة متعلقة بالنفوذ الاستعماري تحمل لواء التبشير والتغريب والشعوبية . وقد كانت هذه الجماعة دائماً مكشوفة معروفة ، ولم تستطع كسب ثقة المجموع ، بل إن تطور الأحداث وبروز الحركات المجددة قد كشف عن الدسائس التي حوتها مؤلفات هؤلاء ، كما تكشف اخطاء سلامة موسى وطه حسين وإسماعيل مظهر ومحمود عزمي وعلي عبد الرازق ، وبان هدفها التغريبي الذي اندفعت اليه حال بروزها .

ويرجع ذلك في الأغلب الى قوة القيم الأساسية للفكر الاسلامي الأصيلة العميقة الجذور في بناء الأمة الاسلامية خلال أربعة عشر قرنا ، بحيث لم يستطع الاستعمار الغربي من خلال قرن من الزمان بأساليبه المختلفة (المدارس . النظريات . الصحف . الكتب . الدعاة) أن تطمس هذه الحقيقة .

ولقد واجه النفوذ الاستعماري في زحفه على العالم الاسلامي قوة متجددة يقظى كانت موضع إزعاج شديد له ، تمثلت في الدعوات العربية.الاسلامية التي برزت في مناطق الصحراء : الوهابية في جزيرة العرب ، والسنوسية في صحراء ليبيا ، والمهدية في السودان .

وقد كانت حرباً عنيفة على نفوذه ، حملت لواء المقاومة من ناحية ، ولواء الانشاء والتمدد والتوسع من ناحية أخرى . فإذا بالوهابية في جزيرة العرب تشكل خطراً على النفوذ البريطاني في الهند حين قام بعض من آمن بها ببناء دولة قاومت بريطانيا وكبدتها كثيراً .

وواجهت السنوسية النفوذ الايطالي مواجهة ضخمة ، وامتدت آثار السنوسية فواجهت النفوذ الفرنسي في الجزائر نفسها . وكان هو الخطر الدائم في كل مناطق أفريقيا .

إما المهدية فقد كبدت بريطانيا فى السودان دماء . وهزائم لا حد لها كما فعل المسلمون فى أندونيسيا ، وفى الهند ، وفى إيران ، وفى أفغانستان على نطاق واسع

عريض في معارك ثلاث ضخمة فاصلة .

وواجهت فرنسا في الجزائر وتونس والمغرب مقاومة وصراعاً لا حدّ له . وواجهت دول أوربا المستعمرة في أفريقيا مقاومة لم تتوقف في المناطق التي يكثر فيها عدد المسلمين .

وحين انطوت صفحة الأمير عبد القادر في الجزائر ، وعرابي في مصر ، وعبد الكريم في الريف المغربي ، وشامل في القوقاز بدأت صفحة جديدة من المقاومة .

فالنفوذ الاستعماري قد حرص على أن يستخلف على أقطار العالم الإسلامي قوى جديدة ، ليس لها طابع إسلامي صريح ، تمثلت في الاحزاب السياسية ، ولكن هل كانت هذه القوى الجديدة خالية من مضمون القيم الاساسية الإسلامية التي تحمل دوماً طابع المقاومة ، والجهاد للمحتل والغاصب ؟ لا من الحق أن يقال إن هذه القوى الجديدة التي ظهرت في أوائل القرن العشرين لم تكن إلا صوره مجددة للقوى القديمة لحركة الحزب الوطني في مصر . هي الوليد والبديل لحركة عمر مكرم ، وجمال الدين الافغاني وأحمد عرابي ، وأحزاب السودان كانت بديلاً عن المهدية والانصار . وفي المغرب تحولت الحركة السلفية إلى أحزاب سياسية تحمل في أعماقها طابع المقاومة على مفهوم الإسلام ـ نعم . « إن الحركات القومية لم تكن مطابقة للإسلام فحسب ، بل هي جزء لا يتجزأ من فكرة بعث الإسلام ، فنضال المسلمين للتخلص من الهولنديين وكفاح السوريين ومسلمي المغرب للتخلص من الفرنسيين ونضال مسلمي الهند ضد البريطانيين . كل ذلك كان جزءاً من حركة المسلمين لبناء مجتمع إسلامي في العصر الحاضر ، ومن هذا القبيل قيام الاتراك بطرد اليونانيين سنة ١٩٢٢ والايرانيين للقضاء على منطقة النفوذ الروسية الانجليزية . كانت جميعا خطوات نحو إحياء الإسلام . فكل المسلمين مسلمون اجتماعيا وسياسيا . وإذا كان ثمة اختلاف بين الزعماء الوطنيين والزعماء الدينيين فهو خلاف لم يتخذ مظهر النضال والكفاح .

« وقد كانت الصفة الإسلامية غالبة على جميع هذه الحركات حتى في

الحالات التي يكون فيها القادة ممن تأثروا بالغرب » .

وكانت الجامعة الإسلامية شعوراً لدى المسلمين بضرورة تماسكهم . إذ إن وحدة المسلمين في العالم الإسلامي . هي وحدة مشاعر . وظلت الجامعة الإسلامية إلى اليوم حلماً جميلاً يعز تحقيقه ، كانت مستقرة في الوعي الديني الإسلامي القديم ، وبقيت محتفظة بقوتها . . وليس ثمة تعارض بين الجامعة الإسلامية ، وبين الروح القومية في البلاد الإسلامية .

وصفوة القول فيما تقدم ان الإسلام في العصر الحاضر قد احتضن النزعات والحركات القومية التي رآها تتفق ، ونهجه في استعادة أمجاده الماضية ما دامت متمشية وفق التقاليد الإسلامية . هذا باستثناء تركيا .

هذه العبارات نقلناها بتصرف عن ولفرد كانتول سميث من كتابه « الإسلام في التاريخ الحديث » وهي تحمل مضمونا أساسيا معترفا به ومقرراً بأن حركات المقاومة والتحرر من النفوذ الاجنبي مهما تطورت ولبست أثواباً مختلفة ، فإنها جميعاً أجزاء أساسية من حركة المقاومة الإسلامية للاستعمار والنفوذ الغربي وفي سبيل وحدة فكر . وقد مضت هذه الحركات تعمل في مجالين متصلين : مقاومة الاحتلال والاستبداد معا نظراً لتساندهما واتصالهما . وقد مرت بمراحل المقاومة المسلحة في معارك حربية متصلة - اتصلت بين البرتغال والمسلمين على شواطىء أفريقيا والهند وجزر الملايو ، ثم تحولت فيما بعد إلى معارك من نوع آخر تمثلت في مقاومة الحملة الفرنسية في مصر . وفي معارك الجزائر بقيادة عبد القادر الجزائري ، والثورة المصرية بقيادة أحمد عرابي ، ومعارك شامل في القوقاز ، وعبد الكريم في المغرب ، وثورة المسلمين في الهند ١٨٥٧ . وحركات المقاومة بين المسلمين والهولنديين في اندونيسيا والمعارك الثلاث الكبرى بين الافغان والاحتلال الانجليزي ، ومعركة ميسلون في سوريا ، وثورة العراق .

وقد انتصر الاستعمار في هذه المعارك بالتآمر والخداع ، وبقواه الحربية الحديثة . غير أن المسلمين في أي بقعة من العالم الإسلامي لم يستسلموا إلا بعد أن نفذت ذخائرهم ، ولم يجدوا مفرا من التسليم . ولكن حركات المقاومة

لم تتوقف ، ولم تلبث أن تحولت إلى مقاومة فكرية ، وجماعية تمثلت في الجمعيات الإسلامية والهيئات والاحزاب . وفي هذه المرحلة أخذت هذه الحركات طابعاً سياسيا واضحا ، وقام عليها بعض الزعماء المدنيين ، هذه الحركات لم تتخل عن طابع الإسلام . فقد كان مفهوم المقاومة في الإسلام هو : الاساس للعمل ، وكانت روح الإيمان بالله والوطن هي أساس أعمال هذه الهيئات ، ولم تتوقف مفاهيم الإسلام عن العمل من خلال الحركات السياسية . ذلك أن الإسلام جماع بين الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد ، وأنه لا يوجد لهذه الحركات طابع ديني خالص منفصل عن الطابع السياسي ، فالإسلام دين ونظام مجتمع ، جامع بين السياسة والدين معاً .

***

ولما كان الغرب حريصاً في السيطرة على مقدرات عالم الإسلام لعدة أسباب أهمها :

(١) أن يظل عالم الإسلام غير قادر على تمالك مقدراته ومقومات فكره التي تصنع دولة قوية قادرة متكاملة يخشى منها على الغرب نفسه .

(٢) أن تظل في يد الغرب هذه المقدرات الاقتصادية المادية : البترول والثروات المختلفة .

(٣) المركز الاستراتيجي الذي يحوي مواقع هامة على البحرين الابيض والاحمر وبين القارات الثلاث ، أوربا وآسيا وأفريقيا .

هذا الحرص ، هو الخطر الذي ما يزال يواجه عالم الإسلام بمزيد من حركات الغزو ، وبحركات الصراع والتنافس بين الكتل المختلفة والايدلوجيات المتباينة حيث يبدو وكأنه بوتقة للتيارات العسكرية الغربية والشرقية معاً ، ونظريات الفردية والجماعية على السواء . ومع ذلك فإن العالم الإسلامي ما يزال يقاوم بصمود ، ولن يستطيع الاستسلام ، لان مقوماته الاصيلة ما تزال تكون الاجيال وتدفعها إلى الرباط والصمود . إن حركة المقاومة التي واجه بها عالم الإسلام الاستعمار كانت تنطلق من تحت مدافع الغرب . ومن خلال حملاته المتوالية عسكرية وسياسية وفكرية ، وهي حملات لا تتوقف ، وإنما تتوالى بصور مختلفة ، وتدور حول غزو هذه القيم

الفكرية والقضاء عليها ، بحسبانها هي مصدر القوة والقدرة على المقاومة ، ومن هنا تبدو أهمية حركات التبشير والتغريب والشعوبية المتصلة المستمرة وما تثيره من شبهات ، وما تحاوله من إيجاد الخلاف وتعميقه ، بين الفرق المختلفة ، والمذاهب المتعددة .

ولذلك فإن قصور حركة الفكر الإسلامي والثقافة العربية عن مقاومة التغريب والغزو الفكري وتمزقها هي مما لا يستغرب . ذلك أن هذه الحركة لا تتم في جو مطلق الحرية ، وإنما تتم من خلال سيطرة العدو الطاغية بواسطة أدواته وقواه وأقلامه وأجهزته الضخمة المتمركزة في بعض الاقطار .

وقد قاوم الغرب كلمة الإسلام ، والوحدة الإسلامية ، والجامعة الإسلامية ، والرابطة الإسلامية ، وحاول أن يجعل حركات الإقليمية أساساً للعمل . كما أكد على الفصل بين الإسلام والمجتمع في مجال القانون والاقتصاد والتعليم والسياسة . واتخذ من الاقليات في كل بلد ذريعة للضغط في مجال تجميد مفاهيم الإسلام . وقد خلق في كل مكان مشاكل طائفية وتفرقة مذهبية وعنصرية وحزبية ، وأثار دعوات قديمة ماتت مع الزمن وأججها من جديد ، وأكدها بقوة القانون كما فعل بين المسلمين والنصارى في مصر والبربر والعرب في المغرب ، كما حرص على بقاء القبلية ودعمها . ولم يسمح بانصهارها في المجتمعات الكبرى ، واتخذ من الطائفية القبلية أداة سياسية يدعم بها وجوده فقد احتضن الاستعمار في مختلف أجزء عالم الإسلام الاقليات وعمل على خلق شعور بكيان خاص لهم ، وفتح الباب للتبشير والإرساليات والمدارس الدينية ، كما بعث الاستعمار من جديد الصراع بين الفرق والمذاهب داخل عالم الإسلام ، وعمل على الضغط بها ، وأكدها وجمدها بحيث لا تنصهر .

***

ولما كان مفهوم الإسلام هو الطابع الاساسي لكل حركات اليقظة والمقاومة معاً . ولما كانت مختلف الحركات السياسية والاجتماعية ، إنما تدور في اطار الفكر الإسلامي . فقد عمد الاستعمار إلى بناء قوى تابعة له ، مؤمنة بفكره ، وأعطاها أماكن القيادة في الوطن الإسلامي (بعد الحرب العالمية الاولى)

وحرصت هذه القوى على إبعاد الإسلام عن موضع الفعل في السياسة أو الاجتماع أو القانون أو التربية . وبذلك فصل المدرسة عن المسجد ، والقانون عن الشريعة .

(٤)

ثورة الجزائر

تعد ثورة الجزائر (١٩٥٤ - ١٩٦١) من علامات الاصالة الاسلامية ، والبطولة العربية ، وهي ثمرة من ثمار اليقظة العربية الاسلامية ، وعملا من أعمال المرحلة الجديدة الناهضة للأمة العربية في عصر الثورة والوحدة . ولقد أدهش المراقبين في العالم الغربي كله تلك الصلابة والاستمرار في المقاومة ومواجهة القوات الضخمة ، وعمليات الابادة الفرنسية ، وردها الكثير من المؤ رخين والكتّاب الى مصدرها الأصيل : قوة الايمان الروحي في الاسلام ، وعمق الصلابة العربية . ولا شك كانت ثورة الجزائر عملاً خطيراً وضخماً في سبيل تحطيم النفوذ الاستعماري ، والادالة منه ، وان قدمت مليوناً من الشهدُاء ، ولكنها حققت معنى خطيراً سيكون بعيد المدى في اليقظة العربية الاسلامية . فقد تمزقت كل دعاوى الاستعمار في محاولة ادماج الجزائر في فرنسا ، واعلن اكثر من واحد من كتاب فرنسا ومؤ رخيها ، وفي مقدمتهم (شارل اندريه جولير) : أن هناك وحدة متكاملة من الجنس واللغة والحدود ، تجمع تونس والجزائر ومراكش . وأن سلسلة جبال الاطلس التي تبدأ من المحيط الاطلسي من مراكش ، والتي تخترق الجزائر وتنتهي في تونس من البحر الأبيض المتوسط تكون العمود الفقري الذي يربط دول شمال افريقيا الثلاث بعضها ببعض ، ويجعل منها وحدة في الجنس واللغة والحدود الجغرافية . وان هذا الجزء من افريقيا لا صلة من أي نوع تربطه بفرنسا ، كما أثبت غير واحد من المؤ رخين ان سلسلة جبال الاطلس الممتدة عبر المغرب العربي ، وكثبان رمال الصحراء الدافئة والجنوب وأمواج البحر الابيض المتوسط من الشمال طبعت هذا الجزء من الدنيا بطابع واحد .

ولم يذكر هؤ لاء المؤ رخون ان الاسلام في الحق هو الذي أكد وحدة العروبة في

المغرب كله ، وأنه هو الطابع الاصيل لها ، والذي يجمع بينها وبين الاجزاء المختلفة للأمة العربية . وقد انبثقت ثورة الجزائر من اشد مناطق الجزائر ايماناً بالاسلام وتعمقاً لفهمه ، وان هذا الاصرار والثبات والعزم . انما مصدره هذا الايمان الذي يؤكد الاسلام بالقتال دون الارض والعرض والدمار ، وان هذا المعنى هو الخطر الذي واجهه الاستعمار في العالم الاسلامي كله ، وحاول بكثير من الاساليب القضاء عليه حين قاوم دراسات الجهاد في المعاهد الاسلامية ، وحين أيد الدعوات القاديانية والبهائية القائلة بالاستسلام امام النفوذ الاستعماري وتقبله . وكذلك حين اكد دعوات الفاندية والتولستوية من حيث انها تفرض عدم المقاومة .

ولقد عارض النفوذ الفرنسي مقومات الاسلام واللغة العربية في الجزائر مقاومة ضخمة ، وبأساليب بعيدة المدى في الفصل بين الجزائريين ودينهم ولغتهم ، ومنيت اللغة العربية في الجزائر بمحنة شديدة كان الهدف منها القضاء على اللسان علامة القومية ، وكذلك القضاء على القرآن مصدر التشريع . وقد عمدت فرنسا الى اعتبار الجزائريين فرنسيين بمقتضى دستور ١٧٤٨ . واعتبار الجزائر فرنسية ، واعتبار اللغة العربية لغة أجنبية عن الجزائر .

ومن خلال مناهج التعليم جعلت السلطات الفرنسية التعليم من رياض الاطفال الى الفرق العالية باللغة الفرنسية وحدها . وجعلت كل مدرسة تقوم بتدريس اللغة العربية في عداد المدارس الاجنبية ، وكذلك الشأن في الصحف ، وكل رسالة بريد عنونت باللغة العربية يكون مصيرها الاهمال . كما سجلت السلطات الفرنسية المدرسين الجزائريين الذين حاولوا أن يدرسوا لتلاميذهم تاريخ الجزائر العربية الفرنسية ، وكانوا يرون ان تاريخ الجزائر يجب ان يبدأ منذ عام ١٨٣٠ .

واذا كانت اللغة العربية قد اصيبت في الجزائر بالضعف والتأخر ، فقد ظل الاسلام نفسه هو العامل الأقوى في الحفاظ على الشخصية الجزائرية العربية المسلمة .

وأمامي نصوص عديدة تؤكد هذا المعنى عن كتّاب فرنسيين . ومن هنا ما

يقوله : (جاك بيرك) . لولا الاسلام في الجزائر لفقدت الشخصية الجزائرية ذاتيتها . لأن ضغط الاستعمار ومفاسده ، كان يمكن ان يؤ دي الى اذابة الشخصية الجزائرية . ولكن فكرة اذابة الشخصية الجزائرية في الشخصية الفرنسية بما فيها من جاذبية لمن سخرتهم الحضارة الغربية من الجزائريين هي التي كونت الخط الاكبر من الشخصية الجزائرية في المغرب .

ان هذه الظاهرة هامة وخطيرة ، ويجب ان تكون موضع تقدير الباحثين . لقد كان الاسلام هو العنصر الفعال الحقيقي في دفع الجزائريين الى طلب الحرية « لقد أيقن الجزائريون منذ اليوم الأول للاحتلال ان هدف الفرنسيين كان القضاء على الاسلام . من اجل ذلك ادركوا جميعاً ان عليهم ان يعتصموا بالاسلام حتى يقدروا على التحرر » . وردد هذا المعنى كثير من الباحثين المنصفين . (لقد قهرت الجزائر الغرب بالاسلام » لقد صمدت الثقافة العربية في الجزائر .

يقول الاستاذ نعيم قداح (فرض على الجزائريين ان يتعلموا ان تاريخ الجزائر يبدأ من عام ١٨٣٠ وان على الجزائري ان يجهل كل شيء عن تاريخ العرب الحضاري في بغداد وقرطبة ، وان فيكو الايطالي هو واضع اسس علم الاجتماع لا ابن خلدون ، ودانتي لا المعري ، ولا مرتين لا عمر بن ابي ربيعة ، وكلود برنار وليس ابن سينا .

وقد جرت مناقشات مطولة بين مجموعة من الباحثين العرب حضرها (جاك بيرك) الذي عاش فترة طويلة في الجزائر حول ثورة الجزائر ، ومفهومها الاسلامي العربي : يقول الكاتب « لقد كدنا نتفق على ان الاسلام قام بأكبر الادوار في المقاومة الجزائرية . بل كدنا نتفق على ان الاسلام كقوة فكرية وروحية ، كان هو السياج الاخير والوحيد الذي لم يستطع الاستعمار الفرنسي ان يزيحه من طريقه . فقد كانت الحرب الاستعمارية الفرنسية حرباً حضارية وجهها الاستعمار الفرنسي ضد اللغة والدين والتنظيم الاجتماعي ، وملكية الارض وطريقة الانتاج . وقد استطاع الاستعمار ان يبدل اللغة العربية ، فجعلها اللغة الفرنسية ، واستطاع ان يحرق ارض الجزائريين (١٨٣٠ ـ ١٨٤٥) واستطاع ان يوزع هذه الارض على المستوطنين الذين هاجروا معه ومع قواته واساطيله .

ولم يكن الاحتلال الفرنسي غزواً واحتلالا فقط ، بل كان محاولة لاستبدال حضارة بحضارة وتنظيماً اجتماعي بتنظيم اجتماعي ، ولغة بلغة . فلم تكن هذه الحرب الاستعمارية سوى حرب حضارية ، شملت الاقتصاد والأرض ، دعمت اللغة والدين ، واصابت التنظيم الاجتماعي والفكري . ولكن ذلك كله لم يسهل مهمة الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، لان المقاومة بدأت باصرار الجزائريين من دعاة الاصلاح بالثبات على تعلم اللغة العربية ، ولعل هذه الحملة التي بدأها مشايخ الجزائريين حين كانوا يجمعون الفرنكات القليلة لاقامة المدارس الابتدائية الاسلامية لتعليم الصغار مبادىء اللغة والقرآن . كانت اول طلقات هذه الثورة الجارفة الشاملة .

وخلاصة ما أريد أن أقول ان الدفاع عن اللغة والاسلام كان هو الخط او الخندق الرئيسي الذي لم يستطع عنده الاستعمار مزيداً من التوغل ، ومزيداً من العدوان . وهكذا فان ثورة الجزائر هي « اسلامية » في بادىء الأمر ، ومن أعمق اعماقها ان كانت المدن الساحلية ، والمدن الصناعية ، قد تقوضت وانهارات بأكملها ، او انهار بعضها . فان هذا السياج الداخلي لم ينقب ولم يستطع عليه الاستعمار شيئاً . لقد تعرض اسلامهم للامتحان وانتزعوا اسلامهم من براثن حملة شديدة الوطأة كثيرة العدة سيئة النوايا .

***

وهكذا يتضح ان الاسلام هو الذي حفظ العروبة والقومية والشخصية الجزائرية في معترك الاذابة في فرنسا . ومن خلال هذه الجذور الاساسية القومية للقيم الاسلامية ، استحالت الشخصية الجزائرية على الموت والانصهار خلال اكثر من مائة وثلاثين عاماً حاول فيها الاستعمار الفرنسي محاولاته المتصلة ، محاولات القوي المسيطر ، للقضاء على « ذاتية الجزائر » واذا كانت اللغة العربية قد أصابها التخلف ازاء خطة خطيرة ألغت المدارس العربية الاسلامية ، وأحلت محلها المدارس الفرنسية اللغة . وقد أغلقت فرنسا نحواً من ألف مدرسة يدرس فيها ١٥٠ الف طالب او يزيد ، عندما احتلت الجزائر ، واباحت للارساليات التبشيرية ان تحل محل هذه المدارس ، وتطبق برامج اقل ما فيها أنها ترسم عظمة

فرنسا وحضارة الغرب ، وتحط من قدر حضارة العرب والمسلمين ، وتدعو الى ما تدعو اليه الارساليات من تحويل المسلمين عن دينهم وقيمهم وتدمير مقومات فكرهم دفعاً لهم الى الاستسلام امام النفوذ الفرنسي وتقبله[1] . والمعروف ان فرنسا لم تلبث في الجزائر بعد احتلالها الا قليلا ، حتى أخذت تخطط لاستيعاب الجزائر بحسبانها فرنسا الجنوبية ، كما اغرقتها بسيول من الكتب والصحف والاسطوانات والأفلام الفرنسية ، وأنشأت بعد عشر سنوات من الاحتلال مكتبتي (شبكس) و (هاشيت) برأس مال قدره ستة ملايين جنيه استرليني عام ١٨٤٢ لتكون هذه نواة الحركة الثقافية الفرنسية في شمال أفريقيا . ثم أنشأت مراكز في وهران للزحف على غرب الجزائر . وفي قسنطينة للزحف الثقافي على شرق الجزائر ، ولم يلبث ان اصبح (لهاشيت) ثلاثمائة مركز . وأصبحت جريدة لموند توزع في الجزائر ٧٨٠٠ نسخة كما توزع الفراتي سوار ١٣٦٠٠ نسخة .

غير ان المقاومة الصلبة العتيدة لهذا الافناء للشخصية الجزائرية لغة وثقافة لم تصدر من الاحزاب السياسية المختلفة التي كانت تذهب وراء الالفاظ ، وتتحرك داخل اطار النفوذ السياسي الفرنسي ، وفيها من يدعي بانه لا توجد للجزائر شخصية خاصة . انما جاءت المقاومة من خارج الدائرة التي والت النفوذ الاستعماري . جاءت من دائرة اليقظة الاسلامية التي بدأ ت في الجزيرة العربية وامتدت الى مصر والشام والازهر ، وظلت تشق طريقها حتى تسلم رايتها في الجزائر علامتها الامام عبد الحميد بن باديس وزملاؤه البشير الابراهيمي ، ومحمد الميلي ، واحمد توفيق المدني وغيرهم .

فقد لمع هذا المجدد المصلح لمعان النجم ، واشرق اشراق الفجر ، ووضع الكلمة التي رددتها الأجيال ، ولم تمت منذ ذلك اليوم ، والتي دحضت أكاذيب وادعاءات وأباطيل الاستعمار خلال مائة عام كاملة ، كانت كلمة ابن باديس .

« اننا نرى الامة الجزائرية موجودة ومتكونة على أمثال ما تكونت به سائر أمم الارض ، وهي لا تزال حية . ولهذه الامة تاريخها اللامع ، ووحدتها الدينية

---

١ ـ دكتور محمود قاسم ك : الامام عبد الحميد بن باديس .

واللغوية ولها ثقافتها وتقاليدها . هذه الامة الجزائرية ليست هي فرنسا ولا تريد ان تصبح فرنسا . ومن المستحيل ان تصبح فرنسا » .

بدا ابن باديس عمله سنة ١٩١٣ في صمت وخفاء وأناة حتى استطاع ١٩٣١ أن ينشيء جمعية العلماء المسلمين سنة ١٩٣١ ووجه جهده كله إلى التعليم العربي الاسلامي في المساجد ، في مواجهة سياسة فرنسا الاستعمارية التي تحاول أن تمحوا العربية والعروبة والاسلام . وبعيدا عن ضجيج السياسة وصراع الأحزاب ، بدأ وزملاءه يعملون في المساجد ويحمون لغة القرآن من الزوال حتى تم إنشاء مائة وخمسين مدرسة في شرق الجزائر وغربها ، ولم تلبث فرنسا أن احست بخطر عمله حتى بدأت تحاربه بكل وسيلة ، ولكنه كان قد دعم قوة لا سبيل إلى دحرها . واستيظت اللغة العربية ودراسات الاسلام مرة أخرى على النحو الذي وصفه جاك بيرك وغيره ، والذي كان بعيد المدى في حركة التحرر الجزائرية وثورة الجزائر .

وهكذا رفضت الشخصية الجزائرية باستمرار ، وخلال قرن وثلث قرن ، رفضت الذوبان في الاطار الفرنسي المفروض عليها فرضا . وقضى الاستعمار على اللغة ولكنه لم يقض على الاسلام . لقد طلبت فرنسا من الجزائريين أن يعتبروا أنفسهم فرنسيين . بعد أن أخضعوا منذ ١٨٨٩ في الأحوال الشخصية للقانون الفرنسي . وكانت السلطات الفرنسية ترمي من وراء ذلك الى السير بهم نحو « الادماج » الكامل ، الا أن الجزائري كان مؤمناً بأنه ليس فرنسيا ، وهو مسلم قبل كل شيء . وعندما فصلت فرنسا الدين عن الدولة في ٢٧ أيلول سنة ١٩٠٧ لم ينفذ هذا القرار بالنسبة للجزائر . وبعد أربعين سنة من ذلك التاريخ كانت الدولة الفرنسية تدفع من خزانتها مرتبات لمائتين وتسعة وخمسين رجل دين كاثوليكي وبروتستنتي ويهودي .

ولقد عمدت فرنسا أول ما عمدت إلى السيطرة على أوقاف المسلمين ، ثم اتجهت الى المساجد بحسبانها مراكز الاسلام ، فأجرت لها عملية تصفية أليمة . وفي مدينة الجزائر وحدها ذات الـ ١١٢ مسجداً لم يبق منها إلا خمسة فقط ، وحول اثنان الى كنائس ، وهدم الباقي . وفي كل مكان حولت مساجد الجزائر الى كنائس .

ويرى القائد روفيجو مؤلف « الجزائر الثائرة » كيف حوّل اضخم مسجد في مدينة الجزائر إلى كاتدرائية الجزائر بعد أن هدم على أربعة آلاف مسلم كانوا قد اعتصموا به . وفي أعقاب هذا العمل اتيحت الفرصة للمبشرين ، وتكونت جماعة الآباء البيض التي انشأها الكردينال لافيجري . وقد أشار الى هذا مؤلف كتاب (تاريخ الجزائر) : « أن أول ضربة ضربها الاستعمار الفرنسي في الجزائر بعد تقويض أساس الدولة الجزائرية هي ضربة الأوقاف الاسلامية . فكل المساجد الاسلامية ، والمؤسسات الاسلامية قد أصبحت ممتلكات الدولة الفرنسية الخاصة . فرجال الإفتاء وأئمة المساجد وسدنتها وقراء القرآن فيها يتقاضون اجورهم من الخزينة الفرنسية ، وهم موظفون تابعون لفرنسا لا يتسلمون عملهم إلا إذا قدموا للاستعمار ما يوجب رضاه . وهكذا مضت الحملة الاستعمارية الثقافية وخطة التغريب لتقضي على الأمة الجزائرية واللغة العربية والاسلام في الجزائر جميعاً . وتغلبت اللغة الفرنسية بعد أن حوربت العربية حرباً متصلة لم تنقطع ولم تفتر ، استخدمت فيها كل الأسلحة .

وعلى رأس المائة من أعوام الاحتلال ، حيث بدأ الاستعمار يحتفل بالادماج الكامل للجزائر كان صوت عبد الحميد بن باديس وجميع العلماء المسلمين يؤكد في قوة وجهارة أن الجزائر عربية مسلمة ، وأنها تستحيل على الفناء في الوجود الفرنسي . وكان هذا علامة ضخمة في تاريخ الاسلام الحديث لها أثرها العميق ومداها الواسع مقدمة حرب ضروس استمرت سبعة أعوام من أجل بقاء « الذاتية الجزائرية العربية الاسلامية » ويرى كثيرون وفي مقدمتهم جاك بيرك أن « اللغة العربية الفصحى أو الكلاسيكية هي التي حمت الجزائر من الانصهار ، يقول جاك بيرك : « إن أقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي في المغرب هي اللغة العربية ، بل اللغة العربية الكلاسيكية الفصحى بالذات ، فهي التي حالت دون ذوبان الغرب في فرنسا » .

كيف كان ذلك !!

يقول « لقد كان للمستعمر قوة مادية مدهشة واقتصاديات عالية ، ومدنية جذابة . ومع ذلك يلاحظ ان شيخ علماء الجزائر الذي كان يعتبر نفسه رجلاً غير

سياسي ، وكان يتجنب السياسة ، ويقولون عنه في الجزائر إنه شخص جاد أكثر من أي شخص آخر ، كان هذا الرجل من أعظم رموز مقاومة الاستعمار . فإن صحت هذه الدعوة المعنوية الثقافية . بل أقول الرمزية كانت أقوى العوامل في النهوض الحقيقي لشعب الجزائر

إن الكلاسيكية العربية هي التي بلورت الأصالة الجزائرية . وقد تركت هذه الكلاسيكية العربية عاملاً قويا في بقاء الشعوب العربية .

* * *

ويبدو هذا الدور حقيقة ممثلاً في خطاب ابن باديس عام ١٩٣٧ قبل وفاته بسنوات ثلاث الذي القاه في جمعية العلماء حيث يقول :

* (حوربت فيكم العروبة) حتى ظن أن قد مات منكم عرقها ، ونسخ منكم نطقها ، فقمتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها ، فتثير الشعور والمشاعر ، ويهدر خطباؤكم بشقائقها ، فتدك الحصون والمعاقل ، ويهز كتّابكم أقلامها ، فتصيب الكلى والمفاصل .

* حورب فيكم « الاسلام » حتى ظن أن قد طمست أمامكم معالمه ، وانتزعت عفائده ومكارمه ، فجئتم بعد قرن ترفعون علم التوحيد ، وتنشرون من الأصلاح لواء التجديد وتدعون إلى الاسلام ، كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، لا كما حرفه الجاهلون وشوهه الدجالون .

* وحورب فيكم « العلم » حتى ظن أن قد رضيتم بالجهالة فجئتم بعد قرن ترفعون للعلم بناءً شامخاً ، وتشيدون له صرحاً شاهقاً ، فأسستم على قواعد الاسلام والعروبة والعلم جمعيتكم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

* وحوربت فيكم « الفضيلة » فسمتم الخسف ورميتم بالصغار حتى ظن ان قد زالت منكم المروءة والنجدة ، وفارقتكم العزة والكرامة ، فجئتم بعد قرن تنفضون غبار الذل ، وتهزون أسس الظلم ، وتزمجرون زمجرة العزيز المهان ، وتطالبون مطالبة من يعرف أن له حقًا لا بد أن يعطاه أو يأخذه . نعم : نهضنا بعد أن صهرنا بنار الفتنة والابتلاء ، وقارعتنا الخطوب ، ودافعتنا ودافعناها . « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » نعم نهضنا

بعد قرن . بعد ما متنا وأقبرنا ، أحيينا وبعثنا ، سنة كونية فقهناها من القرآن ، ونعمة (ربانية) تلقيناها من الملك الديان . نعم نهضنا نهضة بنينا على الدين أركانها ، فكانت سلاما على البشرية .

العروبة والاسلام والعلم والفضيلة هذه أركان نهضتنا ، وأركان جمعية العلماء ، فما زالت هذه الجمعية منذ كانت تفقهنا في الدين ، وتعلمنا اللغة ، وتنيرنا بالعلم ، وتحلينا بالأخلاق الاسلامية ، وتحفظ علينا جنسيتنا وقوميتنا ، وتربطنا بوطننا ، وما كانت جمعية العلماء حتى كانْ العلماء القرآنيون الذين فقهوا الدين والدنيا بفقه القرآن ، وعرفوا السنن الأقوم بمعرفة سنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهدوا واهتدوا بما كان عليه السلف الصالح .

إن الإسلام عقد اجتماعي عام فيه جميع ما يحتاج اليه الإنسان في جميع نواحي الحياة لسعادته ورقيه . وقد دلت تجارب الحياة كثيراً من علماء الأمم المتمدنة على أنه لا نجاة للعلم مما هو فيه إلا باصلاح عام على مبادىء الاسلام . ا . هـ .

***

هذه هي علامات التحول التي حققتها الدعوة الاصلاحية القائمة على الاسلام واللغة العربية ، وهي أرضية الثورة الجزائرية والحرية . ومن خلال هذه الحركات برزت الشخصية الجزائرية « عربية مسلمة » بعد أن ظن الاستعمار انها انتهت . وكان ذلك مقدمة طبيعية للثورة المسلحة التي حققت « الذاتية الجزائرية » بعد سبع سنوات من الجهاد والاستشهاد .

ولقد استطاع النفوذ التغريبي الثقافي الفرنسي المسيطر أن يخدع بعض المثقفين الجزائريين عن جوهر شخصيتهم ، وعن حقيقة وجودهم العربي الاسلامي فترة من الزمن حين ظنوا ان أوربا هي كل شيء ، وأن الجزائر ليس لها وجود ذاتي منفصل عن فرنسا ! ولكن كثيراً من هؤلاء الزعماء قد رجعوا عن آرائهم ، وعادوا إلى الايمان بالشخصية الجزائرية « عربية إسلامية » وكان لجمعية العلماء أثرها القوي في تصحيح هذه المفاهيم .

وفي مقدمة هؤلاء عباس فرحات الذي قال في كتابه (الظلمة الاستعمارية)

أن الجزائر بلد عربي ، ومن ذا الذي ينكر هذه الحفيفة ، وهي أرض اسلامية أصيلة ، وذلك حق أيضاً ومهما يكن من إرادة الامبريالية في الماضي والحاضر ، فإن هذه الظاهرة التاريخية تظل صادقة تمام الصدق .

ومن اعماق جبال أوراس اندلعت الثورة من البيئة التي كانت أكثر تمسكا بالاسلام . ومن الحق ان يقول « مالك بن نبي » من العقيدة الاسلامية نفسها انطلقت ثورة الجزائر ، وكانت العقيدة الاسلامية نفسها المحرك والدافع الكبير للتيار الثوري في الجزائر .

ويؤكد هذا المعنى عمار وزقان في كتابه (الجهاد الأفضل) حيث يشير الى أن الفكر الجزائري المشبع بروح الاسلام لم يفقد نفسه في غمار التيارات الفكرية الدولية . « بل إن احتكاكه بهذه التيارات لا يزيده الا اطلاعاً على مظاهر الحقيقة والزيف فيها . وتدعيم الايمان بقيمة المثل والمبادىء التي تحتضنها حضارتنا العربية الاسلامية .

ويقول : إنها لمفارقة واضحة أن يكون الولاء للاسلام الذى اضطهده الاستعمار ، واستخف به هو الأكثر ثورية بالفعل على الصعيدين : الديالكتيكي والتاريخي. وأن حركة الاصلاح الديني حركة نهضة إسلامية ذات طابع ثقافي وسياسي ، وتستهدف القضاء على النظام الاجتماعي « الاستعماري »، « وأنها كانت نهجاً يتلخص في هذه الصيغة الأخاذة ».

« الاسلام ديننا . العروبة لغتنا . الجزائر وطننا ».

وكان سر الرسالة القومية لحركة الاصلاح الجزائري يكمن في الترابط العضوي بين هذه الكلمات الثلاث .

ويصور الكاتب كيف عملت حركة الاصلاح التي قادها ابن باديس على تصفية العيوب الاستعمارية للمجتمع الجزائري ففتحت الطريق إلى اليقظة حين صفته من : « البدع . الجمود . القدرية . السلبية . الخرافة ».

وقد حاول المؤلف أن يقدم تفسيراً لتغلب « اللغة العربية » على « اللاتينية » في إفريقيا وقال : إن العقلية البربرية ليست غريبة الى الحد الذي يظن عن

اللغة العربية . وقال : ان التجربة البربرية التي أجراها الاستعمار كنزعة للتجزئة قد فشلت على الصعيد الاجتماعي والفكري والسياسي .

ويصور عمار وزقان ـ بوصفه احد المشتركين في قيادة الثورة الجزائرية ـ دور الاسلام فيها فيقول : « إن موقفنا من الاسلام لا يختلف لأننا ثوريون مرتبطون بالشعب ، وذلك أن رفض الايدلوجية الاسلامية في بلاد مستعمرة يضطهدون الأكثرية الساحقة فيها هو علامة تجدد أخرق تنادي به فئة منفصلة عن الشعب غربية الحياة والفكر ، امتصتها أو شلتها أيدلوجيا العدو المستعمر . ثم يشير إلى دور التغريب في العالم الاسلامي فيقول : تستعجل العقلية العصرية كثيراً في توديع الأديان كلها توديعاً مأتمياً دون أن تدرك أن الأيدلوجية الاسلامية ليست محتضرة . بل هي في كامل اندفاعها وحركتها

ويبدو مفهوم الشخصية الجزائرية واضحاً في ميثاق ١٩٦٤ . « ان الجزائر بلد عربي إسلامي . ولذا فإن هذا التحديد ينفي أي رجوع إلى مقاييس عرفية ، ويتعارض مع كل انتقاص من الاسهام السابق على الفتح العربي . ورغم تجزئة العالم العربي إلى وحدات جغرافية أو اقتصادية مميزة ، فإن عوامل الوحدة المكونة من تاريخ وثقافة اسلامية ، ولغة مشتركة ظلت تحتل المقام الأول .

فالجماهير الجزائرية العميقة الايمان ، قاومت بصلابة لتخليص الاسلام من كل الشوائب والخرافات التي خنقته أو شوهته وناهضت دائما الدجالين الذين كانوا يريدون ان يجعلوا منه مذهبا للخنوع والتوكل ، وربطه بارادتها من إنهاء استغلال الانسان للانسان . وعلى الثورة الجزائرية أن تعيد إلى الاسلام وجهه الحقيقي ، وجه التقدم ، أن الجوهر العربي الاسلامي للأمة الجزائرية ، قد شكل حصناً منيعاً ضد تهديمها من طرف الاستعمار .

. جذور الوحدة العربية

قلنا في كتابنا « الإسلام وحركة التاريخ » انه حين ضعفت حركة قائدة في العالم الإسلامي نبعت من مرحلة الضعف « حركة يقظة جديدة » وهي هذه المرة من قلب الامة العربية ، وقد كانت إرهاصا لنهضة ما زال مدها يزداد كل يوم قوة ، وهي على الطريق إلى غايتها ، تصارع قوى كثيرة تحاول أن تعوقها أو تحولها عن جوهر فكرها ومضمونه ، وهي في نفس الطريق ، وبالرغم من كل التحديات فهي شأنها دائماً مفتوحة الآفاق على الثقافات العالمية ، والفكر الإنساني تأخذ منه ما يتفق مع مقوماتها وما يزيدها قوة على الحركة والتقدم كما هي معطية دوماً لا تتوقف عن منح الإنسانية من ثمار فكرها الإيجابي البعيد الاثر في تكوين الحضارة الحديثة والفكر البشري .

والامة العربية اليوم تواجه مرحلة تصفية عصر الإسلام وتواجه تحديات النفوذ الثقافي والتغريب . فلا تستسلم له وتقاوم أخطر تحديات الاستعمار في تاريخها وتاريخ العالم الإسلامي ، وهو « الغزو الصهيوني » المدعم بالنفوذ الاستعماري الذي أقام فلسطين حاجزاً بشريا بين شطري الامة العربية ، وبين قارتي أفريقيا وآسيا ، وفي قلب العالم الإسلامي ، وما زالت الامة العربية تواجه وجوده بالمقاومة أكثر من عشرين عاماً .

ولا شك لهذا الوجود الصهيوني في فلسطين منذ ١٩٤٨ . وفي القدس بالذات ١٩٦٧ أبعد الاثر في حركة المقاومة واليقظة التي تواجهها الامة العربية من خلال ثوراتها المختلفة واتجاهها إلى بناء كيانها بناء قادراً على الصمود في وجه التحدي الزاحف من خلال السياسة والاقتصاد والاجتماع .

ولذلك فقد أصبحت الدعوة إلى الوحدة العربية التي كانت مطمح الامة العربية منذ انفصلت عن الدولة العثمانية ـ أصبحت هذه الدعوة ضرورة محتومة للتجمع في وجه النفوذ الصهيوني والمطامح الاستعمارية الدولية .

ولقد استغرقت السنوات الخمس عشرة الاخيرة من عمر الامة العربية محاورات مفتوحة حول مفهوم هذه الوحدة وفلسفتها ومداها ومضمونها السياسي والاجتماعي . وذلك بعد أن تبنت هذه الدعوة معظم الامم العربية في دساتيرها وفي هيئاتها السياسية وتشكيلاتها الحزبية ، وقد كان لمصر بعد عام ١٩٥٦ حين اعترفت بارتباطها بالوجود العربي ، وعملت في حقله عملاً إيجابيا قياديا أبعد الاثر في دعم فكرة الوحدة واقترابها من مرحلة التحقيق حيث قامت أول تجربة الوحدة بين مصر وسوريا ١٩٥٨ . ثم توالت التجارب بين مصر وسوريا والعراق . ولقد كان مفهوم الوحدة العربية التي انبعث من القاهرة أعمق مفاهيم هذه الوحدة واقربها إلى التطور الطبيعي ، والتشكيل الجذري المرتبط بالقيم الاساسية للامة العربية والثقافة العربية . فقد كان منبعثاً انبعاثا طبيعيا بعيداً عن جميع المحاولات التي تريد أن تغرقه في طوفان المفاهيم الغربية ، أو تنتزعه من جذوره وقيمه وأصالته ، وكان إلى ذلك بعيداً عن ما يحمله مفهوم القومية في بلاد كثيرة من الاستعلاء الجنسي ، أو العنصرية ، أو التعصب ، أو المفاخرة العصبية .

وقد حافظت مصر بفهمها للوحدة العربية على مكانتها في العالم الإسلامي بحسبانها واجهة حامية للتراث والفكر الإسلامي حيث يقوم فيها الازهر ، وحيث تغذي عشرات الاقطار الإسلامية في أفريقيا وآسيا بهذا التراث .

وبذلك بعدت عن القومية في مفهومها العنصري الحاد الذي يبلغ مرحلة العقائد ، أو يحل محلها ، وبعدت أيضا عن المفهوم العلماني الذي يفصل بين القومية وبين القيم الروحية ، وبين الدين ، أو بين الإسلام نفسه الذي كان دوماً دينا وفكراً جامعاً .

لقد كانت النزعة القومية ضرورة طبيعية في العالم كله . وقد فرضت نفوذها في العالم الإسلامي فظهرت القومية الاندونيسية ، والقومية التركية ، والقومية

الباكستانية ، ولكنها في ذلك كله كانت تحافظ على جذورها وروابطها التي تربطها بالإسلام باعتباره مصدراً أساسيا للفكر والثقافة .

وفي مفهوم الوحدة العربية كان العاملان الاساسيان لها . وهما اللغة والتاريخ ، اللغة لسان الامة ، والتاريخ ذاكرتها . كان هذان العاملان مرتبطين أشد الارتباط بالإسلام والفكر الإسلامي .

أما الذين قالوا بأن الدين ليس عاملاً من عوامل القومية فإنهم صدقوا من حيث أرادوا ، « فالدين » بمفهومه اللاهوتي والعبادي يفرق بين أصحاب الاديان المختلفة . أما بالنسبة للإسلام ، فالقول بأنه دين فحسب ، إنما هو خطأ شائع ، أو ظلم مقصود . فالإسلام له جانبه الروحي والعبادي ، وهذا خاص بالمسلمين . ولكن للإسلام جوانبه الاخرى في مجال الفكر والثقافة والتاريخ والتراث ، وهذه الجوانب كلها ليست ملكا للمسلمين وحدهم ، ولا تمثل تقاليدهم وقيمهم وحدهم ، ولكنها تمثل قيم « الشرق » كله . والشرق هنا هو كل ما ليس من العالم الغربي . هذا الجانب الضخم من التراث الفكري والثقافي هو « أرضية » أصيلة وجذور عميقة للوحدة العربية .

والامة العربية حين ينبعث وجودها على هذا النحو البعيد عن المفهوم الغربي العلماني ، وحين يبعد أيضاً عن التعصب الأقلمي أو الاستعلاء العنصري ، فإنه لا يجد من الخصومة أو الصراع أو المخالفة للقوميات الإسلامية الاخرى . بل يلتقي معها في الجذور والاصول والقيم الاساسية والمعالم الكبرى .

لقد حاول الاستعمار أن يستفيد من حركة الوحدة العربية من أجل تمزيق الروابط التي كانت تجمع العالم الإسلامي ، وتربط بين العرب والترك والفرس . ولكن عوامل جديدة أخذت في إحياء هذه الروابط ودعمها من جديد . وكانت الدعوة إلى الوحدة العربية بعد الحرب العالمية الثانية عاملاً هاماً في القضاء على الدعوات الإقليمية التي أرثها النفوذ الاجنبي في مرحلة ما بين الحربين . وكان عوده الى التقاء الامة العربية في فكر موحد على الاصول الاساسية والقيم والجذور الثابتة ، وعلى نحو ما كان يفهمه دعاة الوحدة العربية القدامى وقريباً من مفهوم محمد عبده ، وشكيب أرسلان ، ومحب الدين

الخطيب وعبد العزيز جاويش . وشجباً للدعوة التي برزت في الاربعينات واستشرت بعد ذلك محاولة فصل العروبة عن روابط الفكر الإسلامي وقيمه والتماس مفهوم القومية الغربي المجرد الذي يفصل الامة عن جذورها .

وفي أوربا كانت المسيحية غريبة عن طبيعتها وتاريخها ، ولم تكن إلا عقيدة أخلاقية وتعبدية صرفة وفي نفس الوقت لم تتصل أصولها بلغاتهم ، ولم تمتزج بتاريخهم . أما بالنسبة للإسلام فإن الامر يختلف اختلافا جوهريا ، فهو ليس أخلاقا أو عقيدة أخروية أو تعبدية ، وإنما هو منهج حياة شامل متصل بمختلف أمور السياسة والاجتماع والاقتصاد ، وهو ليس مرحلة تاريخية في حياة الامة العربية يمكن أن يقال إنها انقضت ، ولكنه يرتبط معها ارتباط التربة بالجذور حيث يختلط التراث والتاريخ واللغة بين الامة العربية ، وبين الاسلام نفسه ، وتتداخل على نحو يصعب التفريق فيه بين العروبة وبين الإسلام . فهو للمسلم دين ومنهج حياة ، وللمسيحي ثقافة قومية ، ومصدر لمقومات الفكر والشعور والذوق والحياة . « فعلاقة الإسلام بالعروبة ليست إذن كعلاقة أي دين بأي قومية » .

ولقد تكشف للاجيال الحديثة أن الفرعونية كانت موجة من موجات الامة العربية ، وكذلك كانت الفينيقية والبربرية في بعض أقوال علماء الاثار والمؤرخين . وبذلك لم يعد هناك تعارض ، فقد انصهرت الموجات القديمة بعد الإسلام وتبلورت وتلاقت وأضحى الاعتزاز بالتاريخ الفرعوني في مصر لا يتعارض مع العروبة أو الإسلام إلا من حيث اتصاله بالوثنية ، أو تيارات الفكر التي قضت عليها دعوة التوحيد ، فهي مقبولة من حيث الشكل التاريخي ، ولكنها متعارضة إذا قدمت على أنها ثقافة خالصة . وكذلك مختلف الدعوات والتيارات . فقد صهر الإسلام الامة العربية في كيان موحد ، وصهر الفكر الشرقي في بوتقته ، وتشكل من جديد .

والإسلام لا يعارض وجود الامم وغيرها ، ولكنه يعارض صراعها ، وقيام الخلافات التي تحول دون تحقيق « الوحدة الإنسانية » والالتقاء الفكري والروحي للامم البشرية المختلفة . والنفوذ الاستعماري دائماً من وراء عملية التمزيق والتفرقة بين الامم ووراء التناحر والصراع بين القوميات .

وللوحدة العربية أهميتها في مجال التحدي الذي يواجه العالم الإسلامي اليوم مع الاستعمار ، وخاصة بالنسبة لاقوى هذا التحدي وهي « الصهيونية » في فلسطين ، ولقد تنبه إلى هذا المعنى كثير من زعماء الإسلام ومفكريه وأعلنوا في وضوح ضرورة قيام الوحدة العربية كأساس للاخوة الإسلامية . فالامة العربية هي مبعث الإسلام . ولغته وقرآنه ، وهي الامة التي حملت لواءه إلى العالمين ، وهي جغرافيا وسياسيا وتاريخيا موئل العالم الإسلامي النابض ، ولقد طلت مصر تلتمس لنفسها طريقاً منذ أوائل النهضة الحديثة حتى اهتدت إليه « وطنية مصرية » ذات جذور ترتبط بالأرض ، و« عروبة » ترتبط بالامة واللغة . و« إسلاما » هو أساس الفكر والثقافة ، وقد ارتفعت صيحات كثيرة بالدعوة إلى الفرعونية ، ولكنها عجزت أن تجد لها ثقافة أو فكراً ، أو منطلق حياة ، ولم تلبث الدعوة إلى الفرعونية أن اصطدمت بالوثنية بعد أن غمر مصر التوحيد اربعة عشر قرناً .

وقد تخطاها أغلب المنصفين الذين دافعوا عنها ، وعرفوا بعدها الطريق الاصح ، وفي مقدمة هؤلاء دكتور محمد حسين هيكل .

ولقد كانت زعامة الامة العربية دوماً تستمد مقوماتها الصحيحة من المؤمنين بتراثها المرتبطين بتاريخها الممتد . ولذلك فقد سقطت الدعوات القومية التي حاولت أن تفصل الامة العربية عن مقومات اللغة والتاريخ وجذورهما الثقافية ، وبدأت الآراء المتعددة تنصهر الآن في مفهوم سمح بعيد عن ذلك الجفاء المصطنع للفكر الإسلامي الذي أوجده بعض دعاة المفهوم الغربي للقومية ، ذلك أن الثقافة العربية التي تتمثل بأبرز صورها في التاريخ واللغة ، إنما هي وليدة أصيلة للفكر الإسلامي ، فلا يمكن أن تنفصل عنه .

وواضح أن النفوذ الغربي وحركات التغريب قد حاولت بالنسبة للوحدة العربية محاولتين : حاولت بالدعوة إليها « اولاً » الفصل بين العرب والمسلمين في كيان الدولة العثمانية الموحدة فلما قامت الوحدة العربية ذات أصالة كقوة للمقاومة ، والوقوف في وجه النفوذ الغربي . اتجهت الحركات والدعوات إلى محاولة تصفيتها من مضمونها الثقافي الإسلامي العربي الاصيل ، وذلك حتى لا

تلتئم هذه الوحدة ، لتكون قوة كبرى في وجه النفوذ الاجنبي .

ومن هنا تظهر كل هذه المحاولات التي ترمي إلى التشكيك في التاريخ ، أو هدم اللغة الفصحى ، أو بعث العامية ، أو إغراق الثقافة العربية باليونانيات الوثنية ، أو الفرعونيات أو العربيات الجاهلية السابقة للإسلام ، وكلها عوامل تفرقة ، ومحاولات للتجزئة ولتعميق الإقليمية ودعمها ـ وهي محاولات يائسة ضد حركة التاريخ نفسه الذي يتجه الى توحيد الأجزاء ، وإلى التجمع والالتقاء بين العناصر ذات الاصول الواحدة .

لقد قامت الحركات القومية في الغرب في محاولة للتخلص من نفوذ الكنيسية والإقطاع ، ولكن الحركات القومية في العالم الإسلامي إنما تقوم في محاولة للتخلص من النفوذ الاستعماري الغربي في صوره المختلفة . ولذلك فهي تعتمد أساساً على مقوماتها التي حققت لها النصر في مختلف معارك المقاومة وصدامات الصليبيين والتتار والقوى الزاحفة . ولقد كانت القيم الاساسية المستمدة من الإسلام والعروبة هي مصدر القوة والصمود ، وآخر هذه الصور إنما تتمثل في معركة الجزائر .

وإذا كان لامم الغرب نظرية في القومية فإنها مستمدة من ظروفها ووجودها وكيانها . ولا بد أن يكون للعرب وللقوميات في العالم الإسلامي نظريات مستقلة مستمدة من ظروف هذه الامة وكيانها وقيمها الأساسية . وإذا كانت نظرية القومية الغربية قد رفضت الدين الغربي . فليس ذلك مساويا للمفهوم الذي يقول بأن نظرية القومية العربية لا بد أن ترفض الدين لاسباب عدة أهمها أن الإسلام ليس دينا لاهوتياً تعبدياً بالمعنى الذي رفضت به أوربا الدين المسيحي . وليس للإسلام قوة تتمثل في شيء مثل الكنيسة الاوربية التي قاومتها الدعوة القومية في الغرب . وكل ما أورده ساطع الحصري وغيره في هذا الصدد لم يكن فيه متحريا جوهر الحقيقة ولم يكن متمثلا مفهوم الفكر الإسلامي في شموله وتكامله .

وقد تجاوزت الثقافة العربية في تطورها نظريات ساطع الحصري وغيره في ظل الإيمان بقيمها . ولقد حاول الغرب دائما أن يفرض نظرياته ومفاهيمه على

هذه المناطق الواقعة تحت نفوذه الاستعماري والسياسي . ولقد آن للعالم الإسلامي والامة العربية تتحرر من التبعية للنظريات الغربية أو المفاهيم الغربية للقيم المختلفة .

وقد أشار أرنولد توينبي إلى هذا المعنى حين قال إن طغيان الغرب يتجلى في تحويل تجاربه إلى قوانين عامة للجنس البشري . فالعالم عند الغرب هو مادة الحضارة للجنس الابيض الممتاز . والمعروف أن الاستعمار هو الذي قضى على الوحدة الإسلامية ، وهي في طريقها إلى الدعم ،، محاولا أن يحل بدلا منها الدعوة العربية المرحلية في مقدمة لدعوات الإقليمية والتجزئة . ولكن الوحدة العربية تمت في ظل تحديات قضية فلسطين .

ولذلك فقد حاول الاستعمار حين أيّد قيام جامعة الدول العربية إلى تأخير وجودها الحقيقي ، وذلك بوضع العقبات في طريقها ، ولكنها اليوم بعد أن قطعت مراحل متعددة ، وتغلبت على عقبات كثيرة تحاول أن تحقق التئاماً وتقارباً في مجالات مختلفة كالمجال الاقتصادي والتربوي والثقافي .

(٤)

حركات الاصلاح في العالم الاسلامي

١ ـ دعوة التوحيد

٢ ـ الدعوة السنوسية

٣ ـ الدعوة المهدية

٤ ـ الحركات الاصلاحية : حركة جمال الدين ومحمد عبده

٥ ـ الحركة السلفية

٦ ـ جمعية العلماء

٧ ـ الحركة الاسلامية في الهند الاسلامية وباكستان

٨ ـ حركة الاصلاح في اندونيسيا

٩ ـ الحركات الصوفية

١٠ ـ قادة الحركات الاسلامية .

الدعوات الاسلامية

تتمثل اشارة اليقظة في العالم الاسلامي في صيحة المسلمين لالتماس المفاهيم الاساسية للاسلام بحسبان ان مرحلة الضعف والاستعمار انما ترجع أساساً الى أن فقدان المسلمين قوتهم وكيانهم انما جاء نتيجة ففدانهم لقيمهم الاساسية التي تحمل طابع التأهب الدائم والحرص المستمر ، فالمسلمون في رباط دائم ازاء عدو قائم (ودّ الدين كفروا لو تغفلون عن امتعتكم وأسلحتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) . ومن هنا فقد كان الجهاد في (مفهومه) الشامل الكامل تأهباً كاملا ورباطاً دائماً ، وتجدداً مع الزمن في اساليب الدفاع والمقاومة .

تلك هي الدعوة التي حمل لواءها المصلحون طوال عصور تاريخ الاسلام ، وهي مفتاح اليقظة في مختلف المراحل التي تتوالى على المسلمين .

ومنذ اوائل القرن الثالث عشر الهجري ، دخلت الدولة الكبرى التي تحمل لواء الاسلام في مرحلة الضعف بعد اربعمائة عام من النضال والمفاومة وقفت خلالها في وجه الزحف الأوربي المتربص ، غير ان تخلف المسلمين ممثلا في قيادتهم السياسية عن سنن الكون وضعهم في موضع الضعف ، ووضع عدوهم في موضع القوة ، ومن ثم تحول الميزان فأصبحوا في منطقة الظل ، واستطاع خصمهم ان يطوق غالمهم على مهل خلال القرن الخامس عشر والسادس عشر والثامن عشر الميلادي ، وأن يشد الحبل في القرن التاسع عشر . حبت سقطت وحدات العالم الاسلامي واحدة بعد الاخرى في يده .

نعم استطاعت الدولة العثمانية ان تحمي منطقة ضخمة هي منطقة شرق البحر الابيض والعالم العربي وان تصمد فيها المقاومة ، ولكن عالم الاسلام الممتد عبر افريقيا والهند واندونيسيا قد اتاج للنفوذ الاجنبي فرصة واسعة في الايغال

هناك . حتى وصل الى حدود الصين ، ومكن لنفسه في ارخبيل الملايو ، وشواطيء افريقيا الشرقية وفي الهند نفسها ، وكان له نفوذه في قلب ايران ، حيث كانت الحرب سجالا بينها وبين تركيا . غير انه يمكن القول بصدق ان جميع بواعث اليقظة في عالم الاسلام كانت نابعة اصلا من تقدير كامل لموقف الضعف الذي يمر به المسلمون ، وفي كلتا المنطقتين علت صيحة اليقظة والتجديد ، وكانت منبثقة من اعماق الامة الاسلامية . وفي كلتا الحركتين اللتين ظهرتا في الهند وفي الجزيرة العربية كانت الدعوة الى الاصلاح تصدر عن الاحساس بان طوابع الفكر الاسلامي قد بهتت واصبحت في حاجة الى الانصقال .

***

ويمكن القول ان دعاة الاصلاح في الهند ممثلين في السرهندي ١٦٣٤ م - ١٠٣٤ هـ . والدهلومي ١٧٦٢ م - ١١٧٦ هـ قد سبقوا دعوة التوحيد التي حمل لواءها الامام محمد عبد الوهاب في قلب الجزيرة العربية . غير ان نجم دعوة التوحيد ما كاد يبزغ ، وصوتها يعلو من حول الكعبة حتى هزت العالم الاسلامي كله واصبحت مصدراً لكل ما تلاها من حركات اياً كان نوعها ومصدرها ، سواء الفكرية الخالصة منها او السياسة او الوطنية . وذلك تصحيح في مفاهيم الاسلام ولا غرابة في ذلك. فقد كان الاسلام ولا يزال جامعاً متكاملا بين السياسة والاجتماع والوطنية والثقافية والتربية . فكل الحركات في أي وحدة من هذه الوحدات ، انما تتصل بالكل وتؤثر فيها .

والواقع ان حركة « السرهندي » انما كانت محلية أساساً ، وكانت تهدف الى اصلاح اداة الحكم ، ونظام المجتمع في الهند بعد ان اوغل في الانحراف بدعوة « أكبر » الى توحيد الاديان رغبة في تأكيد نفوذه . وهو في تقدير كثير من الباحثين مجدد الألف الثاني (٩٧٧ - ١٠٣٤) وقد رأى ما صارت اليه الدعوة الاسلامية من انحطاط وتقهقر بسبب اهتمام الحكام المسلمين بتوطيد نفوذهم ، وكان جهاده أساساً ينصب على مناصحة الأمراء والحكام ، ومحاربة البدع والمنكرات ، والعقائد الفاسدة ، والمجاهدة في الكشف عن بدع واباطيل العلماء وتحرير ما ابتدعوه ونسبوه الى الاسلام ، ومهاجمة الصوفية الذين تأثروا

بفلسفه البراهمة والاقطار الاخرى غير الاسلامية . وقد رفض فكرة وحدة الوجود والحلول والاتحاد . ودعا الى التصوف الاسلامي الخالص المستمر من المنابع القرآنية .

ظل السرهندي يقاوم دعوة الامبراطور اكبر الى ما أسماه الدين الالهي المبني على تلفيقات من الاسلام والهندوكية . وقد قاوم السرهندي واستطاع في خلال حكم ابنه (جهابكير) ١٠١٤ هـ ـ ١٦٠٥ م . ان ينجح اذ وجد رأيه ثقيلا قوياً لدى الحاكم ، فألغى الكثير من البدع وفي مقدمتها الأمر بالسجود أمام الملك ، وايجاد التقويم الهجري بعد ان حل محله التقويم الالهي الذي يبدأ تاريخه بجلوس الامبراطور اكبر . ويعد « السرهندي » نقطة تحول في تاريخ الاسلام في الهند في العصر الحديث وارهاصاً بحركات الاصلاح المتعددة التي جاءت بعده .

***

أما « الدهلوي » فقد جاء بعده بقرن كامل . كان دوره أشد خطراً وعمقاً ، وكان أثره الفكري أبعد مدى من أثره الاجتماعي فقد « أصّل » الفكر الاسلامي وواجه به مجدّداً تحديات المرحلة الحاسمة التي كانت تمر بها الهند ، وهي في طريقها الى السيطرة البريطانية .

كان عمله الأكبر هو تصحيح مفهوم التوحيد الاسلامي ، والدعوة الى الاتصال المباشر بالكتاب والسنة ، ونشر علم الحديث ، وبيان أساليب الاسلام وأسسه في تنظيم الحياة والمجتمع ، وهو معدود في الفكر الاسلامي والثقافة الاسلامية الهندية من طراز حجة الاسلام الغزالي وشيخ الاسلام ابن تيمية .

ويمكن القول بأن « السرهندي » والدهلوي هما حلقتان من حلقات المجددين المصلحين الذين تابعوا العمل على نفس المنهج الذي رسمه ابن تيمية ، والذي توالى متابعوه والعاملون به جيلاً بعد جيل ، وان لم يسمع صوتهم الخافت خلال مرحلة الضعف والتخلف البالغة .

(١)

دعوة التوحيد

أما دعوة محمد بن عبد الوهاب التي أعلنها في قلب الجزيرة العربية ، فقد كان أبرز عوامل نجاحها وقوتها أنها ظهرت في منطقة بعيدة عن التحديات الخطيرة التي واجهها العالم الاسلامي كله من خلال النفوذ الأجنبي الزاحف . وهذا ما أعطاها قوتها ، ومكن واتاح لها فرصة البقاء والتأثير ، كما زاد من قوتها وأثرها أنها انبعثت في مكان الدعوة الاسلامية ، وأنها استهدفت كل المسلمين القادمين من مختلف انحاء العالم قاصدين بيت الله الحرام . ومن هنا وجدت من الملتفين حولها قوة اذاعتها ونقلتها الى مختلف انحاء الاسلامي .

ولم تكن حركة محمد بن عبد الوهاب كما حاول أن يصورها خصومه دعوة « دينية » من حيث انها حملت لواء التوحيد . بل كانت دعوة اسلامية كاملة ، ولم يكن التوحيد منها الا أقوى علامات المقاومة للاستعمار والاستبداد والنفوذ الأجنبي بحسبان أن الاسلام دعوة خالصة لا تقر بالعبودية الا لله وحده . وهذا عامل قوتها الذي أزعج النفوذ الاجنبي الحريص على ان يظل عالم الاسلام غارقاً في مفهوم منحرف عن الاسلام سيطر عليه خلال فترة الضعف عن طريق جبرية التصوف . كان طابعه التواكل وتقبل نفوذ السلطان الظالم .

فكانت هذه الصيحة الى التوحيد من قلب الجزيرة العربية . انما تمثل حركة مقاومة ضخمة في مواجهة زحف النفوذ الغربي . ولذلك فقد حرص الاستعمار على ان يئد الحركة التي تحولت الى دولة . وذلك بما حمل عليها من حملات ، وبما أوغر عليها الصدور لدى الدولة العثمانية التي كانت ترى فيه خطراً على نفوذها ، هنالك اصطلحت القوى على القصاء عليها حين عمدت الدولة العثمانية الى دفع محمد علي الى اعلان الحرب عليها . فلما انتهى

محمد علي من اسقاطها ، استدار خصوم حركات اليقظة سياسية كانت ام فكريه الى حركةِ محمد علي نفسها فقضوا عليها . ولم تكن ثمرة ذلك لمصلحة الدولة العثمانية يقدر ما كانت لمصلحة النفوذ الاجنبي الزاحف .

غير انه اذا كان قد قضى على الدولة التي اقامت حركة التوحيد . فان الحركة نفسها لم تمت . بل قد وسعت مداها ، واوقدت شعلة قوية في كل اعماق دعوة للاصلاح . وقد تأثر بها دعاة السلفية في الهند والعراق والشام ومصر والمغرب جميعاً . وكان من تلاميذها الالوسي الكبير في بغداد ، والافغاني ومحمد عبده في مصر ، وجمال الدين القاسمي في الشام ، وخير الدين في تونس ، وصديق حسن خان في بهوبال بالهند .

ومزية دعوة التوحيد التي الهمتها الى كل الحركات والدعوات والمصلحين الذين تابعوها هي فهم الاسلام فهماً متكاملا قائماً على انه دين ونظام مجتمع ومنهج حياة . فقد قامت هذه الدعوة « دينية سياسية »[1] . لان الاسلام دين وقانون واجتماع في نظام موحد . ومن العسير فصل هذه العناصر بعضها عن بعض .

والمعروف ان دول النفوذ الغربي وفي مقدمتها بريطانيا قد قاومت هذه الدعوة لاسباب عدة اهمها انها كانت لا تريد ان يسمع في هذه المنطقة صوت يقظة حتى يتم تمزيقها وسلخها من الدولة العثمانية ، وادخالها في مناطق نفوذها . وكانت منطقة الخليج العربي في هذه الفترة هي اخطر هذه المناطق التي تطمع فيها بريطانيا . ومن هنا فقد قاومت هذه الدعوة ، وحملت عليها حملات مختلفة حاولت ان تصورها خارجة عن الاسلام التقليدي الذي تمثله الدولة العثمانية .

وزاد من كراهية بريطانيا لدعوة التوحيد ان قوماً من الهنود التمسوها سلاحاً لمقاومة بريطانيا في مقدمتهم الأمام احمد بن عرفان الهندي ، بدأ دعوته في الهند ١٨٢٠ م ـ ١٢٣١ هـ . فدعا الناس الى التوحيد الخالص ، واتباع السنة

---

١ ـ محمد رفعت : التوجيه السياسي للفكرة العربية .

وحارب البدع محاربة سافرة ، وأنشأ مع أعوانه دولة في بشاود ، طبّق فيها نظام الاسلام ، وجمع بين العبادة والجهاد ، وكان عمله ارهاصاً بالثورة التي قادها المسلمون عام ١٨٥٧ .

وقد عمد النفوذ الاجنبي الى خلق الازدراء بدعوة التوحيد في مصر وفي الهند ، وبلاد الدولة العثمانية . واغضى عن اسمها الحقيقي ، واطلق عليها اسم الوهابية ، واشاع هذه التسمية وادخلها معاجمه الحديثة . وقد أخطأ عمداً حين وصفها بأنها مذهب جديد في الاسلام .

وقد قاومت الدولة العثمانية دعوة التوحيد في مكة والمدينة ، فلما اجتاحت قوات الوهابيين هاتين المدينتين عام ١٨٥٣ واجهت الدولة العثمانية موقفاً صعباً لم تتمكن من اصلاحه الا بعد وقت طويل . فان المدينتين لم تعودا مرة اخرى الى نفوذ الدولة العثمانية الا عام ١٨٧٠ تقريباً .

وقد اكدت « دعوة التوحيد » بما كتبه الامام محمد بن عبد الوهاب ضرورة التماس مفهوم الاسلام أساساً من القرآن . « وان وسيلة الاصلاح والنهضة لن تتحقق الا بحملة ضخمة قوامها القوة ، والاقناع معاً على البدع والمفاسد التي دخلت الاسلام ظلماً ، والعودة الى نقاوته الأولى ، وعدم الاعتراف بما تركه المفسدون مما يتعارض مع اصول الاسلام في بساطته وسماحته وترك الطقوس وانواع الاحتفالات والبدع الخاصة بتقديس الأولياء وقصر العبادة على توحيد الله وحده وفق ما دعا اليه الرسول واتبعه ووفق تعاليم القرآن » .

ولا شك ان صدق عبد الوهاب وعمق ايمانه وصلابته كانت كلها عوامل اساسية في النتائج التي حققتها الدعوة . فقد عاش عمراً مديداً قضى اكثر من خمسين عاماً في قلب الحركة التي قام بها عام ١٧٤٠ والتي ظل يواليها حتى توفي عام ١٧٩٢ . أضف الى ذلك تقبل الامير سعود لها مما دفعها الى مجال القوة والسلطان حيث اصبحت اسلوباً تطبيقياً للمجتمع ، مما اعطاها حيوية وانطلاقاً وخلق لها جذوراً ثابتة .

وقد كانت في تقدير المؤ رخين والمفكرين بحق نقطة انطلاق الامة العربية وتسلمها لقيادة الحركة الفكرية الاسلامية في العصر الحديث ، وايذاناً بانتهاء

دور الدولة العثمانية التي شاخت وضعفت . وكان من ابرز معطياتها عملان كبيران : أنها فتحت باب الاجتهاد في الفروع بعد ان ظل مغلقاً منذ سقوط بغداد ٦٥٦ هـ وضرورة القيام بواجب الجهاد واحياء هذه الفريضة التي اصابها الوهن ، وانها ـ الى ذلك ـ كانت ثورة بدوية عارمة على الاستبداد والضعف والانحلال الذي آل اليه حال العالم الاسلامي ، وكانت كذلك اول حركة تحريرية عربية اسلامية .

وقد حملت الدعوة في عنف على الوجه الاسلامي التقليدي القائم ، وعلى علماء المسلمين التقليديين الذين كانوا يسيرون في ركب الامراء والولاة ، وهزت قوائم مراكزهم ونفوذهم . ومن هنا واجهت خصومة « الاسلام الرسمي » الذي تصدى رجاله لها وحصلوا على تشويه مبادئها بحسبانها عاملا هادماً لوجودهم .

ومن حق ان الوهابيين كانوا غاية في القسوة والعنف ، وتلك طبيعة الدعوات في مواجهة التخلف والضعف ، فقد أعلنوا سخطهم على كل الطوائف الاسلامية الحضرية التي استلسمت للترف ، بل انهم ذهبوا الى ابعد من ذلك في محاولتهم مهاجمة حدود الدولة العثمانية ، التي اغراها النفوذ الاستعماري ومطامع محمد علي ـ على ان تضرب به هذه الحركة الوليدة ، والاستعمار قادر على ان يقوي الخلاف بين القوتين الشابتين : الفكرية في نجد ، والسياسية في مصر ، ولو انهما التقيا لتغير وجه التاريخ .

ومن حق ان الدعوة الوهابية لم تجد أمامها من الوقت ما يهيئها لتنمو ولتتصل بروح العصر وتستخدم اسلحته واساليبه ، حتى تستطيع ان تواجه خصومها ، ولم تكن قوة الفكر وحدها قادرة على العمل ، وقد كان الاستعمار وراء القضاء على هذه الحركة قبل القضاء على حركة محمد علي في مصر ، بحسبان انها حركة ايديولوجية فكرية عميقة الجذور متصلة بالاسلام نفسه الذي كان ولا يزال هو الخطر الاول المستيقظ في مواجهة الغزو الغربي المتطلع الى السيطرة على المنطقة كلها .

ومن هنا جاز للكاتب : لوثروب استوارد ان يقول : ان الوهابية لم تفو على

الوقوف في وجه البنادق والمدافع الاوروبية . ومن حق ان يقال ان محمد علي لم يستطع القضاء على الدعوة الوهابية قبل ١٨١٨ . وكان قد بدأها ١٨١١ . فقد صمدت أمامه صموداً عجيباً بالرغم من اسلحته ، ولولا ان محمد علي استعمل الرشوة الى بعض قبائل العرب ، واغراها بالمال ليستعين بها على الوهابيين لما استطاع تصفية هذه الحركة . (راجع الجبرتي) غير ان دعوة التوحيد التي قادها محمد بن عبد الوهاب قد سجلت أمراً خطيراً وبعيد الاثر في حركة اليقظة المعاصرة كلها . ذلك انها ايقظت عالم الاسلام والامة العربية قبل قدوم نابليون باكثر من ستين عاماً ، وهدته الى وسائل النهضة واسبابها .

وقد استطاع النفوذ الاستعماري الزاحف ، التي اعد خطة القضاء على الدولة العثمانية ، وتمزيق أواصرها ، والسيطرة عليها ، ان يقضي على مختلف الحركات الاصلاحية التي قامت في هذه الفترة . سواء ذات الطابع الاسلامي منها او العسكري او السياسي : كحركة السلطان محمود في تركيا او محمد علي في مصر .

وكان التركيز على الحركة الوهابية اشد . فقد احس الاستعمار انها تمثل مفهوم الاسلام في اليقظة والمقاومة والعودة الى عوامل القوة ، وكان الوهابيون قد وضعوا أمامهم خطاً أساسياً هو الدفاع عن حوزة الاسلام ضد الخطر الأوربي بعد أن حسبوا مدى الوهن والتراخي الذي طرأ على الوحدة الاسلامية العثمانية في الآستانة وانحلال الدول .

واذا كانت الدولة التي أقامتها الحركة الوهابية قد انتهت عام ١٨١١ . فقد تركت آثارها القوية التي انتشرت في أنحاء العالم على حد تعبير لوثروب ستوارت « لقد ظل الوهابيون يبثون روح الحركة في مئات الألوف من الحجاج الوافدين كل عام الى مكة والمدينة . واستطاع الوهابيون ان يبذروا بذوراً تلاها الاختمار الشديد للثورة الدينية في كل فج اسلامي حتى وصلت دعوتهم الى أقصى المعمورة .

وقد اتصلت الدعوة بالهند وافغانستان ، وكان من ثمارها « محمد بن علي السنوسي » الذي تلقاها في مكة ، وأنشأ طريقة مهدت للجامعة الاسلامية ،

وبالجملة فان دعوة التوحيد كانت صيحة التوحيد في مواجهة خطر سقوط العالم الاسلامي في براثن النفوذ الغربي ، ومن هنا جاز للكاتب لوثروب استوارت ان يعتبرها . وبحق مبدأ اليقظة حيث يقول : « استيقظت روح الاسلام في كل رقعة من رقاع العالم الاسلامي ، فهب اتباع محمد من مراكش الى الصين . ومن تركستان الى الكونغو ، هبوب العاصفة الزعزع لا يعرف مستقرها ، قدح الزناد في صحراء شبه الجزيرة ،ثم اخذ الشرر يتطاير الى كل جانب من جوانب العالم الاسلامي » .

***

وابرز المعالم الفكريّة لدعوة التوحيد :

(١) تحرير فكرة التوحيد من الاراء الدخيلة باسم وحدة الوجود ، وعندهم ان الوحدانية التي تكون العنصر الاساسي هي الوحدانية التي تترتب على سلوك الموحد وهو ما يسمونه بوحدانية الربوبية . اي ان المؤمن لا يكون موحداً الا اذا قصر عبادته على كائن واحد .

(٢) ـ ضرورة عودة الفقهاء والقضاة الى المصادر الاصيلة رأساً ، وهي القرآن والحديث ، واجماع المسلمين على حكم معين الى آخر القرن الثالث الهجري . ويترتب على هذا فتح باب الاجتهاد في الفروع . وقد أولى الوهابيون هذا الحق اهتماماً كبيراً .

(٣) ـ دعوتهم الى عدم التقيد بمذهب معين من المذاهب الاربعة ، وانما يجوز لكل قاض ان يأخذ من اي مذهب بما يرى أنه أقرب الى الصواب ، ولا يباح التقليد الا عند العجز من الرجوع الى هذه النصوص .

(٤) ـ انكار التحدث في مسائل الخلاف التقليدية ، والتي كانت مصدر الفرقة بين المذاهب الاسلامية المختلة كمسألة الذات والصفات والجبر والاختيار .

(٥) ـ ضرورة قيام امام للامة الاسلامية ، والامامة عندهم غير الخلافة ، فهي لا تتضمن صفة العموم بالنسبة للعالم الاسلامي ، والخلافة في رأي الوهابية لم تدم أكثر من ثلاثين سنة . ثم تحولت الى ملك . ومنذ ذلك التاريخ

يمكن الاعتراف بعدة أئمة في وقت واحد، ولا يشترط في الامام النسب القرشي .
والامام ضرورة جماعية للمحافظة على مصالح الجماعة الاسلامية[1] .

---

١ - بتوسع وتصرف عن بحث للدكتور صلاح العقاد .

(٢)

الدعوة « السنوسية »

أولى الحركات التي انبعثت من دعوة التوحيد هي : السنوسية وهي حركة ودعوة وطريقة قد صيغت على جامع محرر لمفهوم الاسلام المتكامل بين : التصوف ، والفقه ، والعقيدة . وهي ذات صلة بالنسب مع مفاهيم دعوة التوحيد . وهي في نفس الوقت تشكيل اجتماعي تربوي على نمط الصوفية ودعوات الفتوة والجهاد متحرراً من الأخطاء والانحرافات التي وقع فيها بعض الصوفية .

وإذا كانت دعوة التوحيد قد استطاعت ان تقيم دولة . فإن الحركة السنوسية قد استطاعت أن تكون جيلا قادراً على أن ينشر الاسلام في أنحاء أفريقيا ويشكل في نفس الوقت كتائب الجهاد في سبيل الله ، والانماء الاقتصادي والاجتماعي أيضاً .

وإذا كانت حركة التوحيد التي قادها محمد بن عبد الوهاب قد انبعثت من تخلف الدولة العثمانية وتحولها عن المفهوم الصحيح للاسلام وهي قائدته . فإن دعوة محمد بن علي السنوسي كانت رد فعل للتحدي الضخم الذي واجه العالم الاسلامي باحتلال الجزائر في معركة غير متكافئة ظلت تقاوم ستة عشر عاماً ، ثم سقطت بين براثن الاستعمار الفرنسي .

كان محمد بن علي السنوسي في خلال هذه الفترة ينظر إلى موجة جديدة من الحروب الصليبية قد بدأت بالجزائر ، وستمضي في طريقها ، فلا يقف أمامها شيء ، لذلك كانت فكرته ترمي إلى عمل جامع من اعمال المقاومة والمواجهة لهذا الغزو الغربي الزاحف . وكان تطلعه وكانت دراسته تحاول أن توجد عملا

جماعيا كاملاً ، تشترك فيه الأمة الاسلامية جميعاً ، ولعل عبارته التي لخص بها موقفه تصور اتجاهه واضحا يقول :

« أفكر في العالم الاسلامي ، فبالرغم من سلاطينه وأمرائه ورؤسائه وعلمائه ، فهم لا يزيدون عن أن يكونوا كقطيع من الغنم الذي لا راعي له ، في كل محل من محلات الاسلام تجد المسلمين وعلماء الدين ؛ ولكنك لا تجد في العالم الاسلامي مرشداً حقيقياً تكون غايته سوق الجميع إلى هدف واحد . إن ديننا الحنيف دين توحيد أسس على الاتحاد ، ولكن الخلاف والتفريق قد سادا جميع النواحي . لأن العلماء والمشايخ ليست لهم غيرة دينية حتى ينشروا العلوم والمعارف . انظروا إلى احوال السودان والصحراء تجدوا أفواجا من الشعوب يعبدون الأوثان ، ويوجد في كل مسجد من مساجد المعمورة جماعة من العلماء غير العاملين لا همّ لهم غير راحة أجسادهم ، حريصين على لذاتهم ، غير قائمين بواجباتهم لا ضمائر لهم تؤنبهم على اهمالهم إرشاد هؤلاء المساكين . وقد اتصل بنا خبر أحوال العالم الاسلامي من القوافل التي ترد إلى بلادنا ، اننا مغلوبون في كل محل ، وان المقاطعات والخطط المعمورة تذهب من أيدي المسلمين في كل وقت وبسرعة البرق . فالاسلام في حالة من التدهور المخيف وهو ما فكرت فيه ». ومن هذه النقطة كان انطلاقه إلى دعوته التي تضم خمسة أصول أساسية هي :

* العودة بالاسلام الى منابعه الأولى .
* توحيد المذاهب .
* فتح باب الاجتهاد .
* نشر الاسلام في البلاد التي ينتشر فيها .
* مقاومة النفوذ الأجنبي .

وقد بدأ عمله الجاد عام ١٨٤٢ في زاويته الأولى « البيضاء » بالجبل الأخضر حتى توفي ١٨٥٦ . وفي خلال سبعة عشر عاماً استطاع أن يحقق الكثير ، وأن يرسي أساس نظام تربوي مطبق فعلا لبناء الشخصية الاسلامية من خلال (الزاوية السنوسية) .

وتضم الزاوية السنوسية مسجداً ومدرسة لتحفيظ القرآن الكريم ومعهداً

لتدريس العلوم الاسلامية ، ومساكن للطلاب الغرباء ، ومكتبة علمية ، وقد ضمت زاوية جغبوب حوالي ثمانية آلاف مجلد في الفقه الاسلامي والتاريخ ، وتفسير القرآن الكريم والأدب .

وتقام الزاوية عادة بجوار الابار، أو على الأطلال التي خلفها الرومان في الصحراء الغربية ، أوفي مواضع الزراعة ، أو المواقع الاستراتيجية ، أو تقاطع الطرق وملتقى القوافل ، او على حدود مصر او تونس أو الجزائر او السودان . والمعروف أن هذه الزوايا تحولت عام ١٩١١ عندما بدأ الغزو الايطالي إلى مراكز للمقاومة التي استمرت حتى عام ١٩٢٨ .

وتبدو الحركة السنوسية منفردة بتنظيم جديد يختلف عن حركة التوحيد ، فقد قامت على التربية اساسا ، ولم تلجأ الى العمل السياسي الا بعد وقت طويل . وقد جمعت بين منهج حركة التوحيد وبين منهج الحركة الصوفية ، ومزجت بينهما في دقة ومرونة ، حيث حققت لأول مرة في العصر الحديث محاولة بناء الشخصية الاسلامية عن طريق التربية الاسلامية تأخذ من الفقه ما يثير العقول ، ومن التصوف ما يصلح النفوس . ومن هنا كان خطرها على حركة التبشير التي انطلقت بعد احتلال الجزائر في قلب أفريقيا . فقد استطاعت ان تنشر وتقود حركة للدعوة الاسلامية في مختلف أنحاء القارة . وبواسطة السنوسية صارت نواحي بحيرة تشاد مركزاً للاسلام في أواسط أفريقيا ، ثم امتد عملهم حتى بلغ النيجر الأدنى .

وقد عمدت السنوسية الى تولي عدد كبير من الأرقاء وتربيتهم في جغبوب وغدامس ، وغيرها حتى إذا ابلغوا أشدهم وأكملوا تحصيل العلم أعتقوهم وسرحوهم إلى أطراف السودان يهدون أبناء بلدتهم الى الاسلام . وهكذا يرحلون كل عام مئات من مبشري السنوسية لبث دعاية الاسلام في جميع أفريقية الداخلية من سواحل الصومال شرقاً الى سواحل السينغال غرباً .

ومن هنا فقد تعددت الزوايا واتسع نطاقها وامتدت من شمال أفريقيا إلى أقصى أقاصي السودان ، وتأسست ممالك اسلامية مثل سلطنات رابح وأحمد وساموري .

وقد ظلت قوى النفوذ الغربي ترقب بحذر بالغ خطوات نمو الحركة السنوسية وزواياها . وكان كتّاب أوربا الاستعماريين يحذرون منها ومن خطرها . ومن ذلك ما كتبه الكابتن دانري من رجال الجيش البريطاني في أوائل القرن التاسع عشر ، يحذر من ظهور زعيم اسلامي تتوحد تحت لوائه قبائل الطوارق ، وعشائر العرب والبربر . ويقول إنه « إذا استفحل أمره عزت نجد قواته فسارت وصار العالم الاسلامي يداً واحدة ، وزحف على أوربا فاكتسحها حتى تحاصر جيوش المسلمين باريس . . ».

ومن هنا فقد مضت أوربا تؤلب الدولة العثمانيةعلى هذه الحركة كما فعلت بالنسبة للحركة الوهابية ، وتغري بها مؤكدة للأستانة بأن خطرها على السلطنة العثمانية قريب ، غير ان محمد بن علي السنوسي استطاع بحرصه وذكائه ان ينال ثقة الدولة العثمانية ، ومضى يعمل في حيطة وصمت داخل أفريقيا . بعيداً عن اسلوب الثورة أو التدخل مع حيدة تامّة بالنسبة للخليفة العثماني . وقد رفض أي تدخل مع ألمانيا أو ايطاليا أو تركيا ، أو مع عرابي أو المهدي جميعاً . وكانت ألمانيا قد طلبت من السنوسية مساعدتها ضد فرنسا في أفزيقيا ، كما طلبت تركيا منها مساعدتها ضد روسيا . وكذلك طلبت ايطاليا مساعدتها ضد تقدم فرنسا في تونس . ولكن السنوسيين كانوا قد حددوا موقفهم في هذا الصدد ، وهو أن لا يدخلوا معارك من شأنها أن تكشف قوتهم ، أو توقع الخلاف بينهم وبين دولة الخلافة .

وكان عمل السنوسية في المقاومة للغزو الغربي لأفريقيا متكتماً مضمراً مع عمل مكشوف في نشر الاسلام ، ويسجل ذلك مسيو ردوفريرجن يقول : ان السنوسية هي المسؤولة عن جميع أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر . وان السنوسية هي المدبرة لجميع نكبات فرنسا في الشمال الأفريقي وفي السنغال . وانها أيدت ثورة محمد بن عبد الله في تلمسان وصحراء الجزائر ١٨٤٨ ـ ١٨٦١ . وثورة الصادق بجبال الأوراس ١٨٧٩ وثورات أولاد سيدي الشيخ ١٨٧٩ ـ ١٨٨١ .

ويضيف قوله : ان السنوسية هي أخطر أعداء نفوذنا نحن الفرنسيين في شمال

أفريقيا وفي السنغال . والعقبة في سبيل توسعنا الاقتصادي والسياسي داخل أفريقيا . وهي عائق في طريق أهدافنا في القارة الواقعة شمال خط الاستواء . ولا شك أن السنوسية بهذه الصورة تختلف كثيرا عن الحركات الصوفية الحديثة : التيجانية والشاذلية والادريسية والقادرية ، حيث جمعت بين عمليتين أساسيتين هما : نشر الاسلام (وهو ما حاولته الطرق الصوفية) ومقاومة النفوذ الاجنبي بالقوة المسلحة ، وبناء مواقع المقاومة الاجتماعية والعسكرية .

واتصل بذلك عملها فى سبيل اقامة وحدة إسلامية كبرى . وغاية القول إن السنوسية ليست طريقة صوفية . بل هي حركة اسلامية كاملة . وقد نمت الدعوة السنوسية بعد وفاة الأمام محمد علي وازداد عدد مواقعها فى عهد محمد المهدي إلى ثلثمائة زاوية ، وأصبحت السنوسية قوة اجتماعية وفكرية فى كل مكان . وعندما ولي أحمد الشريف السنوسي امر الدعوة ١٩٠٢ دخلت الحركة في دور جديد أشد قوة . غير أن الغزو الايطالي الذى وجهته ايطاليا إلى طرابلس ١٩١١ حول الدعوة كلها إلى مقاومة عسكرية مسلحة ، قد دام نضال السنوسية بقيادة الشريف حتى نهاية الحرب العالمية الأولى . وقد ظلت الصحراء تحت حكم السنوسيين خلال مائة سنة لم يتمكن الاستعمار خلالها من السيطرة إلا على السواحل فقط .

***

وهذا القول إن الحركة السنوسية كانت دعوة اسلامية جامعة ، هدفها النهوض بالمسلمين في مواجهة الغزو الغربي . ولذلك فقد أخذت بالأسباب على اتساع وشمول .

من حيث (١)التربية . (٢) بناء شخصية المسلم ، وبناء المجتمع الاسلامي . (٣) مقاومة العدو . (٤) الاجتهاد وتنقية الاسلام مما علق به من أوهام .

وقد أقام احد الباحثين المقارنة بين الوهابية والسنوسية فقال : إن الوهابية اصلاح ديني وانابة الى عقيدة السلف . أما السنوسية فهي طريقة عمل بالسنة

والشريعة . وكما واجهت بريطانيا خطر الدعوة الوهابية في كل مكان حتى في الهند . كذلك واجهت فرنسا واخطار الدعوة السنوسية في قلب أفـريقيا . إذ كانت مصدراً لكل أعمال المقاومة في مختلف الأقطار التي عمدت فرنسا إلى احتلالها .

ويقول جيمس هاملتون في كتابه جولات في شمال أفريقيا الصادر عام ١٨٥٦ إنه عندما أرادت فرنسا التوغل في داخل أفريقيا عبر الصحراء اصطدمت بمقاومة عنيدة ، تولى تنظيمها وقيادتها أتباع السنوسية ، وأشار الى أن الكتب الفرنسية التي تناولت التوسع الفرنسي عبر الصحراء قد اعطت الجزء الأكبر للكلام على المقاومة التي وجدتها القوات الفرنسية من أتباع الدعوة السنوسية هناك . وقد بلغ من اهتمام فرنسا بالدعوة السنوسية ان خصصت وزارة الخارجية الفرنسية أرشيفا خاصا بها . وأشار لوريس رين باهتمام كبير إلى المقاومة الصلبة التي اتخذتها السنوسية والطوارق امراء الصحراء اتجاه التوسع الفرنسي .

والمعروف أن السيد محمد بن علي السنوسي قد حرص اساساً على اقامة وحدة اسلامية في أفريقيا داخل نطاق وحدة اسلامية كبـرى . ولمـا كان هذا مقصداً أسـاسيا له . فقـد مهـد له بالمـزج بين المذاهـب السـنية الموروثـة (المذاهب الأربعة) بما صح وكمل من أقوالها ، ثم أضاف اليه ما استنبطه من السنة والمذاهب التي لم يعد هناك اتباع لهـا . واستطـاع أن يجعـل من هذا المزيج الدقيق مذهبا واحداً هو : مرآة المذاهب الأربعة وزبدتها .

* * *

وعمله في هذا المجال الاجتهادي بارز واضح . فقد دعا إلى تحرير الفكر الاسلامي من التقليد الأعمى والتسليم العاجز ، وتطهير السنة المحمـدية من الأقوال المشبوهة والأساطير الموروثة والصوفية المنحرفة الزاعمة بأن الاسلام ليس من شأنه الدنيا ، وان المسلم ليس من شأنه المادة ، وخلص التصوف من الشطح والغلو والتواكل المميت لشخصية المسلم والدافع له علـى الاعتمـاد على غيره في رزقه .

وقد حارب دعوى الاتحاد والحلول . ووحدة الوجود ، كما دعا إلى فتح باب الاجتهاد للقادرين عليه وارجاع الأقوال كلها إلى مصدرها الاصيل من الكتاب والسنة ، وجاهر بالعداء للتقليد المطلق ، وطالب العامي ان يسأل المفتي عن دليله ، الذي استند اليه في فتواه وحكمه ، فإذا اخبره بالدليل اقتنع والا تركه الى غيره ممن هو أقدر منه الى الاتيان بالدليل ، وهذا عنده هو اجتهاد العامي ، ويرى أن الاجتهاد ضرورة عقلية ، لأن فتح باب الاجتهاد يجعل لدى المسلم حيوية وتمسكا بالاسلام ، حيث يجد الحلول المناسبة للمشاكل التي تتجدد في كل زمان .

وقد استفاد الامام السنوسي من مختلف الدعوات التي سبقته وتجنب المآخذ التي اخذت عليها ، واهتم بالتربية العملية ، والتطبيق العلمي للاسلام .

ويمكن القول بأن الحركة السنوسية كانت مدرسة نموذجية لتجديد الاسلام ، جامعة بين الحركتين السائدتين : حركة التوحيد وحركة الصوفية .

(٣)

الدعوة « المهدية »

وفي السودان برزت الحركة الثالثة من الحركات الاسلامية التي اخذت طابع العمل السياسي والاجتماعي معاً ، حين أعلن « محمد أحمد » حركة الجهاد ضد النفوذ الاجنبي وتحرير مفهوم الاسلام من البدع والخرافات معاً . وقد قامت حركته على الجهاد واستشرقت انشاء مجتمع إسلامي وحكومة اسلامية عادلة ، تقوم على أساس مفهوم الاسلام . وقد استطاعت هذه الحركة أن تواجه الحملات التي شنتها بريطانيا في ظل احتلال مصر ، وأن تسحق كل عمليات الغزو التي وجهت إليها .

واجهت هذه الدعوة كما واجهت دعوة التوحيد والحركة السنوسية مقاومة عاصفة من الاستعمار والنفوذ الاجنبي الزاحف ، ولكنها صمدت في وجهه ، وكبدته خسائر فادحة . واستطاعت ان تقاوم فترة طويلة .

وقد انتصرت المهدية في جميع المعارك التي قادها غردون وهكس وكرنكريف وستيوارت وبيكو وجراهام وولسلي . كما تطلع « محمد احمد » الى الزحف لانقاذ مصر من النفوذ الانجليزي بعد فشل الثورة العرابية ، ووجد تأييداً من جمال الدين ومحمد عبده .

وقد قامت دعوته على نظرية كاملة ضمنها مناشيره وبياناته المتعددة « أمرنا هذا مبنى على هدى من الله ونور من رسول الله ، ومقصدنا احياء الدين واظهار اثار الأنبياء والمرسلين ، ولا نريد مع هذا ملكا ولا جاهاً ولا مالاً ، ان مذهبنا هو : الكتاب والسنة والتوكل على الله وقد طرحت العمل بالمذاهب ورأي المشايخ » .

وقد نجحت الحركة المهدية في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية . اذ حملت لواء المفاهيم الاسلامية المتحررة من سلبية التصوف وجمود الفقه وجبرية الزهادة ، واتسمت بإيجابية واضحة في مختلف المجالات .

فقد عمد « محمد أحمد » المهدي الى إيقاف العمل بالمذاهب المختلفة ، وأذاب جميع الفرق الصوفية بكل طوائفها في طريقة واحدة . وكانت حجته في ذلك ضرورة الرجوع مباشرة إلى الكتاب والسنة دون شروح معقدة ، واستهدف الغاء الخلافات المذهبية بين الناس في أمور العبادات ، وتوجيه أنظارهم الى الوحدة الفكرية ، ورفض عملية الانعزال في الخلوات مع الأوراد والأذكار . هذا مع الدعوة إلى الجهاد والقوة حماية للحق والعدل ، والسيف لحماية الحق . ولذلك فقد تحدث طويلاً عن آداب الفروسية والفتوة في زمان الحرب والسلم . واعلن أن مقام الصبر عند البلاء أقوى من مقام الشكر على النعماء . وقد مزج بين الصوفية ومفاهيم التوحيد مزجا رائعا ، وأعطى مفاهيم القلب والروح قوة على دفع الانسان للعمل . كما نفذ تعاليم الاسلام في القصاص والسرقة والزنا والحدود الشرعية ، وأبطل زيارة القبور والأضرحة .

***

وقد استطاع النفوذ الاستعماري ان يوجه الى الدعوة المهدية عن طريق علماء الدين الرسميين كثيراً من النقد والمعارضة ، وتحذير الناس منه رغبة في زلزلة ثقة انصاره به . ولكنه صمد ووالى دعوته وتأكد صدقه وسلامة مقصده .

ومن حق أن « محمد أحمد المهدي » قد حرر الفكر الاسلامي السوداني من طابع الصوفية المغرق في الجبرية ، واتجه إلى منابع الثقافة الاسلامية العربية الأصيلة وفق نفس المنهج الذي سارت عليه دعوة التوحيد والسنوسية ، وهو تأكيد العمل بالكتاب والسنة ، وتحرير الفقه من روح الخلافات ، ومن ثم ظهر « أدب عربي إسلامي » له طابع أكثر ايجابية ، بعيدا عن أسلوب السجع والزركشة ، وكانت أقوى اعماله توحيد المذاهب الأربعة في مذهب واحد باختيار الأصلح من كل منها معتمداً على الكتاب والسنة ، رافضاً لكل الخلافات التي فرقت الناس ، وقال « إن هؤلاء الأئمة رجال ونحن رجال ، ولو

أنهم أدركونا لاتبعونا . ولذلك قد طرحت بالمذاهب ورأي المشايخ » .

وفي مجال المجتمع عمد إلى تحريره من التقاليد المعارضة للاسلام ، فحرم الاحتفال بالأعراس احتفالا يدعو إلى السرف ، ومنع شرب الخمر ، وخفض مهر الزواج ، وأبدل ولائم الأعراس بطعام من التمر واللبن ، وأبطل الرقص واللعب ، ودعا إلى القصد في الزخرف . فأبطل الألقاب ، وساوى بين الغني والفقير في مواقف المحاكمة والحق ، وفرض على أتباعه لباساً خاصاً يمتازون به ، ولقي عمله تقبلا كبيراً ، حتى قال أحد المؤرخين : ان المهدي هو الرجل الوحيد الذي يدين له السودان باسترجاع حريته واستقلاله .

وكانت حركة المهدية واحدة من سلسلة حركات الجهاد ضد الاستعمار والنفوذ الأجنبي من مختلف بلاد العالم الاسلامي ، وامتداداً للمبادىء الأساسية للاسلام التي كانت دوماً مصدر المقاومة ، وسبيلا لرفض كل نفوذ أجنبي ، ورفع راية الجهاد في سبيل مقاومة الغاصب . ومن هنا حاول النفوذ الاستعماري تشويه الوهابية والسنوسية والمهدية ، وعمد إلى القضاء عليها جميعاً ، وظل يهدد دوماً بخطر ظهور حركات مثلها تقوم على أساس مفهوم الاسلام في الحكم ، وتعلن الجهاد في وجه الغاصب ، وكان لهذه الحركات الثلاث أثرها في خطط الاستعمار ، فقد عمد إلى فصل الدين عن السياسة والمجتمع في مختلف الأقطار التي احتلها ، كما عمل أتباعه من أصحاب الدعوات الهدامة إلى انكار الجهاد ، ومحاولة التقليل من شأنه .

وقد عمد النفوذ الانجليزي الى خطة ماكرة فيما يتصل بالمهدية ، فحيث حرض محمد علي للقضاء على « الوهابية » قضى هو على حركة محمد علي ، ثم قاد الانجليز جيشا مصريا على رأسه ضباط انجليز للقضاء على الحكومة التي كان يرأسها التعايشي بعد وفاة المهدي . وعمدوا إلى هدم وإزالة كل اثار هذه الحركة ، فقد دخلت بريطانيا السودان بقيادة كتشنز في سبتمبر ١٨٦٨ ونسف كتشنز قبة الامام المهدي ، ونبش قبره في بربرية وهمجية ، وبعثر جثمانه وبعث بجمجمته إلى البريطاني في لندن انتقاماً لمقتل غردون . وقضى على الدعوة المهدية كلية ، ولم يقبل عودتها الا بعد ذلك بوقت طويل . بعد أن كان قد سيطر سيطرة كاملة على مقدرات الأمور .

(٤)

الحركات الاصلاحية

بدأت دعوة التوحيد (محمد بن عبد الوهاب) ١٧٤٠م ـ ١٧٩٢ وامتدت من بعد دعوة ودولة .

وبدأت السنوسية (محمد بن علي السنوسي) ١٨٤٢ ـ ١٨٥٩ م وامتدت من بعد دعوة ودولة .

وبدأت المهدية (محمد أحمد المهدي) ١٨٨١ ـ ١٨٨٤ وامتدت الى سقوط السودان ١٨٩٨ .

وما تزال الدعوات الثلاث قائمة الى اليوم في صورة او اخرى . وما تزال تمثل الطليعة الاولى لحركة اليقظة التي اتخذت منهجاً آخر في العمل . ومن خلال هذه الدعوات قامت حركات المقاومة العسكرية في العالم الاسلامي في مواجهة الاستعمار وابرز هذه الحركات : ـ

* حركة الامير عبد القادر (١٨٣٠ ـ ١٨٤٦) .
* حركة احمد عرابي ـ ١٨٨٢ .
* حركة السنوسية ضد الغزو الايطالي ـ ١٩١١ .
* ثورة الهند ضد الانجليز ـ ١٨٥٢ .
* حركة المهدية ضد النفوذ الاجنبي ـ ١٨٨٤ .
* حركة الشيخ شامل في القوقاز .
* حركة عبد الكريم الخطابي في المغرب ـ ١٩٢٦ .

***

وقد برزت حركة اليقظة الاسلامية منذ القرن التاسع عشر في الهند

وأندونيسيا . والامة العربية ، وارتبط فيها تجديد الاسلام بحركة المقاومة للنفوذ الاجنبي .

***

وفي أوائل القرن التاسع عشر ظهرت في العالم الاسلامي حركات تستمر مفهومها اساساً من دعوة التوحيد وفي مقدمتها.دعوة « الشوكاني » في اليمن ، ودعوة « الألوسي » في بغداد ، وحركة احمد خان في الهند . وفي نفس الوقت كانت حركة التجديد الادبي والفكري تبدو بارزة بقيادة رفاعة رافع الطهطاوي وعلي مبارك في مصر ، وخير الدين في تونس ، وعاكف ونامق في تركيا .

غير ان بروز جمال الدين الافغاني ، ومحمد عبده في الحلقة السابقة من القرن التاسع عشر ، كان بعيد الأثر في حركة اليقظة حيث ظهر من بعد عدد كبير من تلاميذ هذه المدرسة في مختلف انحاء العالم الاسلامي ، وكان لظهور جريدة « العروة الوثقى » في باريس ١٨٨٤ ثم المنار في القاهرة ١٨٩٨ وانتشارها في مختلف الاقطار . وكانت تحركات جمال الدين بين الهند وفارس وافغانستان وبين فرنسا وروسيا واستانبول ، ثم وقوع الاحتلال البريطاني لمصر ، وتحركات محمد عبده بين الشام وباريس وتونس والجزائر . كل هذا كان من شأنه ان يخلق مدرسة جديدة اطلق عليها اسم « المدرسة السلفية »[١] .

وكان اكبر امتدادها الى الغرب الاقصى ، والى اندونيسيا والهند الاسلامية . وفي هذه الفترة ظهر في تونس المصلح خير الدين ، وكان له دوره في تجديد الفكر الاسلامي ، وقد وقع هذا في نفس الوقت الذي قام فيه دعاة الدستور في تركيا . وفي مقدمتهم : مدحت الذي صاغ الدستور التركي الذي اعلن في اوائل حكم السلطان عبد الحميد .

وفي اوائل هذا القرن ظهر في الشام علامة الشام طاهر الجزائري وزملاؤه وتلاميذه : القاسمي والبيطار وعبد القادر المغربي .

---

١ ـ حتى لا يكرر الكاتب نفسه قد تناول كتاب « يقظة الفكر العربي » هذا البحث بتوسع .

وفي الهند برز : ابو الكلام ازاد ، واميرعلي ، وشبلي النعماني ، ومحمد اقبال .

وفي المغرب برز : محمد بن العربي العلوي ، وابو شعيب الدكاتي ، وعبد الحميد بن باديس ، وعبد العزيز الثعالبي ، والطاهر بن عاشور .

وفي مصر ظهر : رشيد رضا ، وفريد وجدي ، ومصطفى المراغي ، ومحب الدين الخطيب .

(٤)

حركات جمال الدين ـ محمد عبده

تعد (حركة جمال الدين ـ محمد عبده) مرحلة جديدة على طريق اليقظة العربية الاسلامية ، لها طابعها ولها استجابتها للتحديات التي كانت قد ازدادت من خلال مواجهة العالم الاسلامي للنفوذ الاجنبي . ومع ذلك فقد كانت في كلتا مرحلتيها تختلف عن الاخرى . فمرحلة ما قبل الثورة العرابية ، والاحتلال البريطاني لمصر . ومرحلة ما بعد ذلك .

وابرز ملامح حركة جمال الدين هي : الدعوة الى الجامعة الاسلامية . اما عمل عبده بعد انفصاله عن جمال الدين عام ١٨٨٥ تقريباً . فقد كانت دعوته الى العلم والتربية كأسلوب اساسي في مقاومة النفوذ الاجنبي .

وقد كانت الجامعة الاسلامية التي دعا اليها جمال الدين عملا من اعمال التجمع في منطقة طابعها اسلامي اساساً لمواجهة الغزو الاستعماري الزاحف الذي شهد جمال الدين طلائعه في فارس وافغانستان . ولم يلبث ان وقع بالفعل في مصر وتونس . فقد اكدت له تجربته وخبرته وثقافته ، ان السبيل الوحيد لمقاومة الاستعمار هو التضامن الاسلامي عن طريق التمسك بالقرآن ، والغاء العصبية المذهبية ، والاجتهاد في فهم القرآن والملاءمة بين مبادئه وظروف الحياة التي يعيش فيها المسلمون ، وطرح الخرافات والبدع التي صبغت الاسلام بلون مغاير لطابعه الاصيل . ومن هنا فقد كان جمال الدين يرى ان القرآن هو اساس الوحدة وقطبها الاصيل . ولم يكن يعنيه بعد اي نظام يمكن ان تتم على اساسه الوحدة ما دام العامل الاساسي في الالتقاء بين اجزاء العالم الاسلامي هو وحدة الفكر ممثلة في القرآن الكريم .

وقد رأى جمال الدين ان اصلح مجال لدعوته هو : الامة العربية بحسبانها

منطلق الاسلام الاول وقاعدته ، ومن ثم اتخذ منبره في مصر ايماناً بأنها ابعد ما تكون عن خلافات المذاهب وصراعات العمل . فقد رأى ان مصر اقدر من يستطيع حمل اللواء .

ومن الحق ان يقال ان تجربة جمال الدين كانت مثيرة ، وبعيدة الاثر في الفكر الاسلامي العربي . فقد اخذ الاصول الاساسية لدعوة التوحيد ، واضفى عليها ثوباً عصرياً ، وربط بينها وبين الزمن والحضارة والفكر الحديث ، فكان استجابة صادقة لعصره ، وتحديات النفوذ الاستعماري في زمنه ـ فقد جمع فيها بين :

(١) تصحيح مفاهيم الاسلام وتحرير قيمه واعادة صياغتها من جديد على نحو مناسب مع المحافظة على قيمتها الاساسية كاملة .
(٢) وبين اتخاذ الوسائل الكفيلة بمناهضة الاحتلال الاجنبي .

وكانت ابرز قواعد دعوته :

(١) التقارب والالتقاء بين اهل السنة والشيعة ، على اساس ان التفرقة انما احدثتها مطامع الدول وجهل الامة .
(٢) التوفيق بين العلم والقرآن .
(٣) تأكيد الاساس الواحد للاديان الثلاثة . وقد ضمن برنامجه الذي اذاعته « العروة الوثقى » علامات طريق واضحة الى النهضة ، اذ دعا الى ان يبين المصلحون للشرف واجباته التي كان التفريط فيها موجباً لضعفه وسقوطه وتوضيح الطريق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات ، وان النجاح ميسور اذا عقدت العزائم ، واذا كان قائماً على اساس الاصول التي حققت لاسلافنا العزة والقوة .

دعا جمال الدين الى ان تتكون عقائد الامة « وهي اول رقم ينقش في الواح نفوسها ، مبنية على البراهين القويمة ، والادلة الصحيحة ، وان تتحامى عقولهم مطالعة الظنون في عقائدها ، وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الاباء فيها . وذلك بحسبان ان الاسلام يكاد يكون منفرداً بتفريغ المعتقدين بلا دليل وتوبيخ المتبعين للظنون » . وعنده ان اهم الامور التي تتم بها سعادة الامم هو صقل القلوب بصقال التوحيد ، وخلع كل عقيدة بان الله جل شأنه يظهر بلباس البشر ، او ان تلك الذات المقدسة نالت في بعض اطوارها شديد الايلام واليم الاسقام لمصلحة

احد من الخلق . وهو يدعو النفس الانسانية الى النهضة ، ويلح في الدعاء الى ان يستقبل وجهة الشرق طامحاً الى بلوغ الغاية من مراتب الكمال الانساني ، ما عدا مرتبة النبوة ، فانها بمعزل عن المطمح ، وذلك تسابقاً في مجالات الفضائل. وقد حرص جمال الدين الدين الى تأكيد القول بفتح باب الاجتهاد ، وان القرآن بشر بالمخترعات والعلوم الحديثة .

وقد اولى جمال الدين اهتمامه بالنفوذ الاستعماري ، وحرص على كشفه ومهاجمته دون توقف ، وكانت بريطانيا هي هدفه الاكبر بحسبانها العامل الاكبر في الحيلولة بين المسلمين والوحدة ، وبينهم وبين القوة والنهضة ، وقد درس اخطار الاستعمار ، وتحقق اسباب تغلغله في عالم الاسلام ، مفرقاً بين النفوذ الاستعماري ، وبين تفوق الغرب العلمي .

وكان يهاجم بشدة امراء المسلمين المستسلمين للنفوذ الاجنبي ، ومقاومة الاستبداد في تقديره تجري مع مقاومة الاستعمار في خط واحد . وهو اول من التفت الى اسلوب الاستعمار الذي يتخذ صورة القضاء على الشخصية الاسلامية التي مصدرها القرآن ، حين بدأ ذلك في محاولة افساد عقيدة المسلم . اما بتشكيكه فيها او بمحاولة صرفه عنها . وكيف ان بريطانيا احتفت بالمذهب الطبيعي في الهند ونشرته ، واتخذت منه سلاحاً خطراً ضد المسلمين . فحين عجز الاستعمار عن تحويل المسلم عن الاسلام بالتبشير ، عمد الى هدم عقيدته بالمذاهب المادية . وفي مقدمتها مذهب الدهرية . ولذلك فقد حمل حملة عاصفة على هذه المحاولة وعراها .

وانطلاقاً من طبيعة جمال الدين ومزاجه الشخصي كانت محاولة الاصلاح التي قادها تهدف الى اتخاذ الثورة السياسية كأسرع الوسائل الى تحرير الشعوب الاسلامية ، ولذلك فهو لم يتجه الى وسائل الاصلاح الاجتماعي والتربوي والتعليم ، ولم يتعمق دور المفكر في حل المشكلات فقد كان ذلك كله عنده انما يجيء بعد قيام حكومة تحمل لواء دعوته في اي مكان من عالم الاسلام ، ولذلك فقد كانت دعوته اساساً تتجه الى الثورة كوسيلة جذرية للقضاء على الفساد والجمود والانظمة والقوانين المتخلفة ، موقناً بان الثورة تفتح الطريق امام الوحدة والالتقاء بين اجزاء العالم الاسلامي وتحرره من نفوذ الاستبداد والاستعمار معاً .

وقد كانت دعوته الى الجامعة الاسلامية من اخطر ما واجهه الاستعمار والنفوذ الاجنبي الزاحف لتقطيع اوصال العالم الاسلامي والسيطرة عليه . ولذلك فقد قاومها مقاومة كبرى ، ووجه الى الدعوة والى القائمين بها كل اهتمام . وقد بلغ به الامر ان اصدر قراراً بمنع دخول جريدة العروة الوثقى الى العالم الاسلامي ، وحدد عقوبة صارمة لكل من يوجد عنده عدد منها . ومع ذلك فقد وصلت العروة الوثقى الى كل مكان . وكانت مدرسة تكون من خلالها نوابغ العصر ودعاة الاصلاح . ومن الحق ان يقال ان التجني كان بالغاً بالنسبة لرأي جمال الدين في الجامعة الاسلامية ، ولكن الاستعمار كان حريصاً من ان يسكت هذا الصوت . ذلك ان جمال الدين لم يكن في مطالبته بالوحدة الاسلامية يستهدف قيام دولة اسلامية كبرى ، وانما كان في حدود ما عبر عنه .

« لا التمس بقولي هذا ان يكون مالك الامر في الجميع شخصاً واحداً . فان هذا ربما يكون عسيراً ، ولكني ارجو ان يكون سلطاناً ،جمعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الاخرين ما استطاع . فان حياته وبقاءه ببقائهم » .

ويقول رشيد رضا : ان ما اشتهر عن جمال الدين من كونه يريد بالجامعة الاسلامية ان يكون للمسلمين كلهم دولة واحدة ، فلم اره في شيء من العروة الوثقى ولا في غيرها مما كان يرويه عنه الاستاذ الامام (اي محمد عبده) وهو اعلم الناس بمقاصده واعماله . وربما كان يتطلع الى مصر كنقطة بدء لهذه الدعوة ، ويتجلى ذلك في عبارة الشيخ محمد عبده : « كان غرضه ترقية دولة اسلامية ، اية دولة كانت . فبدأ بمصر . فلما اخفقت خططه تعلقت آماله بالمهدي ، ثم ببلاد ايران واخيراً بالدولة العثمانية » . وتبعاً لمزاجه الدموي فقد اختار وسائل الثورة السياسية « وخيل اليه انها اسرع الطرق ، واكدها في تحرير الشعوب الاسلامية . اما وسائل الاصلاح التدريجي والتعليم ، فكان يرى انها بطيئة وغير محققة لغايته » .

ويبدو اختلاف الوسائل بين جمال الدين وبين الوهابية والسنوسية والمهدية اختلافاً بين حركات استطاعت ان تحكم ، ودعوة لم يتحقق لها ذلك ، لعدة

عوامل حتى ليمكن القول بان حركة (جمال الدين محمد عبده) هي حركة بناءة خارج مجال النفوذ السياسي . ومن هنا كان عمق اثرها ومفعولها .

والفارق بين جمال الدين والحركات الثلاث ، هو فرق في الزمن ، وفرق في المكان، وفرق في التصوّر العقلي، وفي تطويد النفوذ الاجنبي نفسه وتغييره لاسلحته . فقد ظهر جمال الدين في الحواضر (ايران ، مصر ، تركيا) وفي ظل حكومات قائمة (الشاه ، اسماعيل ، السلطان عبد الحميد) .

كما ظهر في مواجهة تقدم الزحف الاستعماري حيث لم تواجه الدعوات الثلاث . هذا الزحف مباشرة في تاريخها ، كما واجهه جمال الدين . بريطانيا في الهند وفي فارس وفي مصر . وامام مواقف حاسمة كامتياز التنباك في فارس . وقناة السويس في مصر ، ثم الثورة العرابية ، والاحتلال البريطاني لمصر والسودان وتونس .

لقد جاء في مواجهة العاصفة الزاحفة على العالم الاسلامي لتدمير مقوماته الفكرية .

امتاز جمال الدين بانه كان واسع الثقافة العصرية بالاضافة الى الثقافة الاسلامية . فقد قصد الى لندن وباريس وبرلين وبطرسبرج - ورأى العالم الغربي وهو يتأهب لالتهام العالم الاسلامي ، وقرأ مختلف الفلسفات والاديان والمذاهب ، ووقف على تاريخ الحضارات والدعوات ، وافاد من ذلك للاسلام نظرة سريعة قوامها تحرير الفقه الاسلامي من الجمود وتحرير العقائد من التقليد ، وكانت دعوته الى عقد اواصر الوحدة والالفة بين السنة والشيعة بعد خلاف مرير استمر اكثر من ثلثمائة عام عملا هاماً بعيد المدى ، وكان يكافح من اجل تغيير الانظمة القائمة في العالم الاسلامي بالقوة والثورة (وكان يرى جواز خلع وقتل امراء المسلمين الذين يشجعون الاعتداء الاوربي او يرضون عنه[1] . فيقسمون بذلك الحوائل بين الناس وبين خلاصهم على ما يرجون) .

***

---

١ - المنار : حـ ٩ - ص ٤٠٠ .

وكان يرى ان انقضاء اجل الاستعمار انما يتم بزوال الاسباب التي مكنت اهله من التسلط ، واكرهت الشعوب على الخضوع له ، وذلك متى تعلمت وتيقظت وقويت وبدأت بالتمرد على الغاصب الدخيل . وعنده ان التفاوت بين الشعوب ، واستعمار دولة لاخرى ليس قانوناً ازلياً لا يمكن تبديله . بل هو حادث وقتي يزول بزوال مسبباته كغيره من الحوادث التاريخية والاجتماعية الخاضعة لنواميس التطور .

« ولما كان لحياة الامم والدول ادوار واجيال ، ولحدوثها وتكونها ، ثم ضعفها وانحطاطها اسباب وعوامل الاستعمار خاضعة لتلك النواميس الكونية بمعنى انه يصل الى حد محدود واجل معلوم » .

وبذلك كشف جمال الدين عن النفس الاسلامية ذلك الاحساس المظلم الذي عايشها خلال فترة الضعف وتأثير مفهومية الجبرية ، واعطاها روح الاحساس بالحياة والعمل والتطلع الى الحرية .

وقد كانت مفاهيم جمال الدين التي ضمنتها « العروة الوثقى » بعيدة الاثر في الجيل المتطلع الى العمل في مجال الاصلاح والتجديد . يقول رشد رضا . وهو واحد من هذا الجيل الذي تابع جمال الدين ومحمد عبده ، وحمل لواء الحركة بعدهما : « ان العروة الوثقى نقلتني الى طريق جديد في فهم الدين الاسلامي ان الاسلام ليس روحانياً اخروياً فقط . بل هو دين روحاني جسماني أخروي ودنيوي ، وان مقاصده هداية الانسان الى السيادة في الارض بالحق ليكون خليفة الله في تقرير المجد والعدل . واحدث لي هذا الفهم الجديد في الاسلام رأياً قوى الذي كنت اراه في ارشاد المسلمين . وكان همي محصوراً في تصحيح عقائد المسلمين ونهيهم عن المحرمات ، وتزهيدهم في الدنيا . فقد تعلقت نفسي بارشاد المسلمين عامة الى المدنية والمحافظة على ملكهم ، ومباراة الامم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة » .

ومن الحق ان يقال ان جمال الدين قد غير العقلية العربية الاسلامية في مجال المجتمع والسياسة تغييراً بعيد المدى يتمثل في عبارة محمد عبده .

« كان اهل مصر قبل قدوم جمال الدين يرون شؤ ونهم العامة ، بل الخاصة ملكاً لحاكمهم الاعلى يتصرف فيها حسب ارادته ، ويعتقدون ان سعادتهم وشقاءهم موكولان الى امانته وعدله او خيانته وظلمه ، ولا يرى احد منهم لنفسه رأياً يحق له ان يبديه في ادارة بلاده . وفي آخر ايامه الح في طلب الحكم النيابي وحرض عليه ، وكان ذلك آية المقاومة الفكرية السياسية » .

وعبارة جمال الدين في هذا المجال تكشف عن مفهومه العميق للحرية ، كما جاء بها الاسلام وعقدها القرآن ، ونفذها محمد . « انكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد ، وبتم في حجر الاستبداد وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتكم الحيف والجود ، وتنزل بكم الخسف والذل وانتم صابرون ، بل راضون ، ويستنزف قوام حياتكم التي تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم - بالعصار والمقرعة والسوط وانتم صامتون ، انظروا اهرام مصر ، ومشاهد سيوه ، وحصون دمياط ، فهي شاهدة بمنعة ابائكم وعزة اجدادكم ، هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ، عيشوا كباقي الامم احراراً سعداء » .

***

هذا اهم ما ألقاه جمال الدين الى قلب ذلك الجيل الذي اتصل به ، ومن الحق ان جمال الدين قد استطاع ان يترك خلال ثماني سنوات ركيزة هامة في مصر والشام والمغرب ، ركيزة ضخمة كانت بعيدة الاثر في حركة اليقظة الاسلامية ، ويمكن ان يقال ان مدرسة جمال الدين ، قد ضمت اولئك الاعلام الذين تصدروا منذ اول القرن : طاهر الجزائري ، والقاسمي ، والبيطار ، وعبد القادر المغربي ، وكرد علي ، ورفيق العظم ، وشكيب ارسلان ، ورشيد رضا ، والمراغي ، وعبد العزيز جاويش ، وابراهيم اللقاني ، وفريد وجدي ، وطنطاوي جوهري ، ومصطفى عبد الرازق ، وعبد الحميد بن باديس ، ومحب الدين الخطيب ، واحمد زكي باشا ، والبارودي ، وعبد المحسن الكاظمي ، والخضر حسين ، واحمد تيمور ، وعبد العزيز الثعالبي ، والطاهر بن عاشور ،

والعربي العلوي ، وكان على مقدمة هذه المجموعة الشيخ محمد عبده .

***

وبعد الاحتلال البريطاني بدأ دور هام لحركة اليقظة :

وذلك ان عمل جمال الدين قد مضى في طريقه ، واستقر اخيراً في عاصمة الدولة العثمانية .

اما محمد عبده : فقد رسم منهجاً جديداً للدعوة وفق حاجة المرحلة نفسها وله طابعه المستمد من مراجعه ومفاهيمه . ذلك ان انفصال محمد عبده عن جمال الدين كان امراً محتوماً في الاغلب بحسبان الفارق بين « عقلية الثائر » و «عقلية المربى » وبحكم الزمن نفسه ، وعندنا ان اتجاه محمد عبده كان تطويراً وتعميقاً لحركة اليقظة نفسها . بعد ان ثبت ان عمل جمال الدين الافغاني قد حقق دوره الطبيعي في انه هز الحياة الاجتماعية والسياسية في العالم الاسلامي (الهند ـ ايران ـ افغان ـ مصر) وكان لا بد من دور جديد . ذلك هو دور محمد عبده في التربية وبناء الدعاة . وكان هذا هو مناط الخلاف حين اقترح الشيخ محمد عبده كضرورة لتحقيق خطوة اكبر في مجال حركة اليقظة تربية جيل من الشباب في مكان بعيد عن تحديات الاستعمار ، وهو ما لم يقبله جمال الدين الافغاني واتهمه من اجل اقتراحه بانه مثبط ، غير ان الزمن نفسه قد كشف عن عمق مفهوم محمد عبده في معرفة ضرورات المرحلة وحاجة الحركة ، وقد مضى جمال الدين دون ان يستطيع تحقيق هدفه من حيث اقامة حكومة اسلامية تتولى تنفيذ التعاليم الاسلامية ، وتجمع الحكومات الاسلامية الاخرى في وحدة تواجه بها الاحتلال والنفوذ الاجنبي وتناهضه .

وبدأ في ظل اندفاعة الاستعمار العنيفة التي تمثلت في احتلال مصر وتونس ان اسلوب العمل يجب ان يتغير ، وان يكون المخطط قائماً على خطة واسعة مرنة ، قوامها العمل في مجال التعليم والتربية والثقافة . ومن هنا كانت دعوة محمد عبده التي اذاعها في مصر وتونس والجزائر ، حينما حذر من السياسة ، وحين نصح بنقل مجال المعركة كلها الى مجال الثقافة والتعليم ، وبذلك حقق نتائج بعيدة المدى في خلال السنوات العشر الاخيرة من حياته (١٨٩٦ ـ ١٩٠٥) وقد امتدت هذه الحركة ممثلة في جريدة المنار التي وصلت الى اقصى مكان في العالم الاسلامي ،

وشاركها عمل فريد وجدي ومحب الدين الخطيب وكثيرين . وقد شكلت هذه الحركة ما اطلق عليه : « المدرسة السلفية » .

وكان اعتماد محمد عبده الاساسي في تبليغ الدعوة هو : تفسير القرآن على نحو عصري سلفي معاً ، محرراً مختلف القضايا والمعضلات التي كانت تواجه المسلمين في هذه المرحلة ازاء التحديات التي فرضها الاستعمار والنفوذ الاجنبي ، وحملات المبشرين والمستشرقين ، وكتّاب الغرب على الاسلام واللغة العربية ، وتراث المسلمين والعرب وتاريخهم .

وعن طريق تفسير القرآن استطاع الامام محمد عبده ان يقول رأيه في حرية بالغة ، مما لم يكن يتيسر له عن طريق الكلمة المطلقة بعيداً عن تفسير القرآن . قد ركز على مجال التربية والتعليم تركيزاً هاماً . وكان له دوره في تحرير اللغة العربية اسلوباً ومضموناً من السجع والمقدمات معاً .

وكانت ردوده الحاسمة على « هانوتو » و « فرح انطون » مجالا واسعاً لالقاء نظرة واسعة على جميع القضايا المثارة والشبهات الموجهة الى الاسلام . ومن الحق انه عالجها بحكمة وبراعة ، واضاف الى عمل قادة الحركة اضافات جديدة .

وجملة موقف الامام محمد عبده انه كان حريصاً على ان يبرز الاسلام في مكان القدرة على مواجهة الحضارة الغربية بدون تخلف ، سواء في مجال الرابطة بين العلم والدين ، او بين الدين والمجتمع . وكانت فتاواه في القضايا الهامة مثل : ذبائح اهل الكتاب ، وليس القبعة وغيرها قد القت ضوءاً ساطعاً على قدرة الاسلام في مواجهة الحضارة والزمن ، وعلى فتح باب الاجتهاد في الفروع . ويعد هذا العمل خطوة جديدة بعد عمل جمال الدين الافغاني الذي توقف عمله عند العموميات والكليات . ومن الحق ان الامام محمد عبده كان معلماً ومفتياً . وكان عمله في مجال اصلاح الازهر بعيد المدى . فقد ادخل تعليم الحساب والجبر والهندسة والتاريخ في الازهر . وكان ايمانه بأمرين لا يبلغهما ايمان : اصلاح الحكومة ، وتربية الرجال . وكان يقول : ان القيام على الحكومات الاستبدادية وتقييد سلطتها والزامها بالشورى والمساواة بين الرعية انما يكون من الطبقات الوسطى والدنيا اذا فشا فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة ، وصار لهم رأي

عام . وانه لم يعهد في أمة من الأمم ان الخواص والاغنياء ورجال الحكومة هم الذين يطلبون مساواة انفسهم بسائر الناس وازالة امتيازاتهم .

وكان من ابرز دعوات محمد عبده معارضة الجبرية الصوفية والدعوة الى العمل والبناء : « لماذا نعتزل الدنيا . ان علينا ان نخالط الناس ، وان نعيش في المجتمع عاملين ، وان واجب كل مسلم صحيح الاسلام ان يؤدي رسالة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

وقد جعل من اهم ما عني به التفرقة الدقيقة بين الاسلام وبين المسلمين ، وكان مما قال وجرى مجرى الامثال « الاسلام محجوب بالمسلمين » هذا الجمود مما لا يصح ان ينسب الى الاسلام ، ما ابعد هذا عن صورة الاسلام في صفائها ووضوح بياضها . حدث هذا عند ما دخل على قلوبهم عقائد اخرى ساكنت عقيدة الاسلام في افئدتهم . وكان السبب في هذا لتمكنها من نفوسهم « السياسة » .

« تلك الشجرة الملعونة في القرآن ، نظر المسلمون الى فخفخة الوثنية ، واستعاروا من ذلك للاسلام ما هو عنه براء ، وسنوا عبادة الاولياء والعلماء ، واتخذوا من عقيدة القدر مثبطاً للعزائم ، هذه السياسة التي ادخلت على الدين ما لا يعرفه دخول البدع والخرافات والجمود ، جنى هذا الجمود على اللغة وأساليبها وعلى النظام والاجتماع ، مما ادى الى الاختلاف وتفرق المذاهب ، والشيع في الدين ، وجناية الجمود على الشريعة واهلها مما جعلها تضيق عن اهلها . كان كل متأخر يقصر فهمه على النظر في كلام من يليه هو غير مبال لسلفه الاول . بل ولا بما كان يحف بالقول من احوال الزمان ، وفقدت كتب السلف الاولين مكانتها » .

« قام الاسلام على العقل « والاقناع بالحجة » واقر الاسلام قاعدة تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض ـ والتجاوب مع الزمن وتطوره ، ومراعاة البيئة واختلافها ، وقام على الشورى « وعدم وجود وساطة » . والحاكم ليس بالمعصوم ، ولا هو مهبط الوحي ، وهو مطلع ما دام على الحق ورضي المسلمون عنه ، وليس في الاسلام سلطان الهي مع التسامح مع العلم ، والتسامح مع

الطوائف الاخرى وحماية حقوقها وحرية اعتقادها ، والجمع بين مصالح الدنيا والآخرة ، واباحة الزينة والطيبات ، والمزج بين الروحية والمادية » . وبالجملة فقد كان منهج فكرته في اصلاح الاسلام على هذا النحو :

الاول ـ تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الامة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه الى ينابيعه الاولى ، واعتباره ضمن موازين العقل البشري التي وصفها الله لترد من شططه ، وتقلل من خلطه وخبطه لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الانساني وفتح باب الاجتهاد ، ومحاربة الخرافات والاباطيل التي نسبت زوراً الى الاسلام .

الثاني ـ اصلاح التعليم في الجامع الازهر وملحقاته ، بحسبانه مصدر النهضة الاسلامية ، وحصن الدين ، ومعقل اللغة ، وانشاء جيل من علماء الدين القادرين على مواجهة العصر ، وبالجملة فقد كان فهم فكرته في اصلاح الاسلام على هذا النحو .

الثالث ـ تجديد شباب اللغة العربية باصلاح اساليبها في التحرير سواء في المخاطبات الرسمية او المراسلات بين الناس ، وكان عمله في اصلاح اللغة على درجتين : « احداهما » القاء دروسه كلها باللغة الفصحى الممتازة برشاقة التعبير وبلاغة التأثير « والاخرى » مقالاته وكتاباته .

الرابع : الاصلاح السياسي . يقول : امر كنت من دعاته : حث الحكومة على الشعب وحقه على الحكومة والاعتقاد بان الحاكم وان وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وانه لا يرده عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته الا نصح الامة له بالقول والفعل ، وان تقوم بين الراعي والرعية علاقة قوامها الطاعة من الشعب ، والعدالة من الدولة .

الخامس ـ العناية بتربية الامة تربية خاصة ، وانها مقدمة عى العمل السياسي .

السادس ـ الاتحاد العام امام العدو الخارجي ونسيان الحزازات والخلافات اثناء الخطر .

السابع ـ اعتبار الدين صديقاً للعلم اذ لا موضع لتصادمهما . فلكل منهما وظيفته التي يؤديها وهما حاجتان من حاجات البشر لا غنى لاحداهما عن الاخرى .

الثامن ـ « القرآن » يجب ان يكون اصلا تحمل عليه المذاهب والاراء في الدين .

(٥)

الحركة السلفية

أصّل محمد عبده منهج الاصلاح الاسلامي - ورسم بكتاباته فكرة كاملة لايقاظ الفكر الاسلامي العربي ، وواجه تحديات عصره وخاصة في السنوات الاخيرة من عمره ١٨٨٥ - ١٩٠٥ في ظل توسع النفوذ الاجنبي واحتلال مصر وتونس والسودان . وسيطرة فرنسا على الجزائر .

وقد امتدت دعوة محمد عبده في ثلاث جهات متوازية في الشام ومصر والمغرب . ومنها الى اندونيسيا . وكان للهند حركتها الاسلامية المتوازية مع هذه الحركة ، ولها منهجها المستقل وفق ظروفها .

وكانت المنار هي رابطة المسلمين بعد العروة الوثقى على نفس النسق والهدف مع اختلاف الاساليب . وقد استطاعت المنار ان تغذي هذه الحركة حتى عام ١٩٣٥ . وشاركها في هذا الوقت دعاة كثيرون وكتّاب كثيرون .

وكان ابرز مجالي هذه الدعوة « المغرب » فقد وجد محمد عبده في تونس والجزائر من يؤمنون بفكرته ويسايرون خطوه . ثم كان للمغرب الاقصى امتداد آخر ، وان لم يذهب اليها الشيخ محمد عبده . وفي تونس والمغرب كانت الدعوة السلفية متقدمة في الزمن . وفي الجزائر بدأت جمعية العلماء في العقد الثاني من القرن العشرين وبرزت في العقد الرابع قوة بعيدة المدى .

***

والمعروف انه في عام ١٨٨٤ اسس محمد عبده وجمال الدين « العروة الوثقى » جمعية سرية في باريس . وقد شمل نفوذها السواحل الشرقية للبحر الابيض المتوسط وقصد محمد عبده الى تونس ١٨٨٥ واثرت فتاواه في علمائها فأيدوها .

وكانت تونس ذات رصيد في الاصلاح منذ برز الشيخ قبادو وخير الدين التونسي في محاولة الربط بين الامام والحضارة الحديثة .

وقد عاود محمد عبده زيارة تونس والجزائر ١٩٠٣ وكانت دعوته قد تطورت ، فلم يكن يدعو الى مقاومة الغاصب بالثورة بل كان يدعو الى العلم كوسيلة لمقاومة النفوذ الاجنبي .

ويرى المغاربة لشكيب ارسلان ابعد الاثر في نفوسهم ، فقد وقف مع الليبيين في حربهم مع ايطاليا . وكذلك ينسب اليه ازدهار الحركة السلفية وفق غايات استاذه محمد عبده وزميله رشيد رضا صاحب المنار الذي كان من اهم وسائل تغذية الحركة . وقد اتصل شكيب في تونس برجلين من ابرز رجال الفكر : صالح الشريف ، وعلي باش حبنة ، وكان لجمعيتي الخلدونية والصادقية بعيد الاثر في تأريث الحركة السلفية . وكان لظهور الطاهرين عاشور شيخ الاسلام وصديق الشيخ محمد عبده اثر كبير . وقد ظل شكيب ارسلان ومحب الدين الخطيب ورشيد رضا في صحف المنار والفتح ، ومعهم في مصر الخضر حسين يواجهون الحملات العاصفة على المغرب وعلى تونس ومراكش ، وبخاصة في اخطر ازمتين : وهما المؤتمر الافخادستي في تونس ، والظهير البربر في مراكش (المغرب الاقصى) .

ومن الذين عملوا في هذا الميدان خارج الوطن (عبد العزيز الثعالبي) الذي ظل مبعداً عن تونس اكثر من عشرين عاماً .

وعرض رشيد رضا في المنار الرأي في هذه القضايا ، كما واصل شكيب ارسلان من لوزان مقالاته وشاركهما على الصعيد العربي محمد علي الطاهر .

وكان شكيب ارسلان علماً باحوال المسلمين في افريقيا من ليبيا الى الدار البيضاء ، بصيراً بشبهات الاستعمار التي كان يثيرها للوقيعة بين المسلمين والبربر ، وكان مما يقوله : « في شمال افريقيا يعرفون المسلم بانه هو العربي ، والعربي هو المسلم . فالاسلام والعروبة مترادفتان .

اما الحركة السلفية في مراكش فقد كانت قوة ضخمة بعيدة المدى في مقاومة

الاستعمار . وكان قوامها عدة قادة اعلام من امثال : عبد الله السنوسي ، والمهدي الوزاني ، وابي شعيب الدكالي ومحمد بن العربي العلوي . وقد امتزجت الدعوة السلفية بالدعوة الوطنية ، فكانت دعوة الى اصلاح شامل ، ومقاومة للتخلف والجمود في مناحي الحياة .

ويؤكد العلامة علال الفاسي : ارتباط الدعوة السلفية في المغرب بابن حنبل وابن تيمية وحركة الامام محمد بن عبد الوهاب . وذلك في مواجهة مرحلة الجبرية التي مرت بها الدولة العثمانية في الفترة الاخيرة . ويرى ان علة التأخر في العالم الاسلامي كانت كامنة في « خطأ الفهم بعقيدة الجبر » . وتناول عقيدة القضاء والقدر الاسلامية على انها تعتبر عن حتمية لا مناص منها ، ولا يمكن التحرر من احداثها ، لذلك فلا محل لبذل المحاولات للخروج من اية نكبة تنزل بنا ـ وهذا ما دفع الحكام والولاة الى احتضان الصوفية ، لانها كانت تدعو الامم الى الاستسلام والرضا . وكذلك اتخذها الاستعمار سلاحاً له لهذا الغرض .

يقول : وذلك ما نشأ عن انتشار « الشاذلية » في بلادنا مع سوء الفهم لصوفيتها الحقيقية ، وترتب على ذلك ازدهار شأن طبقة من المشايخ والمرابطين اصبحوا يملكون زمام الامر في الامة ويسيرونها في الاتجاه الذين يريدون ، وقد ساعدتهم على ذلك الاسر الحاكمة .

وفي المغرب دعا السلطان المولى سليمان العلوي الى السلفية الاولى ، ومقاومة الطرق وتشعباتها وواصل الملوك الذين تعاقبوا على عرش المغرب . الدعوة الى السلفية ، فلما سقطت الجزائر تحت نفوذ فرنسا بدأت يقظة دفعت المسلمين في المغرب الى التفكير في التجنيد العسكري والاجتماعي ، وكتب احد علماء المغرب كتاباً اسماه « كشف الغمة في ان الحرب النظامية واجبة على الامة » .

وقال في كتابه : ان الأوربيين تطوروا في أساليبهم العامة ، بينما نحن لا زلنا نواصل الاساليب العتيقة في جهادنا وفي تدبيرنا . ومضى فحلل اسباب الجمود الفكري والجمود العلمي ، وكشف عن حيوية الاسلام وكونه صالحاً لكل زمان ومكان .

وقد كان لازدهار الدعوة السلفية في العالم العربي في أوائل هذا القرن واعادة طبع مؤلفات ابن تيمية وابن القيم والشاطبي ، هذه الحركة التي قام بها رشيد رضا في مصر ، وطاهر الجزائري في دمشق ، والالوسي في بغداد ، ثم ما كان من جهود الحركة الوهابية بعد تجددها في العقد الثالث وكان أول من تصدى لنشر دعوة كاملة للسلفية في المغرب هو : « عبد الله السنوسي » احد علماء القرويين والذي سافر الى المشرق ، واتصل باقطاب الدعوة ، وصدع بدعوته داخل جامعة القرويين (الجامعة القروية)بفاس ، وتتلمذ عليه محمد بن العربي العلوي . بينما كان شعيب الدكالي يرفع صوته بالدعوة في الرباط ، ويرى الأستاذ الفاسي : ان الجانب السياسي طغى على المدرسة السلفية في مصر والمشرق ، بينما طغى الجانب الاجتماعي والعقلي في الهند . وكان للهجوم الفرنسي على البلاد ودسائس الفرنسيين في استعمال بعض مشايخ الطرق قلب سلم المعركة الى عنف شديد ، فقد جر اغلاق الزاوية « الكتانية » والحكم على رئيسها بالاعدام وتنفيذه ، واتخاذ وسائل شديدة في الحكم على « التيجانية » وغيرهم من رجال الطرق ، ومقاومة المشايخ الذين كانوا يستغلون الدين والتصوف لاغراضهم الشخصية ، وقد انضموا لصفوف الفرنسيين والاسبان ، واخذوا يوجهون الرسائل المختلفة يغرون فيها القبائل المكافحة في سبيل الله والوطن الى العدول عن الجهاد والاستسلام للاعداء . وبذلك حلت السلفية محل التصوف ، ممثلة قوة الاسلام وسلامة مفاهيمه . وكان لتحالف بعض الصوفية مع النفوذ الاجنبي دوره في هزيمة الامير عبد الكريم في الحرب الريفية عام ١٩٢٦ فقد تحالف عبد الحي الكتاني وعبد الرحمن الدرقاوي مع الفرنسيين ضد الثوار والامير عبد الكريم .

وبعد ذلك اتجه الفرنسيون الى مقاومة الشريعة الاسلامية ، ووضع المناهج الرسمية العلنية لفرنسا والمغرب عن طرق تمسيحه ، وكان الظهير البربري في ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ ، رمزاً على هذا المخطط . هنالك تحولت الحركة السلفية الى حركة سلفية ووطنية في وقت واحد ، سلفية في اقرار الشرع الاسلامي ، ووطنية في مقاومة السيطرة الاجنبية .

(٦)

جمعية العلماء

وكانت جمعية العلماء في الجزائر عملا ضخماً بعيد المدى في مجال اليقظة والاصلاح الاسلامي . وقد كانت بعيدة الاثر بقدر خطورة مهمتها ، فلم تكن مهمتها قاصرة على تصحيح المفاهيم ، او مقاومة نفوذ الجبرية الصوفية فحسب ، ولكن كان امامها ما هو اخطر من ذلك : وهو حماية اللغة العربية التي كانت على وشك الضياع بحسب ما خطط لها النفوذ الاستعماري خلال مائة عام كاملة .

وقد برزت جمعية العلماء في عام ١٩٣٠ في ذكرى مرور مائة عام على احتلال الجزائر ، حيث حسبت فرنسا انها قد فرنست الجزائر نهائياً ، فمضت تزدهي بانها حققت عملا باهراً بعيد المدى . غير ان الامام عبد الحميد بن باديس . كذب ذلك حين اعلن صيحته في هذا الوقت بالذات ، وان كان يعمل في مجال الاصلاح منذ ١٩١٤ تقريباً .

هذه الثورة التعليمية التي احدثها ابن باديس كانت بعيدة المدى في اعداد جيل جديد يفهم الاسلام فهماً صحيحاً ، ويكتب ويتحدث باللغة العربية . حتى ليمكن ان يقال بصدق ان كل من يعرف اللغة العربية اليوم في الجزائر مدين للعمل الضخم الذي قام به هذا الداعية الدؤوب .

وكانت مجالس التذكير التي يعقدها في المساجد ذات اهمية بعيدة المدى في الكشف عن جوهر الاسلام ، وهي شبيهة بمجالس الشيخ محمد عبده في الرواق العباسي ، والتي سجلها رشيد رضا في المنار . وقد سجلت مجالس التذكير الباديسية في مجلة الشهاب ، وهي تدل على معرفة شاملة بامور العصر وما يكتنفه من ظروف طارئة ، ومدى معالجة الاسلام لهذه المشكلات والمعضلات على نحو

سمح يسير . وقد اخذ باسلوب الاجتهاد « في اختيار الرأي المناسب وترجيح الحكم المدقق دون ان يتقيد بمذهب من المذاهب ، ولا بامام من الائمة . شان السلف الصالح للخروج بالفكر الاسلامي من دائرة الضيق والجمود » . « وقد جرى في دروسه على ان شريعة الله خالدة لا تتأثر بالمكان ولا تتغير بالزمان ولا تتسم بالخصوص ، ولا تضيق بالحضارة ، ولا تتبرم بالعلم ، ولا تنبو عن التطور »[1] .

وقد رسم « عبد الحميد بن باديس » منهاجه على نحو واضح مشرق : « على مرشدى المسلمين ان يعالجوا ادواءهم بالعلاجات النافعة، ويشخصوها لهم عند الحاجة بالعبارات الرقيقة المؤثرة في رفق وهوادة ، مجتنبين كل ما فيه تقنيط او تثبيط ، وان يعرفوهم بانهم وان ساءت نواح ، ما تزال هناك نواح صالحة ، وهناك علاجات من الاسلام قريبة وناجعة ، وان يعرفوا ما فيهم من فضائل ، وما لهم من مجد ، وما لهم بهذا الاسلام من قدر وعز ، ليثيروا فيهم النخوة ويبعثوهم على العمل والخير . هذا اصل عظيم في التربية المبنية على علم النفسية البشرية ، فان النفوس عندما تشعر بحريتها وقدرتها على الكمال تنبعث بقوة ورغبة وعزيمة لنيل المطلوب .

وعندما تشعر بحقارتها وعجزها تقعد عن العمل ، ان التحقير والتقنيط وقطع حبل الرجاء قتل للنفوس : نفوس الافراد والجماعات . وذلك ضد التربية ، وهذا مصداق لقول الرسول : « اذا سمعت الرجل يقول : هلك الناس فهو أهلكهم » .

« نحن المسلمين ربينا تربية اسلامية على الفة الجوع والتقلل من الاكل والاقتصار على قدر الحاجة ، فطعام الواحد يكفي الاثنين . بهذه التربية استطعنا ان نبقى ونعيش في مثل ما عليه معظم الامة الجزائرية من الفاقة والعوز والجوع والمسغبة . وكما ربانا الاسلام هذه التربية من ناحية الغذاء . فقد ربانا تربية اخرى من نواح اخرى ، ربانا على تمجيد العلم والمعرفة والرغبة فيهما ، والتلهف على ما فات منهما ، والاحترام لمن له حظ فيهما . وبهذه التربية استطعنا ان نحافظ

---

١ ـ مقدمة كتاب من هدى النبوى للامام ابن باديس .

على قرآننا وخطنا وبقايا علوم لغتنا وديانتنا وجملة معارفنـا واندفعنـا الى تاسيس المكاتب العربية رغم ما يحول بيننا وبينها . ولولا تلك التربية الاسلامية التـي زرعتها القرون فاستقرت فى قرارات النفوس ، وصارت من الخلق الموروث ، لكان ما نحن فيه من ظلم وتعاسة وتقديم كل احد علينا فى وطننا ، والترك لعامل التجويع والتمهيل شاغلا لنا عن العلم وعن الشعور به .

« ظنوا ان الخبز هو كل ما نريد ، لا يا قوم . اننا احياء ، واننا نريد الحياة ، للحياة خلقنا ، وان الحياة لا تكون بالخبز وحده . فهنالك ما علمتم من مطالبنا العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وكلها ضرورات فى الحياة » .

(٧)

الحركة الاسلامية في الهند الاسلامية والباكستان

بدأت اليقظة في الهند الاسلامية قبل وصول الاحتلال البريطاني بوقت طويل ، فقد ظهر الامام السرهندي (أحمد عبد الأحد) في القرن الحادي عشر الهجري (١٧م) في خلال حكم الامبراطور جلال الدين أكبر الذي دعا إلى ما أسماه الدين الالهي . وقد حكم الملك أكبر خمسين عاما (٩٦٤ ـ ١٠١٤م) وواجهت المسلمين بدعوته الى الدين الجديد محنة خطيرة . غير أن السرهندي لم يقبل تأييد الامبراطور في دعوته ، ووقف موقفا مجيداً أمام المحنة القاسية ونزل ميدان الجهاد ضد طغيان الامبراطور ودعوته الضالة ، وهاجم العلماء التقليديين الذين لم يعارضوا الملك ، بل شجعوه على نشر هذه الفتنة في اواخر القرن الحادي عشر للهجرة . وبعد ان تولى ابنه « جهانكير » اشتدت هذه الفتنة وتعرض كثير من العلماء والفقهاء للاضطهاد ، ولم يتوقف الملك عن زج الشيخ السرهندي في السجن . وكان ذلك نقطة تحول في تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند . فقد اهتدى المسجونون الى الله ، واقلعوا عن الجريمة فلم يلبث مدير السجن أن كتب بذلك إلى الملك حتى اصدر امره بالافراج عنه واستقدمه بالترحيب ، فلما دخل على الملك سلم عليه بتحية الاسلام ولم يسجد ولم ينحن ، وأسدى الى الملك مواعظه ونصائحه .

وكان من نتائج مساعيه أن اصدر الملك قراراً بالغاء كثير من البدع والمنكرات ، ومنها ما ابتدعه ابوه نفسه . وفي مقدمة القرارات التي أصدرها جهانكير امر بتحريم السجود أمام الملك تعظيما له ، وكذلك ابطل جميع

القوانين المعارضة للتعاليم الاسلامية ، وعين قضاة مسلمين في كل بلدة[1] .

وقد واصل السرهندي دعوته بين جميع طبقات الامة ، وكاتب الامراء والرؤساء في الحكومة والجيش يدعوهم الى اتباع الحق ، ويقاوم البدع والمنكرات .

ويعد السرهندي مجدد الألف الثاني الهجري ، فقد جرد قلمه للرد على البدع والاباطيل ، وهاجم دعاة التصوف الذين تأثروا بمذاهب البرهمية وفلسفتها من وحدة الوجود والاتحاد والحلول ، ولم يتوقف عن نقض آرائهم . وقد اعلن السرهندي ان المسؤولية الاولى في نشر التعاليم الاسلامية الحقة والمبادىء القرآنية الخالصة يقع على عواتق العلماء المسلمين . كما أن تبعات النكبات التي يصاب بها المسلمون من ذلة إنما ترجع الى العلماء التقليديين الذين يتهافتون على حكام الدنيا ، ويردد قول الرسول عليه السلام : « صنفان من أمتي إذا صلحا صلح الناس جميعاً . وإذا فسدا فسد الناس جميعاً . العلماء والامراء . كما جاهد بقلمه في الكشف عن البدع والاباطيل والرد على ما ابتدعوه ونسبوه إلى الاسلام ، وعمل على اصلاح الأمراء والحكام ووجه اهتمامه نحو إسداء النصائح لحكام البلاد . وقد ألف عديداً من الكتب في الرد على فكرة وحدة الوجود والحلول والاتحاد ، وكشف عن زيفها ، وأبعد الاسلام عنها ، كما دعا إلى التصوف الاسلامي الخالص الذي ترجع اصوله الى المنابع القرآنية والنبوية .

وأبرز أعماله انه قضى على عقيدة وحدة الوجود التي تغلغلت في أحشاء التصوف ، والأدب والشعر ، وقضى على فكرة استقلال الطرق عن الشريعة وعلى كثير من العقائد والأفكار والعادات التي تسربت من الفلسفات الضالة (٩٧٧ ـ ١٠٣٤م)

٢ ـ شاه ولي الله (أحمد عبد الرحيم الدهلوي)

أما شاه ولي الله فقد كان مجدداً من أبرز مجددي الفكر الاسلامي في العصر

---

١ ـ عن الدعوة الاسلامية في الهند للندوي .

الحديث . وقد عاصر الامام محمد بن عبد الوهاب وتأثر به ، وهو واحد من طراز الامام الغزالي وشيخ الاسلام ابن تيمية . كان من أكبر اعماله تصحيح مفهوم التوحيد الاسلامي ، والدعوة إلى الاتصال المباشر بالقرآن والسنة الصحيحة ، وكتابه (حجة الله البالغة) من الكتب المعدودة في هذا المجال .

وقد قاوم ولي الله ما ساد عصره من انحلال وفساد ، وهاجم التساهل وعدم الاكتراث واجتهد في ايجاد تفسير يجمع بين التصوف والسنة الخالصة . ويكون اكثر مرونة وتقبلاً للتطور . وقال ولي الله : إن المسلم الحق يجب أن لا يقبل الانحطاط المعاصر .

(٣)

تتمثل النهضة في هذه المرحلة بعد الاحتلال البريطاني للهند المسلمة في صورة النهضة الثقافية التى قام بها محمد قاسم النانوتري ، وسيد أحمد خان ، ومحمد علي المونكيري ، وبرز خلال هذه الحركة : شبلي النعماني ، وأمير علي ، وأبو الكلام أزاد .

وقد كانت الدعوة الى انشاء المدارس والمعاهد والجامعات بمثابة رد فعل لحركة التعليم الاستعماري الذي رفض المسلمون الاندماج فيه محافظة على دينهم . فأسس النانوتري مدرسة ديوبند عام ١٢٨٣ - ١٨٦٦م . وسعادت مدرسة مظاهر العلوم سنهارنبود وأسس محمد علي المونكيري : مدرسة دار العلوم عام ١٣١٢هـ و ١٨٩٤ م في ليكنو .

وأنشأ سيد أحمد خان مدرسة عليكرة الشهيرة عام ١٢٩٣ - ١٨٧٦ م . وكان شبلي النعماني هو أبرز معاوني احمد خان ومؤ سس ندوة العلماء . وقد خلفه فيها سليمان الندوي ومسعود الندوي الذي أصدر مجلة الضياء العربية (١٣٥١ - ١٣٥٤) ١٩٣٢م - وأصدر أبو الكلام أزاد صحيفة الهلال ١٣٣٢ - ١٩١٣م .

وكانت الحركة الثقافية التي تصدرها شبلي النعماني تضم : حافظ نظير ، ومحمد حسين أزاد ، وسعد الطاف حسين تدعو إلى انهاض المسلمين في مجال التأليف والشعر والكتابة . وتعد قصيدة (مد الاسلام وحزره) لسيد ألطاف من الشعر الرفيع الذي هز النفس الاسلامية الهندية . ولما رأى المسلمون أن خطة احمد خان في كلية عليكرة قد اقتصرت على الثقافة الحديثة أكملوا عمله بمدارس أخرى تعنى بالدراسات الاسلامية الخالصة .

وكان أبرز أعلام اليقظة في الهند الاسلامية : شبلي النعماني ، وأبو الكلام أزاد ، وأمير علي ، وسيد أحمد خان ، واقبال .

(٨)

حركة الاصلاح في أندونيسيا والملايو

على الرغم من أن أرخبيل الملايو قد دخل في الاسلام بعد الهند وفارس وأفغان بقرون عديدة . فانه قد وجد للاسلام تقبلاً روحيا ونفسيا كبيراً مما كان له ابعد الاثر في مواجهة الغزو الاستعماري البريطاني والهولندي للملايو واندونيسيا ومقاومة حركات التبشير والتغريب التي تكاتفت في سبيل اخراج هذه المنطقة من عالم الاسلام .

وتتسم حركة الاصلاح فيها بروح عالية من المقاومة والعمق . وقد عملت في ميدانين في وقتٍ واحد : ميدان تصحيح العقيدة وتجديد الفكر الاسلامي بما يجعله قادراً على الكشف عن جوهره وصلاحيته للنهضة ، وفي ميدان مدافعة الشبهات وحملات التشكيك وشبهات التبشير . وقد استمدت حركة الاصلاح في اندونيسيا والملايو من حركة الاصلاح الاسلامية التي حمل لواءها الامام محمد عبده وجريدة المنار زادها واسلحتها فاحدثت يقظة كبرى في سومطرة وجاوة . وكانت شركة اسلام التي تأسست ١٩١٢ ومن بعدها مجلس العلماء والجمعية المحمدية ، كلها قوى ايجابية عاملة في هذا المجال على الرغم من اختلاف ميادين عملها .

وقد حملت هذه الجماعات لواء العمل في كل الميادين ، وبدأت بالعمل في الميدان الاقتصادي في محاولة لتحرير الاقتصاد القومي من براثن النفوذ الاجنبي وخلق اقتصاد اسلامي يحفظ للمسلمين ثرواتهم . ومن خلال هذا العمل

توسعت أهداف عمل الاصلاح في مختلف الميادين واهمها الوحدة الاسلامية والكفاح المشترك للخلاص من الاستعمار والحركة الوطنية ومقاومة التبشير وبناء المساجد والمدارس والمعاهد والأندية لمواجهة القوى المؤ يدة بالنفوذ الاستعماري .

وقد استغل المصلحون المسلمون كل اسلحة المستعمر في سبيل مقاومته ، وخاصة ما كان يجمله طابع الحكم الاستعماري في اندونيسيا عن طريق الهولنديين بصبغ استعمارهم بصبغة دينية ، وتحدثهم دوما عن القضاء على دين محمد ، والقول بانهم في أندونيسيا بارادة الله ، وانهم يحملون السيف ويقاتلون لهذا الغرض . وفشل النفوذ الاستعماري بالقضاء على الوعي الاسلامي ، واستطاعت المعاهد والمدارس الاسلامية ان تحد من نفوذ التبشير ، وان تقاوم حركة الفصل بين العرب والوطنيين . كما عمدت هذه الهيئات الى مقاومة نفوذ الوثنية والهندوكية . وقد اعلنت عن ذلك صراحة الجمعية المحمدية ، التي أنشأها المجاهد احمد دحلان عام ١٩١٢ في جاكرتا حين سجلت في ميثاقها « تنقية عقيدة الاسلام من آثار الديانات الاخرى : كالبرهمية والبوذية واوهامهما » كما عنيت هذه الهيئات بالمرأة المسلمة ، فأنشأت اقساماً خاصة لتربيتها وتعليمها وتكوينها تحت اسم « العائشية » ضمت الفتيات المسلمات من مختلف انحاء اندونيسيا ، وعملت على تنشئتهن تنشئة اسلامية قوية . وقد كانت هذه الحركة الاسلامية هي نواة الحركة الوطنية ، فقد اوقدت المقاومة ضد الاستعمار الهولندي بحيث لم تتوقف من بعد .

وقد اعترف سنوك هروجينيه (كبير خبراء التبشير والتغريب) في أندونيسيا بان هذه الحركة كانت بعيدة الأثر في مقاومة النفوذ الاستعماري ، والحيلولة دون تحويل اندونيسيا الى الغرب كلية ، وعزا ذلك إلى أثر الازهر ، وخريجي أندونيسيا والملايو منه ، ومن الدارسين في مكة .

ويمثل عصر الاستعمار الهولندى ، اخطر عهود المقاومة فى الفترة من عام ١٥٩٦ الى ١٩٤١م . وقد كان لهذه الفترة اثرها البالغ في الحد من نفوذ الاسلام وتوسعه . والقضاءعلى اللغة العربية في أندونيسيا . وفرض كتابة اللغة

الأندونيسية بالحروف اللاتينية ، على الرغم من رغبة الأهالي الذين كانوا يرون الارتباط قوياً بين اللغة العربية والاسلام - يقول فؤاد محمد فخر الدين « إن الاسلام قد جاء بالعربية الى هذه البلاد ، هذه اللغة التي لا تفارق الاسلام أينما ذهب ، هي لغة الوحدة الدينية لجميع المسلمين ، وهي تربط أرواحهم رغم اختلاف أجناسهم ، وبها يتلون القرآن ويقفون على أسراره . واللغة الأندونيسية قد اقتبست واستمدت كثيراً من كلماتها من اللغة العربية ، واتخذت منها مصطلحات عديدة . وقد جاء ذلك عن طريق الاسلام نفسه .

وما تزال اللغة العربية بعيدة الأثر في نفسية الشعب الأندونيسي ، بينما لم تؤثر الهولندية أو اليابانية في روح الشعب ، لأنها فرضت فرضا خلال فترة الاحتلال الأندونيسي او الاحتلال الياباني (١٩٤٢ - ١٩٤٥) كما عمد النفوذ الأجنبي الى اصطفاء طائفة من الشباب الأندونيسي ونقلهم إلى انجلترا وهولندا ، وكونهم تكويناً خاصا اراد به فرض نفوذه عن طريقهم .

وقد حرص التعليم الغربي والتبشيري الى توهين اسس الاسلام في نفوس الشباب ، وأن يحمله على كراهية ثقافته القديمة ، فيقطعه بذلك عن تاريخ وروح الأمة التي ولد فيها ، والتي سيعمل من اجلها . وهذا هو ما تقوم به السياسة الاستعمارية في مختلف بلاد الاسلام ، وكان من دعواه احياء مجد الامبراطوريات الوثنية القديمة السابقة للاسلام كما فعل في العالم العربي حين دعا إلى الفرعونية في مصر ، والفينيقية في لبنان ، وفي اندونيسيا اتجهت الدعوة إلى احياء امبراطورية ما جاباهت الوثنية والمغالاة في تقدير هذا التاريخ ومحاولة اتخاذه مثلا اعلى في البطولة ، وكذلك كان لعلماء الآثار وعلماء اللغات القديمة دعواهم في هذا المجال . وقد جرت محاولات لمقارنة العصر الهندوكي الجاري القديم بمجد العصر الاسلامي في محاولة لرفع شأن الهندوكية على حساب الاسلام ، كما حاولت القوى الاستعمارية صبغ الجامعة الأندونيسية بصبغة قومية خالصة لاخراجها من جوهرها الاسلامي ، وطبعها بروح اقليمية ووثنية قديمة ، وذلك في محاولة لاقصاء مفهوم الوحدة الاسلامية التي تدعو إليه الحركات الاسلامية .

وقد عمقت قوى التبشير اعمالها وزاد من نشاطها ما قدمته لها الدول الأوربية من مساعدات بشكل واضح منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر ، حيث ابدوا نشاطاً واسعاً ، وأحرزوا بعض النجاح في مناطق نائية ، وجزر غير رتيسية . اما في أهم نواحي أندونيسيا فإنهم قد واجهوا مقاومة واسعة ووجدوا في اسلام منافساً قوياً لبساطته وسماحته التي تملأ القلوب . وقد عانت البعثات التبشيرية والارساليات خسائر كبيرة في هذا المجال ، فهم يربطون بين هذه البعثات وبين النفوذ الاستعماري بينما يربطون بين الدعوة الاسلامية وبين الحرية والمساواة والاخاء .

وقد واجهت جماعات شركة اسلام والمحمدية والشبان المسلمين حركة التبشير ، واستطاعت مقاومتها عمليا ، وقد اعترف (المستشرق ك .ك . برج) في كتابه : (وجهة الاسلام) إلى الدور الضخم الذي قامت به هذه الجماعات فقال : كان لها شأن عظيم بانشائها المدارس وتأسيسها المكاتب وفتحها إياها على المصراعين وبيع الكتب ، وانشاء المستشفيات ومآوي الفقراء ، وملاجيء الأيتام ، ونشر الثقافة الاسلامية والدعاية وترجمة الكتب الاسلامية الى لغة البلاد (فضلاً) عن الأخذ والتوفيق بين الاسلام وبين الظروف الجديدة (وبذلك) قطعت الطريق على المبشرين المسيحيين من وجوه كثيرة ، بعد أن اصطنعت وسائلهم .

ويقول الدكتور سنوك هروجنيه الهولندي الذي أمضى سبعة عشر عاماً في الهند الشرقية الهولندية مستشاراً لحكومة هولندا واستطاع أن يدرس قضايا الاسلام ، ويواجه مشاكل النفوذ الهولندي مع ٣٥ مليونا من المسلمين في أندونيسيا ، وساح في البلاد الاسلامية خلال ربع قرن يراقب الحركات الاسلامية . قال : إن المبشرين لا يزالون يتوقعون انضمام كل الأديان اليهم . أما بالنسبة للاسلام فلا تتحقق احلامهم . لأن الدين الاسلامي سيظل ديناً قوياً نشيطا . ذلك أن للاسلام شرائع تتعلق بالحياة في كل أطوارها . شخصية وعمومية وفردية واجتماعية . ومن الحق أن الاسلام في القرن الماضي تعرى من استقلاله السياسي باعتداء الدول الاوروبية عليه ، ونتج عن ذلك أن الاسلام اضطر أن يعدل آراءه وأعماله .

« وقد استنتج الباحثون أن القضايا الروحية متصلة تمام الاتصال بالقضايا المادية في الاسلام بحيث ان سقوط الاسلام السياسي يستلزم سقوط الاسلام نفسه ، ولكنني لا أوافقهم على هذا الرأي » . « وإذا كان الاسلام قادراً على احتمال ذلك التغيير ، فهو قادر على أن يطبق نفسه على قضايا الحياة الحديثة بطريقة يستطيع بها تابعوه ان يكونوا في مقدمة الصفوف في ارتقاء العالم ومدنيته » .

والمسلمون لا يقصدون أن يغيروا دينهم ، وقد احتاطوا اعظم الاحتياط لهذا الامر الذي أدركه كل المبشرين المتنورين في أرض الاسلام . ففي الهند الشرقية الهولندية . حيث قضيت سبع عشرة سنة ملتصقا تمام الالتصاق بالمؤسسات الاسلامية لا يقدر المرسل الديني أن يربح تابعين لدينه . ولا أعتقد أبداً أن الدين الاسلامي يسقط أمام الأديان الأخرى ، لأن المسلم محتاط أشد الاحتياط لمقاومة النفوذ الغريب ، وقد يرى أن تدينه بدين سابق ، خطوة إلى الوراء .

وقد تغلغلت الأفكار الأوربية في كل جهة من الأراضي الاسلامية ، ولكن لم يجد فيها الشعور الغربي مركزاً . ولهذا قيل بأن المسلمين سيستمرون على دينهم مهما اتخذوا من التهذيب والمدنية الغربيين . وفي كل المدارس الأوربية نجد كثيراً من الطلبة المسلمين قد درسوا العلوم الغربية بفروعها ، ولكن مجرى عقلهم لا يزال اسلاميا ، وقد كان بين يدي طلاب مسلمون . وعندما كنت أتناول مباحثهم التي يكتبونها . كنت أرى فيها مظاهر فكر إسلامي في شكل يختلف كل الاختلاف عما يكتبه طلبتي الآخرون . بل كنت أعرف الطالب المسلم من مباحثه .

ولا يمكن أن يقع انحطاط تدريجي في الاسلام ، حيث توجد بواعث خارجة تمنعه ، فالاسلام قوي لم يضعف ، ولا سيما في القرن الماضي . وقلّت فيه الانشقاقات الداخلية ، وزاد على ذلك أن الاسلام يربح أكثر من غيره ، تابعين له من الوثنية ، فالذي يصير مسلما لا يطلب منه شيء كثير . إذ لا يوجد تقديس ولا طقوس دينية ، ولا تعليم طويل .

فكل ما يطلب منه ان يعترف بالله أنه كلي الموة ، ومن ثم يتدرج إلى تعليم الفضائل الاسلامية وعندما يصير مسلماً يتغير مركزه الاجتماعي ، ولكن إذا اختار دينا آخر . فإنه يبقى دون غيره ١ هـ .

(٩)

الحركات الصوفية

لا يستطيع الباحث في تاريخ العالم الاسلامي المعاصر أن يتجاهل الدور الضخم الذي قامت به الحركات الصوفية كجزء من حركة اليقظة والاصلاح الاسلامي ، فالحركة السنوسية ، والحركة المهدية لها طابع صوفي ، وان كانت قد ربطت بين دورها الصوفي القائم على تربية النفس ، وبين دورها في الاصلاح الاجتماعي ومقاومة النفوذ الاستعماري .

والحركة الصوفية في مفهومها الأصيل هي تكوين أجيال من المسلمين على التربية النفسية المفطومة عن الشهوات القادرة على مواجهة انحلال المجتمعات بايجابية وقوة ، ومجابهة الغزو الخارجي بنفسية المجاهد المعتد للاستشهاد في سبيل حماية الفكرة والذود عن البيضة والدفاع عن الأرض والوطن . غير أن الحركة الصوفية لم تلبث أن انحرفت عن مفهومها الأصيل حين دخلت عليها مفاهيم فلسفية هندية ويونانية ، قتلت فيها روح الجهاد والمقاومة ، وأسلمتها إلى التواكل والجبرية . هذه الصوفية التي قاومها ابن تيمية ، ثم قاومها محمد ابن عبد الوهاب في العصر الحديث بعد أن تركت آثارها البعيدة المدى في المجتمع العثماني في العصور الاخيرة .

لذلك فقد كانت السنوسية والمهدية من بعدها تحريراً للصوفية من جمودها ، وتخليصاً لها من مفهوم الجبرية ، ومفاهيم الحلول والاتحاد ووحدة الوجود . وكانت السنوسية والمهدية ثمرتين خالصتين من ثمار دعوة التوحيد التي قادها محمد بن عبد الوهاب ـ غير أن هناك طرقاً صوفية اخرى ظهرت في آسيا وأفريقيا كان لها دورها الضخم : كالشاذلية ، والتيجانية ، والرفاعية ، والقادرية .

هذه الطرق كانت بعيدة المدى في نشر الاسلام ، ومقاومة حركات التبشير العربية التي انطلقت موازية للنفوذ الاجنبي منذ أواخر القرن التاسع عشر . ودور هذه الطرق ، بالاضافة الى السنوسية والمهدية لا حد لاهميته في الدّعوة إلى الاسلام . غير أن انحرافات قد أصابت هذه الحركات ، حيث اتصل بعضها بالنفوذ الاستعماري ، وعاونه على توطيد نفوذه .

وإذا كانت السنوسية قد نشأت في مواجهة تحدي الغزو الفرنسي للجزائر ، فكانت عاملاً خطيراً في وجه التوسع الغربي فى أفريقيا، فان الطريقة النقشبندية التي نشأت في أواسط آسيا وامتدت شرقا حتى بلغت الصين كانت عاملا هاماً في ثورة المسلمين الكبرى في تركستان الصينية ، كما اوقدت الثورات ضد النفوذ الاستعماري في جزائر الهند الشرقية ، وكذلك كانت المهدية عاملاً في نشوب الثورة ضد النفوذ الأجنبي في أفريقيا .

وفي قلب أفريقيا ظهر « مهدي الصومال » الذي اشعل الحرب ضد النفوذ الأجنبي بها سنوات ، ويسجل المؤ رخون ظاهرة انتعاش الاسلام ، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، من طريق نشاط حركة التصوف فقد شهدت هذه الفترة ولادة الطرق الصوفية التي كانت تتميز باتساع رقعة الفرق القديمة وتأسيس فرق جديدة ، كما ازدهرت الحركة الصوفية « في البلاد الاسلامية غير العربية » .

وتحتل المجموعة العربية البربرية في أفريقيا المغربية التي لعبت في الماضي دوراً هاما في الحركة الصوفية خلال القرون الوسطى مركزاً في الدرجة الاولى من هذه النهضة الحديثة لحركة الصوفية . وقد أسس عدد من الطوائف الجديدة في القرن ١٨ الميلادى، في كل من الجزائسر ومراكش، وقامت هذه الفرق بنشاط شديد لا في مواطنها فحسب ، ولكن كذلك في الصحارى وفي أفريقيا الغربية .

وقد كان لهذه الطرق الصوفية أثرها الواضح في توسيع رقعة الاسلام في أفريقيا ، وجنوب شرق آسيا في العصر الحديث . فقد أدخلت ملايين كثيرة من الوثنيين ، وحققت نسبة عالية للاسلام في أفريقيا بالذات .

وقد كان لتوجيهات جمال الدين ومحمد عبده في مفهوم الصوفية وتحريره من الجبرية أبعد الأثر في طابع الايجابية الواضح في هذه الطرق والفرق . غير أن هذه الطرق هي القوة الذاتية الوحيدة التي وقفت ولا تزال تقف أمام البعثات التبشيرية في الهند وأندونيسيا وجزائر الملايو وأفريقيا . وقد اختطت الحركة طريقها في الأغلب في المناطق الوثنية . أما في المغرب والجزائر فقد تعارضت بعض الطرق والفرق مع الحركة الوطنية . ومن هنا دافعتها الحركة السلفية ، وقضت عليها ، بعد أن ثبت اتصال بعض الطرقيين بالمستعمرين واستغلال تصوف الاسلام استغلالا خاطئاً منحرفا . وهناك ظاهرة واضحة جديرة بالتسجيل هي : أن النفوذ الاستعماري قد حاول الانتفاع بالطرق الصوفية في مصر وشمال أفريقيا . من أمثال الشيخ الدمرداش في مصر وشيوخ التيجانية والكتانية في المغرب . ولقد كان للتيجانية دور خطير في مقاومة جهاد الأمير عبد القادر الجزائري والأمير عبد الكريم الخطابي . فقد أعانوا النفوذ الاستعماري الفرنسي وأيدوه .

وقد قامت الحركة السلفية في المغرب وجمعية العلماء في الجزائر بدور كبير في معارضة الدور الذي قامت به هذه الطرق ، وكشفتها أمام الجماهير الاسلامية ، وسجلت عليها أخطاءها وتصرفاتها المعارضة للوطنية والاسلام معاً . وقد اتخذت الحركة السلفية في مواجهة ذلك أسلوب العمل الايجابي حيث بدأت بإنشاء المدارس القرآنية في مختلف القرى ، وكشفت عن مفهوم الاسلام في مفهوم التصوف نفسه . وكان للحركة السلفية التي قادها الشيخ محمد عبده في مصر دورها في توجيه الطرق الصوفية في مصر فألف محمد توفيق البكري نقيب الأشراف كتابا هاماً في هذا الصدد كشف فيه عن مفهوم الصوفية للاسلام تحت عنوان (التعليم والارشاد) أشار فيه ان للمعرفة طريقين : طريق النظر والاستدلال ، وطريق الرياضة والكشف . وقال إن العلوم الضرورية هي العقائد والعبادات وتدبير المال ، وتدبير الأمة ، وتدبير المنزل ، وعنده أن للتربية ثلاث مدارس : مدرسة العائلة ، ومدرسة التعليم ، ومدرسة الدنيا . والمبادىء السائدة في المدارس الثلاث متناقضة للآن في ما تعلمه . مدرسة العائلة ومدرسة التعليم ، هما الأساس الذي تشيد على دعائمه

آثار التربية في المدرسة الثقافية . لهذا وجب أن يكون في الأمة رجال أقاموا انفسهم مرشدين يختص كل منهم بفئة من النأس ، يلازمهم ويراقب اعمالهم ، ويردهم إلى الفضيلة عن الرذيلة . وإلى الصواب عن الخطأ ، ولا ينقطع أثر تهذيبه وتقويمه عنهم مدى العمر ، ولما كان مشايخ الصوفية وخلفاؤهم هم الذين انتدبوا للارشاد بين الناس فهم فرسان هذا الميدان ، ورجال هذا المعترك ، وعليهم المعول في التقويم والتثقيف .

***

وفي مختلف أنحاء العالم الاسلامي توجد فرق الصوفية وخاصة في تركيا وإيران وباكستان وأفغان والملايو : النقشبندية والشنشنية والقادرية والجيلانية والمولوية ، وهي ما تزال أقوى مما هي عليه الآن في البلاد العربية ، التي غلب عليها مفهوم السلفية المحررة للفكر الاسلامي من الغيبيات والجبرية ، وهي سائرة في طريقها إلى التماس مفهوم الاسلام والتحرر من مفاهيم الفلسفات الهندية واليونانية التي تتصل بوحدة الوجود والاتحاد والحلول .

(١٠)

ثمرة الحركات الاسلامية

قامت حركة اليقظة والاصلاح الاسلامية على إبداع جهاز دفاعي للاسلام ، عماده التماس المنابع الأصيلة وجوهر الاسلام ، وقد عملت على تحقيق أمور ثلاثة :

(١) تحرير الفكر الاسلامي من التقليد والجبرية والجمود ، وإعلان أن باب الاجتهاد مفتوح لم يغلق ، وإزالة ما تجمع خلال فترة الضعف مما نسب إلى الاسلام أو وصل به وهو ليس منه ، وفي مقدمتها الوثنيات وطوابع الفلسفات المادية والقديمة .

(٢) التوفيق بين الاسلام وقضايا العصر والحضارة على النحو الذي يحقق قيام المجتمع الاسلامي على روح الاسلام وقيمه مع انفتاح على الحضارة وعرض الاسلام كأيديولوجية صالحة لنظام المجتمع والكشف عن أنه دين ومدنية معاً ، وليس ديناً لا هوتيا خالصاً ، وأنه لا يقف عند جانب معين من حياة الانسان وشؤونه ، وأنه يربط بين عنصري الفرد والجماعة ويصهرهما معاً . كما يربط بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة .

(٣) مقاومة الاستعمار والنفوذ الاستعماري والتفرقة بين الاستعمار والحضارة من ناحية والثقافة والحضارة من ناحية أخرى .

وقد تتابعت حركات اليقظة حلقات متصلة بدعوة التوحيد ، وتوسعت فروعها

في تغطية مختلف الجوانب ، ومواجهة مختلف التحديات دون أن تنزع نفسها من الترابط : التاريخ العضوي المتصل اساساً بمفهوم الاسلام كما رسمه القرآن وطبقه الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد كان عمل المجددين المسلمين من المصلحين والسلفيين بالغ الأهمية والخطر . فقد كانوا يواجهون روحا من الجمود.والجبرية ، وكان العمل للخروج من ظلمات مرحلة الضعف والتخلف يحتاج الى كثير من الحضانة والمرونة .

وكان الهدف هو توحيد فكر المسلمين على مفاهيم مستمدة من القرآن أساساً : باعتباره ينبوع الفكر الاسلامي ، والثقافات العربية والفارسية والتركية والهندية والملاوية والأندونيسية ، وهي مفاهيم أكثر ايجابية وتحرراً مما وصل إليه المسلمون من جمود وجبرية ، وكذلك التقريب بينهم اجتماعيا وفكريا بعد أن باعدت بينهم خلافات مذاهب الفقه والفلسفة والتصوف وأهمها الخلاف بين السنة والشيعة ، ولم تكن هذه الخلافات في مجموعها الا خلافات الأحزاب السياسية التي انطوت وانتهت وكان على هذه الخلافات أن تنتهي معها . ثم إنها لم تكن تنصب إلا على مسائل فرعية لا عبرة بها ، ولكن الأحزاب السياسية القديمة المختلفة قد غالت وقسمت الناس إليها ، ثم توارث الناس هذا الانقسام .

فلما جاء الاستعمار الغربي والنفوذ الأجنبي حرص على إبقاء هذا الخلاف وتأريثه . وذلك بالتحريض الذي شجع عليه بين السنة العثمانية والشيعة الفارسية . وكان له دور في ابلاغ الخصومة مبلغها بين فريقين من المسلمين يقولان لا إله إلا الله ، ويجتمعان في أصول فكرهما حول مفهوم التوحيد والنبوة . وقد حرص الاستعمار والنفوذ الغربي في كل مكان حل فيه على إثارة الخلافات والمذاهب القديمة كالفينيقية في الشام ، والفرعونية في مصر ، والبربرية في المغرب ، وأوقد الصراع بين المسلمين والهندوس في الهند ، وحاول إحياء التاريخ القديم السابق للاسلام في فارس وأندونيسيا والهند وتركيا . وذلك في محاولة خطيرة للحيلولة دون اجتماع المسلمين على فكر

موحد يكونون به أقدر على الالتقاء والمواجهة الموحدة للنفوذ الاستعماري ومقاومته والقضاء عليه .

وقد عمد جمال الدين الأفغاني الى تحقيق ذلك حين حمل لواء الدعوة إلى اللقاء بين السنة والشيعة . وقد سارت هذه الدعوة من بعد خطوات واسعة .

كذلك عمد الألوسي (أبو الثناء) إلى التقريب بين الفقهاء والصوفية ، وتوحيد قلوب أهل العراق خاصة ، والمسلمين عامة سنيهم وشيعيهم ، ورفض الخلافات بينهم عن طريق التقريب بين المذاهب .

ومثله فعل العلامة جمال الدين القاسمي في الشام حين اعلن أن الاسلام لا يجيز تكفير أحد ممن استقبل القبلة ، كما هاجم التعصب بحسبانه مفرقاً بين الناس ومقيداً للمعقول . وقدنجحت الحركة السلفية الاصلاحية في كل مكان سارت إليه حين تخطت الحدود غرباً حتى وصلت إلى المغرب الأقصى ، وشرقاً حين وصلت إلى الهند الاسلامية وأندونيسيا ، وأعطت الأعمال السياسية والاجتماعية صبغة اسلامية خالصة ، وعملت على التوفيق بين الاسلام وحاجات العصر . وكان ا الامام الشوكاني في اليمن (١١٧٣ ـ ١٢٥٠هـ) مقدمة لليقظة التي تلت حركة التوحيد في شبه الجزيرة . وكان قد سبقته دعوة محمد بن إسماعيل الأمير (١٠٩٩ ـ ١١٨٢م) وكانت كتابات الشوكاني ذات أثر في ازالة الركود المتراكم خلال القرون . وإن لم يكن مصلحا داعيا . وقد اكتفى بالتأليف ، شأنه شأن الكثيرين .

وعاد الشيخ أبو شعيب الركالي إلى المغرب من زيارة المشرق (مصر والحجاز) داعيا إلى التوحيد والاصلاح ، والتماس مفاهيم الكتاب والسنة ، والتف حوله جماعة من الشباب النابغ ووزع الكتب التي كان يطبعها المنار في مصر ـ كما ظهر محمد بن العربي العلوي في فاس ، فشنّ الحملة على الصوفية الجبرية ، وكان ذلك مقدمة لقرار مولاي عبد الحفيظ الذي تولى الحكم في مراكش عام ١٩٠٧ باقفال الزوايا الكتانية . وقد كان للحركة السلفية الفضل في احياء القومية الجزائرية بعد أن أنكرها الموالون للفكر الفرنسي الاستعماري ، وكان لها فضل الحفاظ على التراث العربي الاسلامي للجزائر

بعـد أن كاد أن ينمحي اسمـه ، وكان للامـام عبـد الحميد بن باديس وجمعية العلماء بالغ الأثر في ذلك . وقاومت السنوسية في كفاح طويل حرب الابـادة الايطالية (١٩١١ - ١٩٣٣) في مقاومة بطولية رائعة ضد قوة أوربية مسلحة . وكان في مقدمة رجالها : أحمد الشريف السنوسي وعمر المختار .

وكان لأتباع « المنار » في تونس والمغرب دورهم البالغ في مقاومة الاستعمار الفرنسي ، وقد أطلقوا على أنفسهم اسم المدرسة العبدية (انتسابا إلى محمد عبده) وقاومـت الحـركة الاصـلاحية تقـرب العلمـاء للأمـراء والسـلاطين ، وتهافتهم على أموالهم ، وحاربت رجـال الـدين التقليديين ورجـال الصـوفية المعاونين للاستعمار . كما قامت بطبع مختلف كتب التوحيد ، كما فهمه ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب ووزعتها في مختلف انحاء العالم المتعددة بفضل جهود طاهر الجزائري في الشام ومحمـد عبـده ورشيد رضـا في مصر ، والركالي والعربي العلوي في المغرب ، وجماعة اهل الحديث في الهند والسعودية في نجد والحجاز .

وفي مصر قامت مدرسة دار العلوم ١٩٠٧ بقيادة عبد العزيز جاويش وحفني ناصف ، ومحمد المهدي ، ومحمد عبد المطلب ، وعبـد الوهـاب النجـار واحمد السكندري وحملت لواء اللغة العربية . وكانت مدرسة الهند الاسلامية من المدارس الكبرى ذات الأثر البعيد ، ومن رجالها السرهندي والدهلوي ، واحمد خان ، وشبلي النعماني ، وامير علـي ، وأبـو الـكلام أزاد ، ومحمـد إقبال .

(٢)

كانت المرحلة التي قاد خلالها الامام محمد عبده حركة اليقظة يطلق عليها « الاصلاح » وكلمة الاصلاح كانت معروفة وشائعة في مجال الفكر الاسلامي في الدولة العثمانية . وقد كانت ترمي الى الاصلاح السياسي المدني .

يقول رشيد رضا « مرادنا بالاصلاح الديني ما يؤدي إلى المحافظة على الدين ، والعمل به ، وجمع كلمة المسلمين ، وأهم اركان الاصلاح الاسلامي جمع المسلمين على عقيدة واحدة ، وأصول واحدة ، وقانون شرعي واحد ، لا يحكم عليهم غيره من أي نوع من أنواع الأحكام ، ولغة واحدة ، وتوحيد العقائد والآداب ، في أصولها الثلاثة صحة الاعتقاد ، وتهذيب الأخلاق ، وإحسان الأعمال » . وقد استهدفت حركة الاصلاح الفكري الوحدة بين المسلمين ، هذه الوحدة التي لا تمنع الاختلاف في المسائل الفرعية ، والتي ليست من أسس الاسلام . ودعت إلى :

(١) توحيد الأحكام وعمل منهج يوحد بين جميع المذاهب الاسلامية بما ينطبق على حالة العصر . وفي توحيد الأحكام الشرعية إرضاء لجميع مذاهب المسلمين في الفروع .

(٢) توحيد اللغة ، فاللغة هي مناط الجنسية ومعقد الارتباط . وذلك بحسبان ان اللغة العربية هي لغة العالم الاسلامي ، وهي ترجح اللغة التركية بانها لغة الدين .

(٣) تلافي البدع والتعاليم الفاسدة .

وكانت دعوة الاصلاح ترى أن هذا المنهج في تجديد الاسلام من شأنه أن يوحد المسلمين ضد هجمات أوربا عليهم ، والالتقاء بين السنة والشيعة ،

وبين مذاهب السنة المختلفة . وقد استهدفت دعوة الاصلاح : إصلاح التعليم في الأزهر ، وإصلاح الادارة والاصلاحات السياسية . وكان من أبرز أهداف حركة الاصلاح فتح باب الاجتهاد . وقد كشف الأستاذ رشيد رضا ١٩٠١ عن ذلك في المنار فقال : إن الأحكام القطعية المعلومة من الدين بالضرورة لا اجتهاد فيها . لأن طلب معرفتها تحصيل حاصل كتحريم الظلم والخمر وفرض الصلاة والعدل ، وجملة القول إن الاجتهاد هو النظر في الامور الشرعية التي هي في الكتاب والسنة والاجماع والقياس لمعرفة احكام الفروع التي لم تثبت بالأدلة القطعية المتواترة والمقيدة في شروط فهم الكتاب والسنة ، ومعرفة مقاصد الشرع والوقوف على أحوال الناس وعاداتهم . لأن الشريعة ولا سيما المعاملات دائرة على مصالح الناس في معاشهم ومعادهم . أي على قاعدة درء المفاسد وجلب المنافع. وقال: إن إقفال باب الاجتهاد معناه أنه لم يبق في الناس من تتوفر فيه شروط المجتهد . وقال هذا القول بعض المقلدين لضعف ثقتهم بأنفسهم ، وتعظيم عقول السابقين . ولذلك أجمع الناس على المذاهب الأربع ، ولو أجيز للعلماء الاجتهاد لجاؤوا بمذاهب كثيرة ، والمحققون يعلمون أن منشأ هذا الحجر هو السياسة . فالسلاطين والامراء المستبدون كانوا يخافون العلم ، ولا علم لهم بالاجتهاد.والمقلد هو الذي يقلد السابقين ، فهو ناقل لا عالم . وقد أقفل باب الاجتهاد بعد القرن الخامس . ولكن كثيرا من العلماء اجتهدوا بعد ذلك ، فلم يكونوا يعملون الا بما يقوم عندهم من الأدلة ، ولا يخلو زمن من هؤلاء . .

***

كان هدف الاصلاح واليقظة اساسا هو تحرير التوحيد ، ورسم خطط الالتقاء بين الاسلام والحضارة ، ومفاهيم العلم والعصر .

وقد امتد عمل محمد عبده في الثقافة والتربية والصحافة والأزهر ، وكانت له توجيهاته في مجال الطرق الصوفية واللغة العربية جميعاً ، وامتد عمله مغرباً حتى وصل مراكش وتابع المنار هذا العمل . أما مدرسة الشام فكان أبرز اعلامها القاسمي والبيطار وشكيب أرسلان وطاهر الجزائري . وكان أبرز رجال مدرسة المغرب : الركالي والعربي والمهدي . اما مدرسة العراق : فقد كان

من قادتها الألوسي . أما مدرسة تونس فكان على رأسها الخضر حسين والطاهر بن عاشور وعبد العزيز الثعالبي .

(٣)

تتسم المدرسة السلفية المغربية التي انبثقت عن دعوة محمد عبده والمنار بالربط بين روح العمل في مجال الاصلاح الاسلامي ، والحركة الوطنية معاً ، وهي تلتمس مفهوم الاسلام الأساسي في الربط بين الدين والمدنية ، يقول علال الفاسي ان السلفية المغربية ترفض فكرة لا دينية للدولة . وبذلك تجعل الحكومة الاسلامية حارساً على الأخلاق والفضيلة في وسط الأمة ، وتطالبها بتهيئة سائر الوسائل التي تسهل على الفرد القيام بالواجبات الفردية والاجتماعية ، وتحمله عن طريق الاقتداء والمتابعة على السلوك الحسن فى علاقته مع عائلته ، وتؤمن بأنه يجب أن لا يبتعد المسلمون عن القانون المستمد من الشريعة الذي يصبح مطوراً للفقه الاسلامي أصولاً وفروعاً كمادة تشريع مدني عام . وتؤمن المدرسة السلفية الحديثة كما يصورها علال الفاسي بالقومية بحيث لا تصل الى الحد الذي يحول بين التقارب المطلق بين سائر الشعوب الاسلامية والعربية بصفة خاصة . « وإلا أصبحت عنصرية تتنافى مع الأصل الأصيل للاسلام » . وترى انه لتسهيل هذا التقارب يجب أن تتوافق أساليب الثقافة في وسط المسلمين ، وان يعمل على جعل اللغة العربية صالحة لتكون لسان العالم الاسلامي كله ، وصلة الوصل بين سائر افراده ، وللوصول إلى هذه الغاية لا بد أن تتحرر البلدان الاسلامية من سيطرة الأجنبي المادية والمعنوية . ومن أبرز رجال المدرسة السلفية[1] المغربية عبد العزيز الثعالبي وعبد الحميد ابن باديس ، ومحمد بن العربي العلوي .

وقد كان الثعالبي مصلحا اجتماعيا وسياسيا ووطنيا في آن ، وهو يؤمن بأن

---

١ ـ راجع تراجم هؤلاء الاعلام في كتابنا (الجيل في اعلامه) .

العرب قصروا في أداء واجبهم وحماية الأمانة ، ومن ثم طغت عليهم الأمراض الاجتماعية ، وقامت أوربا تنازعهم السيادة ، وكان يردد دائما أن تونس جزء من الأمة العربية ، وأن مصر مستقر الدعوة والكفاح ، وعنها تلقى رجال الاصلاح في تونس دعوتهم ، وعلى مثالها سيروا كفاحهم . وقد بث الثعالبي دعوة الحرية ، وناضل المستعمرين في سبيل حصول الأمم المغلوبة على حقها . وأهاب بأبناء الأمة إلى التناصح بالحق ، والتعاون في انشاء المؤسسات النافعة ، فلزم أن تكون الدعوة هذه راجعة إلى مبدأ يؤلف بينها ، وخطة توحد وجهتها نحو الغاية المثلى . وقد دعا الثعالبي الى الكشف عن أمجاد تاريخنا وفلسفة نشوئنا القومي . وقال إن ذلك يستتبع العمل على توحيد مصادر الثقافة في البلدان العربية كلها . وقد طاف الثعالبي بالعالم الاسلامي كله وأقام في مصر فترة طويلة وكتب في صحفها فصولا رائعة عن أزمة العالم الاسلامي الاجتماعية والاقتصادية ، وله كتاب أسماه « روح القرآن » دعا فيه الى الاصلاح الاسلامي والبعد عن الجمود .

أما الامام عبد الحميد بن باديس فقد حقق بانشاء جمعية العلماء الجزائريين عملاً ضخما بعيد المدى في المحافظة على اللغة العربية من الاندثار في الجزائر ، والاصلاح الاسلامي ، ومقاومة الجبرية والجمود ، وفتح اكثر من ثلاثمائة مدرسة في المساجد . وخلق فكراً اسلاميا يقظا . كان مصدراً ووقوداً للثورة الجزائرية . وقد اتسم بالحزم والعزم وحصافة الرأي ، والتحرر من الجمود ، وتطهير العقيدة الاسلامية من الدخيل ، واحياء اللغة العربية ، وتقوية الشعور بالشخصية العربية في الجزائر . ومن ذلك قوله : « إننا نرى الأمة الجزائرية موجودة ومتكونة على مثال ما تكونت به سائر امم الارض ، وهي لا تزال حية ولم تزل . ولهذه الامة تاريخها اللامع ووحدتها الدينية واللغوية ، ولها ثقافتها وتقاليدها . هذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا ولا تريد أن تصبح فرنسا ، ومن المستحيل أن تصبح هي فرنسا ». *

راجع الحركة الادبية الفكرية في تونس للفاضل بن عاشور .

وكان الامام محمد بن العربي العلوي داعية الاصلاح واليقظة في القطر الثالث المغرب ، وله آثاره البعيدة المدى في اعداد جيل جديد من أبرز رجاله الفاسي وكنون وغيرهما من مفكري المغرب اليوم .

(٤)

أما المدرسة الاصلاحية التجديدية في الشام فقد كانت خصبة غنية ، وابرز رجالها : طاهر الجزائري (١٨٥٢ - ١٩٢٠) وقد عمل الجزائري على تكوين جيل من المصلحين ، كان في مقدمة رجاله : القاسمي والبيطار ومحمد كرد علي ومحب الدين الخطيب وعبد القادر المغربي .

يقول : « ان الامة في احتياج شديد الى من يبين لها الطريق الاقوم من أرباب الاخلاص ، واعظم ما تحتاج اليه هو امر الاخلاق وما يتعلق بها ، ومعرفة الامور العمرانية على وجه لا يكون فيه اخلال بمعالي الامور » . ويقول « ان لكل امة شعاراً اذا تركته طمع فيها واستضعف جانبها وربما صارت مندمجة في غيرها » .

وقد أحيا طاهر الجزائري مئات من الكتب الاسلامية ، والمخطوطات ، وألف كثيراً ، وكان عمله في مجال النهضة بعيد المدى .

ويعد جمال الدين القاسمي في مقدمة المصلحين المسلمين ايماناً بدور الامة العربية في اليقظة الاسلامية « لما كانت الامة العربية هي المختارة لتهذيب الامم وتعديل عوجها ، واقامة منار العدل في ذلك العالم المظلم . فقد وجب ان التهذيب الالهي ينزل بلغتها خاصة حتى تستمد وتتهيأ لاداء وظيفتها . وجمال القاسمي هو امام الشام في عصره (١٨٦٦ - ١٩٢٤) .

ومن اهم مؤلفاته : قواعد التحديث في فنون مصطلح الحديث . وله تفسير للقرآن في اثني عشر مجلداً . وقد قام مع زميله الشيخ عبد الرازق البيطار بالدعوة الى الاجتهاد والجهر بكلمة الحق ، في دمشق عام ١٣١٣ . واحتملا في سبيل ذلك كثيراً من المشقة والاعنات .

وكان عبد القادر المغربي من المصلحين والعلماء في مجال الاسلام واللغة

العربية ، وله آثاره في مجال الاشتقاق والتعريب ، والاخلاق والواجبات . ومن آثاره قوله : ان اي نوع من الاصلاح لا يتم الا بسعي الذين يعنيهم امره ، واصلاحنا الاسلامي انما يعني علماء الدين ، فهم المكلفون به ، المخاطبون شرعاً بالعمل على تحصيله ، وليس العمل منهم سوى الدعوة اليه . بخطبهم وكتاباتهم وتآليفهم ، حتى اذا اقتنع بذلك جمهور الامة ومعظم افرادها هبوا هبة واحدة. وعماد الاصلاح بوجه عام، انما هو التربية والتعليم الاسلاميان، او كما يقال : هو المدرسة الاسلامية . هذا هو اصل الاصول . وقد اتجه عبد القادر المغربي الى النظر في عديد من قضايا الاصلاح والاجتهاد ، وله في مجال المرأة وموقف الاسلام منها آراء طيبة . قال عبد القادر المغربي : ان الحجاب ليس من اسلام ، الحجاب الاسلامي اثر من آثار ارستقراطية المرأة وملكيتها في الاسلام ، وليس هو اثر من آثار احتقارها او عبوديتها . وقال في (توريث البنت نصف ارث اخيها) لأن الأبناء لما كانوا هم الذين يخلفون آباءهم في أسرهم . كانوا في حاجة الى المال اكثر من اخواتهم البنات اللواتي يندمجن في اسرة اخرى غير مكلفات فيها النفقة . وقال في (شهادة المرأة نصف شهادة الرجل) المرأة بعيدة عن معترك الاعمال التي يقوم بها الرجال ، والتي تكثر فيها الدسائس والمخادعات . لذلك رأى الاسلام ان يتعزز عن تحمل الشهادة بواحدة من بنات جنسها ، فتذكر كل منهما صاحبتها .

ومن مدرسة الشام العلامة : الامام رشيد رضا تلميذ محمد عبده وخليفته على نهجه ، وصاحب المنار (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) وقد جاء الى مصر ١٨٩٠ . وعمل مع الشيخ المفتي ، وأنشأ مدرسة الدعوة والارشاد في مصر . وله من آثاره : تفسير المنار (١٢ مجلداً) ومجلة المنار (٣٤ مجلداً) وتاريخ الامام الشيخ محمد عبده .

ومن قبل خرجت الشام علامتها الكبير عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ ـ ١٩٠٢) صاحب الدعوة الى قيام الامة العربية بدورها في يقظة الاسلام ، وصاحب ام القرى ، وطبائع الاستبداد . وله كتابات متعددة في

الاقتصاد والزكاة[1] . وقد وضع الكواكبي تخطيطاً لوحدة المسلمين السياسية في النطاق الدولي ، وعالج ازمات الفكر الاسلامي على هيئة مؤتمر ضمنه مختلف المعضلات وحلولها .

اما مدرسة العراق فكان علامتها « الألوسي ابو الثناء » وتبعه الالوسيون ، وأشهرهم حفيده محمود شكري الالوسي . وهو صاحب التفسير المشهور (روح المعاني) في تسعة مجلدات الذي طبع في بولاق ١٣٠١ هـ . وقد كان الالوسي مجدداً واضح الاثر في أوائل القرن التاسع عشر ، وهو مفتي بغداد ، وامام العراق في اللغة والدين والتفسير في النصف الاول من ذلك القرن ، وله عشرات من الفتاوى والمؤلفات والكتابات النافعة ، وكان مجلسه مجلس العلم والادب ، وعنه تخرجت مجموعة كبيرة من الادباء والمؤرخين والفقهاء . ومن خلفاء مدرسة الالوسي اليوم العلامة : محمد بهجت الاثري . وقد جمع الالوسي الكبير بين مذهب التوحيد والتصوف والفقه جميعاً ، وصاغ ذلك كله صياغة جديدة حاول بها الجمع بين هذه الطوائف ، وتوحيد الامة على فكر واحد ، قوامه التوحيد ، وكان حذراً في خطواته حتى لا يصطدم بالمتعصبين ، وكان عاملا من عوامل التقريب والتجميع والتلاقي ، والقضاء على الخصومات والفوارق المذهبية الضارة ، وقد رد على الغلاة من دعاة الفلسفة الصوفية ، ووحدة الوجود ، وفضح الملحدين والباطنية ، وقطع ببطلان الفلسفة اليونانية والافلاطونية الحديثة ودعا الى منطق القرآن كما فهمه الغزالي وابن تيمية .

---

١ ـ راجع دوره الفكري في كتابنا (يقظة الفكر العربي) .

(٥)

اما المدرسة الهندية الاسلامية ، فقد كانت ذات اثر واضح في الفكر الاسلامي كله ، ولم يقف اثرها عند مسلمي الهند وحدهم .

ويعد احمد السرهندي (٩٧٧ ـ ١٠٣٤) مجدد الالف الثاني . فقد ظهر في خلال الازمة التي اثارها الامبراطور « اكبر » بالدعوة الى مزج الاديان المختلفة في دين واحد ، واستطاع ان يحرر الفكر الاسلامي ، والمجتمع الاسلامي الهندي من اخطار هذه الدعوة ، وتمكن في عهد خلفه « جهانجير » ان يعيد كثيراً من الاصول الإسلامية الى المجتمع الاسلامي الهندي . كما عمل السرهندي الى مهاجمة الصوفية التي تأثرت بفلسفة البراهمة والفلسفات الاخرى ، ورد على فكرة وحدة الوجود والحلول والاتحاد ، ودعا الى التصوف الاسلامي الخالص المستمد من المنابع الاسلامية ، كما نصح للامراء والحكام ، واستطاع ان يقاوم عدداً من البدع . وفي مقدمتها بدعة السجود امام الملك .

وكان شاه ولي الله الدهلوي (١١١٤ ـ ١١٧٦ هـ) من ابرز الدعاة المسلمين في فترة من أرق فترات المجتمع الاسلامي الهندي ، وهي مرحلة الاحتلال البريطاني .

فقد صحح مفهوم التوحيد الاسلامي ، ودعا الى الاتصال المباشر بالكتاب والسنة ، وبين أصول الاسلام واسسه في تنظيم الحياة والمجتمع ، وقام بمهمة التجديد الاسلامي ، وقاوم ما ساد في عصره من انحلال وفساد ، وهاجم العوامل التي ادت الى تدهور المجتمع ، وعمل على الجمع بين الصوفية الخالصة والسنة الخالصة . وقال : ان المسلم الحق يجب الا يقبل الانحطاط الغامر وقد عالج الدهلوي نظرية الاسلام السياسية ، ودحض المعتقدات المخالفة للسنة ، واهمية كتابه التحفة الاثنا عشرية ان الاسلام ليس مسألة ولاء

لاشخاص ، ولكنه حركة يكون الفضل الاساسي فيها ، والولاء للمثل العليا . وقد فاق الدهلوي الغزالي وابن تيمية ، وجمع بين التصوف والتسليف ، وترك أثراً لا يمحى في تطور الفكر الاسلامي ، وكان لنظرياته وفعالياته اثرها في حركة المد التي ادت الى نضال المسلمين في سبيل الاستقلال من خلال دور التدهور والانحلال .

وقد عاصر الدهلوي حركة التوحيد التي قادها الامام محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية ، وللدهلوي مؤلفاته الكثيرة . وفي مقدمتها كتابه الخطير : « حجة الله البالغة » .

وقد كان لهذه الحركة اثرها في المقاومة العنيدة التي ابداها المسلمون ازاء النفوذ البريطاني مما اجج ثورة ١٨٥٧ م التي ازعجت الاستعمار البريطاني . وبدأت على اثر ذلك حركات اسلامية فكرية تدعو المسلمين الى التعليم والمحافظة على التراث الاسلامي ، وقد عملت هذه الحركات في الميدانين التقليدي والحديث ، وكانت كلية عليكرة التي اسسها احمد خان عام ١٨٨٧ اول خطوة نحو الدراسات الحديثة للمسلمين . فقد كانت دعوته انما ترمي الى ان يكون التعليم الحديث اكبر عامل لتحرير المسلمين وتقدمهم ، وفي نفس الوقت قامت جمعيات مختلفة اهمها جمعية علماء الهند في البنجاب ، ودار العلوم في ديوبانر ، وندوة العلماء في لكنو والجامع العباسي في بهادلبور ، واستهدفت هذه الهيئات المختلفة مقاومة التبشير الاستعماري وخلق جو مدرسي اسلامي يجمع شباب المسلمين ويحميهم من اخطار المعاهد التبشيرية ومدارس الارساليات التي تعمل للقضاء على الثقافة الاسلامية . وقد نشأت في مختلف المدن الاسلامية على اثر تفشي التبشير جمعيات مختلفة لحماية الاسلام ، قامت بالدعوة الى الاسلام والرد على الشبهات . وبذلك نهضت الحركة الاسلامية الاصلاحية نهضة كبرى على مختلف مستويات الثقافة والتعليم . ومن خلال هذه الهيئات ظهرت حركة ثقافة اسلامية قوامها : شبلي النعماني وحافظ نظير ومحمد حسين ازاد وسيد الطاف حسين ، وكان لها تراث ادبي قوامه (الرجوع الى اساسيات الاسلام، كما اوحاه الله في الفرآن) وكان رجال جمعية اهل القرآن يدعون الى تأكيد قيمة القرآن ، وكانت جمعية اهل

الحديث تقوم بتطهير الاسلام في الهند من اعمال الوثنية . وقد كان للجامعة الاسلامية ، وجامعة عليكرة ، والجامعة الملية ، ودار العلوم ، وندوة العلماء آثارها الكبرى .

وقد قدم شبلي النعماني وأمير علي وابو الكلام ازاد : اعمالا كبرى للفكر الاسلامي ، ثم تبعهم محمد اقبال الذي يعد اعظم ثمرة لليقظة الاسلامية الهندية للفكر الاسلامي العالمي . فقد اعاد شبلي النعماني في كتابه التاريخ الاسلامي وتاريخ اعلام الاسلام من جديد ، مصححاً شبهات التبشير والاستعمار ، كما كان لتوليه قيادة ندوة العلماء أثره في تكوين جيل من الباحثين والمصلحين . ولقد لقب بشمس العلماء . وقد امتاز بقدرته على اتقان اللغة العربية وحسن الذوق في فهم منثورها ومنظومها والقدرة على الكتابة بها . ووصفه رشيد رضا بأنه « وسط بين الجامدين على التقاليد القديمة وبين المفتونين بالتقاليد الحديثة ، وصاحب مشاركة صالحة في العلوم الاسلامية والعلوم الكونية » . ومن أهم آثاره ردوده على جرجي زيدان في كتابه « التمدن الاسلامي » .

أما « امير علي » فقد عمل على كشف صورة الاسلام لاهل الغرب ، فكتب باللغة الانجليزية عن الاسلام داحضاً الاراء الخاطئة التي اثارها خصوم الاسلام ، وعمل على التعريف بالاسلام في المجتمعات الأوروبية ، ودافع عن الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي في مجال الشريعة الاسلامية وحقوق المرأة . وقد وصفه رشيد رضا بانه اول مسلم استطاع ان يخرج للغرب صورة صادقة للمبادىء الاسلامية ، ويعرضها في ثوب علمي محدث يتذوقه الذهن العرب ، ولا ينكره الذهن الاسلامي . وقد كان أمير علي خطيباً بارعاً ، وكاتباً بليغاً . يقف في وجه كل من يحاول ان ينال من الاسلام ، وكان الى ذلك داعية جاداً في انهاض المسلمين لادراك حقوقهم ، ومن أهم مؤلفاته : روح الاسلام ، ومختصر تاريخ المسلمين .

وهو يؤمن بان الاصلاح يجب ان يسبقه التعليم وتحرير النقل من القيود . ويقول : ان للاسلام قدرة على صبغ ما عداه بصبغته ، وسيبقى جوهره ، وان تغير مظهره .

وكان « لابي الكلام أزاد » دور هام في مجلتي الهلال والبلاغ في الدفاع عن الاسلام وايقاظ النفوس لمفهومه الصحيح . وقد واجه النفوذ البريطاني الاستعماري في مقاومة ضخمة بعيدة المدى ، يقول : الاسلام من أوله الى آخره دعوة عاملة الى البسالة والجزالة والاستشهاد بالموت في سبيل كلمة الحق ، وقد ابيضت عين الدهر ، ولم تر مثل هذه التضحيات الكثيرة في اعلاء كلمة الحق التي قدمتها الامة الاسلامية في كل دور من ادوار حياتها ، الا فلتعلم الحكومة الانجليزية ان المسلم الذي امره ان يرحب بالموت الاحمر ويتغلغل في لجج الدواهي والكوارث ، ولا يقبل السكوت عن الحق ، لا يخيفه قانون العقوبات الاستعماري .

ومن مؤلفات العلامة : ابي الكلام ازاد الهامة كتابه : ترجمان القرآن . وهو من اعظم آثاره الفكرية ، فقد عرض خلاله ترجمة للقرآن وتفسيراً له على منوال حديث في اللغة الاوربية .

ومن اعلام الفكر الاسلامي الهندي العلامة « خدابجش » الذي يقول : « يجب ان يدافع الاسلام عن نفسه امام الغرب ، ويجب ان يستعمل جميع الاسلحة التي صاغتها ايدي الغرب اينما ولينا وجوهنا » .

اما الفيلسوف الاسلامي « محمد اقبال » فقد كان بعيد الاثر في ايقاظ الفكر الاسلامي الهندي بدعوته الى التحرر من الجبرية ، ويرى محمد اقبال في الاسلام « المثل الاعلى الذي لو تحقق تماماً لوفى بكل مطالب هذه الحياة وفي الحياة الاخرى » . وعنده ان الفكرة الاساسية للاسلام هي اقامة اخوة شاملة بين الناس ، وقد طبعت هذه الصفة الشريعة الاسلامية بطابعها .

ويرى محمد اقبال : ان الخطر الذي يهدد الاسلام هو روح العصبية في الشعوب ، ويقول محمد اقبال : ليس في الاسلام قوميات ، ولا هو نزعة امبراطورية ، بل هو جمعية امم تعترف بالحدود الصناعية ، والفروق الجنسية لسهولة الاشارة فحسب ، لا لتضييق الافق الاجتماعي للمسلمين . ويقول محمد اقبال : ان النبي محمداً هو روح الثقافة الاسلامية ، هذا النبي العظيم يبدو انه يقوم بين العالم القديم والعالم الحديث ، فهو من العالم القديم باعتبار

مصدر رسالته ، وهو من العالم الحديث باعتبار الروح التي انطوت عليها . فان للحياة في نظره مصادر اخرى للمعرفة تلائمها في اتجاهها الجديد . وعنده ان العمل واليقظة والجرأة والقوة من صفات الاسلام اساسا قبل ان تكون من ادوات الحضارة الحديثة ، ومذهب الذاتية الذي دعا اليه يتمثل في ان الذات هي الروح المنشىء الذي اودعه الله الانسان ، وجعل العمل والدأب فيه وسيلتنا الى انتشار هذه الروح ، حيث تنمو الذاتية بالسعي والعمل الدائب الذي لا ينقطع لتجديد الحياة والقدرة على التحرر من حكم الغير .

(٦)

وفي مصر كان عبد العزيز جاويش وتوفيق البكري ورشيد رضا وفريد وجدي والمراغي من العاملين في مجال اليقظة . ففي مجلة الهداية (١٩١٠) وما بعدها اخذ عبد العزيز جاويش ينهج نهج الشيخ محمد عبده ، ويتحدث عن اثر القرآن الكريم في تحرير الفكر البشري ، ويرد على شبهات خصوم الاسلام .

يقول : القرآن مشتجر الطعان ، قلما يمر يوم دون ان نسمع فلاناً من كتاب الافرنج طعن في القرآن ، واذا كان للقرآن منقبة لا يشوبها نقص فهي الفصاحة والبلاغة ، واذا كان له مزية عظمى يفخر بها ثلاثمائة مليون من البشر ، فهي استعلاؤه على سائر الكتب السماوية من حيث سلامة مبانيه ، وجمال معانيه ، ان القرآن بمثابة ندوة علمية للعلماء ومعجم لغة للغويين واجرومية نحو لمن اراد تقويم لسانه ، وكتاب عروض لمحب الشعر وانسكلوبيدية عامة للشرائع والقوانين . وقد كان ابرز اعمال عبد العزيز جاويش في الاصلاح والتجديد الاسلامي في مجال التربية فهو الذي درس التربية الاسلامية والتربية الغربية ، وقارن بينهما وتحدث للعرب وللمصريين عن مفهوم التربية الذي ينفعهم . يقول : الخطأ الاول في فهم التربية ، والخطأ الثاني في ارسال الاحداث الى اوربا قبل ان يبلغوا سن الرشد . وعنده ان ارسال الشباب الى اوربا قبل ان يثقف ثقافة اسلامية اصيلة ، انما يحولهم الى اوربيين حتى اذا عادوا الينا لم نفد منهم .

وتوفيق البكري يكشف في كتابه « المستقبل للاسلام » الدور الذي سيحققه الاسلام في مستقبل ايامه ، وهو يتمدد وينتشر في مناطق جديدة لم يصل اليها الفاتحون العرب ، ويعتبر ان التعليم هو اعظم وسائل النهضة .

ومحمد كرد علي في صحيفته المقتبس التي اصدرها في القاهرة يدعو الى

اصلاح نظم التعليم ويكشف عن روح الاسلام الصحيح ، ويتحدث عن اللغة العربية واعلام المسلمين المعاصرين ، ومحمد فريد وجدي في مجلته (الحياة) وما تبعها من ابحاث يهاجم الفلسفة المادية ، ويتصدى للدكتور شبلي شميل فيكشف عن مفهوم الاسلام في هذه النظريات الوافدة ، ويصحح في مجال الروح والمادة ، ويرد على اللورد كرومر وعلى خصوم الاسلام .

ويفتح رشيد رضا بمجلة المنار آفاقاً واسعة للدعوة الاسلامية والاصلاح الاسلامي متابعاً صحيفة العروة الوثقى في تحرير مفهوم الاسلام والتوحيد والقضاء على الاعتقادات الدخيلة في الاسلام ، ومحاربة التعاليم الضالة ، ومحاربة التعصب لمذهب من المذاهب .

يقول : « المنار يدعو من اول نشأته الى التوحيد الخالص ، ومذهب السلف الصالح في عقائد الاسلام وهدايته » ويقول انما انشيء المنار لايقاظ الشرق ، وتجديد الاسلام باعادة تكوين الامة وحياة الملة والدولة ، ونشر الاصلاحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية ، واقامة الحجة على ان الاسلام باعتباره نظاماً دينياً لا يتنافر مع الظروف الحاضرة ، وان الشريعة اداة عظيمة صالحة للحكم . ويمضي الامام المراغي في اصلاح الازهر على منهج الشيخ محمد عبده ، ويدعو دعوته الحارة الى العمل على ازالة الفوارق المذهبية وتضييق شقة الاختلاف . ويقول : معروف لدى العلماء ان الرجوع الى اسباب الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبي تهدي الى الحق في اكثر الاوقات . وان بعض المذاهب والاراء قد احدثتها السياسة في القرون الماضية لمناصرتها ، وخلفت في اهلها تعصباً يساير التعصب السياسي ، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية ، وبقيت تلك الاراء الدينية لا ترتكز الا على ما يصوغه الخيال ، وما افتراه اهلها . وبالجملة فقد ابرزت الوهابية (دعوة التوحيد) اهمية دعوة التوحيد ، وربطت الحركة السنوسية الدين بالسعي والانتاج في الحياة الدنيا . يقول : « كيرك » ان برامج السنوسية هي جمع صفوف المسلمين في افريقيا اولا ، ثم بعد ذلك في مختلف انحاء العالم تحت لواء الاسلام في نقاوته الاولى .

وكانت دعوة الكواكبي تهدف الى محاربة الاستبداد، والتماس العدل الاجتماعي . وكان مفهوم جمال الدين مقاومة الاستعمار الاوربي . اما الامام محمدعبده فقد جعل العقل معيار الفكر، ودعا رشيد رضا الى نشر الدعوة الاسلامية . وقد توالت الحركات الاسلامية ولم تتكامل ، ولكنها كانت في كل مرحلة تصحح اخطاء الحركة التي سبقتها وتحاول ان تعوض النقص الذي لم تحققه .

وكان عمل هذه الاجيال من المصلحين الاعلام جد خطير في مواجهة خطرين ماثلين : خطر الجبرية والجمود ، وخطر الاستعمار والتبشير . وكان عليهم ان يعملوا في المجالين معاً ، يكشفون عن روح الاسلام وجوهره ، ويدعون الى مفهوم التكامل في الاسلام دون الانحراف الى جانب الروح دون العقل او العاطفة دون الفكر . وقد عملوا كثيراً في سبيل كشف الغشاء الذي فرضته الوراثيات التقليدية فوق جوهر الاسلام ، وازالوا تلك القشرة الجامدة ، وكشفوا عن قيمة الاسلام الاساسية ، وجعلوه اسلاماً ، قادراً على مقاومة النفوذ الاجنبي والتبشير والتعصب المذهبي ، يهتدي الى الحق في اكثر الاوقات . وحاربوا به المذاهب والاراء والتغريب والشعوبية جميعاً ، وواجهوا به الغزو السياسي العسكري الغربي الذي فرض نفسه على عالم الاسلام ، حتى الحركات الوطنية التي انبثقت من الحركات الاسلامية ، كانت مرتبطة بها ، وكانت تستهدف نفس اهداف اليقظة الاسلامية ، وهي عائدة اليها بعد ذلك غير منفصلة عنها . وقد كان دعاة الاصلاح بين جماعة او حركة ، وبين رجل يحمل القلم ويصحح المفاهيم ، او رجل يحمل لواء الاصلاح بالتوجيه من خلال الجماعات في المساجد والمعاهد .

***

وقد استطاعت الحركات الاسلامية ان تواجه قوى الاستعمار ، وان تكشف عن مخططها وتفسر اهدافها ، وكانت هذه القوى تحرص على تغيير مفهوم الاسلام في نفوس اصحابه فتقنعهم بانه دين لاهوتي عبادي صرف ، وان تغريهم بمفاهيم جامدة ، وان تلقي عليهم ظلال الاسرائيليات وكتابات الباطنية

والصابئة ، والوثنيات المتعددة ، والشعوبيات المتجددة ، مع مذاهب اوربا والغرب المختلفة . وذلك حتى يظل المسلمون في صراع لا ينتهي ، وانقسام لا يتوحد . وبذلك سينحرفون عن مفهوم الاسلام فكرياً بالتجزئة او بالانحراف عن مفهوم الاسلام اجتماعياً بالتخلف في مجال العلم والقوة . واستطاعت هذه الحركات الاسلامية ان تكشف عن ان الاسلام قادر على مجاراة الازمنة والعصور والامم المختلفة ، وانه لا يعارض الحضارة ، ولا يضار العلم ولا يرفض النهضة . بل هو عامل ايجابي فعال في مجال الحرية والقوة والبناء . وان المسلمين حين التمسوا جوهره ومفاهيمه ومقوماته استطاعوا بناء حضارة ضخمة .

ولاول مرة في تاريخ الحضارة ارتبط الضمير بالعلم والخلق بالسياسة ، والروح بالمادة ، واضفى الاسلام على الامم والحضارات قدرة على الحركة والبناء والانتاج مع بقاء جوهر الخلق الانساني رفيعاً عالياً متطلعاً الى المعنى الانساني الكريم القائم على الحب والاخاء والمساواة . ولأول مرة ربط الاسلام الفرد بالمجتمع ، والمجتمع بالفرد ، وقضى على الثنائية التي لا تزال تصارع الحضارة الحديثة .

(٧)

وبعد فما هي النتائج التي حققتها دعوات المصلحين والحركات الحديثة في الاسلام . لقد حققت نتائج كبرى ما تزال بعيدة الاثر في خط حركة اليقظة وتطورها وفي مقدمتها : ـ

(اولا) ـ محاربة التقليد ، وفتح باب الاجتهاد ، والتخلص من الجمود .

(ثانياً) ـ كشف المصلحون حقيقة اساسية هي ان ضعف المسلمين انما كان مرده الى انصرافهم عن تعاليم الاسلام الصحيح .

(ثالثاً) ـ التماس منابع الاسلام الصافية وتطهير الاسلام من شوائبه .

(رابعاً) ـ مناهضة استبداد الحكام ومناصحتهم وتأكيد مشورة اهل الحل والعقد .

(خامساً) ـ لفت النظر الى ان الاسلام قد اشتمل على نظام اقتصادي اجتماعي يكفل توزيع الثروة بالعدل ، ويمنع استبداد الغني بالفقير .

(سادساً) ـ الجهر بان التعليم لا يكفي ، وان التربية اعظم اهمية لبناء التعليم على اسس اخلاقية .

(سابعاً) ـ دعوة المسلمين الى الاقتراب من القانون المستمد من الشريعة ، وللوصول الى ذلك يجب العمل الى ان يصبح منظوراً للفقه الاسلامي اصولا وفروعاً كمادة لتشريع مدني عام .

(ثامناً) ـ العمل عل مقاومة الاستعمار ، وايجاد وحدة فكرية اسلامية .

(تاسعاً) ادخال الاصلاحات في مختلف المجالات ، وبث نور العلم في جميع ارجاء العالم الاسلامي .

(عاشراً) ـ رفع لواء الانبعاث الاسلامي من القرآن ، والعودة الى التماس القرآن كمنهج انساني اجتماعي كامل صالح للمسلمين ، واصلح لهم من مختلف المذاهب والمناهج .

(٥)

الثقافة في العالم الاسلامى

١ ـ التعليم
٢ ـ الثقافة
٣ ـ اللغة العربية

- ١ -

التعليم

كانت أعقد المشاكل التي واجهها العالم الاسلامي هي مشكلة « التعليم والثقافة » : فقد أحس المسلمون مدى حاجتهم إلى توسيع مجال التعليم وتجديد مجال الثقافة كعامل هام من عوامل النهضة . وعرف النفوذ الاستعماري هذا المقتل في حياة المسلمين ، فحاول أن يفيد منه إلى أبعد الحدود . وكان الاستعمار حين عاد إلى عالم الاسلام في دوره الجديد ، قد أعد مخططه على النحو الذي يكفل له تغيير العقيدة الاسلامية ، والقضاء على مقوماتها الاساسية عن طريق التعليم والثقافة ، واعتبر هذه الحركة القائمة على الغزو الثقافي والتغريب الفكري هي كبرى معاركه ، وأعظم عوامل تثبيت قواعده . وتنبه المسلمون إلى هذا الخطر ، فحاولوا من ناحيتهم مواجهة هذا الموقف ببناء مدارس وجامعات لها طابع الحفاظ على المقومات ، ولكنهم لم يكونوا ليبلغوا في هذا المجال المدى الذي يحقق لهم ما يريدون . فقد كان وراء الارساليات والمدارس والجامعات الأجنبية التي انبثقت في مختلف أنحاء العالم الاسلامي قوى مادية وأجهزة قوية قادرة على العمل ، ويهيء لهذه الطريق ويضمن لها سبل البقاء نفوذ دولها في العالم الاسلامي ، فهي محمية بالامتيازات الأجنبية مفتوح أمامها الطريق بالاعفاء الجمركي لكل ما تستقدم من أدوات وكتب ، وكانت الدول المختلفة الطامعة في فروض الدول الكبرى تتقرب بمنح الأراضي والاعانات لهذه الهيئات العديدة .

ومن هنا نشأ تياران متعارضان : تيار التعليم التقليدي القديم ، وتيار التعليم الغربي الجديد ، وكانت مدارس الدولة في الأغلب في ظل الاستعمار تسير على مناهج أقرب إلى مدارس الارساليات والمدارس الأجنبية ، وظلت أزمة

« الحلقة المفقودة » التي تجمع بين ثقافة الغرب والثقافة الاسلامية قائمة لما تتحقق بعد على النحو الذي يقضي على تلك الثنائية التي مزقت وحدة الفكر في العالم الاسلامي ، وخلقت صراعاً فكريا بعيد المدى استحال معه التقاء المسلمين على رأي موحد .

والواقع أن القول بأن الاستعمار كان حريصاً من توجيه التعليم على تخريج طائفة من المتعلمين يخدمون مصالح الحكومة والشركات . هذا القول قاصر في الحق عن الغاية الكبرى . فقد كان الاستعمار حريصا على[1] أن يرافق الفتح السياسي فتح معنوي بحيث يتقرب أهالي المستعمرات من المستعمرين إلى أن يندمجوا فيهم اندماجاً . وذلك بنشر لغة المستعمر ، وتعليم الأهالي تعليما ينشىء في نفوسهم حب المستعمر ، فيستسلمون له عن طريق طواعية . فذلك في الحق هو الهدف الأكبر ويتصل به هدف آخر هو : القضاء على الثقافة القومية ، وذلك بالطعن فيها وإثارة الشكوك من حولها والشبهات في أعماقها حتى ينظر اليها المواطن نظرة الازدراء والاحتقار ، ويعلي عليها ثقافة المستعمر التي تقدم له في قالب براق، وتعرض عليه عرضاً حافلا بالبطولة والقوة ، ولا يتوقف الأمر عند هذا ، وإنما يتصل بأمور اخرى ترمي الى هدم اللغة العربية نفسها بحسبانها لغة القرآن ، ومصدر الثقافة جميعاً . وذلك بنشر لغته الأجنبية ، ونشر اللهجات العامية ، وذلك بهدف المباعدة بين الوحدات الاسلامية والأقطار العربية .

وقد حاول المستعمر لتأييد هذا الهدف أن يذيع دعايات براقة أقواها القول بأن الجماهير لا تعرف اللغة الفصحى ، فعلينا أن نقرب اليهم وسائل التعليم باللغة المحلية أو العامية . وهذه كلها أهداف أساسية في خطة الغزو الثقافي والتغريب ترمي إلى إيقاف اللغة العربية وتجميدها . وإلى القضاء على مقومات الفكر الاسلامي .

وفي مصر تبدو صورة هذا الغزو في مجال التعليم واضحة في الخطط التي

---

(١) ساطع الحصري : الاستعمار والتعليم .

رسمها كرومر ، ونفذها المبشر دنلوب مستشار وزارة المعارف . فقد استطاع أن ينزع من برامج التعليم الدين وروح الأدب العربي ، وتاريخ العرب ، وصلة مصر بالعرب والعربية ، ثم أدخل في برامج المدارس أن مصر فرعونية .

وفي كل وحدات العالم الاسلامي نجد نفس الهدف . قد أعد بصورة أخرى . ففي الهند الاسلامية يحاول التعليم التركيز على الحضارات الوثنية ، وفي أندونيسيا يجري الاهتمام بتاريخ ما قبل الاسلام ، وكذلك في إيران وأفغانستان وفي تركيا كان الاهتمام بالتاريخ الطوراني والجامعة الطورانية وأمجاد جنكيزخان ، وكلها محاولات للقضاء على العوامل الجامعة للعالم الاسلامي ، وهي تاريخ الاسلام وثقافته وكل ما يتصل باللغة العربية والقرآن .

وقد جرت محاولات لتوحيد برامج التعليم في العالم العربي ، ولكنها كانت جميعها تدور في نطاق المخططات التي وضعها الاستعمار ، والتي تحول دون إبراز الذاتية العربية والنفس العربية مستمدة من الفكر الاسلامي . وقد وجدت هذه المخططات من يعارضها ويقاومها ، ويحول دون تحقيقها فتبقى في حدود المخططات غير المنفذة ، والآراء التي لا تستطيع أن ترقى إلى درجة التنفيذ .

ولقد حرصت الهيئات الاسلامية وكثير من العلماء والباحثين على توجيه النظر إلى استمداد التعليم في العالم الاسلامي من الاسلام . ولكن هذه المحاولات كلها لم تحقق شيئاً ، وغاية مناهج التعليم في البلاد المحتلة هو خلق عزلة إقليمية بين الأمم والشعوب ، فلا تتناول بالدرس إلا الاقليم الذي تعيش فيه ، فإذا عرضت لغيره من الأقاليم ، فإنما تعرض إلى الخصومات والفوارق التاريخية حتى تخلق جوّا من الخصومة والفرقة . وقد نشأ المسلمون في ظل هذه المدارس لا يعرفون شيئا عن العالم الاسلامي الا ما توروده كتب أوربا وصحفها ، وهي كتب مكتوبة بأغراض معينة ، فإذا عرت لقضايا هذه الممالك والأقطار ، فإنما تعرضها من وجهة النظر الغربية حيث تبرز ما حقق النفوذ الاستعماري ، وهو أنه حال بين مناهج التعليم في المدرسة الوطنية أن تحقق اتصال الوطن نفسه ماضيه بحاضره . واتصال الوطن بالأوطان الأخرى التي كانت قبل الاحتلال وحدة كاملة . ويعرف الباحث دون حاجة إلى مزيد من

التفاصيل السر فى اتجاه السياسة الاستعمارية في وطن من أوطان الاسلام نحو جعل التعليم مجرداً من الدين والأخلاق . لأن هذا هو ما تقضي مصلحته ويؤدي إلى تسلط نفوذ المستعمر بدينه ولغته .

(٢)

أما المدارس الأجنبية في العالم الاسلامي ، فقد حرصت على أن تقصي طلابها عن الاسلام واللغة العربية والتاريخ الاسلامي جميعاً ، وعمدت إلى إذاعة تاريخ نابليون ، وفرنسا وبريطانيا واللغات الانجليزية والفرنسية وآدابها ، بل وذهبت إلى أبعد من ذلك ، فقد قدمت لطلابها كتباً تتناول بالهجوم والتشكيك مختلف القيم الاسلامية والعربية .

وعلى مدى هذا التاريخ الطويل انتقلت الصيحات بالثورة على عدد من الكتب التي تدرس في هذه المعاهد والجامعات ، وكلها حملات ضارية على رسول الاسلام وعلى القرآن وعلى الاسلام نفسه . ومن شأن هذه المدارس أنها تخرج شباب المسلمين على الولاء لثقافة معينة ، ونظراً لتعدد هذه المعاهد بين فرنسية وأمريكية وانجليزية وايطالية وألمانية وروسية . فإن شباب العالم الاسلامي ظل يتمزق بين هذه الثقافات وبين الولاء لها على النحو الذي يحول دون قيام وحدة فكر إسلامية أساسية .

وقد حرص النفوذ الاستعماري ان يجعل من جامعاته ومعاهده مصدراً لتخريج القادة والحكام في العالم الاسلامي ، وكانت خطابات القائمين بأعمال الدول الكبرى في هذه الجامعات في كل عام تكشف عن هذه الأغراض . يقول اللورد لويد ممثل بريطانيا في مصر في حفل كلية فكتوريا بالاسكندرية عام ١٩٢٦ . « إن أبناء هذه الكلية من ثمانية أجناس او تسعة أجناس مختلفة ، وإن من الطلبة الآن مصريون وانكلوسكسون ويونان ويهود وإيطاليون وأرمن وسوريون وأحباش وغيرهم ، كل هؤلاء لا يمضي عليهم وقت طويل حتى يتشبعوا بوجهة النظر البريطانية بفضل العشرة الوثيقة بين المعلمين والتلاميذ فيكونوا قادرين على أن يفهموا أساليبنا ويعطفوا علينا . وأود أن أشعر أن كلية

فكتوريا تنجب نفراً تنمي فيهم الشعور الانجليزى بما يكون كافياً لجعلهم صلة للتفاهم بين الشرق والغرب . وهذه المشاكل التي بين بريطانيا ومصر تحل إذا تعلم كل من الانجليز والمصريين أن ينظر كل منهم إلى رأي الفريق الآخر نظراً مقروناً بالفهم والعطف . وهكذا يكشف العميد الانجليزي عن الغاية من التعليم البريطاني ، انه يحاول أن يخلق جيلاً مؤمنا بانجلترا متعاطفا معها ، مغضيا عن استعمارها ونفوذها في بلاده ، عاملا على دعم المودة والصداقة بين المحتل والوطني ـ وهذه غاية خطيرة غاية الخطورة لم تقتصر على كلية فكتوريا ، ولا على التعليم الانجليزي .

وقد كشفت الأحداث عن خبيئة كثير من هذه المعاهد والجامعات المختلفة في العالم الاسلامي ، واستعلن ما حاولت أنه تخفيه ، فبين حين وآخر يذاع أن هناك كتاب يدرس يحمل ثمار التبشير أو الشكوك في الاسلام ، أو الاساءة إلى نبيه ، أو اتهام القرآن ، والمعروف أن هذه المعاهد قد بدأت في العالم الاسلامي في الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، وأنها كانت ذات طابع تبشيري واضح مكشوف ، وكانت تقوم في مختلف أنحاء العالم الاسلامي بالدعوة الصريحة للمسيحية ، وكان لها في هذه الفترة مواقف مؤسفة بالغة الجرأة اعتمدت الارساليات التبشيرية فيها على نفوذها ، وحماية الامتيازات الأجنبية لها ، وعلى نفوذ القناصل وضعف الدول الاسلامية . غير أن هذه المعاهد لم تلبث أن غيرت أسماءها ومناهجها ، وحاولت أن تستوي في صورة جامعات علمانية بعد أن كانت معاهد تبشيرية صريحة . وقد ركزت مناهجها في كلتا الحالتين على غاية واحدة ، وإن اختلفت الأساليب ، تحمل ثقافة المستعمر وتاريخه ولغته ودينه على نحو واسع الاغراء للشاب المسلم ، مبتعدة به عن تاريخه ولغته ودينه بالهجوم والتشكيك ، وإثارة الشبهات ، والربط بينه وبين تاريخ المستعمر ودينه ولغته ومكانه من الحضارة ، والربط بين تاريخ الأمم الاسلامية ودينها وبين وقوعها تحت نفوذ الاستعمار وتخلفها .

وقد حدث في إحدى الجامعات المتصلة باحدى الدول الغربية في عاصمة من أكبر العواصم العربية أن وقف شاب من خريجي هذه الجامعة . بعد أن أحرز شهادتها العالية في حفلها السنوي الضخم ليظهر الناس على حقيقة هذه

الجامعة وأهدافها فقال : « إن هذه الجامعة تظهر أمام الناس في مظهر المدرسة العلمية ، لكنها في الحقيقة تعمل لافساد عقائد الشباب الدينية وتطعن في الاسلام ». ومن خلال بعض هذه المعاهد انطلقت حركات التبشير ، وقد جعلت من طلابها حقل تجارب لذلك ، وكشفت التحقيقات والأحداث عن نتائج خطيرة .

وهكذا وقف المسلمون من هذه المدارس طوال هذه السنوات موقف الحذر ، كاشفين لها ، ولم يستسلموا مطلقا لاغرائها ولم يثقوا بها . وما تزال ومن تخرج منها يمثلون في المجتمع الاسلامي ولاءً غير خالص للوطن ولا للأمة ولا للفكر الاسلامي ، او الثقافة العربية . ولقد شنت الصحف في مصر في الثلاثينات حملة ضخمة على هذه المعاهد وعلى حركة التبشير التي انبعثت منها وكشفت عن خطر هذه المعاهد .

وقد قوبلت هذه الارساليات جميعها من المسلمين بالاعراض التام ، ثم لم يلبثوا أن استسلموا لها تحت ضغط عوامل مختلفة ، أهمها عجز التعليم الرسمي الوطني عن افساح المجال للراغبين في التعليم . وكان أغلب الذين أقبلوا على هذه المعاهد أبناء الطبقة الحاكمة ذات الثراء التي أنفت المدارس العامة ، وحاولت أن ترضي غرورها النفسي بالالتحاق بالمدارس الأجنبية ، وكان النفوذ الاستعماري حريصاً على إغرائها بدخول مدارسه . وذلك حرصا على أن يربي الجيل القادم من الحكام والقادة على مفاهيمه وقيمه . وقد تحقق ذلك في العالم الاسلامي كله إلى ابعد حدّ . فلما جاء هذا الجيل قبل التفاهم مع الاستعمار ، ولم يعارضه على الأقل من ناحية علاقة الدين بالمجتمع ، أو علاقة الدين بالسياسة ، وقبل مفهومه في فصل الدين عن المجتمع والدولة . وقد كان الاستعمار حريصا من انشاء هذه المدارس والمعاهد أن يضع المسلمين أمام خطرين كلاهما شر وخطر :

(الأول) : أن يتخلفوا عن التعليم ويتقدم غيرهم . وبذلك يفقدون نفوذهم بحكم أنهم أصحاب الأغلبية في بعض الأقطار كالعالم العربي ومصر ، أوكانوا حكامها وأمراءها كالهند .

(الثاني) : أن يقبلوا على هذه المدارس فيفقدوا ايمانهم بأمتهم وبقدرتهم على مقاومة النفوذ الأجنبي .

وقد رضي المسلمون بالأمر الأول ، فتخلفوا في كثير من البلاد خاصة في الهند ، وسبقهم الهندوس الى التعليم وإلى مراكز القيادة والحكم ، ولكنهم لم يلبثوا أن عوضوا ذلك بإنشاء معاهدهم الخاصة وجامعاتهم ومدارسهم التي تحمل رسالة فكرهم ودينهم ، ويبدو ذلك جلياً في مصر والهند والجزائر وأندونيسيا . فإن جماعات ضخمة من المسلمين اندفعت للبذل والانفاق والتبرع لاقامة مثل هذه المعاهد والمدارس .

وقد ساهمت هذه المعاهد والمدارس بنصيب كبير في إضعاف اللغة العربية لدى تلاميذها وقد عمدت إلى تنشئة شبابنا على معرفة اللغات الأجنبية ، والجهل بلغتهم الوطنية ، كما أسهمت الى حد كبير في تلقين أبنائنا تاريخ أوربا والدول الأجنبية المختلفة وامبراطوريتهم ، ونسيت أو تناست أن تلقن هذا النشء ذاته تاريخ أو جغرافية وطنه .

ولما كان التعليم الأجنبي الذي قامت به الارساليات التبشيرية مستقلا بمناهجه ، وليس خاضعاً لمناهج الدولة ولا إشرافها . فقد سهل هذا الأمر على الذين أقاموا هذه المدارس توجيه النشء وجهة خاصة دونما رقابة من الدولة . وبذلك كانت الكتب المستعملة بهذه المدارس مليئة بتمجيد الدول والأمم والأديان الغربية مع معلومات خاطئة ومضللة كلها شبهات واخطاء عن الاسلام والعرب والمسلمين ، والمصريين ، وعن اللغة العربية والتاريخ . وكان ذلك كله يدرس للشباب المسلم الذى يلتحق بهذه المعاهد ، حتى كان أغلب خريجي هذه المعاهد يعرف عن الأديان الأخرى كل شيء ، ولا يعرف عن دينه شيئا . وكذلك عن اللغات والتاريخ . فإذا به كبير الولاء لما تعلم من دين ولغة وتاريخ ناقم ساخط ساخر بكل ما يتصل بالعرب والمسلمين واللغة العربية والتاريخ الاسلامي . هذا فضلا عما كان يتاح لهذا الشباب من فرص إذا أخلص الولاء لهذه الثقافات من بعثات الى تلك البلاد . فإذا عاد اقتعد مناصب الصدارة وأماكن القيادة في وطنه بفضل النفوذ الأجنبي المسيطر .

***

هذه صورة الخطر الذي تعرض له العالم الاسلامي في مجال التعليم والذي ما زال أثره قائماً إلى الآن في بعض الأقطار بالرغم من تغيير هذه المعاهد لمناهجها ، أو توافر المدارس الوطنية . فقد قارب النفوذ الأجنبي وأعوانه بين مناهج المعاهد الأهلية الوطنية ، وبين مناهج هذه المعاهد التبشيرية على نحو كبير ، وإن كانت المعاهد الأهلية والوطنية قد أولت اهتمامها باللغة العربية والتاريخ القومي ، فإنها حملت معها الخطوط العامة لفكر المستعمر وأهدافه في التعليم ، وهي إبعاد القيم الأساسية للفكر الاسلامي عن أن تكون القاعدة التي تنبثق منها المناهج . ولذلك فإن أقصى ما كان يطمع فيه المصلحون في المعاهد الوطنية أن تدرس مادة الدين ، وهي تدرس الآن في أغلب بلاد العالم الاسلامي في المدارس الابتدائية والثانوية على نحو لا يعطي النفس الاسلامية أو العربية ، أي ربط حقيقي بين الاسلام وبين المجتمع والفكر والثقافة .

أما في الجامعات فإن الفلسفات والمذاهب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية الغربية فإنها تدرس بحسبانها هي العلوم الأساسية دون أن يوضع موضع التقدير أن للفكر الاسلامي مفاهيم وقيماً ونظرات في الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية هي أصلح لأهل العالم الاسلامي ، وأقرب لأمزجتهم وعقلياتهم ، وأقدر على إصلاح مجتمعهم وتهذيب نفوسهم من الثقافات الأجنبية التي يدرسونها على أنها وجهات نظر ، ربما فشلت في تحقيق نتائج إيجابية في أوطانها .

وأمر آخر بالغ الأهمية حرص النفوذ الاستعماري على استدامته وابقائه وتعميقه في العالم الاسلامي هو « ثنائية التعليم ـ التعليم الديني والتعليم المدني ». وذلك لخلق تمييز طبقي بين المواطنين . ولتحقيق الفروق بين الطبقتين لابعاد الشقة بينهما في الثقافة والميول والاتجاهات ليجعل من احداهما حاكمة ، والسبيل أمامها إلى الصدارة مفتوحة في نفس الوقت الذي أبعد فيه الاخرى عن مجال القيادة او العمل المباشر ، « والاستعمار يهدف في ذلك إلى تأصيل بقائه وخلق طبقة تسانده ويختبيء وراءها لارغام المواطنين على استساغة وضعه .

كما أقام الفارق بين التعليمين الشعبي والحديث على الفقر والغنى ، فأصبحت هناك أغراض تعليمية تستهدف الفقراء وأخرى للأغنياء ، وتفاوتت خطوط المواطنين تفاوتها بين الاقطاعيين والأمراء[1] .

وقد حرص النفوذ الاستعماري على تجميد المعاهد الاسلامية الكبرى : كالأزهر ،والقرويين،والزيتونة ، وأنشأ نظاما آخر مستقلا عنه ، له طابعه الغربي الخالص ، وخلق خصومة وصراعا بين المتعاملين ، وجعل مدارسه ومعاهده هي التي توصل إلى المناصب والنفوذ والثروة حين أبقى خريجي المعاهد الاسلامية في درجة منخفضة . وقد كان لهذا الازدواج العلمي وهذه الثنائية أثرهما البعيد المدى في الأخطار التي واجهها العالم الاسلامي طوال هذه الفترة .

والمعروف أن جميع الثورات والحركات الوطنية والمقاومة للنفوذ الاستعماري إنما انبعثت من هذه المعاهد الاسلامية التي قادت دعوات الحرية والنهضة أساساً . وقد كشف كثير من الباحثين عن خطر هذه الثنائية ، ودعا إلى القضاء على التعارض ، وإزالة هذه الهوة الواسعة بين المتعلمين تعليما مدنيا عصريا ، والمتعلمين تعليما دينيا إسلاميا ، ولا يكون ذلك إلا بسلخ الصبغة الأجنبية عن التعليم المدنى ، وإعطائه صبغة أخرى من لون محيطه الاسلامي تكون ملائمة لتقاليد الأمة وعقائدها . ويكون القسط الأول فيه لاعلان مفاخرها وتنوير تاريخها ، وإحياء ماضيها ، وربط الحاضر به ، وكذلك تعليمنا الاسلامي يجب أن يجهز بأساليب العصر ، ومعارفه ليكون أئمة المسلمين من أعرف الناس بزمانهم ، وأدواته وأسباب معالجتها .

وعرض كثير من الباحثين للجامعات العصرية التي أنشئت في العالم الاسلامي ، وكيف طمع منشئوها في أن تكون وسيلة لدعم الوطنية والقيم العربية الاسلامية . ولكنهم عجبوا كيف تحولت هذه الجامعات لخدمة النفوذ الاستعماري . وأبرز مثل لذلك الجامعة المصرية الأهلية التي أنشأها

---

(١) كتاب تاريخ التعليم الاجنبي في مصر .

المصريون بأموالهم دعماً لليقظة الوطنية . فإذا بها تقع تحت سيطرة التغريب ، وتصبح مصدراً للشبهات التي تثار حول الاسلام ، واللغة العربية ، والتاريخ الاسلامي العربي على النحو الذي قام به الدكتور طه حسين وزملاؤه وتلاميذه ، والتي كشف عنها عام ١٩٢٥ كتاب « الشعر الجاهلي » و « حديث الأربعاء » ومن بعدهما « مستقبل الثقافة في مصر ». فقد حملت لواء الدعوة إلى الفرعونية والتشكيك في القرآن ، ومحاولة خلق جيل من الشباب المثقف يتنكر لعروبته واسلامه وقيمه ، وإعلاء شأن الأدب الغربي والثقافة الفرنسية . والدعوة إلى الفرعونية. وعن الجامعة بأقلام تلاميذها صدرت رسالة: طه حسين في نقد ابن خلدون والتشكيك في مكانته العلمية ، ورسالة زكي مبارك عن الغزالي واتهام آرائه ، ورسالة منصور فهمي عن المرأة المسلمة وفيها حملات على الاسلام والرسول .

وقد حرص المسلمون في مواجهة المدرسة الوطنية الخاضعة للنفوذ الاستعماري ، والمدرسة الارسالية الخاضعة لنفوذ التبشير ، وكلاهما يهاجم الثقافة الأساسية . وفي مقدمتها الاسلام والقرآن ، حرص المسلمون إلى سد هذا النقص بانشاء المدارس الأهلية . وقد جرى هذا العمل بأهمية بالغة في مختلف أنحاء الغالم الاسلامي ، وحقق نتائج طيبة ، كان أقل قدر منها أنها استنقذت جانبا من الشباب من قصور المدرسة الأهلية ، وتدمير المدرسة التبشيرية . وقد كان للجمعية الخيرية في مصر والجمعية المحمدية في أندونيسيا . ومدرسة دار العلوم في لكنو بالهند ، ومدارس جمعية العلماء في أندونيسيا ابعد الأثر في هذا المجال .

ولا شك كان للجامعات الاسلامية التقليدية في هذا المجال دور هام وخطير . هذه الجامعات التى انبثقت منها جميع حركات المقاومة للنفوذ الاستعماري والحركات الوطنية ، ومواقف المواجهة لكل حركات النفوذ الاستعماري ودعوات الالحاد والتبشير ، ومعارضة مختلف الآثار المكتوبة التي أثار اصحابها شبهات حول الاسلام واللغة العربية .

وفي مقدمة هذه المعاهد : الأزهر ، والقرويين ، والزيتونة ، ومعاهد النجف . أما الأزهر فقد عمل على حفظ التراث العربي الاسلامي في وجه

الحملات الصليبية وغارات التتار ، ومحاولات العدوان المتكررة على العالم الاسلامي ـ فضلاً عن أنه قاوم الحملة الفرنسية والاستعمار البريطاني ، وكان له مواقفه في الثورة العرابية ، وثورة ١٩١٩ ، كما قاوم الأمراء المستبدين من المماليك حتى قال عنه اللورد لويد في كتابه (مصر خلال حكم كرومر) .

إن أهمية الأزهر بوصفه مركزاً من مراكز الدعاية المعادية لبريطانيا كبيرة متعددة الامكانيات ، وقد أدرك الوطنيون ذلك فحاولوا استغلاله لتأييدهم ولآدابهم ، وترتب على ذلك نمو الروح المعارضة الشديدة لسيطرة الانجليز على التعليم به .

إن التعليم الوطني عندما قدم الانجليز مصر كان في قبضة الجامع الأزهر الشديد التمسك بالدين ، والذي كان أسلوبه الجاف القديم يقف حاجزاً عن طريق أي صلاح تعليمي ، وكان الطلبة الذين يتخرجون منه يحملون معهم قدراً عظيماً من غرور التعصب الديني . ومن الطبيعي أن يكون رأي المندوب البريطاني في الأزهر سيئاً ، وأن يكيل له عبارات الجمود والجفاف ، فقد كان الأزهر هو الصخرة التي وقفت أمام مطامع الاستعمار ، ومن بؤ رتها قامت كل الحركات المعارضة للاستعمار على طول المدى . ولقد كانت سياسة النفوذ البريطاني في مصر إزاء الأزهر وفرنسا ، إزاء القرويين والزيتونة . العمل على تجميد هذا النوع من التعليم مع المحافظة على بقائه . تجميده على النحو الذي يعزله عن الحياة الاجتماعية والسياسية والابقاء عليه لخلق الثنائية والتضارب والحيلولة دون قيام ثقافة وطنية أو قومية موحدة . وكما فعل النفوذ البريطاني في الأزهر ، فعلت فرنسا بالنسبة لجامعة القرويين في فاس . فقد أثر عن الحاكم الفرنسي ليوطي ـ صنو كرومر في مصر قوله : إذا تم لفرنسا القضاء على القرويين ، فقد ضمنت لنفسها الخلود في المغرب ـ ولذلك فقد تسلط النفوذ الاستعماري الفرنسي عليها حيث توجد بها « الطاقة التي تكمن فيها قوة المغرب » فأوحى الى عملائه فمنعوا دراسة العلوم بها ، واكتفوا بالقشور ، وتحولت كلية القرويين إلى شيء لا فائدة منه . « فدراسة أحوال إعراب ما تستغرق شهرين . وقد حاولت الحكومة المغربية أثناء السيطرة الاستعمارية أن

تحقق بعض الاصلاحات التعليمية فيه ، فكانت دائما تجد معارضة شديدة من الاستعمار .

***

وهكذا عمد النفوذ الاستعماري إلى القضاء على نفوذ الأزهر في مصر والقرويين في فاس ، والزيتونة في تونس ، فوضع خطة محكمة تستهدف إضعاف هذه المعاهد وتهوين مركزها وإضاعة نفوذها ، حيث وقف المستعمرون « في طريق علمائه ، وحالوا بينهم وبين مراكز القيادة ، ومناصب الحكم ، ووظائف الادارة ، وأشاعوا بين الناس أنهم يهدفون إلى تكريم الدين . على أن يكون الاسلام على تعبيرهم بعيداً عن السياسة ، وبمعزل عن الحكم . فأعفوا علماء الدين من التجنيد ، وأسقطوا الجهاد عمن يحفظ كتاب الجهاد « القرآن » وكأنهم أرادوا أن يبعدوا السلاح عن أيدي أولئك الذين يتعاملون بالقراءة . وبذلك أبعد القرآن وتعاليم الدين عن المدارس والمحاكم وسائر دواوين الحكومة » .

واستطاع النفوذ الاستعماري أن يجعل عددا من أبناء هذه المعاهد في موقع أكبر الخصوم لها ، الحاملين عليها ، الساخرين بها مثل : علي عبد الرازق وطه حسين . ولكن هذه المعاهد لم تجمد برغم ما قدر لها المستعمر أن تجمد ، فإنها خرّجت رجالاً كباراً فادوا خطوها إلى الأمام أمثال : محمد عبده والمراغي وشعيب الدكالي ومحمد العلوي العربي والطاهر بن عاشور . وعبد الحميد بن باديس وعبد العزيز الثعالبي . وقد حدد الأستاذ المراغي أهداف الأزهر في أهداف أربعة كبرى اعتقد انها هي رسالة الجامعات الاسلامية .

(أولا) : تعليم الأمم الاسلامية المتأخرة في المعارف وهدايتها إلى أصول الدين وإلى فهم الكتاب والسنة ، ومعرفة الفقه الاسلامي ، وتاريخ الاسلام ورجاله .

(ثانيا) : إثارة كنوز العلم التى خلفها علماء الاسلام في العلوم الدينية والعربية والعقلية ، وهي مجموعة مرتبطة بعضها ببعض وتاريخها متصل الحلقات .

(ثالثا) : عرض الاسلام على الأمم غير المسلمة عرضا صحيحاً في ثوب نقي خال من الغواشي المشوهة لجماله ، وخال مما أدخل وزيد فيه من الفروض المتكلفة التي يأباها الذوق ، ويمجها طبع اللغة العربية .

(رابعا) : العمل على إزالة الفروق المذهبية ، أو تضييق شقة الخلاف بينها . فإن الأمة في محنة من هذا التفريق ، ومن العصبية لهذه الفرق ، ودراسة أسباب الخلاف دراسة بعيدة عن التعصب المذهبي تهدي إلى الحق .

(٢)

الثقافة

يشكل الفكر الاسلامي أساساً موحداً للدراسات العقلية والروحية في العالم الاسلامي كله ، ومنه تنبثق الثقافات المختلفة التي تتصل بكيان الأمم التي برزت معالمها الاجتماعية والنفسية باختلاف اللغات .

ذلك أن اللغة العربية : لغة القرآن لم تتح لها الفرصة لكي تكون لغة العالم الاسلامي كله . ومن ثم فقد ظهرت ثقافات مرتبطة باللغات العربية والفارسية والتركية ، وهي الثقافات الثلاث الكبرى . ثم برزت ثقافة المسلمين الهنود باللغة الأوردية . وثقافة المسلمين في جزائر الملايو . غير أن هذه الثقافات المرتبطة باللغات والأمم قد احتفظت ولا تزال تحتفظ بأساس موحد هو الاسلام ، وإطار موحد هو القرآن .

وفي العصر الحديث وفي عصر اليقظة بدت فوارق مختلفة بين هذه الثقافات ، غلب على بعضها الطابع الروحي أو الصوفي ، وظلت الثقافة العربية تقوم على أساسها على جوهر الاسلام ، جامعاً بين جناحي العقل والروح . وقد كان للاستعمار الغربي ونفوذه الضخم المسيطر منتصف القرن الثامن عشر على أغلب أجزاء العالم الاسلامي أثره البعيد في تجميد اللغة العربية في الوحدات الاسلامية القديمة والنامية . فقد جعل من قواعد مخططه الأساسية تنمية اللغات الأوربية واللهجات الاقليمية ، كما عمد إلى إجراء مباعدات وفواصل كثيرة بين الثقافة العربية والثقافات التركية والفارسية والهندية ، وكان لحركة التغريب العاتية التي جرت في تركيا بعد الحرب العالمية الأولى آثارها البعيدة في تقارب ثقافات الاسلام ولغات الاسلام . فقد عمد الكماليون حكام أنقرة على كتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية ، وكذلك

أجبر النفوذ الاستعماري الهولندي « جزائر الملايو وأندونيسيا » على مثل ذلك حيث كانت الحروف العربية تمثل جامعة اللغات الاسلامية المختلفة .

كما جزى هذا التباعد في مجال الثقافات التي انحرفت عن مفاهيم الاسلام ، ولكن كثيرا من هذا التباعد لم يلبث أن صعف وحل محله تفارب ، من حيث خفت يد الضغط غير الطبيعى على تمزيق وحدة الفكر الاسلامى الجامعة بين العرب والترك برباط الاسلام ، وحيثما يضعف ضغط نفوذ الاستعمار أو نفوذ وريثه التغريب . فإن الثقافات الاسلامية في مختلف أنحاء عالم الاسلام تتقارب من حيث ارتباطها وتوحدها باللغة العربية والقرآن . ذلك أن الجذور الاسلامية ما زالت عميقة الجذور في هذه الأمم مهما فرقتها لغات أو نزعات سياسية أو عرفية . ذلك أنه بالرغم مما غلب بعد الحرب العالمية الأولى ، وانحلال الرابطة الاسلامية الجامعة ، واستعلاء طابع القوميات من نزعات اقليمية مصدرها « الدافع الوطني ». الذي اتخذت منه الأمم سبيلها إلى مقاومة الاستعمار ، فأعلت من شأنه وربطته بالماضي القديم لتؤكد ذاتها . أقول : بالرغم من هذه الدعوات الاقليمية ، فقد ظلت هذه الاقليميات ذات رابطة أكيدة بالوحدة الاسلامية الكبرى ، وعاشت الأمم الاسلامية المختلفة في ثلاث دوائر متداخلة مترابطة ، ولم تقهر إحداها ولم تنقطع ، وإن غلب طابع واحدة منها . تلك : هي دائرة الوطنية المرتبطة بالأرض ، ودائرة القومية المرتبطة بالأمة او الجنس والعرق ، ودائرة الفكر والعقيدة المرتبطة بالاسلام والقرآن والثقافة .

وقد حاولت بعض الأمم والثقافات إعلاء ماضيها قبل الاسلام وإحيائه ، والاعتزاز به . وكان ذلك في الأغلب بدافع من تيارات الغزو الفكري والتغريب . ولكن هذه المحاولات لم تقطع الصلة الاسلامية الجذرية ، أعرق هذه الروابط وأقوها لاتصالها بالعقائد والعقليات والكيانات الاجتماعية والنفسية . ولقد كان هدف دعوات إحياء ما قبل الاسلام من تاريخ الهنود أو الفرس ، أو الترك أو العرب أو المصريين أو اللبنانيين أو المغاربة ، هو تمزيق وحدة هذه الأمة لتطرح العامل الجامع لوحدتها والقاسم المشترك لرابطتها وهو الاسلام ، ولكن الثقافات تسامحت وتوسعت فشملت الماضي القديم الدارس الوثنى إلى جوار الماضى القريب الاسلامي إلى جوار الوافد من الثقافات الغربية

الحديثة وأجرت تذويباً للعناصر الثلاثة في بوتقتها وصهراً لكل هذه المعطيات .

وقد استطاعت بعض هذه الثقافات أن تحتفظ بمقوماتها وعجزت بعضها الأخرى ، وغلب عليها الطابع الأممي ، أو الطابع الاقليمي الذي استعلى فيه الجنس والدم والعرق .

وقد كانت كتابات شبلي النعماني . وأمير علي . ومحمد إقبال في الهند بعيدة الأثر في تعميق مفهوم الاسلام ، وكانت دراسات معاهد الشيعة ، وتجديدات الفقهاء الجعفريين في إيران ، وفي أندونيسيا هيئات إسلامية لها دراساتها وأعمالها الفكرية الاسلامية التجريدية .

أما في مجال الأمة العربية ، فقد أثرى مجددو الاسلام الفكر الاسلامي بنظرات شاملة تمثلت في كتابات محمد بن عبد الوهاب والسنوسي والمهدي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب وفريد وجدي والقاسمي والكواكبي والجزائري وشكيب أرسلان .

وكان للهيئات الاسلامية : الأزهر في مصر ، والزيتونة في تونس ، والقرويين في فاس ، وديوبند في الهند ، ومعهد النجف في العراق ، وجمعية العلماء في الجزائر ، وجمعية أهل الحديث في دلهي ، واتحاد الاسلام في سومطرة ، وشركة إسلام في جاوة ، والجمعية المحمدية في جاكرتا وجمعية ترقي الاسلام في الصين اثرها الكبير .

وقد عملت هذه المدارس والجماعات في مختلف مجالات الفكر الاسلامي . فهناك المدرسة الفقهية التي حاولت الكشف عن جوهر الشريعة الاسلامية ، وأبرزت طابع الاجتهاد في الاسلام وقدرته على مواجهة العصور المختلفة ، والبيئات المتعددة ، وهناك المدرسة اللغوية التي عملت على إدخال المصطلحات الحديثة ، والكشف عن عظمة اللغة العربية ومكانتها وهناك المدارس التاريخية والاجتماعية والتربوية التي قدمت عشرات الأبحاث في هذه المجالات . وكان الذي يطبع هذه الدراسات الاسلامية المتعددة طابعان .

(١) الكشف عن قدرة الاسلام على الالتقاء بالفكر الانساني والحضارة الحديثة ، ومدى قيمه الأساسية في منح الانسانية زاداً جديداً ، وحلولاً مرنة ، سمحة لمختلف معضلات المجتمع الحديث على نحو يفوق الأيديولوجيات الغربية ، وإقناع أهل الاسلام بصلاحيته لهم صلاحية تتناسب مع أمزجتهم وعقلياتهم وأرواحهم على نحو يفوق التطلع إلى اقتباس مناهج المجتمع والحياة من الغرب ، وفضلا عن ذلك فهو مفتوح الآفاق لتقبل العلوم وعوامل الرقي المستخدمة ، وتقبل كل فكر إيجابي صالح لترقية المجتمعات ودفعها إلى الأمام .

(٢): الرد على حملات التغريب والتبشير والشعوبية ، هذه الحملات الضارية التي تحمل طوابع الشبهات والتشكيك للقيم الاسلامية الأساسية ، وإثارة المغالطات حول اللغة العربية ، والقرآن والتاريخ والفكر الاسلامي .

ويمكن القول بأن جانبا كبيراً من عمل الحركة الثقافية في العالم الاسلامي كان منصبا على مهمة الدفاع عن الاسلام في مواجهة حملات خصومه . والمعروف أن النفوذ الاستعماري الغربي قد حرص عند سيطرته على مختلف وحدات العالم الاسلامي على ايجاد نوعين من التعليم بالإضافة إلى التعليم التقليدي الذي حرص على تجميده ومنعه من النمو وعزل خريجيه عن مجال الحركة في المجتمع . هذان النوعان هما :

١ ـ التعليم التبشيري الذي تقوم به الارساليات الأجنبية .

٢ ـ التعليم المدني الذي أشرف عليه مستشارون من المحتلين يرسمون مخططاته ويحولون بينه وبين دعم ثقافة القرآن وفكر الاسلام واللغة العربية والتاريخ الاسلامي .

ولقد حرص المسلمون في مواجهة هذه النظم التغريبية إلى سد الثغرة بإنشاء المدارس الأهلية والوطنية والقرآنية . وجرت في بعض أجزاء العالم الاسلامي محاولات للتقريب بين المدارس الاسلامية والمدارس الوطنية والتوفيق بينهما لصالح الاسلام ، كما فعلت ندوة العلماء في لكنو بالهند .

كما كان حرص المجددين للثقافة العربية المستمدة من الفكر الاسلامي ، وكذلك الثقافات الهندية الاسلامية والأندونيسية الاسلامية ، على تأكيد عدة معان أساسية لها أهميتها في مجال التغريب والشبهات المثارة .

أولاً ـ وهو أن الاسلام ليس دينا بالمعنى المألوف لهذه الكلمة ، ولكنه دين ونظام اجتماعي في آن واحد . وقد حرص النفوذ الاستعماري في مدارسه ومعاهده وخريجيه على دعم هذا المفهوم الخاطىء ، والحيلولة دون تعمق المفهوم الأصيل .

ثانياً ـ حرص المجددون المسلمون على تأكيد مفهوم الجهاد في الاسلام باعتباره فريضة من فرائضه . وكان النفوذ الاستعماري يحرص على الاغضاء عن هذا المفهوم . بل إن الاستعمار البريطاني في الهند قد حرص على ظهور جماعات تحمل لواء الدعوة إلى الاسلام ، تعلن أن الجهاد ليس أساسا من أسس الاسلام ، فضلا عن حرص الاستعمار على إبعاد آيات الجهاد ودراساته عن مجال المدارس والجامعات والمعاهد .

ثالثا ـ الاهتمامات بتأكيد مفهوم صلاحية الشريعة الاسلامية للعالم الاسلامي وامتيازها عن القانون الوضعي ، وخاصة بعد أن أعلن مؤتمر لاهاي ١٩٣٧ ومؤتمر سان فرنسسكو ١٩٥١ ـ أن الشريعة الاسلامية شريعة تامة ، وأفرد له كرسيا في محكمة العدل الدولية تولاه مستشار مسلم .

رابعاً ـ الاهتمامات كانت الدعوة إلى استمداد التربية والتعليم في العالم الاسلامي من مناهج التربية الاسلامية القائمة على الربط بين الأخلاق والسياسة وبين الدين والمجتمع .

خامساً ـ هذه الاهتمامات تأكيد اعتبار اللغة العربية الفصحى لغة أساسية في المدارس والجامعات وأساس أكيد للثقافة ومقاومة دعوات العامية ، أو الكتابة بالحروف اللاتينية . وكانت أكبر أهداف حركة التغريب والتبشير والنفوذ الاستعماري والغزو الثقافي هي القضاء على هذه المقومات ورفع شعار (العلمانية) في التربية باقصاء الدين أساساً من برامج التعليم ومناهج

المجتمع ، ورفع شعار (الأممية) في مجال الفكر في محاولة القضاء على المقومات الأساسية للثقافات العربية والتركية والفارسية والهندية المستمدة من الاسلام بدعوى مضللة هي « وحدة الثقافة العالمية ». وكان مفهوم هذه الدعوة هو إذابة الثقافات الاسلامية في الثقافة العربية المستعمرة والمسيطرة .

وقد عرض كثير من الباحثين لهذه التحديات ، وأشار إليها (ساريدار بابنكار) في كتابه (مشكلات الثقافة الأفريقية والآسيوية) فقد أبان أن الاحتلال الأجنبي الذي عانته هذه الدول عمل على سيطرة اللغة الأجنبية على التعليم . ففي كل مكان ما عدا العالم العربي كان التعليم يجري بلغة أجنبية .

ففي الهند لأول مرة وضع نظام تربوي شامل بلغة أوربية . وفي أندونيسيا لوحظ أن عدد الذين أنهوا علومهم الثانوية باللغة الهولندية لا يتجاوز ١٤ ألفا . وفي السودان هبط مستوى التعليم إذ لم يكن يوجد إلا كلية واحدة في الخرطوم ، وفي المغرب وتونس كان التعليم الفرنسي سطحيا . وكانت التربية في ظروف الوضع الاستعماري محافظة جامدة ، لأنه لم يكن من مصلحة الأجنبي المستعمر الذي يبغي استغلال البلاد أن تروج تربية حيوية . وكانت الكتب المستعملة في المدارس والنفسية التي كان يراد خلقها لدى النشء كانت تميل بالطبع إلى التقليل من قيمة الثقافة الوطنية مع تمجيد فضائل السيد الأجنبي . وكان أبرز أهداف التربية الاستعمارية إثارة الروح الانهزامية في المواطنين لتتمكن من التحكم فيهم . وكان التعليم يتم في مختلف بلاد العالم الاسلامي باللغة الأجنبية كالانجليزية في المستعمرات البريطانية ، واللغة الهولندية في أسبانيا ، والفرنسية في الهند والصين والمغرب وتونس . فضلا عن تضييق نطاق التعليم حتى يصبح قاصراً على الطبقة العليا التي ستحكم . وإلى هذا المعنى كانت دعوة لطفي السيد في مصر ١٩٠٧ - ١٩١٤ - بايحاء من النفوذ الاستعماري .

***

وتبدو صورة الاستعمار الثقافي في أفريقيا أشد وطأة وابعد أثراً حيث ما تزال حركة الغزو الفكري قائمة على أشدها في أفريقيا بالذات . بينما تحرر كثير

من وحدات العالم الاسلامي من الاستعمار ، وإن لم تتحرر من النفوذ الثقافي والتغريب. ويكمن الاستعمار في مجالات ثلاثة: التعليم . الصحافة . الثقافة . والخطة الأساسية للغزو الثقافي : هو توجيه الانسان الأفريقي الى الخضوع للاستعمار وتقبل حضارته والتعاطف معها .

فالثقافة في مختلف المناطق المحتلة تقوم على نفوذ مدارس التبشير والاستعمار . هذه المدارس التي كانت سببا أساسيا في تقهقر الثقافة العربية الاسلامية . حيث ابعد الاسلام واللغة العربية نهائياً ووضع بدلاً منها لغة المستعمر ودينه وثقافته وتاريخه . وإعلاء شأن اللغات المحلية في بعض المناطق للقضاء على اللغة العربية ، وللتمهيد للغة الأجنبية . وقد أجبر البريطانيون مختلف المناطق التي احتلوها على استخدام الحروف اللاتينية في كتاباتهم . كما التهمت نيران الجيوش في مدن أفريقيا الغربية كثيراً من المكتبات القديمة ، كما نقلت مئات من كتب التراث الاسلامي والعربي إلى أوربا . وذلك لقطع التيار العربي الاسلامي نهائيا . وتحويل هذه المناطق عن الثقافة الوافدة من شمال أفريقيا ومصر . كما تعرضت الزوايا والمدارس الاسلامية والكتاتيب للمحاصرة والانقراض لعجزها عن الحصول على إعانات .

ويستهدف الاستعمار من هذه المخططات الأساسية أن يوجد مفهوما ثقافيا قوامه الالتقاء بين الوطنيين والمستعمر في تعاون وتقبل للوجود الاستعماري . وهو نفس ما دعا إليه كرومر في مصر عند احتلالها في عبارته المرنة الدفيقة « التقاء أهل البلاد المدنيين بالغربيين في منتصف الطريق ». هذا المنطق الذي خلق أجيالا ترى أن العلاقة بين الأوطان والمحتلين ليست احتلالاً ، ولكنها تمدين وتعاون وصداقة . وهذا يتطلب تقاربا فكريا وثقافيا يتم عن طريق اللغة الأجنبية . وعن طريق عقائد المستعمر الدينية والاجتماعية ، وقوانينه ونظمه ، بحسبان أن هذه أمانة الرجل الأبيض الذي عهدت اليه العناية الالهية ، تمدين الأمم المتخلفة . وهذا يتطلب أساسا إبعاد الاسلام واللغة العربية بحسبانها أساس المقومات الداعية إلى مقاومة المستعمر ومعاداته ، ورفض وجوده غير الشرعي .

وقد جرى التركيز على أفريقيا في خلال المائة عام الأخيرة تركيزاً أساسياً باعتبارها هي الجبهة الأخيرة للاستعمار على حد تعبير جوميد جنتز .

وترسم المناهج التعليمية والثقافية والصحفية إلى إعداد السكان الوطنيين على نحو يحقق فهم روح الطاعة والاستسلام والذلة ، وتربية روح الخضوع والاستسلام مع الاعجاب والعرفان والتقدير للرجل الأبيض صاحب الفضل في تمدين البلاد والمنقذ الذي ادخره القدر . وقد كان نظام الارساليات من العوامل الفعالة في تنفيذ هذا المخطط . ويبلغ عدد الارساليات الأوربية والأمريكية في أفريقيا رقما يزيد على ١٠ آلاف ارسالية . ويصور هذا التحدي الخطير مؤلف كتاب[١] الثقافة الأفريقية حين يقول : « ما من ثقافة أفريقية إلا وتأثرت باحتكاكها بالأوربيين . ولكن في الوقت نفسه لم تستسلم أية ثقافة استسلاماً كلياً للغزو الثقافي الأوربي ، ولا ننكر هنا أنه يجري تدريب عدد متزايد من الأفريقيين على النظر إلى دين أجدادهم ، كما لو كان ضرباً من الخرافة وأن ينبذوا المعتقدات والتقاليد الأخرى على اعتبار أنها بالية ، ولم تعد تجاري العصر الحديث .

***

ولكن هذا المخطط الاستعماري التبشيري على الرغم من اتساع نطاقه ووسائل دعمه ، فإنه واجه تحديا أشد قوة حال وما زال يحول دون تنفيذ مخططه على الوجه الذي يرضاه الاستعمار ، فإن حزكة انتشار الاسلام تحطم كثيرا من هذه الخطط وتفرض نفوذ الاسلام وثقافته ، فما تزال زوايا التعليم القرآني المتواضعة تؤدي دورها . وكل الذين تعلموا في الأزهر عندما عادوا الى بلادهم أنشأوا عدداً من المدارس الاسلامية .

وما تزال الفرق الصوفية : التيجانية ـ والقادرية ـ والشاذلية بنفوذها الواسع الممتد تقوم بإنشاء المدارس . وما يزال القرآن يشكل حجر الزاوية في البناء الثقافي ، وأغلب سكان نيجيريا وأفريقيا الغربية يكتبون مراسلاتهم باللغة

---

١ ـ الثقافة الافريقية بقلم وليم ساسكوم ، فلفيل هيرسكوفير ـ ١٩٦٦ .

العربية ، وتسير حركة الاصلاح الاسلامي جنبا إلى جنب مع انتشار اللغة العربية في بلاد أفريقيا .

والحركات الوطنية جميعها مرتبطة بالثقافة الاسلامية ، حيث ارتبطت الدعوات التبشيرية الأخرى بالاستعمار . ومن ثم فقد حمل الاستعمار في أفريقيا طابع الحرية والمقاومة والكفاح ضد النفوذ الأجنبي .

ويرجح جون جنتز في كتابه « داخل أفريقيا » السر في ذلك إلى « أن الاسلام نظام اجتماعي كما هو دين ، نظام اجتماعي يمنح المؤمن اعتقاده بالمساواة » مع جميع المؤمنين الآخرين ،وكثيراً ما يوصف الاسلام بأنه الأكثر ديمقراطية بين ديانات العالم الكبرى ، وليس في الاسلام تمييز عنصري ، ولا يحول دون تحول (البانتو) إلى رحابه . لقد انتشر الاسلام انتشاراً شاملاً عمليا بين عباد الأوثان والحيوان . لأن شعائره مبسطة للغاية بقدر ما فيه من جاذبية أصيلة راسخة . اهـ .

(٣)

اللغة العربية في العالم الاسلامي

اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم . ولذلك فقد رافقت رحلة الاسلام وانتشاره إلى مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، وكان لها تأثيرها الواضح في لغات الأمم على عدة أوضاع :

اولا ـ ورثت في مصر اللغة القبطية . وفي سوريا اللغتين اليونانية واللاتينية واللغة السامرية واللهجات الآرامية . وفي العراق وبلاد الجزيرة ورثت اللغة السريانية وغيرها من اللهجات الآرامية وغيرها من اللغات التي كانت شائعة في العالم العربي ، كما تغلب الخط العربي على خطوطها .

ثانيا ـ كانت بعيدة الأثر في اللغات الاسلامية الكبرى الثلاث : الفارسية ـ والتركية ـ والأردية ـ أما بالنسبة للغة الفارسية فقد أنشأت لغة جديدة هي الفارسية الحديثة التي يتكلم بها الفرس الآن . وهي غير اللغة الفارسية السابقة قبل الاسلام والتي تسمى البهلوية التي انقرضت تماماً أمام اللغة العربية ، وحلت محلها الفارسية الحديثة التي تميزت بكثرة الألفاظ العربية التي زادت زيادة كبرى خلال حكم الدولة العباسية ـ كما أن الفرس كتبوها بالحروف العربية والخط العربي . وقامت أساسا عن طريق إدماج اللغة الفارسية بالألفاظ العربية . وقد ظل شعراء الفرس لا يقولون الشعر نحو قرنين إلا باللغة العربية .

وما تزال اللغة العربية في إيران تحتل مكانة واضحة في مجال الدراسات الاسلامية ، وبها تؤلف الكتب ، ويتحدث بها المعلمون والأساتذة . وما زال الايرانيون يعلمون أبناءهم في مدارسهم الاسلامية باللغة العربية ، ومعظمهم

يقول : الشعر باللغة العربية الفصحى . وقد استعمل الأفغانيون الحروف العربية لكتابة لغاتهم الباميرية .

ثالثاً ـ أما بالنسبة للغة التركية فإن العربية تؤلف الجزء الأكبر من الأجزاء الثلاثة التي تتألف منها اللغة التركية العثمانية (وهي : اللغة الفارسية ـ اللغة التركية ـ اللغة العربية). وقد دخلها من الألفاظ العربية أكثر من خمسين في المائة من مجموع ألفاظها . بل إن قواعد صرفها ونحوها مستمدة من القواعد التي اقتبسها العجم من العرب .

ولما كانت اللغة الفارسية هي لغة العلم والأدب والسياسة في عصر السلاجقة . فقد كانت مصدراً أساسياً للأدب التركي واللغة التركية ، ولما كانت اللغة الفارسية أساسا تحوي عناصر كبرى من اللغة العربية وآدابها . فإن هذه الآثار قد انتقلت بالطبع إلى اللغة التركية فضلا عما نقله الأتراك العثمانيون من اللغة العربية رأساً فيما بعد . ولذلك فإن الألفاظ العربية في اللغة التركية تبلغ أضعاف الألفاظ الفارسية فيها .

ولقد كان المسلمون يتطلعون إلى أن الدولة العثمانية تأخذ باللغة العربية لغة للدولة . غير أن التحول الذي واجهته تركيا بعد الحرب وانسلاخها عن العالم العربي وعن الاسلام دفعها إلى التخلص من الأثر العربي . وكان أساس الانقلاب هو كتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية . بدأ ذلك عام ١٩٢٧ ـ ثم جرت تصفية اللغة من الكلمات العربية ، حيث عقد عدد من المؤتمرات التي قامت باخراج ١٣٦٥٠ كلمة عربية حلت بدلا منها كلمات تركية حيث اعتبرت الكلمات العربية كلمات أجنبية . وقد أشار الباحثون إلى مدى الأثر الخطير الذي حققته هذه التجربة . حيث فقدت تركيا تراثاً ضخماً يتمثل في مئات المجلدات في الأدب والنقد والثقافة التي كتبت باللغة التركية العثمانية ـ فضلا عن أن استعمال الأتراك للحروف اللاتينية أفقدهم تصوير الأحرف المشابهة : كالغاء والحاء والصاد والضاد والظاء والعين . فإن هذه الحروف لا يمكن أن تجد في اللاتينية ما يصورها بحرف واحد يقوم مقامها .

رابعا ـ وكذلك كان أثر اللغة العربية دائماً في اللغة الأردية (التي كانوا

يطلقون عليها الهندوستانية) ويتكلم بها أكثر مسلمي الهند ، وهي مأخوذة من اللسان الهندي من الالفاظ العربية والفارسية ، وتأثير العربية فيها أظهر من تأثير الفارسية .

خامسا ـ وللغة العربية أثرها الواضح في لغات سكان أرخبيل الملايو : فقد اتخذوا حروفها لكتابة لغاتهم كما استعملها المسلمون الصينيون لكتابة لغاتهم المحلية ، والأمم التترية لكتابة لغاتهم الخاصة في مناطق بين سيحون وجيحون الممتدة حول بحر قزوين شمالي البحر الأسود . وجنوبي الأورال وجنوبي الروسيا . وكذلك لها مكانها في لغة الفكر ، وأخواتها التركية في الشمال ولغة الأكراد وغيرها من اللغات الفارسية .

سادسا ـ واللغة العربية لها مكانها الأصيل في لغات أفريقيا ، فهي في السنغال لغة المسلمين ، وتعتمد بقية اللغات الوطنية على الحروف العربية في كتابة لغتها (تقويم العالم الاسلامي لماسنيون) وهي شائعة في السودان الفرنسي وعلى شاطىء العاج . ويعتمدون في النيجر على الحروف العربية ، وكذلك في نيجريا . والعربية ميسرة في أقاليم تشاد وجيبوتي والحبشة ، واللغات الوطنية أغلبها يكتب بحروف عربية . والسواحلية والهوسا في أفريقيا ، وهي والعربية أعضاء في أسرة اللغات الاسلامية تتقارب في المفردات والمصطلحات . وتلقى اللغة العربية في بلاد الصين إقبالاً عظيما ، حيث يوجد ٤٠ ألف مسجد تدرس فيها العلوم الاسلامية واللغة العربية .[١]

---

١ ـ راجع عبد الفتاح عبادة سنة ١٩١٥ ـ الهلال

(٢)

واجهت اللغة العربية منذ اتسع النفوذ الأجنبي للعالم الاسلامي مقاومة بعيدة الأثر خاصة من اللغات الثلاث : الفرنسية والانجليزية في أنحاء العالم الاسلامي ، والهولندية في أندونيسيا . فقد قطع الاستعمار الغربي الطريق على توسع اللغة بين مسلمي العالم ، حيث كان من الطبيعي أن يتسع انتشارها في مختلف المناطق التي يصل إليها الاسلام لارتباطها العضوي به : بحسبانها لغة الصلاة والدين والثقافة . وقد استطاع النفوذ الاستعماري أن يضرب عدة ضربات خطيرة .

(الأولى): نقل كثير من اللغات إلى الحروف اللاتينية ، وفي مقدمتها الأندونيسية واللغة التركية .

(الثانية): توسيع نطاق لغته وجعلها اللغة الرئيسية كما فعل في الهند الاسلامية والباكستان وفي قلب أفريقيا .

(الثالثة): تجميد اللغات الاسلامية القادرة على النمو كالأزدية في الهند مع الحملة عليها وتحريض الهنود على اتخاذ لغة اخرى باعتبارها لغة الثقافة الاسلامية ، وإعلاء اللغات الأوربية وتقديمها . ومن حيث ان اللغة العربية هي لغة القرآن . فإن الاستعمار والنفوذ الأجنبي يعمل لهدمها وتجميدها وايقافها بحسبانها لسان الاسلام . وما تزال اللغة العربية عاملاً مساعداً لنشر الاسلام وتعميقه . وما تزال اللغة العربية قائمة بقيام كتابها ودينها ، ولن تموت كما ماتت لغات أخرى انفصلت عن دينها وكتبها المنزلة .

(الرابعة) : استخدام الدعوة الى العامية ، والتحريض على جعلها لغة للتأليف والكتابة . كما فعل اللورد وفرق السياسي البريطاني حين طالب في

اوائل الاحتلال البريطاني لمصر بتدوين العلوم باللغة العامية للمصريين ، وكما حاول الاستعمار في الجزائر . وليست اللغة العربية الفصحى لغة دينية بالمعنى الذي يلجأ اليه بعض المبشرين والمستشرقين . وانما هي لغة فكرية . ذلك ان اللغة العربية انما تحمل ثمار الفكر الاسلامي الذي يشتمل على الدين والاقتصاد والاجتماع والسياسة والتربية جميعاً . وهي كلها فروع تتصل باصل واحد هو الاسلام الذي ليس ديناً فحَسب . ولكنه دين ونظام حياة .

واللغة العربية ليست لغة امة فقط ، تنطبق عليها قوانين اللغات الخاصة بالامم وتطورها . وانما هي لغة ثقافة مرتبطة بكيان كامل من الفكر الاسلامي وهي لغة كل مسلم عربي كان ام غير عربي يعلم ان القرآن كلام الله . وان على المسلم أن يتعلم لغة القرآن ليفهمه .

واذا كانت اللغة العربية الفصحى هي الرباط الذي يجمع الامة العربية ويحميها من التفكك ، والعامية هي اداة التفكك . فان اللغة العربية هي لغة الوحدة الفكرية للعالم الاسلامي كله . وهناك قاسم مشترك بالبلاد الاسلامية غير العربية هو القرآن كلام الله . ولذلك فان الاستعمار يحاول دون ان يجتمع العالم الاسلامي على لسان واحد هو اللغة العربية . وعند الامام الشافعي ان العلم بالعربية كالعلم بالسنن .

ولذلك فقد تعالت الصيحات منذ وقت بعيد بالدعوَة الى ان لغة القرآن هي لغة العالم الاسلامي وبحسبان ان اللغة العربية هي (اسبرانتو الشرق) ومن هذه الصيحات صيحة رشيد رضا في العقد الثاني من هذا القرن بدعوة المسلمين الى استعمال لغة واحدة بينهم هي : اللغة العربية لغة الاسلام ولغة شطر القارة الافريقية الشمالي من الغرب الى الشرق ، وشطر آسيا الشرقي من البحر الاحمر الى خليج فارس . هذه اللغة التي يتلقى بها المسلمون الثقافة الاسلامية في جميع الاقطار .

« ولما كان الاسلام دين التوحيد » ديناً عاماً لجميع البشر ، وكان من مقاصده ان يؤلف بينهم ، فرض عليهم توحيد اللغة ، فخرجت هذه اللغة عن ان تكون لغة شعب واحد منهم ، ولولا ذلك لم تؤثرها جميع الشعوب الاسلامية على

لغاتها ، حتى عم انتشارهـا في الشرق والغـرب مع الاسـلام . ولسنـا هنـا في مجال عرض المؤ امرات التي قامت من أجل القضاء على اللغـة الفصحـى ، وذلك عن طريق دعم العامية او بعث الحروف اللاتينية[1] وقـد واجـه كتـاب الاسلام والعرب بابراز الحقائق ودحض الشبهات حتى أن بعض المستشرقين ايدوا الاتجاه العربي الاسلامي . وفي مقدمتهم كارلوأ . نلينـو الـذي اكد ان الحروف اللاتينية لا تصلح للكتابة العربية حين قال :

« فقد حفظ الخط العربي للآن وحـدة اللغـة العـربية ، حيث ان الحـروف اللاتينية مبنية على اساس ان صوت الحرف واحد غير متبدل ، اما في العربية فهناك اصوات لكل حرف لاسيما فيمـا يختص بالحـركات . فاذا تغير الخـط العربي بالخط اللاتيني اصبحت النتيجـة خطيرة للغـاية . فكيف يكون مصير الكنوز العظيمة التي خلفتها الاداب الاسلامية في الدين والفقه والفلسفة والعلوم والاداب والفنون وغيرها ، وكلها مدونة بالخط العربي » .

وفي العصر الحديث جرت محاولات كثيرة متعددة في سبيل دفع اللغة العربية الى مكانها الاول في العالم الاسلامي : بحسبانها لغـة القـرآن : لغـة عالمية لجميع المسلمين مع وجوب تعلمها وتعليمها . وفي مقدمة ذلك القرارات التي اتخذتها المؤ تمرات الاسلامية التي عقدت في القدس وباكستان وغـيرهما من العواصم الاسلامية بان تكون اللغة العربية لغة دولية في العالم الاسلامـي ، تتفاهم بها الدول الاسلامية في مكاتباتها الرسمية . ولذلك فلا بد من ان تكون مادة اجبارية تدرس في مدارس العالم الاسلامي كله . غير ان عقبـات كثيرة وقفت دون هذا الهدف ، فما يزال النفوذ الاجنبـي وقـوى التغـريب والتبشير والشعوبية تسيطر على كثير من الجهات التي تحول دون تحقيق هذا الهَدف . وقد واجهت اللغة العربية في شمال افريقيا ، وفي الاقطار التي احتلتها فرنسا (تونس ـ الجزائر ـ المغرب) محاولات متعددة للقضاء عليها . اما في الجزائر فقد كان الامر اشد خطورة حيث كادت اللغة العربية ان تمحى محواً تاماً ، حتى اتيح لجمعية العلمـاء الجزائـرية وقادتهـا : عبـد الحميد بن باديس ـ والبشير

(١) راجع كتابنا : اللغة العربية بين حماتها وخصومها .

الابراهيمي وغيرهما .أن تعيد بناء اللغة العـربية من خلال ثلاثمائـة مدرسـة . اقيمـت في المساجـد علـى نحـو بارع استطـاع ان يتحقـق تحـت مدافـع الاستعمار ، وفوهات بنادقه .

وقد كان لهذا العمل الخطير ابعد الاثر في التحول التاريخي الذي شهدتـه الجزائر . وقد اشار الى ذلك المؤ رخ الفرنسي « جاك بيرك » حين قال : « ان اقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي في المغرب هي اللغة العربية . بل اللغة العربية الكلاسيكية (الفصحى) بالذات ، فهي التي حالت دون ذوبان المغـرب في فرنسـا . ان الـكلاسيكية العـربية هي التـي بلـورت الاصالـة الجزائرية . وقد كانت هذه الكلاسيكية العربية عاملا قوياً في بقـاء الشعـوب العربية . ا هـ .

اللغات الاسلامية واللغة العربية
في الباكستان والهند الاسلامية

كانت اللغة العربية في الهند الاسلامية هي لغة الثقافة ولغة الدين . بالاضافة الى اللغة الفارسية التي كانت حصيلتها وحروفها عربية . وكانت اللغة الفارسية في الهند هي اللغة الرسمية طوال العصور الاسلامية . وكانت تحمل في طياتها ذخيرة هائلة من التراث العربي .

ثم كانت اللغة الاردية هي اللغة الغالبة في المناطق الاسلامية . فقد حملت الثقافة الاسلامية قرابة تسعة قرون وذخرت بالكلمات العربية والفارسية . ولما كان في القارة الهندية (التي انقسمت من بعد الى الهند والباكستان) نحو اثنتين وثلاثين لغة مستقلة عن الاخرى . لان لغة كل اقليم لا يعرفها اقليم آخر . بينما كانت اللغة الاردية غالبة على مجتمعات المسلمين ، وكان هناك عدد كبير يتكلمون اللغة العربية الفصحى ، منهم من يجيدون الخطابة بها ويحفظون اشعار شعرائها . ومنهم من يقرؤها ويكتبها . كما كان هناك مؤلفون بالعربية في الفقه والتفسير والحديث .

وكانت هناك معاهد كثيرة في انحاء الهند الاسلامية تجري فيها الدراسة باللغة العربية . غير ان الموقف قد تغير تغيراً شاملا بعد الاحتلال الانجليزي للهند . فقد جعل الانجليز في مقدمة اهدافهم تجميد اللغة العربية ، والحيلولة دون قيام لغة واحدة للمسلمين والهندوس وفرض اللغة الانجليزية للهند كلها واعلائها لتصبح اللغة الاولى الجامعة للهند كلها . وقد تحقق ذلك خلال فترة احتلال الهند الطويلة الى ابعد حد .

فقد قرر حاكم الهند لورد ويسلي عام ١٨٠٠ انشاء كلية (فورد وليم) في مدينة كلكتا بالهند واسند مهام ادارتها الى المستشرق الدكتور دان جيكرست)

وقد تولت اول الامر تدريس العربية والسنسكريتية والاردية والبنغالية بالاضافة الى الانجليزية واللاتينية واليونانية .

ثم لم تلبث ان قصرت مهمة هذه الكلية على اللغات الشرقية . حيث حاول الانجليز لاول مرة في تاريخ الهند بذر بذور الشقاق بين المسلمين والهندوس ، لانهم شرحوا لهم عن طريق خططهم المدبرة ان كلا من المسلمين والهندوس ، لهما حضارتان مختلفتان ، وثقافتان متباينتان مستقلتان . وعلى هذا الاساس فقد دفع الانجليز الهندوس الى رفض اللغة الاردية كلغة موحدة للهند ، وجعلوا حجتهم التي ترضي الهندوس . باثارة القومية الهندية القديمة ، على اساس ان الاردية لغة اسلامية ، وحاملة للفكر الاسلامي . ومن هنا فلا بد من ايجاد لغة هندية للهندوس يشتقونها من نفس اللغة الاردية مع شطب الكمية الكبيرة من الكلمات العربية والفارسية ، وحروفها من ناحية ، واخراجها من اللغة ، وادخال كلمات سنسكريتية وحروفها من ناحية اخرى . وبهذا شكل الانجليز لغة جديدة للهندوس تكون بمثابة اللغة القومية للهندوس ، وقسموا هذه الكلية الى دراسة لغتين : الاردية والهندية ، واسندت مهام الرئاسة للغة الاردية الى استاذ مسلم ومهام الرئاسة للغة الهندية الى كهنوت هندي . وتطورت هذه المؤ امرة حتى اصبحت بمرور الايام مثار خلاف بين الهندوس والمسلمين . وبذلك تكونت في مستهل القرن التاسع عشر لغتان مع أنهما لغة مشتركة واحدة .

وقد كان من نتيجة ذلك ان شعر الهندوس بانهم تحرروا من سيطرة المسلمين . ولا بد لهم ان ينفضوا عنهم جميع الاثار الاسلامية التي رسخت بهم طوال القرون الماضية وتغلغلت في نفوسهم . وظهر هذا الشعور في النفور من مظهر اللغة المشتركة . فبدأوا ينفرون من اللغة الاردية ، لانها حافلة بالاثار الاسلامية ، وأنشأوا لغة جديدة . هي « الهندية » .

وكرسوا لاحيائها ونشرها جميع جهودهم وطاقاتهم . كما اخرجوا جميع الحروف العربية والفارسية التي كانت تستخدم في اللغة الاردية من بعض الولايات التي كانوا يتمتعون فيها باغلبية ساحقة ، ثم وجهوا عناية كبرى الى

الادب الهندي القديم واحيائه واتخاذه نبراساً لمستقبل اللغة الهندية . ثم كان ان فرض الهنود « اللغة الهندية » لغة مشتركة على المسلمين[١] .

وقد اتسع هذا الخلاف بعد انشاء دولتي الهند وباكستان ، وظهر الخلاف بين المسلمين حين اتجه الرأي الى اتخاذ اللغة الاردية اللغة الرسمية ، ذلك لان باكستان الشرقية تتكلم اللغة البنغالية ، وباكستان الشرقية اقرب الى الهند منها الى باكستان الغربية . كما انها تتغذى بالانتاج الفكري للهندوس البنغالية ، بدلا من الاردية ، لذلك رفضت باكستان الشرقية (الاردية) لغة رسمية وحيدة لدولة الباكستان . اما باكستان الغربية فهي اكبر معقل للفكر الاسلامي ، وفيها ظهر (اقبال) وفيها ولاية (السند) التى بدأ فيها الاسلام الضخم ، وابناؤ هـا يمتازون باصالتهم فى الاسلام وبالانتاج الضخم في الفكر الاسلامي .

ومما يتصل بهذا التحول الخطير ان غاندى زعيم الهندوس كان قد أعلن انه من الخير لسكان الهند الا يلجأوا الى اللغة الأردية . لانها تكتب باحرف القرآن وهو كتاب المسلمين وحدهم[٢] . وعلى الهند ان تختار اللغة المحفوظة عن الامهات فقط وهي اللغة السنسكريتية .

وقد عارض المسلمون ذلك الرأي ، وقالوا ان لغة الامهات هي اللسان العربي المبين . وكان الهدف التغريبي يرمي الى تذويب المسلمين مع الهندوس في اللغة السنسكريتية ، تعصباً ضد الاردية التي تحمل الثقافة الاسلامية وضد العربية ، وفتحا للطريق امام اللغة الانجليزية التي سيطرت على الهند كلها بعد الاستقلال .

وترجع صلة الثقافة الاسلامية باللغة الاردية الى مدى تسعة قرون ، وان لم تبلغ اللغة الاردية مكانة واسعة في الهند الاسلامية بعد ان آلت دولة المغول الى

---

(١) سليمان الندوي : بحث عن اللغة الاردية ـ مجلة الثقافة المصرية سنة ١٩٦٤ .

(٢) محمد حسن الاعظمي ص ١٧.١٧ م الرسالة م ١٩٤٩ .

الزوال واندثرت لغتها الرسمية (الفارسية) في اوائل القرن التاسع عشر . حيث تركزت عناية المسلمين على اللغة الاردية ، وحظيت بعناية الشعراء والكتاب . وبفضل التأليف بها والترجمة اليها اصبحت سهلة ميسرة عذبة في اسلوبها . وترجع غزارة مادة اللغة الاردية الى اتصالها بالثقافة الاسلامية[1] . فقد ترجمت الى الاردية امهات الكتب الفقهية للمذهب الحنفي وامهات كتب السنة ومنها (الموطأ والبخاري ومسلم) .

وقاد هذه النهضة اعلام المسلمين الذين اخذوا بنصيب موفور من الثقافة العربية ، ويعد العلامة شبلي النعماني ومدرسته في لكنو ودار العلوم بها ، وندوة لكنو وخريجوها من اعظم الافذاذ الذين عرفتهم الصحافة العربية ، وعرفهم ميدان التأليف من اقدر من كتبوا باللغة العربية . كما كتب بها عدد كبير من الاعلام .

وفي اللغة الاردية تراث اسلامي حديث قدمته اقلام كثيرة في مقدمتها : ألطاف حسين الذي صور بالشعر قضايا المسلمين والحرية ، ودعا الى ادب القوة ، وهاجم الجبرية . ومن ابرز انتاجه قصيدة (مسدس حالي) حيث يروي قصة الحضارة الاسلامية ومجدها .ويصور تخلف المسلمين واسباب انحطاطهم ذاكراً اسباب النجاح وعوامل التقدم حاثا المسلمين على اعادة مجدهم ومسايرتهم موكب الحضارة الحديثة وتفوقهم في العلوم المعاصرة .

وتدرس اللغة العربية في الجامعات الاسلامية الهندية والباكستانية كلغة اكاديمية لنيل الشهادات العليا في الاداب وقد عنى بها الكثيرون باعتبارها لغة القرآن الكريم والحديث الشريف . كما اعد بعض الباحثين دراسات مقارنة مشتركة بين اللغة العربية واللغة الاردية كالعلامة محمد حسن الاعظمي صاحب المعجم الاعظم ، الجامع بين اللغتين العربية والاردية ، ويوجد في حيدر اباد الدكن مركز هام لنشر العربية ، حيث يوجد مائة الف او يزيد من العرب ، ويوجد في باكستان مئات الالوف من دارسي اللغة العربية . وفي باكستان

---

(١) د ـ محمد اسماعيل الندوي ـ الثقافة ـ م ١٩٦٥ .

الشرقية نصف مليون تلميذ يدرسون العربية . ولا شك كان للغة العربية تأثيرها الواضح في مختلف اللغات الهندية بصفة عامة، وخاصة في اللغة السندية عن طريق الجيوش العربية التي دخلت السند بقيادة محمد بن القاسم (٩١ هـ) وتوسع سلطانهم فيما بعد الى ملقان وما جاورها حتى اصبحت العربية في السند لغة التخاطب ، وما تزال السندية تكتب بالخط العربي ، وتضم مفردات عربية تتجاوز الحصر ويرى بعض الباحثين[1] . ان تأثير اللغة العربية غير المباشر في اللغات الهندية انما يأتي عن طريق الفارسية التي غمرتها العربية مادة واشتقاقاً وغلبتها نفوذاً وانتشاراً .

اما اللغة الاردية فقد تأثرت باللغة العربية تأثراً كبيراً ، والكلمات العربية في الاردية يفوق عددها في الفارسية وتتراوح نسبتها بين عشرين وستين في المائة ، وتبلغ الكلمات العربية في الاردية عشرات الالوف .

وتتراوح الالفاظ العربية في جميع لغات باكستان المحلية بين ٣٠ و٦٠ في المائة وهي الاردية والسندية والبنغالية والكشميرية والبشتية ومعظمها يكتب بالخط العربي .

وقد كان لقيام دولة الباكستان الاثر البعيد في احياء اللغة العربية . فقد تأكد انه اذا كانت الاردية لغة رسمية للباكستاني . الا ان اللغة العربية هي لغة الثقافة الاسلامية ، وقال : « اقبال » اذا استثنينا اللغات الاوربية ، فلا مستقبل لاي لغة شرقية غير اللغة العربية .

والواضح ان المسلمين في الهند يتلهفون على اللغة العربية كلغة لهم ، والبنغاليون شديدو الاقبال على تعلم العربية . وقد علت صيحة (اغاخان) بالدعوة الى اتخاذ اللغة العربية لغة اساسية للباكستان بدلا من الاردية . وقد خطت باكستان خطوات واضحة في هذا الشأن . فقد قرر المؤتمر الاسلامي في كراتشي (١٩٥١) اتخاذ العربية لغة دولية في العالم الاسلامي تتفاهم بها الدول الاسلامية في مكاتباتها الرسمية (باكستان ـ ايران ـ تركيا ـ اندونيسيا) .

---

(١) مبارك الباكستاني م ٢٩ المجمع العلمي العربي ـ ١٩٥٤ .

وانشاء معهد لتعليم اللغة العربية في كل من باكستان واندونيسيا .

واكد كثيرون من مفكري الباكستان بان معرفة اللغة العربية امر ضروري جداً لكي تتخذ « الوحدة الاسلامية » صورتها العملية انه ليس في مكنة العالم الاسلامي ان يحكم اتصالاته ، وان يدعم روابطه الا اذا اتخذ اللغة العربية لغة مشتركة ، ومن الضروري ان تتخذ الحروف المطبعية حروفاً للغات الاسلامية[1] .

وفي سبيل دعم هذه الغاية قامت دولة الباكستان عام ١٩٤٨ باعادة الحروف العربية الى اللغة البنغالية حتى يزيد التقارب عن طريق جمعية حروف القرآن الثقافية . وان كان هناك بعض دعاة التغريب الذين دعوا الى استعمال الحروف اللاتينية للغة الاردية بدلا من الحروف العربية ، كما حدث في تركيا وفي اندونيسيا . ويعلق كثير من الباحثين اهمية كبرى على استعمال حروف لغة القرآن لكتابة اللغات الاسلامية المختلفة مما يزيد قوة الروابط الثقافية . خاصة وان المسلمين جميعاً يشتركون في لغة واحدة هي لغة القرآن الكريم ، وتجري الدعوة في تركيا الى استعادة تعلم اللغة التركية بالحروف العربية حتى تتمكن الاجيال الحاضرة والقادمة من قراءة التراث الاسلامي التركي الفني المكتوب بالحروف العربية .

ولا يزال هذا الاتجاه « استعمال حروف القرآن لجميع لغات المسلمين » ركيزة هامة من ركائز الوحدة الاسلامية الفكرية .

---

(١)عن بحث للاستاذين ناظم الدين ـ وحسين الهزاني .

اللغة الاندونيسية واللغة العربية

اللغــة السائــدة في انــدونيسيا هي لغــة الملايو ويسمونهــا اليوم « اللغة الاندونيسية » وهي لغة التعليم في المدارس الاهلية ، اسلامية كانت اوحرة .

وقد كانت هذه اللغة بعد دخول الاسلام الى اندونيسيا ، تكتب بالحروف العربية ، بعد ان كانت تكتب بالحروف الانـدونيسية القديمـة التي لا تزال موجودة حتى اليوم وتشبه بعض اللغات الاقليمية في انـدونيسيا مثـل : الجاوية ولغة سوندا في جزيرة جاوة . وقد ظلت اللغة الملاوية تكتب بالحروف العربية خلال ستة قرون كاملة . غير ان النفوذ الاستعماري الهولندي الذي سيطر على اندونيسيا اكثر من مائة عام . كان له اثره البعيد المدى في الغاء الحروف العربية عن الاندونيسية وكتابتها بالحروف اللاتينية . غير ان هذا التحـول اللغـوي الخطير لم يقلل من اهمية الثقافة العربية ، بحسبان ان اللغة العربية هي لغة الدين والقرآن . وقد ظلت اللغة الاندونيسية تكتب بالحروف العربية ، منـذ دخل الاسلام ارخبيل الملايو ، فعاشت تترجم اليها الكتب الفارسية والهندية والعربية . وتقدمت دراسة اللغة فألف بها كثير من العلماء .

واثر اللغة العربية ما زال قائماً في اللغات الملاوية ، حيث تجـد آلافـاً من الكلمات العربية وقلما يتكلم انسان في الملاوية جملة واحدة دون ان يلفـظ بكلمة عربية . وتأثير العربية في الملاوية اكبر واقـوى من تأثيرهـا في لغـات انـدونيسيا الاخـرى : الجـاوية والسونـدانية . وقـد الف بعض العلمـاء الاندونيسيين كتباً باللغة العربية منهم : العالم السومتري الشيخ خطيب فنانكبو والشيخ محفوظ .

حاضر اللغة العربية في افريقيا

دخلت اللغة العربية الى القارة الافريقية قبل الاسلام ، وتركت آثارها في لغات الحبشة والصومال وزنجبار . ثم انتشرت اللغة العربية في افريقيا كنتيجة طبيعية لانتشار الاسلام واعتناق شعوب البلاد له ، وامتدت على ايدي العلماء والفقهاء . واصبحت بعد توقف التوسع لغة الاقطار الكبرى شمال الصحراء ، وتركت طابعها الواضح على لغات باقي الاقطار والاجناس[1] .

وقد قامت المساجد التي انشئت والكتاتيب والزوايا بتحفيظ القرآن ، وتعليم القراءة والكتابة . ويؤكد اغلب المؤرخين على انه في القرن الرابع الهجري (١٠ م) تغلغت الثقافة العربية في افريقيا (الغربية) واصبحت اللغة العربية لغة التخاطب في المراسلات الرسمية للدول الافريقية الاسلامية بالاضافة الى انها كانت اللغة المستعملة في التجارة التي كانت بايدي العرب . وكان للعرب في عاصمة غانه القديمة اثنا عشر مسجداً ، الحق بكل مسجد مدرسة لتعليم اللغة والفقه الاسلامي ، ثم اصبحت اللغة العربية لغة التدوين في شتى انحاء القارة . وان السلاطين الافريقيين كانوا يتحدثون العربية .

وكذلك الامراء الافريقيون يستعملونها في مكاتباتهم الرسمية . وقد عقدوا معاهداتهم مع المستعمرين بالفرنسية والعربية . وقد اصطحب السلطان موسى الاول صاحب مالي ١٣٣٢ من القاهرة بعد مقابلة محمد بن قلاوون عدداً من الفقهاء والعلماء . كما ارسل هذا السلطان البعوث العلمية الى القاهرة . واقام علاقات طيبة مع المورينين في فاس ، وقد عاد المتعلمون في هذين البلدين ليعملوا في القضاء وفي اقامة المساجد ، واصبحوا نواة للمراكز الثقافية

---

١ ـ راجع بحث المرحوم الاستاذ عبد العزيز اسحاق : مجلة نهضة افريقيا ـ والاستاذ نعيم قداح في كتابه عن الحضارة العربية في افريقيا .

الاسلامية في بناني عاصمة مالي ، وكوسى صالح عاصمة غانا . وفي تمبكتو ودينية في النيجر الوسط . وكان القرآن هو المحور الاساسي الذي تدور حوله علوم التفسير والقراءات والفقه والنحو والصرف .

وكانت اللغة العربية هي اللغة الوحيدة المستعملة في التكلم . وقد امتد اثرها الى اللغات الافريقية المحلية التي كتبت بحروف عربية او تسربت اليها بعض الكلمات العربية . ويوجد في مكتبة المعهد الفرنسي في دكار منذ ١٩٠٠ اكثر من ثلاثمائة مخطوط باللغة العربية ، وهي قسم مما استولى عليه المستعمرون الفرنسيون اثناء احتلالهم للسودان (جمهورية مالي حالياً) عام ١٨٩٣ ـ وقد سرق الفرنسيون جميع المخطوطات التي كانت في حوزة السلطان احمد بن الحاج عمر .

وقد ساهمت الطرق الصوفية في انشاء اعداد كبيرة من المساجد والكتاتيب ، ونشرت بعض العلوم الحربية باسم الجهاد والمقاومة للنفوذ الاستعماري . في السنغال ظهر في القرن الخامس الهجري (١١م) « الرباط » وهو مدرسة دينية عسكرية ثقافية ومستشفى ودار للمسافرين . فلما احتل الفرنسيون مالي اغلقوا (١٣ معهداً) وكثيراً من المكتبات . ونقل الفرنسيون محتوياتها الى فرنسا .

وقد صور هذه المرحلة فرنسيس مور في كتابه « رحلات الى ربوع افريقيا » الصادر عام ١٧٣١ : حين قال : في كل بلد من جانبي النهر (نهر كامبيا) توجد جماعة ذات بشرة سمراء تدعى القيلبي او القلا وهم يشبهون العرب ومعظمهم يتكلم اللغة العربية . لانهم يتعلمونها في مدارسهم. ولان القرآن وهو ايضاً شريعتهم مكتوب بهذه اللغة .

واشار توماس ارنولد في كتابه (الدعوة الى الاسلام) فقال : إن اللغة العربية وهي لغة الديانة الاسلامية قد بلغت حداً يفوق كل وصف . بل انها اصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة الافريقية . وهي الى ذلك لغة شريفة مكتوبة . كما أشار ارنولد الى التقرير الذي عرض على مجلس العموم البريطاني عام ١٨٠٢ ـ والخاص بمستعمرة سيراليون . وقد جاء فيه : « انه منذ سبعين عاماً

استقرت جماعة صغيرة من المسلمين في الشمال من سيراليون فتحوا مدارس تدرس فيها اللغة العربية ، والعقائد التي جاء بها « محمد » وجروا على عادة المسلمين في عدم بيع ابناء دينهم بيع الرقيق . وقد اقاموا لانفسهم شرائع استخرجوها من القرآن وجلبوا الى البلاد حضارة بلغت درجة عظيمة . وقد تمتع المتعلمون بكثير من الاحترام ، ثم اصبحوا معلمين يبجلهم الناس بعد ان يعودوا مزودين بالعلم الكثير من مساجد القيروان وفاس وتلمسان وطرابلس والازهر » .

وقد اشار شاريت كانيا المؤرخ الفرنسي في كتابه « تاريخ افريقيا » فقال : ان اهم ما يعتمد عليه في تاريخ افريقيا هي المصادر العربية التي الفت في هذه الفترة القرن ١٦ و١٧ الميلادى (١٠ - ١١ هـ) باللغة العربية لمؤلفين افريقيين هما : عبد الرحمن السعدى (كتاب تاريخ السودان) ومحمود كاتي .

ويقول انتاروب : لقد تغلغل العرب الى افريقيا السوداء سلمياً ، واثروا في الافريقيين دينياً وفكرياً ، وكانوا على وفاق مع العرب .

(٢)

توسعت العربية وسيطرت بحكم انها لغة الاسلام على عديد من اللغات الافريقية : (الهوسا . الماندنجو . الولوف . السواحلية . الصومالية . ولغات النيجر . والدناكل في اثيوبيا . وارتيريا) . وما بقي من هذه اللغات استعار الكثير من الالفاظ العربية . وخاصة الالفاظ الخاصة بالشرائع والنظم الاسلامية . وكان لانتشار التجار العرب في الاسواق التجارية ابعد اثر ، وكذلك انشاء الخلوات والكتاتيب . ومعظم هذه اللغات كانت تكتب بالحروف العربية . وقد تداخلت العربية والسواحلية حتى ان ٣٠ في المائة من مفردات السواحلية من الكلمات العربية مباشرة . واللغة السواحلية اكثر اللغات المحلية انتشاراً في شرق افريقيا ، وتمتد المنطقة التي تتكلم اللغة السواحلية فتشمل زنجبار والمناطق الساحلية في كينيا وتنجانيقا . وتمتد في الداخل حتى المناطق الشرقية من حوض الكونغو . وقد دخلت اليها الالفاظ العربية وانصهرت فيها . وفي مستعمرات شرق افريقيا البريطانية (كينيا وتنجانيقا ، وزنجبار يكتبون السواحلية بحروف عربية) .

فقد عمد الاستعمار الى دفع هذه القبائل الى استعمال الحروف اللاتينية في كتاباتهم بدلا من العربية . وجميع اللهجات الافريقية الموجودة في غانا والسنغال ونيجريا والكونغو البلجيكي ويوغندا وتنجانيقا وكينيا وزنجبار قد طعمت باللغة العربية على مر العصور . والعربية في جميع هذه المناطق هي لغة القرآن والثقافة ، وتنتشر فيها كتاتيب تحفيظ القرآن وتنتشر بين قبائل الطوارق وشعب الهوسا . وفي انحاء نيجيريا وبحيرة تشاد ، وتهتم الطوارق ـ التي لها لهجتها ـ باللغة العربية ، ومعها فقهاؤ ها الذين يعلمون اطفالها القرآن والحديث . وللهوسا ايضاً لغتهم الخاصة التي هي تحريف للالفاظ العربية . وفي مقدمتهم (كانو ـ كادونا) حيث تنتشر المدارس التي تعلم اللغة العربية .

واقليم تشاد عريق في ثقافته الاسلامية . ومن اهل هذا الاقليم كثير من علماء اللغة والدين الذين تركوا مؤلفات لها قيمتها في الفقه والتفسير . ومعظم قبائل الدنيكا والشلوك والنوير والباريا والزاندي ، رطانتها بالعربية فيها حروف الحلق ، وخاصة العين والحاء ، وجوهر الكلام عربي يحتاج الى جهد صادق ، لكي يتجلى عن عربية قد تماثل عربية المغرب الاقصى . وشعوب البانتو تتكلم لغة تعتبر فرعاً مباشراً من اللغة العربية . ومن اللغة السواحلية ، وهي في مجموعها اقرب اللغات الى الرطانة العربية في السودان الجنوبي ، ولكنها تمتاز عن تلك الرطانة بانها لغة مكتوبة[1] .

---

١ ـ عن بحث مطول (مجلة نهضة افريقيا) .

(٣)

وترتبط اللغة العربية في افريقيا بالثقافة العربية والفكر الاسلامي، وهي تستند اساساً الى القرآن وعلومه ، مما يعطيها شخصية متميزة . من العسير ان تذوب في مؤثرات الثقافات الاخرى ، وهي قوية بالنسبة للثقافات الافريقية الساذجة التي يستطيع الاسلام ان يصهرها في بوتقته . ومن هنا فان حرص الاستعمار على اضطهاد اللغة العربية ، انما كان يهدف الى القضاء على الثقافة العربية المستمدة من الفكر الاسلامي بمقوماته وشخصيته .

وقد اتبع كل من هذه القوى الاستعمارية خطة مختلفة في ظاهرها . ولكنها تلتقي عند هدف موحد هو صرف الانصار عن تعليم اللغة العربية ، الى تعليم لغاتهم الاجنبية .

فالفرنسيون اتبعوا سياسة مباشرة في القضاء على اللغات المحلية ، واللغة العربية على حد سواء . وهدفهم هو امتصاص الشعوب وفرنستها ، فاهملوا المحلية والعربية ، وقصروا التعليم على الفرنسية في المدارس ، واقروا اللغة الفرنسية ايضاً كلغة رسمية في المصالح والشركات وقصروا الانخراط في الوظائف على الملمين بالفرنسية . وكذلك اتبعت بلجيكا والبرتغال ذلك في مستعمراتها .

اما الانجليز فقد هدفوا الى ايقاف تيار الثقافة العربية وتأثيرها باحياء الثقافات الافريقية الاصيلة . وصبغها بصبغة قبلية تساعد على اثارة العصبيات والقوميات المحلية المحدودة في نطاق قبلي، هادفين من إحياء هذا الروح إلى اقامة سد في وجه انتشار الثقافة العربية التي يعدونها خطراً على نفوذهم ومصالحهم الاستعمارية[1] . وقد عمد الانجليز الى تشجيع دراسة اللغات المحلية على يد

---

(١)راجع بحث الاستاذ حلال عباس ـ مجلة الازهر م ١٩٦٠

المبشرين وعلماء اللغات ، وتكوين لغات جماعية لمواجهة احتياجيات التعليم بحيث توضع لغات جديدة مختارة تطعم ببعض الالفاظ من لغات اخرى قريبة منها ، او لهجات من نفس اللهجة . وعندما تقوم المحاولات لايجاد لغات افريقية شبه موحدة ، يتجه الرأي الى اختيار احدى اللهجات ، ويجري احياؤها وتقليبها على سائر اللغات بترجمة الكتاب المقدس اليها وتعليمها في المدارس ، مع العمل على تشجيع اللغة الانجليزية المحلية (Local English) كتمهيد لسيادة اللغة الانجليزية . وتعد اللغة الانجليزية لغة التعليم في مختلف المدارس العالية تدرسها تلك الصفوة التي يختارها المستعمر ليعدها لشغل الوظائف البسيطة في المصالح والشركات[1] .

ويتصل بهذا ـ في سبيل تجميد اللغة العربية وايقاف نموها ـ ابعاد الذين يتخرجون من المدارس العربية ، وعدم تقديم العون للتعليم العربي وعدم الاعتراف به ، وذلك كوسيلة للضغط على المسلمين للاتجاه الى المدارس التبشيرية ، والمدارس الاستعمارية ، حتى يقعوا في اخطبوط التغريب والاستعمار .

وهكذا كان للنفوذ الاستعماري في القارة الافريقية الذى امتد خلال قرن كامل اثره العميق في ايقاف نمو اللغة العربية التي كان انتشار الاسلام ذاتياً في افريقيا عاملا هاماً في انتشارها ، وذلك بادخال اللغات الاوروبية واحياء اللهجات المحلية . ونظراً لتعدد اللغات الافريقية الوطنية . فقد اصبحت اللغات الاوروبية هي لغات التفاهم العامة ، وما تزال اللغة عاملا هاماً في مخطط الاستعمار للاحتفاظ بسيطرته الثقافية على عقول الافريقيين واتجاهاتهم .

ففرنسا تعمل على خلق اجيال من المتحدثين بالفرنسية ، وبريطانيا تدرب المدرسين في انجلترا تدريباً خاصاً ، ثم تبعث بهم الى هذه الاقطار الافريقية . (ابريل ١٩٥٣ : درب ١٦ الف مدرس) . وفي مناطق كثيرة حال المستعمرون بصورة عامة بين المسلمين والتعلم . اذ كانوا يشترطون على

---

(١) نفس المرجع السابق .

المسلم ان يغير اسمه الى اسم لاتيني ، ويشترطون حضور الصلوات الكنسية ودراسة التاريخ الاستعماري .

(٤)

وقد عمدت بريطانيا في شرق افريقيا الى احياء اللغة السواحلية لايقاف اللغة العربية التي كانت تنتشر مع انتشار الاسلام ، ومع تزايد عدد العرب المهاجرين الى هذه المناطق . وبذلك صرف الناس عن اللغة العربية ، وادخلت اللغة السواحلية في التعليم . ولما كانت كتابة السواحلية باللغة العربية عاملا هاماً في ربط السواحلية بالثقافة العربية ، فقد انبعثت الدعوة الى كتابة اللغة السواحلية بالحروف اللاتينية عام ١٩٣٢ ووضعت الاسس والقواعد لكتابتها بالحروف اللاتينية . وتم ذلك عام ١٩٤٨ . وصدرت عشرات الكتب المدرسية باللغة السواحلية الحديثة .

وفي شرق افريقيا عمدت بريطانيا الى القضاء على الثقافة العربية التي تقوم على نظام الحصص القرآنية . وذلك لافساح الطريق امام اللغة الانجليزية ، فوضعت خطة لاحلال اللغة الانجليزية تدريجياً في زنجبار وكينيا وتنجانيقا ، كما جرى تطعيم اللغة السواحلية بالالفاظ الانجليزية لايجاد لغة افريقية انجليزية مختلفة[١] .

١ـ محمد حلال عباس ـ م ٣ ـ مجلة نهضة افريقيا .

(٥)

وبالرغم من هذه الحملات العنيفة المشهرة على اللغة العربية والحرف العربي في اللهجات واللغات الافريقية . فان الافريقيين ما زالوا يرون ان اللغة الانجليزية او الفرنسية غريبة عنهم وانها لغة المستعمر ، وما يزال اقبال اهالي شرق افريقيا على اللغة العربية ، وان قلت فرص تعلمها ، وهم يقبلون عليها باعتبارها لغة القرآن ، وهم يطلقون عليها (رباني قرآني) اي لسان القرآن لانها لغة العقيدة : « الاسلام » . وقد استطاعت الشعوب القريبة من المغرب ان تستقدم المعلمين وحفظة القرآن الكريم ، وخاصة شعب غانا ، السنغال .

وما تزال اللغة العربية في افريقيا اصلح اللغات لتحقيق وحدة القارة الافريقية ، وهي منتشرة في انحاء كثيرة من القارة . وبخاصة بين المسلمين الذين يسكنون في جهات كثيرة من افريقيا فيما يلي الصحراء . وستظل اللغة العربية طلبة المسلمين في افريقيا خاصة . حيث يوجد اساس من اللغة العربية في اكثر اللغات الافريقية ، نتيجة العقيدة الاسلامية ، والاحتكاك بالعرب قبل الاستعمار . ولا زال هناك اقبال عارم لدى الشعوب الافريقية على تعلم اللغة العربية لاعادة صلاتها بالعالم الاسلامي . والامة العربية ، وتركز افريقيا كثيراً على جامعتي الازهر والقرويين .

وقد اجرى الباحث العربي المسلم العلامة : محمد عبد العزيز اسحاق (رحمه الله) تحقيقاً حيا في هذا المجال ، فوصل الى حقائق اساسية تتمثل في ترحيب شعب غانا ترحيباً عظيماً بالثقافة العربية والدين الاسلامي . وكذلك القسم الاسلامي من نيجيريا واقرب الاقطار العربية الى نيجيريا هي ليبيا . واما السنغال المجاورة لشنقيط ـ مصدر الاشعاع القديم ـ فتستمد من المغرب المعلمين وحفظه القرآن . وفي اقليم تشاد تسود الثقافة العربية القديمة ، والازهر حافل بابناء تشاد . ويجري تعريب المناطق الشاسعة من السودان العربي

والجنوبي . وفي مناطق السواحيلي يتم انشاء سلسلة من الكتاتيب والخلوات ومعاهد تدريب المعلمين على حدود السودان الجنوبي الغربي .

(٦)
الاستعمار والعالم الاسلامي

١ ـ الاستعمار

٢ ـ التبشير

٣ ـ الصهيونية

٤ ـ الحركات الهدامة

(١)

الاستعمار

واجه « العالم الاسلامي » على مجرى تاريخه الطويل تحديات متصلة من القوى المعارضة لم تتوقف . فقد كان الوجود الاسلامي الذي تشكل بظهور الاسلام وتوسعاته خلال القرن الاول الهجري عاملا في تحرك قوى الدولة الرومانية ـ التي كانت تحتل بعض الاجزاء التي سيطر عليها الاسلام ـ بالمناوشة والغزو وعلى خطوط الحدود بين الدولة الاسلامية والدولة البيزنطية ، وقد امتدت هذه المناوشات زمناً طويلا ، وظلت اوربا تغذيها دون انقطاع ، فلما آن للدولة البيزنطية ان تضعف ، وتفقد مقوماتها في مهاجمة اطراف العالم الاسلامي تدافعت اوربا في مغامرة ضخمة شرسة تحت علم الحروب الصليبية لغزو العالم الاسلامي باسم تحرير بيت المقدس من سيطرة المسلمين .

وقد اتصلت هذه الغزوة قرنين كاملين ، في نفس الوقت الذي تدافعت فيه قوى الفرنجة من فرنسا والبرتغال الى استعادة « اسبانيا الاسلامية » الاندلس . وقد حرت المعارك في الميدانين في وقت واحد . غير ان قوة غازية احرى لم تلبث ان اندفعت للسيطرة على العالم الاسلامي . تلك هي قوة المغول والتتار ، التي اجتاحت المشرق ، واندفعت حتى التقت بالقوى الصليبية في محاولة لوضع العالم الاسلامي بين شقي الرحى .

وانتهت هذه الصفحة او كادت بانهزام الحملات الصليبية وعودتها على اعقابها ، وانصهار الفوات التترية المغولية في بوتقة الاسلام ، ثم لم تلبث ان ظهرت القوة الاسلامية التركية شامخة لتحمي العالم الاسلامي من محاولات الغزو الاوربي المتحددة . فظلت صامدة تحرس شواطىء البحر الابيض والامة العربية في نفس الوقت الذي تدافعت القوى الاوروبية التي استعادت الاندلس الى

مهاجمة الساحل الغربي لافريقيا والتوغل فيها . وذلك وفق خطة عرف من بعد انها تهدف الى تطويق العالم الاسلامي كمقدمة للسيطرة عليه واحتلاله . وبذلك تكون حركة الاستعمار الحديث قد بدأت من نقطة سيطرة الدولة العثمانية على (القسطنطينية) قلعة الدولة الرومانية الشرقية . وسقوط آخر معاقل الاسلام في الاندلس (قرطبة) في ايدي الفرنجة . فقد اندفعت اوربا على اثر ذلك في عملية غزو جديدة للعالم الاسلامي ، تعارف الكتاب من بعد على اطلاق كلمة (الاستعمار) عليها . وهي حلقة جديدة ومرحلة متصلة بالحروب الصليبية القديمة ، وآية ذلك ان اللورد اللنبي بعد ان دخلت القوات البريطانية الى القدس سنة ١٩١٨ قال كلمته الموحية بهذا المعنى « الان انتهت الحروب الصليبية » .

وقد حفظت النصوص والوثائق مضامين رسمية تثبت كيف ان خطة الاستيلاء على العالم الاسلامي كانت امراً متصلا لم تتوقف اوربا والغرب عن التفكير فيه . والسعي له والعمل لتحقيقه خلال هذه المرحلة الطويلة التي تزيد على سبعة قرون . وكان هذا هو الخلفية الطبيعية للتصريح الخطير الذي القى به اللورد اللنبي محاولا ان يؤكد ان هزيمة الحروب الصليبية واجلائها من العالم الاسلامي لم يكن هو نهاية الجولة في ذلك العمل الدائب الذي استمر قروناً طويلة ، منذ خرجت القوات البرتغالية والاسبانية للسيطرة على سواحل افريقيا الى ان تم ذلك اليوم . وكأنما قد استطاعت اوربا المسيحية اخيراً ان تهزم القوى الاسلامية ، وان تستعيد (بيت المقدس) الى نفوذها من جديد . واذا كانت اوربا المسيحية قد استعادت بيت المقدس بالسيطرة على العالم الاسلامي . فان الصهيونية العالمية كانت تدفع هذا العمل بقوة في سبيل نقل هذا النفوذ اليها كما تحقق ذلك عام ١٩٦٧ بسيطرة الصهيونية العالمية واسرائيل على (بيت المقدس) بديلا للاستعمار الغربي .

وفي هذا تقول الكاتبة اليهودية (بربارة توخمان) في كتابها « التوراة والسيف » . . وهكذا دخل الجنرال اللنبي الى القدس ١٩١٨ فنجح حيث كان (ريكاردوس قلب الاسد) قد اخفق . ولولا ذلك الانتصار لما كانت اسرائيل الان قد اصبحت حقيقة واقعة . وكذلك لم يكن بامكان اللنبي ان ينجح لولا محاولة ريتشارد . اي لو لم تكن النصرانية قد اقامت في الاصل الاساس الذي

يحمل النصارى على التعلق بالارض المقدسة . وان من غريب التهكم ان يكون اليهود قد استعادوا موطنهم ، والى حد ما بفعل الدين الذي اعطوه للاميين . وتحاول هذه النصوص ان تكشف المطامع الخفية المتصارعة بين قوى الاستعمار الغربي ، وقوى الاستعمار الصهيوني التي تمثل اعتى صور هذا الاستعمار . وكأنما كانت هذه القوى المختلفة قد اتخذت من الروابط التي تربط الاديان الثلاثة بالقدس مدخلا الى العالم الاسلامي ، ورأس جسر للغزو والسيطرة عليه .

ومن عجب ان ثلاثة ارباع الجنود الذين فتحوا الطريق للبريطانيين الى القدس كانوا من ابناء الاسلام ، وقائدهم الامير فيصل بن الحسين . ويمكن القول بان الغزو الغربي للعالم الاسلامي قد تم خلال مرحلتين :

١ ـ المرحلة الاولى : مرحلة تطويق العالم الاسلامي ـ وهذه هي المرحلة التي بدأت قبل نهاية القرن الخامس عشر ، وابطالها هنري الملاح ، وفاسكودي جاما وخلفاؤ هم . وقد وصفهم المؤ رخ كيرك : بأنهم « كانوا يهدفون الى السيطرة على الشاطىء الافريقي من المحيط الاطلنطي مولين وجهتهم نحو الجنوب ، في محاولة للالتفاف حول ديار الاسلام وحصرها من الوجهتين الحربية والتجارية مع انتزاع تجارة الذهب وغيره من حاصلات افريقيا الغربية من يد المسلمين . ثم الاتصال مما وراء الصحراء الكبرى جنوباً بنجاشي اثيوبيا (برسترجون) . والاشتراك معه في مهاجمة المسلمين من الجنوب .

وقد هاجمت هذه القوات ثغور العالم الاسلامي التي لم تكن متأهبة لمقاومة الاساطيل الاوروبية ، ولكنها قاومت طويلا ، وسقط منها الشهداء ، ولم تقبل بالتسليم الا بعد ان فقدت كل ما كانت تملك من قوى وعتاد .

وقد استطاع فاسكودي جاما ان يصل عام ١٤٨٨ الى رأس الرجاء الصالح . ثم اتجه الى الهند . وكان احمد بن ماجد هو قائد سفنه الى ثغور الهند .

ومن ثم تحولت التجارة الى راس الرجاء الصالح بعد ان كانت تمر بالبحر الابيض المتوسط ، واستطاعت البرتغال ان تستولي على مسقط وهرمز والبحرين عام ١٥١٥ وان تصل الى فاليقوط (كلكتا) اعظم ثغور الهند .

ولم يلبث الفرنسيون والانجليز ان ورثوا البرتغاليين وازاحوهم وسيطروا على هذه المناطق ، وبلغت هولندا جزر الملايو فاقتسمتها مع بريطانيا (جاوة وسومطرة في يد هولندا ، والملايو في يد بريطانيا) كما سيطرت بريطانيا على الهند : درة التاج البريطاني لأزمان طويلة ، ومصدر كل الخطط التي سيطرت بها على مصر والعراق وغيرها ، وعلى قناة السويس باعتبارها تأميناً لطريق الهند . وكان ذلك في منتصف القرن السادس عشر .

وفي نفس الوقت كانت روسيا قد بدأت تحقق مطامع بطرس الاكبر في الاستيلاء على اجزاء مختلفة من العالم الاسلامي حيث استولت على فازان واسترخان في منتصف القرن السادس عشر . حيث بدأ التوسع الروسي في الاراضي الاسلامية . ثم امتد حتى وصل الروس الى القوقاز وسهول تركستان ، ثم توالت حركة استيلائها في خط واحد مع فرنسا وانجلترا .

كانت كبرى الدول الاسلامية في هذه الفترة هي :

(١) ـ العثمانية في الاناضول والعالم العربي والبلقان .
(٢) ـ الفارسية في ايران .
(٣) ـ المغولية في الهند .

وكان الصراع قائماً بين العثمانية والفارسية ، وقد استغلته بريطانيا والغرب الى ابعد حد ، وحيث ايدت فارس في صراعها مع الدولة العثمانية . ومن ثم فتحت فارس ابوابها للنفوذ الاجنبي مبكرة واتخذت من ذلك ركيزة لحماية درة التاج . وفي هذه الفترة : عصر تطويق الاسلام والسيطرة الاوربية .

تزكزت انكلترا في الهند والملايو ، وهولندا في اندونيسيا ، وروسيا في آسيا الوسطى ، وفرنسا في البحر الابيض المتوسط .

(٢) ـ المرحلة الثانية : (مرحلة تقسيم العالم الاسلامي) .

بدأت بالحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ . وانتهت بهدنة الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٨ حيث تمت عملية توزيع الاجزاء الباقية من البلاد العربية والتابعة للدولة العثمانية بين فرنسا وانجلترا . وهي العراق والشام باجزائه ، واصدار

وعد بلفور الذى اعطى للصهيونية العالمية حق اقامة دولة في فلسطين . وقد تمت عملية التقسيم هذه خلال مائة وعشرين عاماً تحركت فيها الاحداث في طريق اتمام سيطرة النفوذ الغربي على العالم الاسلامي كله ، بالاحتلال العسكري او المعاهدات ، وكانت هذه هي المرحلة التنفيذية للمرحلة الاولى : مرحلة تطويق العالم الاسلامي التي بدأت منذ انتهى آخر خيط لتحرر اوربا (البرتغال) من النفوذ الاسلامي .

وفي اعقاب الحروب الصليبية التي انهزمت في المشرق وانتهت بقيام دولة اسلامية شامخة هي الدولة العثمانية التي استولت على القسطنطينية عام ١٤٥٣ . بينما استطاعت الحروب الصليبية في المغرب ان تحقق اجلاء المسلمين والدولة العربية عن الاندلس .

وقد ترابطت هذه الحركة منذ قام هنري الملاح بحملته على العالم الاسلامي بادئاً عملية التطويق عام ١٤٥٠ تقريباً حتى دخل اللورد اللنبي الى القدس عام ١٩١٨ . واعلن في عبارة قصيرة « انتهاء الحروب الصليبية » .

بدأت هذه المرحلة : انكلترا في الهند ، وروسيا في آسيا الوسطى ، وهولندا في اندونيسيا ، وفرنسا في البحر الابيض المتوسط . وقد تحقق في هذه المرحلة خطوات هامة في دعم عملية تقسيم العالم الاسلامي .

اولا : عام ١٨٣٠ - استيلاء فرنسا على الجزائر ، وهزيمة الامير عبد القادر وقواته بعد اربعة عشر عاماً من المقاومة .

ثانياً : عام ١٨٥٧ - القضاء على ثورة المسلمين في الهند .

ثالثاً : عام ١٨٥٩ - القضاء على ثورة الامير شامل واستيلاء روسيا على القوقاز .

رابعاً : عام ١٨٦٩ - افتتاح قناة السويس وسيطرة الدول الاوربية على عنق الزجاجة في مصر في ادق موقع بين آسيا وافريقيا واوربا .

خامساً : عام ١٨٦٠ - تدخل الدول الاوروبية في لبنان ، واشعال الثورة بين المارون والدروز ، وخلق كيان خاص تبدأ منه حركة الغزو الفكري بالبعثات التبشيرية الى العالم الاسلامي كافة .

سادساً : عام ١٨٣٨ ـ نفارين وتحطيم القوة المصرية الجديدة المخوفة النماء .
سابعاً : عام ١٨١٨ ـ تحطيم القوة الوهابية الصاعدة في الجزيرة العربية .
ثامناً : عام ١٨٦٨ ـ قيام الحركة الصهيونية واطلاق وعد بلفور ١٩١٧ .
تاسعاً : عام ١٩١٨ ـ اسقاط الدولة العثمانية .
عاشراً : عام ١٩٢٤ ـ الغاء الخلافة الاسلامية .

ويمكن تقديم الحقائق التالية في ايجاز :

اولا : ان الاستعمار هو الجولة الصليبية الثانية في مواجهة عالم الاسلام .

ثانياً : كانت اوربا هي القارة التي واجهت العالم الاسلامي منذ ١٥٠٠ الى الان . حين تحول هذا النفوذ بعد الحرب العالمية الثانية الى الولايات المتحدة .

رابعاً : بدأ تطويق العالم الاسلامي عام ١٥٠٠ وبدأ الغزو بالحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ .

خامساً : كانت الامة العربية موضع التركيز الشديد والعنيف لانها جاملة لواء الاسلام واللغة العربية .

سادساً : كان اسقاط الدولة العثمانية باعتبارها عروة وحدة العالم الاسلامي هو الهدف الاول ، واسقاط الخلافة هو الهدف الاكبر .

سابعاً : برزت الحركة الصهيونية عام ١٨٩٧ وبدأت صراعها مع السلطان عبد الحميد الذي عارضها حتى اسقطته عام ١٩٠٩ ثم اسقطت الدولة العثمانية عام ١٩١٨ .

ثامناً : بسقوط الدولة العثمانية (رابطة العقد بين العرب والترك) سقطت كلمة العالم الاسلامي ، وبدأت كلمة القوميات . فظهرت القومية الهندية في مواجهة المسلمين في الهند ، والقومية الطورانية في مواجهة العرب ، والقومية اليهودية . بالاضافة الى تحديات الاقليمية والقبلية والطائفية .

تاسعاً : برزت القوميات الايرانية والتركية والاندونيسية والباكستانية . وقد حاول الاستعمار ان يوقع بينها من ناحية ، وبين الامة من ناحية اخرى .

عاشراً : الاستعمار قضية كلية ، والسيطرة الصهيونية على فلسطين واجهة لقوة استعمارية جديدة هي الصهيونية العالمية . وقد تركزت في قلب العالم الاسلامي (فلسطين) حيث بدأت عام ١٨٩٧ وعد بلفور ١٩١٧ قيام اسرائيل ١٩٤٨

سقوط القدس ١٩٦٧ .

وبعد سقوط القدس في يد الصهيونية العالمية هو اكبر حدث في العصر الحديث بعد الغاء الخلافة .

***

ومن الناحية الاخرى يمكن القول بان قوة اليقظة الاسلامية العربية قد حققت نتائج ايجابية هي :

١ ـ قيام اليقظة الاسلامية العربية بالحركات الاسلامية لتصحيح العقيدة وقيادة الحركة لمقاومة الاستعمار .

٢ ـ قيام دولتين اسلاميتين كبيرتين : اندونيسيا والباكستان .

٣ ـ ظهور الحركة الثورية العربية كمنطلق للنهضة ، وبروز الثورات المختلفة في انحاء العالم الاسلامي .

٤ ـ قيام الجامعة العربية بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٤٤ .

٥ ـ بروز عدد من المجاهدين والقادة الذين حملوا لواء اليقظة في انحاء العالم الاسلامي .

٦ ـ بدأت مرحلة التصنيع والقوة الصناعية والتكنولوجيا في العالم الاسلامي .

٧ ـ مقاومة الغزو الصهيوني والاستعماري .

٨ ـ كشف شبهات التغريب والغزو الثقافي المتسلط على الفكر الاسلامي .

٩ ـ بدأ التقارب والالتقاء بين المذاهب الاسلامية وفي مقدمتها : (السنة والشيعة) .

١٠ ـ التقاء الدوائر الثلاث : العربية ـ والافريقية ـ والاسيوية ـ في مواجهة الاستعمار .

تاريخ الاحتلال الغربي للعالم الاسلامي

(١) الاحتلال الفرنسي :

١٨٤٧ ـ الجزائر ، حيث بدأ الغزو عام ١٨٣٠
١٨٨١ ـ تونس
١٨٨٢ ـ السنغال
١٨٨٢ ـ مدغشقر
١٩١١ ـ المغرب

(٢) الاحتلال الايطالي :

١٩١١ ـ ليبيا
١٨٨٧ ـ الصومال وارتيريا

(٣) الاحتلال الاسباني

١٩١٤ (الريف) لم يتم احتلاله الا عام ١٩٢٦ بعد تسليم عبد الكريم

(٤) الاحتلال الروسي :

١٥٨١ سيبريا
١٦٥٤ دولة استراخان
١٦٧٠ اراضي مسلمي اورال
١٨٦٤ جزيرة القريم بالبحر الاسود
١٨٦٤ بلاد القوقاز (شامل) بعد وقوعه اسيرا عام ١٨٥٩ .
١٨٥٩ احتلال طشقند
١٨٨٢ امارتا بخاري وَجنوة

١٨٨٤ الاستيلاء على التركستان

(٥) الاحتلال الهولندي :

١٦٢١ جزيرة جاوة

١٨٧٤ حزيرة شومطرة وهما تعرفان الان باسم اندونيسيا

وهما تعرفان الان باسم اندونيسيا

(٦) الاحتلال البريطاني :

١٧٥٧ البنغال

١٨٤٩ البنجاب

١٨١٥ نيجيريا

١٨٨٢ مصر

١٨٩٨ السودان

١٩١٦ العراق

١٩٢٠ الاردن وفلسطين

١٨٧٠ زنجبار

١٨٧٨ جزيرة قبرص .

(٢)

حاول الاستعمار الغربي ان يعزز موقف الغزو العسكري الذي اجتاح به العالم الاسلامي بنظرية فكرية تهدف الى ان تعطي الاستعمار مفهوماً فلسفياً قوامه ان الاوربيين باعتبارهم اكثر تقدماً من الامم المستعمرة . فان الحضارة تكل اليهم امانة انسانية هي تمدين هذه الامم ، ولذلك فمن حق الاستعمار ان يسيطر عليها ، وان يعدها للتقدم ، واتصل بهذا المنطق ذلك القول بان الجنس الابيض هو صاحب الحضارة ، وان الاجناس الملونة هم ابناء الامم الواقعة تحت نفوذ الاستعمار .

وقد تعددت نظريات الاستعمار التي تحاول تبرير سيطرتها . وكان غلاة دعاة الاستعمار يحاولون تصوير العلاقة بين البلاد المستعمرة وبين المستعمرين على نحو يمحو شخصية هذه الامم ، وينكر حقها في ارضها في محاولة للقول بان هذه الاجناس محرومة من اي قابلية للتقدم . فمن حق الجنس الابيض السيادة عليها واستخدامها لخدمة البشرية ، وان الاراضي ليست ملكاً لمن يسكنها ، بل هي ملك للبشرية جمعاء ، فان كانت مسكونة لشعب غير راق ، يكون من حق الشعوب الراقية بل من واجبها ان تستولي عليها وتستعمرها لمصلحة البشرية .

غير ا هذه النظريات لم تلق تقبلا علمياً ، وثبت كذبها وتضليلها ، وتكشف انها لم تكن اكثر من محاولة تبرير الاعمال البربرية التي قام الاستعمار في السيطرة على البلاد التي تم احتلالها ، والمظالم القاسية التي كانت تصل الى درجة الابادة بالجملة . حيث ثبت خلال هذه الفترة الطويلة ، ان الدولة المستعمرة لم تكن تعمل على تأهيل اهل البلاد للحضارة او التقدم ، بل كانت تعمل على تجميدهم في حالة من الفقر والجهل لا تمكنهم من التحرر .

وقد تصارعت الدول الاوربية فيما بينها على مناطق النفوذ ولكنها لم تلبث ان

اتفقت على اقتسام هذه المناطق ، وعقدت المعاهدات التي تطلق ايدي بعضها البعض في اقطار في مقابل اقطار ، فعقد عدد من الاتفاقات الودية بين فرنسا وانجلترا وروسيا .

وقد عرف الباحثون الاستعمار بانه قيام دولة بفرض حكمها ونفوذها او سيطرتها السياسية والاقتصادية خارج حدودها على شعب او دولة اجنبية على غير رضا اهلها . وقد اندفع الاستعمار اساساً من اوربا الى افريقيا وآسيا باسم الارتياد والاستكشاف والتجارة . فأقام الاسبان والبرتغاليون امبراطوريات تجارية ، ثم خلفهم البريطانيون والفرنسيون فشيدوا امبراطوريات استيطان . وكانت الكشوف العلمية وبناء البواخر الضخمة والحاجة الى الخامات ، وانشاء الاسواق للتجرة من العوامل الهامة في توسع نطاق الاستعمار وسيطرته وعمله في القضاء على مقومات الامم المستعبدة لادامة استعماره ونفوذه ، واستمرار احتكار حاصلات المستعمرات ، واستغلال مواردها الطبيعية ، والسيطرة على المواقع الاستراتيجية . وقد ارتبط الاستعمار العسكري بالاستعمار السياسي والاقتصادي والثقافي .

واذا كان الاستعمار قد بدأ باسم التجارة والتبشير ، فانه لم يلبث ان تحول الى الفتح والغزو والحكم وانتزاع الاراضي من اصحابها ، واقامة حكومات بديلا عن الشركات .

وقد اقام الاستعمار في العالم الاسلامي دعائمه على اساليب مختلفة كان اخطرها توطين الاوربيين فيها عن طريق التجارة كما فعل في الجزائر التي اوفد لها نصف مليون فرنسي اوربي . وكذلك اوفد الى البلاد العربية مئات الالوف من الاوربيين واغلبهم من اليهود . وكما اقام الاستعمار القلاع والمعاقل الحربية التي تؤمن بقاءه ، وتحفظ له السيطرة على البر والبحر وتمكنه من الحصول على الموارد الاولية والحاصلات الزراعية بابخس الاثمان . فقد اقام المؤسسات الاقتصادية والبنوك لتوظيف ذهب اوربا الذي طفحت به خزائن بنوكها في اواخر القرن الماضي ، وفتح الاسواق لمصنوعاتها ومنتجاتها وخاصة الاستهلاكية والترفيهية . ثم عمد الاستعمار الى اقراض الامراء والحكومات

للسيطرة عليها ، وتكبيلها بالنفوذ الغربي وايقاع ذوي اليسار في الديون للاستيلاء على املاكهم وتصفية القوى الوطنية ، وتحويل مختلف الاراضي والتجارات والاموال الى البنوك الاجنبية ، واقراض الفلاح بالربا الفاحش وتجنيد المرابين والصيارف واصحاب الخمارات في مختلف القرى لسلب الاهالي ، وبالجملة فان الاستعمار كان يخفي في اعماق خططه ، العمل على سلب كل موارد البلاد الاسلامية وارسالها الى اوربا والغرب ، رغبة في افقار هذه البلاد وايقاعها فريسة الجوع والاستدانة لادامة السيطرة عليها . كما عمدت القوى الاستعمارية الى احكام السيطرة بانشاء الموانىء وحفر القنوات التي تمكنها من القبض على ناصية الاستيراد والتصدير ، كشق قناة السويس والاستيلاء على البواغيز كجبل طارق وباب المندب وغيرها .

***

توحدت اذن خطط الدول المستعمرة وان اختلفت الاساليب وجمعها هدف واحد ، هو السيطرة واخضاع المسلمين للنفوذ الغربي والولاء الاوربي . ومن هنا نشأت فكرة « وحدة الحضارة » ورسالة الرجال الابيض في محاولة لاخضاع الفكر الاسلامي ، والثقافات العربية والتركية والفارسية والهندية والاندونيسية لنفوذ الفكر الغربي ، والقضاء على مقومات الاسلام والقرآن ، واللغة العربية ، وذلك بقيام مؤسسات خاصة لاثارة الشبهات وتدمير الحقوق الداخلية كمؤسسة التبشير العالمية .

ويمكن القول بناء على الحقائق الواقعة ان الاوربي لم يفد الى الشرق كممدن ، بل كمستعمر ، وان اخوف ما يخافه هو الانبعاث واليقظة عن طريق الاسلام . ومن هنا تأتي محاولته للسيطرة على التعليم والثقافة والتربية .

- ٣ -

لا ريب ان الخطط التي تقوم بها الدول المستعمرة بالنسبة لعالم الاسلام واحدة الهدف مختلفة الاساليب ، يجمعها مفهوم واحد هو السيطرة واخضاع المسلمين لنفوذهم وحضارتهم وفكرهم وخلق جو من الولاء لها . وقد تحقق من الخطط المختلفة التي تكشفت ان هناك تنسيقاً بين الاستعمار والمستعمرين ، وهناك خططاً متفقاً عليها للتفاهم والتقسيم كالاتفاق الودى بين بريطانيا وفرنسا ١٩٠٤ واتفاق سايكس بيكو ١٩١٦ والاتفاق بين انجلترا وهولندا في ارخبيل الملايو .

والدعوى التي يبرر بها الاستعمار اقتحامه واحتلاله للعالم الاسلامي ، انما هي دعوى براقة خداعة . اذ اطلق عليها « حق تحضير الامم المتخلفة » ورسالة الرجل الابيض الى العالم الاسود والاصفر ، شريطة ان يتم التحضير باخضاع هذه الشعوب لوحدة الحضارة الغربية ، وهي وحدة تقضي على قيم الامم ومقدساتها ، وتحل محلها مفاهيم الحضارة الغربية ، والهدف من ذلك انما هو ان تنتهي مقاومة هذه الامم للنفوذ الاستعماري ليحل بدلا منه خضوع واندماج وصداقة وتقدير للاستعمار ، بحسبانه عملا تمدينياً مع الاعتراض على اي مفهوم للاستقلال او الذاتية او التحرر من النفوذ .

وقد درس الاستعمار وقدر ورأى ان خير وسيلة لاخضاع المسلمين هو تغيير عقليتهم والقضاء على ثقافتهم وتراثهم ، ولما كانت عقلية العالم الاسلامي وثقافته مرتبطة بالاسلام واللغة العربية ، فقد ركز عليها . ولما كانت وسيلة التغيير ، انما تكمن في التعليم . فقد حرص على غزو تعليمي وثقافي ضخم واسع النطاق . وذلك عن طريق ارسالياته ومعاهده الاجنبية ، فاستطاع تخريج اجيال جديدة وفق مفاهيمه ، واتاح لهذه الاجيال السيطرة والقيادة والزعامة والحكم في اغلب انحاء العالم الاسلامي ، كما اطلق حركة التبشير لتحكم

تنفيذ هذه الخطة ، وفرض على الدولة المحتلة انظمة تعليمية قوامها تحقيق هذا الهدف . ومن هنا جاء ما وصف بانه محاربة للاسلام واللغة العربية .

* * *

هذا الجانب الثقافي والفكري من الاستعمار ، وما يتصل به من شؤ ون التبشير والتعليم والتربية لم يحظ باي اهتمام في دراسات الباحثين عن الاستعمار الذين اولوا اهتمامهم للجوانب السياسية والاقتصادية والعسكرية وحدها . وقد مضت حرب الاستعمار للاسلام لا هوادة فيها باعتباره العامل الدافع الى القوة والجهاد والمقاومة . وكانت هذه الحرب باساليب مختلفة :

(اولا) نقض مفاهيم الاسلام وتحريفها ، وخلق دعوات تحمل لواء الاسلام ، وتتنكر لاهم مقوماته وهو « الجهاد » الذي هو ذروة سنام الاسلام ، حيث الغته الغاء ، او قللت من اهميته ، اوعملت على تفسيره تفسيراً خاطئاً .

(ثانياً) الطعن على الاسلام والحملة على مقوماته واتهامه بانه مصدر تأخر المسلمين وضعفهم .

اما اللغة العربية فقد استهدفت الحملة عليها ايقاف نموها ، حيث يجري نموها بنمو الاسلام نفسه ، والعمل على تغليب اللغات الاجنبية عليها ، والدعوة الى العامية لاحلالها محل العربية ، والتنادي باحلال الحروف اللاتينية بديلة للحروف العربية فقد كانت اللغة ولا تزال هي ضمير الفكر نفسه ، وما تزال اللغة الفصحى هي مدخل الفهم الى القرآن الكريم ، وفي القضاء عليها محاولة للاغراب والبعد بمستوى الفهم عن القرآن ، والحيلولة دون الارتباط به .

وقد كانت حركة التبشير هي اكبر الاعمال الاساسية لتحقيق هذه الغاية ، فهي القوة المتحركة في جيش الاستعمار لغزو العقول والقلوب في مختلف الجبهات واثارة الشبهات في مجالات المدرسة والجامعة والصحافة والثقافة .

وكانت حركة الاستشراق هي المصنع الذي يعد « ادوات » العمل ، والشبهات ، والطعون والشكوك ، والاتهامات التي يقدمها العلماء الذين يعملون تابعين لوزارات الاستعمار في الدول المختلفة ، يقدمونها الى حقل

التبشير لنشرها ، والاذاعة بها . فلما فضحت خطط التبشير ، تخفى التبشير وراء التعليم والصحافة والثقافة ، وان كان لا يزال ظاهراً ومتحركاً على جبهات كثيرة من العالم الاسلامي ، وخاصة في قلب افريقيا وارخبيل الملايو . وقد كشف التبشير عن هدفه الذي لم يكن اساساً تحويل المسلمين الى اديان اخرى بعد ان تأكدت استحالة ذلك للدعاة الذين اقتحموا الازهر ، ووزعوا نشراتهم داخله ، وعقدوا مؤتمراتهم في قلاع الاسلام والوطنية مثل بيت احمد عرابي في باب اللوق او في لكنو معقل الاسلام وندوة العلماء . ودار العلوم في الهند . ولكن الهدف هو اخراج المسلمين من قيم دينهم ومفاهيمه اساساً . وبذلك يصبحون عجينة طيعة للتشكل وفق مفاهيمهم .

ولذلك فان حركة التبشير اساساً هي حركة استعمارية تهدف الى خدمة النفوذ الاجنبي وتأكيده ودعم بقائه . ولم يقف مخطط الاستعمار عند الغزو الفكري والثقافي عن طريق حركة التبشير الذي ركزت على المدارس والجامعات والتعليم . بل انه دفع قوى اخرى خطيرة لتكون ركائز له في الداخل : من اهم هذه القوى حركة « الماسونية » مقدمة « الصهيونية » وربيبتها التي مهدت لها الطريق ، و « البهائية » التي حملت لواء الدعوة الى هدم الاديان بتوحيدها .

وكذلك استغل الاستعمار اوجه الخلاف الفرعية بين المسلمين ، فحاول تعميقها وحرض على الابقاء عليها خلال فترة حكمه الطويل ، كما ابقى على الاقليات واغرى بعضها بالبعض الاخر وحرض على تجميد الطوائف والقبائل حتى لا تنصهر في المجتمعات الواحدة . واوجد بينها وبين الاكثريات خصومات واحقاداً ، مستغلا ذلك كله لتأكيد بقائه . فالاستعمار هو الذي عمق اسباب الصراع بين تركيا وفارس ، وغذى الخلاف بين السنة والشيعة فوسع شقة الخلاف بينهم . ولم تنفصل المشكلة الطائفية في اي من المراحل عن الاستعمار الذي خلقها وغذاها ، واتخذ منها اداة سياسية يدعم بها وجوده . فقد احتضن الاستعمار الاقليات ، وعمل على خلق الشعور بكيان خاص ، له انفصال وتميز ، بحيث لا يلتقي في مجال الوحدة الكبرى ، كما فتح الباب للتبشير والارساليات . كما اكد الاستعمار في مختلف انحاء العالم الاسلامي عوامل التفرقة العنصرية والجنسية ، واستغل في سبيل تثبت ركائزه كل

الوسائل ، وفي مقدمتها « الامتيازات الاجنبية » التي منحت الاجانب في الاقطار الاسلامية مراكز خاصة ، ونفوذاً متميزاً ، بحيث لا يخضعون لقوانين البلاد ، وتظل مؤسساتهم في حصانة كاملة دون التفتيش او الرقابة او التحقيق معها ، بما تتيح لها ان تتصرف على النحو الذي تراه دون ان تستطيع الحكومات ايقافها ، او محاكمتها .

وقاوم الاستعمار كلمة الإسلام والجامعة الإسلامية ، والوحدة الإسلامية . وشن عليها جميعها حربا عنيفة ، ووصفها بغير ما كانت على الحقيقة ، وركز جملته على « السلطان عبد الحميد » الذي قاد حركة المقاومة ضد زحف النفوذ الاستعماري حين دعا المسلمين خارج الدولة العثمانية إلى الالتفاف حول راية الخلافة الإسلامية ، في حركة جامعة لمواجهة الغزو الزاحف . ومن هنا كانت تلك الصورة السيئة التي رسمها عملاء الاستعمار للسلطان عبد الحميد وما وصف به وما نشر عنه من أعمال كشفت الايام من بعد أن ليس لها نصيب من الحقيقة .

فقد تضافرت قوى النفوذ الاستعماري وقوى الصهيونية على تدمير هذه الحركة وإسقاط السلطان عبد الحميد الذي كان موقفه الصامد حائلا دون تمزيق العالم الاسلامي واستيلاء الدول الغربية عليه واحتلاله . فضلا عن أن موقفه المشرف من هدف الصهيونية بالاستيلاء على فلسطين ، بالغ القوة والصمود ، مما حمل المحافل الماسونية في سالونيك وجلها من الدونمه (اليهود الذين أسلموا تقية) السيطرة على جمعية الاتحاد والترقي ودفعها إلى هدفين :

(١) إسقاط النظام الذي يحمل لواء الجامعة الإسلامية .

(٢) ايقاع الخلاف الدموي بين عنصري الدولة العثمانية : الاتراك والعرب .

وقد تحقق ذلك عام ١٩٠٨ بتولي الاتحاديين للحكم وحمل لواء الدعوة الطورانية ومحاولة تتريك العرب وتمزيق الدولة ، وفي المرحلة الثانية ١٩١٨ بهزيمة تركيا ، وإلغاء الخلافة الإسلامية ، وتقسيم الاجزاء العربية بين فرنسا وانجلترا ، وصدور وعد بلفور بإعطاء اليهود الحق في إنشاء دولة صهيونية في

فلسطين . كما ألح الاستعمار على القبائل البدوية ، وحرص على عدم انصهارها في المجتمعات حتى لا تسود الوحدة الشاملة : وحال دون دفع الوحدات الصحراوية إلى التمدن لتظل الامم ممزقة بين طبقات مختلفة وقوى متفاوتة .

وهناك حقيقة هامة لا سبيل إلى تجاهلها . هي أن الاستعمار ركز على الامة العربية اكثر مما ركز على اي جزء آخر من العالم الاسلامي ، وجعل لمصر في مخطط الاستعمار والتبشير والتغريب قدحا معلى ، باعتبارها قلب العالم الإسلامي ومركز القيادة من الامة العربية ، فصحف مصر هي التي كانت تحمل الافكار والدعوات المختلفة ، وعملاء الاستعمار الذين يكتبون باللغة العربية في المقطم والاهرام والهلال والمقتطف والجامعة وغيرها من صحف اللبنانيين المتآمرين كانت تحمل لواء مخطط التغريب كاملاً . هذه الصحف التي عاشت وامتد بها العمر ، بينما سقطت الصحف الوطنية واحدة بعد أخرى . ثم كان لظهور دعائم التغريب والشعوبية في مصر : الاسماء التي لمعت وتصدرت للشهرة أثرها البعيد المدى : طه حسين وعلي عبد الرازق ومحمود عزمي .

وقد صور « لوثروب ستوارد » مدى خطر النفوذ الاجنبي في العالم الإسلامي بأصدق عبارة حين قال : « إن سيطرة الغرب الحديثة على الشرق لا مثيل لها في التاريخ من حيث الفظاعة والخطورة والمدى والمجال ، فما كان لليونان ورومية من قبل من السيطرة المحدودة على بعض من العالم لا يعد بالقياس إلى سيطرة الغرب اليوم شيئاً مذكوراً .

(٤)

انجلترا والعالم الإسلامي

كانت بريطانيا أشد الدول الاوربية المستعمرة خطراً على العالم الإسلامي نفسه ، لان وسائلها كانت أقل حماقة من وسائل فرنسا وإيطاليا . وكان أخطر المناطق التي استولت عليها الهند ، القارة الضخمة التي كان يحكمها المسلمون فأصارتهم فيها محكومين متأخرين تعليماً وثقافة وثروة ، ثم مصر (قلب العالم الاسلامي) . وتقاسمت مع روسيا السيطرة والنفوذ في إيران واستولت على الخليج العربي وسلطناته .

وقد جندت بريطانيا مئات الالوف من الجنود في الحرب العالمية الاولى من الهند ومصر . ودفعت المسلمين العرب إلى محاربة اخوانهم المسلمين الترك مغرية إياهم بإقامة دولة عربية ، حتى إذا تحررت تلك البلاد العربية من الاتراك احتلها الفرنسيون والانجليز . ولقد كان الاستعمار البريطاني أشد قسوة على الإسلام وعالم الإسلام .

وكان لانتصار انجلترا بعد الحرب العالمية الاولى ـ ذلك الانتصار الساحق بحسبانها كبرى دول العالم الاستعماري ـ أثره البعيد المدى في الاعمال التي تمت خلال ما بين الحربين ، والتي ركزت دعائم الاستعمار في نفس الوقت الذي كانت الثورات تشتعل ولا تتوقف عن الاشتعال في مختلف أجزاء العالم الإسلامي . وفي الحق ان الانجليز هم الذين قضوا على الدولة الإسلامية الكبرى ، والتي كانت تمثل القوة الصامدة المقاومة للنفوذ الاجنبي ، وهم الذين أزالوا دولة الخلافة العثمانية ، وأذلوا المسلمين في كل البلاد .

والاستعمار البريطاني هو الذي نظم الهيئات التبشيرية والإرساليات الاجنبية وحماها في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، وأتاح لها الحرية الكافية والفرصة

المواتية لتحريف عقلية الشباب المسلم ، سواء في الهند أو الصين أو مصر والسودان والصومال وفلسطين والعراق وسائر أرجاء آسيا وأفريقيا الإسلامية ، وأمدها بالمال وساعدها . كما منع المسلمين وعلماءهم من الدخول إلى جنوب السودان ، وحال بينهم وبين تعليم المسلمين من سكان تلك الجهات أحكام الدين وآداب المسلمين .

والاستعمار البريطاني هو الذي هدم دولة المسلمين في الهند ، وأذل أهلها المسلمين . وهو الذي أزال الدولة العثمانية (دولة الخلافة) واستعمر بلادها ومزقها كل ممزق ، وألغى الخلافة ، وحال بين المسلمين وبين إعادتها . وإليه يرجع الخطر الاكبر في إقامة دولة إسرائيل في قلب العالم الإسلامي . فهو الذي مكن لها ذلك، وأتاح لها الفرصة لمليون يهودي أقطعهم الاراضي وأمدهم بالسلاح والعتاد ، وجعل منهم قوة عسكرية ذات بأس تهدد الحجاز ومصر وسوريا ولبنان والعراق وسائر بلاد العرب . ثم كان للاستعمار البريطاني وللدول الكبرى الأثر الاكبر في إقامة دولة إسرائيل وتشريد مليونين من العرب . ثم ما كان من التوسع الخطير الذي حققته الصهيونية باحتلال القدس . والاستعمار البريطاني هو الذي أيد الاستعمار الهولندي على تركيز مقامه في أندونيسيا سنوات طوال ، وعودته إليها بعد خروجه منها . كما عرف الاستعمار البريطاني بفرض المعاهدات ذات المواد الغامضة ، وفي مقدمتها معاهداته مع السلاطين في جنوب الجزيرة العربية التي تنص على أنها تنتهي عندما (يشيب الغراب ويبيض التراب) .

- ٥ -

لقد اندفع الاستعمار بأقسى وسائل القمع والتدمير للقضاء على كيان العالم الإسلامي ، ولم يحقق وجوده في مكان ما ، إلا بالتآمر والكيد . وقد كان يظن أن فلسفته وأساليبه قادرة على أن تحقق له الامن وتحقق للشعوب المستعمرة الاستسلام . ولكن العالم الإسلامي قد قاوم بحق ، وألقى بثقله في مواجهة الغزو والاستعمار ، وهو لا يملك من الاسلحة ما يجعله كفاء المقاومة ، ولكنه كان يقاتل بكل ما يملك حتى باحتشاد الاجساد . هذه المقاومة أذهلت الاستعمار الذي عرف أن مقومات هذه الامة وروح إيمانها المستمدة من إيمانها بالله والإسلام والقرآن ، هي التي تعطيها ذلك الصمود العجيب في وجه الغزو والمقاومة الرائعة غير أن الاستعمار استمر يعمل على قمع هذه الحركات بأساليب بالغة العنف إلى منتهاه ، دون أن يتراجع عن أهدافه ، وإن غير وسائله مرحلة بعد مرحلة محاولا خلق جو من التهدئة ، وذلك بالتخفي وراء أقنعة غامضة كالانتداب والوصاية مدعيا أنه يدير شؤ ون هذه الشعوب حتى يعدها لحكم نفسها .

غير أنه مضى في طريق تحقيق سيطرته بأساليب مختلفة منها : تجزئة البلاد إلى دول ودويلات وإيقاظ الثغرات الطائفية والدينية ، وإيقاع الطوائف في بعضها البعض ، وإثارة روح الفتنة والخلاف بينها ، وتأييد طائفة على طائفة ، وإحياء القبليات ودعمها وتعميقها . وكان أخطر أعماله في هذا الصدد خلق محاور بين المسلمين والمسيحيين ، وبين السنة والشيعة وبين العرب والبربر . مع الدعوة إلى إحياء النزعات القديمة : كالفرعونية والبابلية والاشورية . والفينيقية ، وإنشاء مؤ سسات خطيرة للعمل ضد القوى الوطنية بإثارة الدعوات الهدامة العلمانية التغريبية والإلحادية ، وقد اعتمد الاستعمار في ذلك كله على « الارساليات التبشيرية » التي ركزت دعائمها في مختلف أجزاء العالم الإسلامي ، وأخذت تسيطر على أسباب التعليم ومناهج التربية والثقافة . وكانت ـ ولا تزال ـ للتبشير

مخططات بعيدة المدى في غزو الفكر الإسلامي والثقافات العربية والتركية والفارسية والهندية والملاوية وغيرها .

وكان أخطر ما عمد إليه الاستعمار في سبيل تأكيد وجوده هو إقامة جسر بشري يمزق وحدة الامة العربية ويضع إسفيناً خطيراً في قلب العالم الاسلامي ، ذلك هو غرس إسرائيل ، ومن ورائها الحركة الصهيونية العالمية التي هي وليدة الاستعمار نفسه ، وأقوى ثماره وأشدها خطراً .

وكانت بريطانيا في عام ١٩٠٧ قد أخذت تدرس عن طريق رؤوس الاستعمار ومفكريه ، الوسائل التي تؤدي إلى تدعيم بقاء الاستعمار ، وتقضي على كل مقاومة ضده . وقد انتهت طائفة من الاستعماريين إلى وضع مشروع عرف باسم « كامبل » يرى أن أخطر مناطق الاستعمار في العالم وأشدها تعرضا للثورة والانتفاض هي منطقة « العالم الإسلامي » وقلبها « الامة العربية »

ولذلك فإن الوسيلة المثلى في نظر الاستعمار للحيلولة دون تماسكها وتلاقي أجزائها في وحدة هو خلق إسفين يمزق قلبها . وذلك بإقامة جسم غريب في المنطقة الواقعة شرق قناة السويس ، ولما كان الاستعمار الغربي يضع مخططات الحروب الصليبية أمامه ، فإنه قد اتخذ من فلسطين ومنطقة القدس بالذات نقطة ارتكاز لإثارة الخلافات بين الاديان الثلاثة . فسيطر على فلسطين عام ١٩١٨ في ظل مؤامرة خطيرة تهدف إلى خلق هذا الكيان الغريب ، وإقامة هذا الجسم البشري من اليهود .

وبذلك نفذ الاستعمار خطة تهدف إلى تثبيت وجوده في العالم الإسلامي كله بوضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني لما لها من المواقع الحربية والاهمية الروحية لجميع الشعوب ، مما يجعل السيطرة عليها أمراً بعيد المدى في التطورات التي وقعت فيما بعد ، والتي حققت هدف الاستعمار في إدخال عنصر جديد من السكان ، وإقامة استعمار استيطاني يوغر صدور العرب . وقد امتد هذا وبلغ مداه حين انسحبت بريطانيا من فلسطين ، وتركت للصهيونية القوة التي تمكنها من السيطرة على النحو الذي تحقق من بعد حتى استطاعت إسرائيل عام ١٩٦٧ من السيطرة على فلسطين جميعها ، ووضع يدها على بيت المقدس . . وقد بلغ الاستعمار حين وضع هذا المخطط موضع التنفيذ إلى تأكيد دعائم نفوذه ، ووضع

يده على قلب العالم الإسلامي . ثم الاستيلاء عليه ، ثم تأكيد الوجود الاستعماري على النحو الذي يتح للاستعمار أن يقبل الجلاء العسكري والسياسي عن هذه المناطق ، بعد أن تأكد وجوده فيها بنفوذ ثقافي داخلي قائم على تخريج أجيال لها ولاء لوجوده وبقائه . غير أن العالم الإسلامي لم يتوقف منذ اليوم الأول لحركة الغزو الاستعماري عن العمل ، فعمل في دائرتين :ـ

(١) الدائرة الإسلامية الوطنية التي ارتبط فيها الجهاد بالقاعدة الإسلامية ، وهي الدائرة التي أجهدت الاستعمار فعمل على تصفيتها والقضاء عليها .

(٢) الدائرة الوطنية الخالصة ، وهي الدائرة التي حاول الاستعمار أن يجعل منها بديلا للمقاومة العسكرية ، والخصومة الكاملة وان يحولها عن العمل الإيجابي إلى الصراع السياسي ، وأن يقيمها داخل فكره وتعاليمه (وفي مصر ظهر أمثال لطفي السيد وسعد زغلول بدلاً لاحمد عرابي ومصطفى كامل) وأمثال هؤلاء الزعماء مهما بلغ أمر وطنيتهم فإنهم يتعاملون مع الاستعمار من داخل دائرة الولاء والاقتناع بأنه لا سبيل إلى تحقيق أي قدر من التحرر إلا بالتفاهم مع الاستعمار نفسه .

وهذه هي المرحلة التي واجهها العالم الإسلامي كله في مرحلة ما بين الحربين .

أما الدائرة الإسلامية ، فقد كان لها دورها الخطير الذي أزعج الاستعمار وأدال منه . وقد قاد الثورة العسكرية على النفوذ الاستعماري .

- عبد القادر الجزائري الذي قاوم احتلال فرنسا للجزائر ستة عشر عاما (١٨٣٠ - ١٨٤٦)
- الشيخ شامل الذي قاوم نفوذ روسيا واحتلالها للقوقاز والقرم والتركستان[١] .
- محمد أحمد المهدي قاوم نفوذ بريطانيا في السودان .
- أحمد عرابي قاوم نفوذ بريطانيا في مصر .
- عبد الكريم الخطابي قاوم فرنسا في الريف المغربي .

---

١ -قام الشيخ شامل عام ١٨٠٨ بحركة في مقاومة العزو الروسي للقوقاز والقرم والتركستان وظل يكافح ويناضل على رأس جيوشه وتابعيه البواسل المجاهدين الذين تجمعوا تحت لوائه من مختلف القبائل والديار الاسلامية حلال تسعة وثلاثين عاماً متواصلة ، وكبد الروس خلالها مئات الالوف من القتلى ، وكما كبدهم انفاق الملايين الوفيرة من الاموال . وكانت مقاومته ترمي الى تحرير امة تبلغ ٤٠ مليون نسمة من نير الاستعمار الروسي الراحف .

ـ المسلمون في الهند الذين ثاروا عام ١٨٥٧ في مقاومة للنفوذ البريطاني .
ـ ثورة المسلمين في أندونيسيا في مواجهة الاستعمار الهولندي .
ـ السيد أحمد السنوسي وعمر المختار في مقاومة الاستعمار الايطالي لبرقة .
ـ ثورة يعقوب في التركستان .

وعيب هذه الجهود أنها كانت متفرقة غير موحدة ، بينما كان الاستعمار الغربي موحداً في مواجهتها مما عجل بالقضاء على هذه الحركات أو إجهاضها قبل أن تحقق غرضها .

وحين توقف الجهاد العسكري لم يتوقف المسلمون عن مقاومة الاستعمار في مختلف أجزاء العالم الإسلامي ، في مختلف المجالات ، في مجال التعليم والثقافة والسياسة والاجتماع والاقتصاد وعملوا على معارضة خطط الغزو المختلفة ، ولم يستسلموا أو يتقبلوا الوجود الاستعماري ، وبرزت هذه المعارضة في دعوات المعلمين المصلحين ، وفي مختلف الجماعات والهيئات الإسلامية والطرق الصوفية . وفي أعمال كثير من المفكرين التي حملت لواء الدعوة إلى تصحيح المفاهيم وتخليص الفكر الإسلامي والثقافات العربية والفارسية والتركية والهندية من شوائب البدع والخرافات . وقد انتظم المصلحون والمفكرون في مختلف أجزاء العالم الإسلامي .

١ ـ جمال الدين في إيران والهند ومصر وتركيا .
٢ ـ المهدي في السودان .
٣ ـ السنوسي في ليبيا .
٤ ـ محمد عبده في مصر .
٥ ـ الالوسي في العراق .
٦ ـ حسين الجسر وطاهر الجزائري والقاسمي والكواكبي في الشام .
٧ ـ الدهلوي وأحمد خان وإقبال في الهند .
٨ ـ ابو شعيب الدكالي والعلوي العربي في المغرب .
٩ ـ ابن باديس في الجزائر .
١٠ ـ خير الدين والطاهر بن عاشور في تونس .
١١ ـ اسماعيل عصبرنسكي في القرم .

وكان لهؤلاء المصلحين الأثر العميق ، والمدى البعيد في يقظة الفكر

الاسلامي ، وخلق روح من الثقة والحيوية والقدرة على مواجهة الغزو الاستعماري في مختلف مجالاته السياسية والفكرية على نحو كشف عن جوهر الإسلام وإيجابيته التي تؤكد أنه هو الاساس الاصيل لكل نهضة في العالم الاسلامي .

كما كشف هذا الصمود عن مدى عمق الاثر الاسلامي في النفس الاسلامية والمزاج الاسلامي من حيث ظن النفوذ الاستعماري أن المسلمين سوف يستسلمون للقيم والمفاهيم الغربية وأنهم سينطوون في بوتقة الفكر الغربي ومفاهيم الاستعمار وفلسفته . وظلت مقاومة الغزو العثماني مستمرة في صمود في عالم الإسلام كله ، كرد فعل لمخططات الاستعمار التي عملت على :

(١) إعمال الابادة بالقتل والسجن ، والقضاء على القيادات الفكرية والسياسية القوية القادرة على العمل .

(٢) التبشير والتغريب ، وإثارة الشبهات وقتل مقومات الإسلام العالمية .

(٣) حرمان عالم الإسلام من علامات القوة التكنيكية والصناعية وعوامل الثقة بالنفس .

وإذا كانت هذه الحركات قد أخذت طابعا إسلاميا عاما . أم طابعاً عربيا أو وطنيا أو قوميا ، فإنها كانت جميعها تنبعث من مفهوم إسلامي أصيل ، وإذا كان الغرب قد حول المسلمين عن مفهوم الوحدة في محاولتين لتغلب جانب الاقليميات الضيقة ، والقوميات ، فإن الاستعمار لم يلبث أن انزعج عندما وجدت حركة الوحدة العربية الذي حاول أن يشجعها أول الامر ويجعلها بديلاً للجامعة الإسلامية في خلال مرحلة ما بين الحربين .

(٤)

ركز الاستعمار في مرحلة ما بين الحربين على توطيد نفوذه عن طريق إقامة ركائز ثابتة حتى إذا اضطرته الحركات الوطنية إلى اخراج قواتـه العسكرية أو نفوذه السياسي كان له من هذه الركائز عامل فعـال قادر علـى تأكيد وجـوده . ولذلك عوّل كثيراً على حركة التبشير وأعطاها أقصى ما يستطاع من التأييد . وكان جل اهتمامها بمعاهد التعليم ، وبرامج التربية . وذلك عن طريق مدارس الارساليات ومدارس الاستعمار وبعض المدارس الحكومية .

وفي نفس الوقت دفع مخططاته الى القمة باعلان الظهير البربري في المغرب الذي يفصل البربر عن العرب ويعزلهم ثقافيا وقضائيا وتعليميا ، ويردهم إلى منظمات خاصة تستمد قوانينها وأنظمتها من الأعراف القديمة .

وكانت حركة التجنيس أيضا التي نفذها الاستعمار في تونس محاولة أخرى لاخـراج المسـلمين من جنسيتهـم الـوطنية الـى الجنسية الفـرنسية ـ وكانـت الصهيونية خلال فترة ما بين الحربين هي الخطر النامي بين اعين المسـلّمين ومسامعهـم ، بحمـاية النفـوذ الاستعمـاري . ومـن النـاحية الاخـرى كانـت الحركات الهدامة تتجمع وتتركز في دعوات وأحزاب . وكان ابرزهـا البهـائية التي أولتها بعض الصحف المصرية اهتمامـا كبيراً ، ورحبـت بهـا وأشـادت بمفهومها الجامع بين الأديان جميعا ، والهادم للأديان جميعا . وكذلك ظهرت دعوات تحاول أن تفسر الاسلام تفسيراً جزئياً كالقاديانية التي ألغت الجهاد من مفهوم الاسلام ، أو مؤلفات تدعو إلى فصل الاسلام عن المجتمع كدعوة علي عبد الرازق .

وفي نفس الوقت علت أصوات دعوات انبعاث ما قبل الاسلام من حضارات كالفرعونية في مصر والفينيقية في لبنان والآشـورية في العـراق والبربـرية في

المغرب ، مع الدعوة إلى عاميات اللغة ومحاولة جعلها تواجه العربية وتنفصل عنها . كما حملت الدعوة إلى القومية الضيقة ، دعوة أخرى إلى إعلاء الماضي الوثني السابق للاسلام وابرازه وتأكيده ، كما حدث في الهند واندونيسيا وإيران . وكانت الدعوة الطورانية في تركيا المسلمة دولة الخلافة والامبراطورية العثمانية من أبرز هذه الحركات التي اعادت أمجاد جنكيزخان . وحاولت أن تصور الأتراك ، وكأنهم مصدر الحضارات وأساس المدنية ، وأول التاريخ . وقد حاولت هذه الدعوات أن تصبغ الأبطال والأعلام بصبغة الاقطار والأوطان كالفردوسي إيراني . والفارابي تركي وكانت حركة أنقرة وانقلاب مصطفى كمال في تركيا تحولا خطيراً في مجال التغريب ، وقدوة بارزة ظلت تؤثر في مجريات الفكر العربي سنوات طويلة وتفتح لدعاة التغريب والشعوبية أبوابا من الاغراء في محاولة دفع الأمة العربية الى ان تقبل خطوة مماثلة . وكان هدف هذه الحركات جميعا هو : « محو الذاتية الماثل في وجود الأمة بالقضاء على مقوماتها وشخصياتها من لغة وأدب ودين ، جريا وراء تنفيذ خطة الاستعمار التي ترمي إلى إزالة سلطان المسلمين من هذه الأرض » .

كان سلاح إعلاء النزعات الجنسية والعرقية والاقليمية ، وإحياء القوميات الضيقة ، وإذكاء روح العنصرية والانكفاء على الماضي القديم للأمم التي جمعها الاسلام ووحدها فكريا وثقافيا واساسيا هو اخطر سلاح تعامل به الاستعمار مع المسلمين . فقد كان المسلمون قد تجمعوا منذ قرون طويلة ، بالاسلام أمة واحدة وفكراً واحداً .

ولما كان الاستعمار يحصل من محاولة التمزيق والتقسيم والتفرقة على ركيزة هامة لاقامة نفوذه ، فقد صبغ هذه المحاولة بصبغة لها طابع علمي فلسفي ، فأقام الحواجز من جديد بين اجزاء العالم الاسلامي ، بالعمل على اعلاء مفاهيم الدم والجنس والاقليم والأرض ، وانبعاث المذاهب القديمة ، هذه المفاهيم التي انطوت ، وذلك في سبيل معارضته الوحدة الاسلامية التي قامت اساساً ، وحدة العقل والفكر والشعور .

وليس عيبا أن يتخذ المسلمون سلاح الوطنية او القومية سبيلا إلى مقاومة النفوذ الاستعماري ، ولكن الخطر أن يجري هذا التحرك خارج إطار الايمان

بالوحدة الفكرية الاسلامية التي اقامها القرآن ، فلقد اتخذ المسلمون في خلال حركة اليقظة ومقاومة النفوذ الاستعماري ثلاث دعوات متداخلة ومتواترة هي : دعوات الوطنية والأمة والفكر .

فالدعوة الوطنية كانت دعوة طبيعية إزاء احتلال الاستعمار للأوطان ومحاولة تصوير هذه الأوطان بانها ليست ذات كيان أساسي ، فكان لا بد أن تتخذ المقاومة طابع الدعوة الوطنية بالكشف عن امجاد الأمم وتاريخها القديم العريق ، وكان لا بد أن تبرز الدعوة الى الأمة . كأن يلتقي العرب في نطاق دعوة الى وحدة الأمة العربية ، ليس في هذا من بأس ، ولكن الخطر هو أن تصل هذه الدعوات إلى التطرف ، فتنسى جذورها وأسسها المرتبطة بوحدة الفكر الاسلامي الجامع للعالم الاسلامي .

ولقد تحرك العالم الاسلامي في الحلقات الثلاث خلال هذه الفترة ، ولكن الاستعمار جمد تحركهم في دائرة واحدة ، وحال بينهم وبين التحرك الطبيعي بين الحلقات الثلاث .

- ٥ -

واجه العالم الاسلامي في خلال القرنين الأخيرين اكثر من قوة من قوى الصراع على السيطرة والنفوذ العالمي . وأهم هذه القوى هي : فرنسا وبريطانيا وروسيا وهولندا ، كما واجه الصراع بين القوى الثلاث بعد الحرب الأولى : الرأسمالية والشيوعية والصهيونية ، وتقف الحركة الصهيونية في صف الرأسمالية ، ولكنها حركة ذات اهداف خاصة تختلف في أعماقها عن الرأسمالية ذاتها ، وتحاول أن تحقق سيطرة عالمية متميزة . ويقف العالم الاسلامي في مواجهة القوى الثلاث التي تحتل بعض اجزائه وتؤثر في وجوده وكيانه ، وما يزال النفوذ الاقتصادي لبريطانيا وفرنسا وامريكا قائماً في أجزاء كثيرة . وكذلك بالنسبة لأفريقيا حيث ما تزال دور أوربية كثيرة تسيطر على بعض أجزائها .

وقد كانت نهاية الحرب العالمية الثانية علامة على انتهاء الاستعمار في صورته القديمة ، التي كانت تعتمد أساسا على الاحتلال العسكري « حين كانت الدول الغربية تتذرع في تقرير شرعية الاستعمار بحق الغزو ووضع اليد ، واحتلال رعايا الدولة المستعمرة محل أهل البلاد الأصليين » .

ثم برز نوع من الاستعمار أطلق عليه الاستعمار الجديد ، وقوامه فرض السيطرة الأجنبية من سياسية واقتصادية على دولة ما . مع الاعتراف باستقلالها وسيادتها ، ودون الاعتماد في تحقيق ذلك على أساليب الاستعمار التقليدية ، كما يطلق على هذا الأسلوب الاستعماري اسم « الامبريالية الجديدة » ويستخدم الاستعمار الجديد في تحقيق أغراضه وسائل خاصة لتحاشي المعارضة الوطنية الصريحة . ومن تلك الوسائل الاتفاقيات الثنائية غير المتكافئة ، وتكبيل الدولة النامية بشروط تحرمها من حركة التصرف ، والضغط

عليها في صورة معونات وقروض . واقامة القواعد العسكرية ، وإثارة الاضطرابات الداخلية والانقسامات الطائفية والحزبية في الدول الحديثة الاستقلال لاضعافها وايقاعها تحت السيطرة الأجنبية ، وتشجيع الأقليات البيضاء التي تتمتع بامتياز اقتصادي وثقافي باتسيلاء السلطة ، وممارسة سياسة التمييز العنصري فضلا عن استخدام المنظمات الدولية التي تقوم عليها الدول الكبرى بدور رئيسي في الضغط على الدول النامية ، وتوجيه سياستها[١] هذه العملية هي ما تعرف اليوم باسم الامبريالية الحديثة التي يقوم جوهرها على محاولة كبار الذين يتحكمون في الصناعة لتوسيع المجرى الذي ينساب اليه فائض ثرواتهم عن طريق البحث عن الأسواق الأجنبية والاستثمارات الأجنبية حيث لم يعد للتركيز الرأسمالي الهائل متنفس الا فيما وراء البحار ، وعلى ضوء هذه المطامع الاستعمارية . كان العالم الاسلامي ولا يزال مجال الصراع بين القوى السياسية والعسكرية والاقتصادية العالمية .

وقد حاول الاستعمار أن يصف نفسه بأنه رسالة المدنية والحضارة لرفع مستوى الشعوب والأمم ، وان الفتح والغزو ليس غاية بل وسيلة لاعلاء البشرية والسمو بها الى آفاق العزة والكرامة والحرية . غير أن الوقائع كلها أثبتت كذب هذه الادعاءات، فإن أوربا الاستعمارية لم تكن مستعدة بأى وجه من الوجوه إلى منح البلاد المستعمرة ثمرة حضارتها دون مقابل . بل إن المسلمين والعرب ما كانوا يستطيعون الافادة من النهضة الأوربية دون أن ينزلوا عن رجولتهم وحريتهم . ولا شك أن تحول الاستعمار العسكري والسياسي الى الاستعمار الجديد المتمثل في الاستعمار الاقتصادي في مختلف اجزاء العالم الاسلامي ، والاستعمار البريطاني الذي تقوم به الصهيونية في فلسطين وتمتد منه الى ما حولها ، بالاضافة الى الاستعمار الثقافي ، كل هذا يؤكد أن الاستعمار انما يغير من جلده ، ويتحول من أساليبه الى أساليب أشد خفاء ومكراً ، وأكثر عمقاً ، وأبعد عن مواجهة الشعوب في نفس الوقت الذي يحتفظ فيه بخططه واهدافه الأساسية ، ويجري التجول الاستعماري اليوم إلى التركيز الصهيوني في قلب

١ـ راجع محمد عوض محمد والامير مصطفى الشهابي وغيرهما .

العالم الاسلامي بتمريق وحدة الامة العربية ، والحيلولة دون وحدة العالم الاسلامي . وذلك بالفصل بين قارتي افريقيا وآسيا . بحاجز بشري يحمل فلسفة تعتمد على الأساطير الدينية ، ويهدف إلى التوسع ، واقامة امبراطورية اسرائيل في قلب العالم الاسلامي ، وهذا هو الوجه الخطير للتحول الاستعماري باعتبار أن الحركة الصهيونية تطمع في أن ترث النظام الرأسمالي ، وتقيم الحكومة العالمية التي تمهد لها الآن بتدمير كل القيم والأنظمة والأخلاقيات وتحويل المفاهيم الانسانية التي تحملها الأديان ، والحضارة ، الى أسلوب من الالحاد والاباحة والتسلط .

وكأنما كان الاستعمار الغربي حين وجه كل اسلحته العلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية الى العالم الاسلامي بقصد اذلاله وتحقيره واشعاره بالضآلة والخنوع ـ كما يقول كانتول سميث ـ انما يمهد لنفوذ آخر اشد عنفا وشراسة ، ويفسح الطريق لقوى أشد شرا هي قوى الالحاد والاباحة التي تعمل على سحق المقومات الانسانية للمجتمعات والحضارة والأديان كوسيلة لاسقاط الشعوب والأمم في براثن نفوذ استعماري اشد خطراً يتطلع إلى السيطرة على العالم كله .

ومن هنا تبرز مخططات الغزو الثقافي الذي يواجه الفكر الاسلامي والفكر العالمي كله ، ولدحر مفاهيم الدين بعامة ، ومفاهيم الاسلام بخاصة ، والحيلولة دون قيام الوحدات القومية والتجمعات الروحية والفكرية ، وخلق اسباب التمزق وتعزيز عوامل الاقليمية والقبلية واستبقاء صراعاتها . ومحاربة الاسلام على وجه أخص باعتباره الطاقة التي تدافع الاستعمار وتقاوم حركته وتكشف دسائسه ، واللغة العربية باعتبارها لغة القرآن ، والمصدر الاول للفكر الاسلامي والثقافة العربية وما تزال القوى الاستعمارية والطامعة في السيطرة على العالم الاسلامي تعمل على تقويض الاستقرار الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ، وخلق جو من عدم الثقة بين المسلمين والعرب لمنع اي تكتل باسم العروبة او باسم الاسلام واذكاء العداوة بين الشعوب العربية وحكوماتها .

وتقوم مخططات الاستعمار على محاولة ابطال مفعول الوجدان الديني

والقومي والخلقي ، وإعلاء شأن المفاهيم المـادية ، واطفـاء مفـاهيم الفـكر والروح . ويعد الاستعمار مسؤ ولاً عن انه اتاح الفرصة للصهيونية وللدعوات الالحادية والاباحية ، والفلسفات المادية المختلفة ، عندما اعتمد الاستعمـار على الأقليات المختلفة لادخال هذه المذاهب والفلسفات الـى قلـب العالـم الاسلامي . ولقد أعلن لورانس براون ان تخوف الغرب من كل خطر عالمي سواء أكان الخطر اليهودي ام الخطر الاصفر ، ام الخطر البلشفي ليس شيئاً بالنسبة الى ما يصفه من أن الخطر الحقيقي الكامن في نظام الاسلام وعلى قدرته على التوسع والاخضـاع ، وفي حيويتـه بحسبانـه انـه الجـدار الـوحيد فى وجـه الاسـتعمار الاوربي .

التبشير

كان على الاستعمار الزاحف على عالم الاسلام أن يركز على عملين أساسيين :

(العمل الأول) : هو محاولة اقناع الرأي العام أن ما يقوم به الاستعمار هو عمل حضاري وانساني يهدف إلى ترقية البشرية باعتبار أن الجنس الابيض هو صاحب الحضارة المسؤ ول عن تمدين الأجناس الملونة .

(العمل الثاني) : هو تحويل العقلية الاسلامية عن مفاهيمها الاساسية ، واثارة الشبهات حول مقومات فكرها الاسلامي . وذلك كمقدمة لتذويبها في الفكر الغربي باعتباره هو الفكر العالمي المسيطر . وبذلك يفقد العالم الاسلامي قيمته الاساسية ، ويستسلم للاحتواء الغربي ويسقط كفريسة ذليلة في يده .

وقد كان لا بد لتنفيذ ذلك من ايجاد « جهاز فكري » له مؤ سسات منثورة في مختلف أجزاء العالم الاسلامي ، هذا الجهاز هو « الارساليات التبشيرية » التي كان لها دور عميق المدى في خلق تيار جديد مؤ من بالفكر الغربي مدافع عنه لا يقف من الاستعمار موقف الخصومة . بل موقف الولاء والتقدير عن طريق هذا الجهل الذي تخرج من مدارس الاستعمار ، وحمل لواء الكلمة عن طريق الصحافة والثقافة في نفس الوقت الذي سيطر فيه الاستعمار على مناهج التعلم في المدرسة الاجنبية والمدرسة الوطنية وفي الجامعات ، وفرض مفاهيمه في محاولة للقضاء على ابرز مقومات الفكر الاسلامي ، وهو المقاومة للغاصب ،

---

١ ـ للتوسع في البحث راجع كتابنا (مخططات التبشير) .

وفي سبيل احلال مفهوم التقبل والرضا للنفوذ الاستعماري والمدنية ، وباسم دعوى عريقة تقول بأن الأمم المتاخرة والملونة لا بد أن تتقبل الحضارة والثقافة الغربية تقبلا كاملا حتى تستطيع ان تنهض وأن تصبح متحضرة ، وان تكون اهلاً للتحرر من الاشتعمار .

ولقد أيد الاستعمار هذا النفوذ الجديد للتبشير المتمثل في الارساليات بمدارسها ومستشفياتها ومؤسساتها حتى انها كلما عقدت عقداً مع اي دولة عربية أو اسلامية كانت تنص في صلب المعاهدة على حماية هذه الارساليات ودعمها ، وحتى ان بريطانيا لم تقبل ادخال العراق في عصبة الأمم الا بقبولها حماية هذه الارساليات والمؤسسات .

وقد كانت حركة التبشير من اكبر الاعمال التي اعتمد عليها الاستعمار في تركيز وجوده وبقائه ، ليس فقط في خلال فترة احتلاله لهذه الاقطار ، بل لاعداد ركائز تبقى بعد جلائه عن طريق اجيال تستقطب مفاهيمه وقيمه ، وتزيفها حتى تصبح حقائق اساسية لا سبيل الى انكارها ، وذلك بموالاة ترديدها ولها فرص متاحة من النشر والاذاعة في مجالات الصحافة والثقافة بمجالات التعليم بصوت عال ، فتنفذ الى القلوب والعقول وتستقر فيها .

من وراء حركة التبشير تقف مؤسسة الاستشراق التي هي المصنع الذي يعد الشبهات والطعون ، ويقدمها للعاملين في حقل التبشير لنشرها والاذاعة بها . وهناك حقيقة يجب تقريرها ان هدف التبشير لم يكن في اساسه تحويل المسلمين الى اديان اخرى . فقد تأكد للدعاة منذ اول الطريق استحالة ذلك.. ولكن الهدف الأكبر هو اخراج المسلمين من قيمهم ودينهم ، ومفاهيمه اساساً . وبذلك يصبحون عجينة طيعة للتشكل وفق مفاهيم الفكر الغربي والاستعمار . ولذلك فأن حركة التبشير هي اساسا حركة استعمارية لخدمة النفوذ الأجنبي وتأكيده وتعميقه .

ولقد حمى التبشير واذاع الدعوات الهدامة التي انتشرت في العالم الاسلامي ، سواء منها ما يتصل بالالحاد او الاباحة او الاحزاب المتصلة بالنفوذ الاجنبي ، مع تعميق الدعوات القديمة وانبعاثها كالفرعونية والفينيقية والبربرية

وغيرها . او تأريث الخلافات المذهبية في الاسـلام او بين الاسـلام والأديان الاخرى أو بين العرب والأجناس الاسلامية الاخـرى . وكذلك الدعـوة إلـى العروبة في مواجهة الروابط الاسـلامية او الدعـوة إلـى الاقليمية في مواجهـة الوحدة العربية . وكانت اللغة العربية والدين بصفة عامة ، والاسـلام بصفـة خاصة ، والتاريخ العربي الاسلامي هي ابـرز اهـداف الحـرب التـي أثارتهـا المؤسسات التبشيرية ، وهي حرب لا هوادة فيها ، باعتبارها الركائز الاساسية للمسلمين والعـرب ، فهـي لا تتـوقف عن انتقـاص مفـاهيم الاسـلام واثـارة الشبهات حولها ، وخلق دعوات تحمل لواء الاسلام وتتنكر لاهم مقوماته وهو (الجهاد) حيث تتجاوزه او تقلل من اهميته او تفسره تفسيراً خاطئا . وكذلك الطعن على اللغة العربية والحملة عليهـا ، بهـدف إيقـاف نموهـا ، وتغليب العامية عليها ، او تغليب اللغات الاقليمية ، أو اللغات الأجنبية عليها ، حيث يعرف الاستعمار ان الفصحى تنمو بنمو الاسلام نفسه .

وتتصـل الحمـلات بالتـاريخ والتـراث فتثير حولهـا كثيرا من الشبهـات والأكاذيب ، ولقد وضع المستشرقون والمبشرون كتبا متعددة حملوا فيها على الاسلام والعرب والمسلمين حملات ضارية ، رموهم فيهـا بكل نقيصة ، وأثاروا شبهات متعددة حول قيم الاسلام ومفاهيمه . وطعنوا على النبي محمد ، كما حملوا حملات شديدة على القرآن والسنة النبوية ، وفي مقدمة هؤلاء مرجليوت وهانوتو وزويمر ولامنس وكرومر ولا فيجـري ودنلـوب[1] . وكان هدف هذه الحملات العمل على تغيير العقلية الاسلامية والقضاء على مقوماتها الأساسية فقد أجمعت خطط المبشـرين ودراساتهـم علـى أن الهـدف من التبشير هو : « انشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الفكر الاسلامي ، وإبعاد العناصر التي تمثل الاسلام عن مراكز التوجيه » . وقـد أشـار واحـد من مؤتمـرات التبشير العالمية الى ان السياسة الاستعمارية قد استطاعت أن تقضي على برامج التعليم في المدارس الابتدائية حين اخرجت منها القرآن ثم تاريخ الاسلام . وبذلك « اخرجت ناشئة مضطربة مادية الأغراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعـرف حقـا »

١-راجع كتابنا (الاسلام والثقافة العربية) ولمزيد من التفاصيل اقرأ كتاب (مخططات التبشير) .

وأشار إلى هذا مدير احدى الجامعات التابعة للارساليات التبشيرية الكبرى حين قال : « اننا نراقب سير القرآن في المدارس الاسلامية ونجد فيه الخطر الداهم ، ان القرآن وتاريخه هما الخطران العظيمان اللذان تخشاهما سياسة التبشير » وهم يرددون دائما انه إن عجزت ارساليات التبشير عن زحزحة العقيدة الاسلامية في نفوس معتقديها ، فإنها تستطيع أن تقضي لبانتها من هدم الفكرة الاسلامية ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية ، فتنشرها اللغات الانجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية بتحلل الاسلام بصحف أوربا ، وبتمهيد السبيل لتقدم اسلامي مادي . وبذلك تقضي الارساليات لبانتها من هدم الفكرة الدينية الاسلامية .

- ٢ -

كانت الارساليات التبشيرية هي مقدمات الاستعمار وطوالعه الممهدة له ، فحيث مد النفوذ الاجنبي نفوذه في العالم الاسلامي ، كانت هذه البعثات هي القوى المتقدمة والطلائع المتقدمة . فمنذ أوائل القرن التاسع عشر تقريبا بدأت عملية الغزو التبشيري في بطء وأناة مترابطة بخطوط أخرى كأجهزة عاملة لتحقيق السيطرة الاستعمارية .

ولقد وجدت قوى التبشير الطريق مفتوحا وميسراً مع العوامل التي أعدها لها النفوذ الاستعماري وأهمها الامتيازات الاجنبية ونفوذ القناصل وسيطرة الدول الاجنبية على كثير من الامراء في إيران كالشاه ناصر الدين في إيران ، والخديوي إسماعيل في مصر وغيرهما ممن فتح لهم الغرب باب الاستدانة .

ولما كانت الدولة العثمانية هي أكبر أهداف التبشير أولوية لتمزيقها وتوزيعها . فقد ركزت القوى الاستعمارية بحملات تبشيرية انطلقت من مختلف الدول الاوربية ، وبعثات من دول فرنسا وانجلترا وألمانيا وإيرلندا والسويد والدانمرك وروسيا .

وفي خارج الدولة العثمانية تركز الاستعمار في فارس وأندونيسيا (جاوة) والهند الإسلامية ولما كان المخطط قد رسم أساسا للسيطرة . فقد عمد النفوذ الاستعماري أولاً للقضاء على القوى الشابة الجديدة ، وفي مقدمتها الحركة الوهابية في الجزيرة العربية والنهضة المصرية التي قادها محمد علي ، وكان أن حرض الاستعمار الدولة العثمانية على دفع واحدة القوتين للقضاء على الاخرى ، ثم تفرغ من بعد للقوة الاخرى ، فكانت عملية التدخل العسكري في الشام عام ١٨٤٠ التي مزقت الوحدة التي كونها إبراهيم . وبذلك أهلت سوريا لعملية من أخطر السيطرات الأجنبية في

الصراع بين النفوذين الفرنسي والبريطاني مما دفع الدولتين إلى إثارة الصراع بين الطائفتين : الموارنة والدروز ، وقد اخذت فرنسا جانب الموارنة وامدتهم الاسلحة وفعلت بريطانيا مثل ذلك بالنسبة للدروز ومهد ذلك للصدام الذي وقع بتحريض الدولتين عام ١٨٦٠ . وكان ذلك مقدمة للخطة التي أعدتها الدول الاجنبية من اتخاذها لبنان رأس جسر لنفوذها في الشرق كله . وذلك بوضع نظام يكفل للبنان نظاماً خاصا ، وحاكما خاصا في حماية الدول الاوربية . وفي ظل هذا الوضع الذي أهل لبنان لتكون منطلقا للغزو الاستعماري سياسيا وثقافيا بدأت الارساليات التبشيرية تصل إليها ، وتعمل في حرية مطلقة ، وتتخذ منها حقلاً لكل مخططات النفوذ الاجنبي وفي مقدمته :

(١) ـ القضاء على الرابطة الإسلامية الجامعة للمسلمين في العالم كله .

(٢) ـ إعداد خطط الفصل والوقيعة بين العرب والترك .

(٣) ـ إعداد خطط الفتن والخلاف بين المسلمين وغير المسلمين والعرب .

(٤)ـ تمكين الصهيونية من السيطرة على فلسطين .

(٥)ـ تخريج طبقة مثقفة تفتح أمامها وسائل الحكم والسلطان في مختلف أجزاء العالم العربي . وكانت المدارس الاجنبية وإرساليات التبشير في مختلف صورها ، من معاهد وجامعات . وقد احتضنت لبنان نفوذ فرنسا وأمريكا في نفس الوقت الذي تقدمت كل دولة من ذوات المطامع إلى الدولة العثمانية معلنة نفسها حامية طائفة معينة : فالفرنسيون لحماية الكاثوليك ، والبريطانيون لحماية البروتستانت ، والروس لحماية الارثوذكس . وهكذا بدأ الغزو الاستعماري للعالم الإسلامي باسم العلم ، ورصدت لذلك الميزانيات الضخمة ، وكان لهذه البعثات أثرها الهام في حل المسألة الشرقية ـ على النحو الذي أراده الغرب ـ كما اعترف بذلك كبار السياسيين وكان لها دورها في تمزيق الوحدة السياسة التي ظلت قائمة بين الترك والعرب خمسة قرون .

ففي المرحلة الاولى حملوا لواء الدعوة إلى العروبة وتدريس اللغة العربية ، والإلحاح على الحرية ، ومقاومة الاستعمار كوسائل مرحلية حتى سقط السلطان عبد الحميد وتسلمت حكم الدولة العثمانية جماعة الاتحاديين ثمرة الارساليات والنفوذ الاستعماري ، وهنا تحول اتجاه هذه المؤسسات والجامعات من الدعوة إلى العروبة ، وحماية اللغة العربية إلى اتخاذ اللغات الاجنبية أساسا للتدريس مع الحملة على الوحدة العربية واللغة العربية وتغليب العامية والحروف اللاتينية عليها ، وطبع التعليم طبعا علمانيا خالصا .

ومن الحق أن يقال إن النفوذ الاستعماري قد اختار في الدولة العثمانية ثلاث مناطق من أخطر المراكز الاساسية لعمله = الاولى : (لبنان) والثانية (مصر) والثالثة (سالونيك) في تركيا . وقد قامت كل منها بدور ضخم . أما لبنان فقد غطت منطقة الشام جميعا والعراق . أما مصر فقد كانت تمثل القيادة الفكرية للعالم العربي كله . ولذلك فقد جاء التركيز عليها في مجالات التعليم والثقافة والصحافة عاملاً أساسيا في إعداد خطط النفوذ الاستعماري في العالم العربي . بل الاسلامي كله ، أما سالونيك فقد كانت مقر المخطط التبشيري والاستعماري الذي خلق القوة التي صارعت الخلافة والدولة العثمانية وقضت عليهما نهائيا .

وقد اعتبر المبشرون عام ١٩٠٨ من الاعوام الحاسمة في حركة التبشير في العالم الإسلامي كله ، وان الانقلاب الذي قاده الاتحاديون والذي أنهى حكم السلطان عبد الحميد هو عمل بعيد الاثر في توسيع حركة التبشير في الدولة العثمانية كلها ، فقد أصبح تجول المبشرين في البلاد العثمانية والعربية والفارسية غير ممنوع ، وكانت السلطة السياسية على أكثر المسلمين قد انتقلت من يد الخلافة الإسلامية إلى يد انجلترا وفرنسا وروسيا وهولندا . كما أصبح بيع كتب التبشير مباحا بسبب حرية النشر التي أعطاها الدستور العثماني . وقد عقدت الهيئات التبشيرية عدداً من المؤتمرات منذ عام ١٩٠٦ عندما عقد المؤتمر التبشيري الاول بمنزل أحمد عرابي في باب اللوق في القاهرة (تحديا واستفزازاً) . ثم عقدت مؤتمرات في أدنبرة عام

١٩١١ وبيروت ١٩١١ ولكنو بالهند ١٩١٣ وفي القدس وبرمانا (لبنان) وقسنطينة في الجزائر وحلوان في مصر عام ١٩١٤ وفي القدس ١٩٢٨ وفي تونس عام ١٩٣٢ وفي القدس عام ١٩٣٥ . وقد شهد هذه المؤتمرات عديد من كبار الساسة وكثير من المستشرقين والكتاب المبشرين ، وبلغ عدد الهيئات التي اشتركت في كل مؤتمر أكثر من مائة من أربعين دولة .

وكان التركيز على فلسطين واضحا في عقد مؤتمرات الارساليات التبشيرية بها وتنافسها مع قوى الاستعمار والصهيونية . وهو ما أطلق عليه « إعداد الفريسة للالتهام » وهو ما تحقق بعد ذلك . وكانت هذه المؤتمرات تحاول أن تكشف الطريق للهيئات التبشيرية مرحلة بعد مرحلة ، حتى أنهم أطلقوا على حملتهم « فتح العالم الإسلامي » في وجه الثقافة الغربية بحسبانه أصبح عالما ممزقا مغلوبا على أمره ، تسيطر عليه حكومات الانتداب ، أو حكومات لها ولاية للنفوذ الاستعماري ، وفي ظل النفوذ الفرنسي والبريطاني والهولندي لأغلب أجزاء العالم الإسلامي . وقد أولت هذه المؤتمرات دراسات واسعة لعملها في المجالات الثلاثة :

(١) ـ المدرسة (٢) ـ المستشفى (٣) ـ الصحيفة والكتاب .

وكانت دائما تعد أساليبها بما يحقق الغاية وفق ما تسفر عنه المرحلة السابقة . وكانت هذه المؤتمرات تذكر دائما بما في أيديها من قوى :

(أولا) معاهدة فرساي التي نصت في المادة ٤٣٨ على جواز التبشير في سورية .

(ثانيا) الامتيازات الاجنبية في الدولة العثمانية ومصر .

(ثالثا) الوضع الخاص الذي فرضه النفوذ الاجنبي على لبنان منذ عام ١٨٦٠ . وقد وصلت هذه المؤتمرات إلى خطط محددة أهمها أن التعليم هو أنجح الخطط في تحقيق الاهداف ، وذلك بوضع الشباب المسلم العربي تحت تأثير التعليم (الغربي المسيحي) وأن يشمل هذا التأثير أولئك الذين سيصبحون يوما قادة أوطانهم .

كما عمدت هذه المؤتمرات إلى دعم المخططات الفرعية وفي مقدمتها

دعوات الفرعونية في مصر ، والبربرية في المغرب والبحر الابيض المتوسط في سوريا ، والفينقية في لبنان . وتنشيط دعوات القاديانية والبهائية ، والانتفاع بنشاط المحافل الماسونية ، والسيطرة على الصحف والاندية والجمعيات . غير أن أكبر خطوة للتبشير في العصر الحديث إنما تتمثل في عقد معاهدة تاليران التي عقدتها الحكومة الإيطالية مع الفاتيكان .

والمعروف أن خطوات التبشير في العالم الإسلامي قد تلاحقت منذ مطلع القرن الثامن عشر . غير أن خطواتها الضخمة قد تمت في فترة ما بين الحربين . هذه الفترة التي يطلق عليها فترة « إنضاج » الثمار التي سيكون لها الصدارة في مجالات القيادات السياسية والثقافية في العالم الاسلامي كله ، ولذلك فقد حرص الاستعمار أن يبقى في هذه المرحلة حارسا لهذه المؤسسات ومدعما لها حتى تتم مهمتها ، وتركز أقدامها بحيث يصبح من المستحيل بعد ذلك إجلاؤها عن قواعدها .

أما معاهدة تاليران التي عقدت بين الفاتيكان والدولة الايطالية فقد حققت أن تستولي الفاتيكان بمقتضاها من الحكومة الايطالية على (٧٥٠ مليون ليرة إيطالية) كتعويض عن حقوقها المالية التي توقفت منذ عام ١٨٧١ عندما وقع الخلاف بينهما . وكذلك على ربح قدره خمسة في المائة لقرض اسمي قدره ثلاثة مليارات ليرة تصدره الحكومة الايطالية . « اقرأ التفاصيل في كتابنا : مخططات التبشير » . وقد نشرت تصريحات إثر ذلك أعلنت أن القسم الاكبر من هذه الأموال ستصرف في تقوية البعثات التبشيرية في المشرق وأفريقيا ، وتوقع الكثيرون أنه لن يمضي وقت طويل حتى تبرأ غزوة جديدة للتبشير في العالم الاسلامي ، وقد حدث ذلك فعلاً سنوات ١٩٣٢ و١٩٣٣ في مصر عندما هزتها حركة تبشيرية ضخمة كان لها أثرها البعيد المدى في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والفكرية . وقد بلغ من أهمية هذه المعاهدة أن وصفها الآمير شكيب أرسلان بأنها من أعظم الحوادث التاريخية في هذا العصر . وقد استتبع ذلك أن أعلن الفاتيكان عن إنشاء معهد خاص

لدراسة الفقه الإسلامي ، والعقيدة الإسلامية . وذلك حتى يمكن المبشرين من مهاجمة الإسلام في بلاده .

***

وقد ركز التبشير تركزيا كبيراً على مصر بعد انتهاء الحرب الاولى سنة ١٩١٨ لامرين : (الاول) أن مصر هي مركز النقل في العالم العربي كله . وكل ما يثار فيها من تيارات ، إنما يكون عاملاً هاما للتأثير على مختلف الاجزاء .

(الثاني) إن المرحلة الاولى في مصر قبل الحرب عن طريق ثمار الارساليات التبشيرية الاولى قد آتت أكلها عن طريق الصحافة ، والتي أبرزت ألمع نجومها من الصحفيين الغربيين النزعة ، خريجي هذه الكليات من زيدان إلى صروف إلى فرح أنطون إلى سركيس إلى شبلي شميل بالاضافة إلى الصحفيين الذين عملوا في فرنسا وبريطانيا .

ولذلك فقد اجتاحت في أوائل الثلاثينات مصر والسودان حملة تبشيرية ضخمة عن طريق بعض المعاهد الكبرى للارساليات وبعض مستشفياتها ، ولم تلبث الحركات العنيفة أن كشفت عن أحداث خطيرة تمثلت في إغراء بعض الشباب والفتيات المسلمين عن طريق التنويم المغناطيسي لترك دينهم .

وفي خلال هذه المعركة اندفع المبشر « زويمر » فدخل الجامع الازهر ووزع منشوراته بها وتألفت على أثر ذلك جمعية الدفاع عن الإسلام من صفوة العلماء والكتّاب . وأهدت النصح إلى المصريين بسحب أبنائهم من المعاهد التبشيرية ، ودعت إلى إنشاء معاهد ومدارس لفقراء المسلمين . وقد رافقت هذه الحركة في مصر والسودان حركات مماثلة في تونس والجزائر والمغرب أهمها حركة الظهير البربري في المغرب وحركة التجنيس في تونس وحركة الادماج في الجزائر .

وقد اهتدت الحركة في هذا بتقارير اللورد كرومر عن التبشير ، الذي وجه

أنظار المؤسسات التبشيرية إلى العمل في جنوب السودان حيث الميدان خصيب وبكر . وقد نفذت الحكومة السودانية الخطة بدقة فأوجدت فاصلاً بين الشمال والجنوب وأطلقت على تلك الاجزاء « المناطق المقفلة » وحالت بين المسلمين الشماليين وبين الجنوب . كما استقدم لهذه المناطق كثير من المبشرين ، وجرت محاولات تجنيس التونسيين بالجنسية الفرنسية ، وفي المغرب صدر الظهير البربري عام ١٩٣٠ الذي استهدف إخراج القبائل البربرية المسلمة من حظيرة الشريعة الإسلامية ، وإلغاء العلوم التي تعلم باللغة العربية في مناطق القبائل ، والعمل على فصل البربر المسلمين عن العرب ، ووضع أنظمة خاصة بهم في القضاء والتعليم ، مستمدة من قوانينهم العرفية القديمة .

وفي مصر وعديد من بلاد الشرق اقتحم دعاة « البهائية » المجال وبشروا وأعلنوا وكتبوا في الصحف وأقاموا محافلهم ، وكذلك اندفع دعاة القاديانية في الهند الإسلامية وغيرها . وفي قلب أفريقيا تدفقت مختلف البعثات التبشيرية الكاثوليكية واليسوعية والبروتستانية : من السويد وانجلترا وألمانيا . وكانت خطة (ولفنجستون) هي دليل العمل حين قال : « إن نهاية الاكتشاف الجغرافي هي بداية العمل التبشيري » . وفي الهند ركز النفوذ الاستعماري البريطاني على الهند ، وأفسح للبعثات التبشيرية فيها منطلقا واسعاً . فقد وفد المبشرون إلى الهند قبل وصول بريطانيا . وفي ظل النفوذ البريطاني المتزايد أنشأ المبشرون في مختلف بلاد الهند المدارس والكليات والمستشفيات ، وأسسوا مراكز التبشير ، وترجموا التوراة إلى معظم لغات الهند ، ووزعوا منها الملايين من النسخ .

ونفذت البعثات التبشيرية منذ وقت مبكر الى فارس والاناضول والأستانة التي صارت منذ ١٨٤٦ مركزا عاما آمنا لاعمال المبشرين ، وفي الملايو توزعت البعثات التبشيرية ، وشغلت مختلف الانحاء وأولت هذه البعثات اهتمامها للساحل الشرقي من الجزيرة وإلى جاوة وسومطرة . وفي الصين بدأت بعثات التبشير عام ١٨١٣ حيث انتشر المبشرون والاطباء التابعون لهم في مختلف المدن .

وأولت حركة التبشير (الجزيرة العربية) اهتمامها الواسع جريا على ما قاله : وليم جيفرد بالكراف : متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب حينئذ نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه . ولذلك فقد ركز التبشير على الجزيرة العربية ، وطمع في الوصول إلى مختلف أجزائها . ولذلك فقد استغل وجوده في البحرين وفي عدن لهذا العمل . كما وصلت بعثاته إلى البصرة والشيخ عثمان . واتخذ المبشرون من أطراف جزيرة العرب مراكز تمهد لهم سبيل التوغل داخل الجزيرة . كما أذاعت بعثات التبشير نداء حاراً عام ١٩٢٧ إلى مراكزها في أوربا تناشدها إرسال مبشرين إلى بلاد العرب حيث تشتد الحاجة إلى مائة مبشر . ومنذ وقت بعيد عمد التبشير إلى العمل في المملكة الفارسية (إيران) وكان التعليم التبشيري هو أبرز هذه المعالم . فقد أنشأت الارساليات مدارسها عام ١٨٨٢ في مختلف مدن إيران (طهران ، ميناء بهلوي ، كرماشاه ، تبريز ، همدان) وقد تم لهم شراء أراضي شاسعة خارج مدينة طهران حيث جرى العمل على إنشاء كلية ضخمة افتتحت عام ١٩٢٨ .

وقد ضمت البعثات جماعات النساطرة للايفاع بينهم وبين المسلمين والعرب ، وإيجاد فتن وملاحم دموية على نفس النسق الذي اتخذه النفوذ الاستعماري في لبنان بين الدروز والموارنة . وفي أيندونيسيا غزا التبشير الجزر الالف ، وأعانته حكومة هولندا المسيطرة على مقدرات البلاد ، وأفسحت مجال الارساليات ، وأعمال التبشير الاخرى عن طريق المستشفيات والانقضاض على الطلاب والشبان .

***

وقد واجه المسلمون أعمال المبشرين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي بالكشف عن مخططاته وإقامة الجمعيات الوطنية وإنشاء المدارس الاهلية ، والرد على الشبهات في مجتمعاتهم وصحفهم بالرغم من نفوذ الاستعمار الغاصب المؤ يد للتبشير . وقد أشار إلى ذلك الدكتور سنوك حين قال : لا أعتقد أن الإسلام يسقط أمام النصرانية . لان المسلم محتاط أشد الاحتياط .

لمقاومة النفوذ الغربي المسيحي . وهو يرى ان النصرانية شيء مضى ، وأن تدينه بها هو خطوة إلى الوراء ، زد على ذلك أن الإسلام يربح تابعين له من الوثنيين ، فالذي يصير مسلما لا يطلب منه شيء كثير ، إذ لا يوجد تقديس ولا طقوس دينية ولا تعليم طويل : فكل ما يطلب منه أن يعترف بالله . وعند ما يصير مسلما يتغير مركزه الاجتماعي ، ولكنه إذا تنصر فإنه يبقى دون غيره ، ويظل المرسل الديني غريباً متنحيا عنه » .

***

وغاية القول في مخططات التبشير أنها بعد أن انكشفت اوراقها في أوائل الاربعينات قد حاولت أن تغير جلدها ، وأن تتحول عن أساليبها الاولى إلى أساليب جديدة أشد خفاءً ومكراً ، وربما لم تعد مظاهرها تبدو على السطح ، وهذا مما يؤكد خطورة العمل التبشيري الذي تحول الآن إلى ايدي عدد من أبناء البلاد الإسلامية من أتباعه وتلاميذه ، ويمكن أن يقال إن أخطر تحول في طريق التبشير ، إنما أدى إلى دعم حركة التغريب وحركة الشعوبية معاً .

أما وجود الخطر التبشيري فهو قائم ، وأما عمله فهو مستمر لم يتوقف ، وطالما يطمع الاستعمار في البقاء الطويل فإن عليه أن يقضي على عوامل القوة والمقاومة في العالم الإسلامي . ولما كان المسلمون والعرب يستمدون عوامل قوتهم ومقاومتهم من أسس فكرهم الإسلامي العربي ، فإنه يعمل دوماً لتحريف هذه الاسس وإثارة الشبهات حول هذه القيم والمفاهيم .

والحقيقة التي يجب أن تكون ماثلة في كل عقل ونفس ، هي أن النفوذ الاستعماري الذي ما تزال مصالحه قائمة في العالم الاسلامي والامة العربية ، إنما يريد استبقاء هذا النفوذ عن طريق تغريب الثقافة العربية والفكر الإسلامي ، وسلخ مقوماتها ، وإضفاء مقومات الفكر الغربي والثقافة الغربية عليهما بحيث ينتزع من هذه الامة مقدرتها النفسية والعقلية على مقاومته أو معارضته أو التخلف عنه ، وإحلال روح من التقبل والتشبع به

والصداقة له ، والدفاع عنه . بل والإعجـاب به ، هذه الـروح تحمـل في طياتها أيضا الغض من شأن التراث الإسلامـي واللغـة العـربية الإسـلامية والشريعة وإثارة الشبهات والاتهامات حولها جميعها . وهذا هو الذي تقوم به الأعثات التبشيرية وإن غيرت جلدها .

(٣)

الصهيونية

تمثل الصهيونية بعداً جديداً للاستعمار والغزو الغربي المتطلع الى السيطرة والنفوذ في العالم الاسلامي ، وهي بمخططاتها تمثل كياناً مستقلا من كيانات القوى الغازية ، وهي بتعاونها مع القوى الاستعمارية منبعثة منها اصلا تشكل اتحاداً مع النفوذ الاستعمار الغربي .

والصهيونية حركة يهودية قام بها اصحابها في مواجهة التحديات والاخطار التي واجهت اليهود في اوربا والاضطهاد الذي واجهوه في اجزاء كثيرة منها . وكان تطلع هذه الحركة الى ايجاد وطن قومي في اي بقعة من بقاع العالم للاقامة فيه والهجرة اليه .

وقد وجدت هذه الحركة تقبلا من النفوذ الاستعماري نفسه ، من ناحية لتكون عاملا معاوناً بخلق استعمار استيطاني ، ومن ناحية اخرى كان متقبلا من الغربيين للتخلص من النفوذ اليهودي باخراجه من اوربا .

وكان الاستعمار الانجليزي قد فكر وقدر في محاولة اقرار وجوده في العالم الاسلامي حين قرر عام ١٩٠٧ الى ان ايجاد حاجز بشري بين افريقيا وآسيا من شأنه ان يحول دون وحدة هذا العالم وتجمعه ، وقد تلقفت الصهيونية هذا القرار ، وطمعت في ان تحقق وجودها بالحصول على ارض فلسطين لتكون مقراً للدولة الصهيونية .

وقد عمدت بريطانيا في تبني مخططوطن قومي في فلسطين تمهيداً لاقامة دولة صهيونية الى تحقيق عدة مزايا كان اهمها تغطية قناة السويس من الناحية الشرقية وحمايتها ضد حركات التحرر العربية ، فضلا عن كسب النفوذ اليهودي في العالم كله ، غير ان الصهيونية لم تلبث حين تقرر الاتفاق بينها وبين الاستعمار

على تحقيق مخطط السيطرة على فلسطين . ان اعلنت فلسفة مستمدة من الاساطير تتمثل في العودة الى فلسطين . ويتصل ذلك بوجود اليهود في فلسطين قبل ثلاثة عشر قرناً ، وحاولت الصهيونية ان تجعل من دخول اللورد اللنبي الى فلسطين ١٩١٨ وسيطرة الاستعمار على القدس مقدمة لسيطرتهم عليها ، وحاولت ان تجعل من بعض النصوص القديمة وسيلة لكسب المسيحية الى صفها .

وعمدت الصهيونية الى وضع مخطط واسع في سبيل اكساب وجودهم في فلسطين حقاً تاريخياً . وذلك بالتزوير في كتابات التاريخ ، ووضع الموسوعات والكتب باللغات المختلفة . وكذلك القصص المسرحية والسيمائية التي تحاول فرض نظريات جديدة ، قوامها القول بان اسرائيل هو الشعب المختار الذي واجه الاضطهاد على مدى التاريخ ، وان عظماء الفكر في العالم وكبار المكتشفين والباحثين في مختلف العلوم كانوا من اليهود ، واعلاء شأن الجنس اليهودي ، والدعوة الى السامية واعتبار كل من يقف في وجه حركتهم هو من اعداء السامية .

وقد استطاعت الصهيونية بوسائلها المختلفة ، واساليبها المتعددة ، وسيطرتها على الاسواق المالية والتجارة واجهزة الاعلام في مختلف انحاء العالم من ترديد هذه الدعاوى وفرضها على الفكر العربي ، وتزييف جذور هذا الفكر نفسه بالهجوم على المسيحية .

وكانت الحركة الماسونية قد سبقت الحركة اليهودية في سبيل تحقيق هدف عريض تسعى له اليهودية العالمية ، والسيطرة عليه ، واقامة الامبراطورية الصهيونية كوريثة للحضارة الغربية والانظمة الرأسمالية على السواء . وقد تكشفت هذه المخططات من خلال ما تسرب الى العالم من نصوص التلمود ، وما كشفت عنه بروتوكولات حكماء صهيون ، ويوميات هرتزل ، وعديد من الكتابات التي سمحت الصهيونية باذاعتها بعد الحرب العالمية الثانية ، وحاولت بها ان تكشف عن مخططاتها الخفية التي كانت سرية ومحاطة بقدر كبير من الكتمان .

وظهر عدد من المفكرين الصهيونيين امثال : اميل لدوفيج الذي حمل لواء مهاجمة البطولة وتعريتها ، واثبات ان جميع الابطال العالميين كانوا منحرفين ، وفرويد ودوركايم اللذين حملا لواء العمل على تدمير الشخصية الانسانية ، فعمد فرويد الى علم النفس محاولا اثبات ان الجنس واللذة والغريزة هي مصدر كل تصرفات الفرد . واعلن دوركايم عن ان نظام الاسرة ليس من الانظمة الطبيعية ، وان الاديان خرجت من الارض ولم تنزل من السماء ، وتولى كثيرون غير هؤلاء دعم المخططات التي استهدفت القضاء على مقومات الدين والاخلاق والمثل العليا في البشرية كلها تحقيقاً للمخطط الذي كشفت عنه بروتوكولات صهيون بالسيطرة على العالم بعد تدمير مقوماته . وتتصل بهذا حملات نيتشه وكيركجار دورنيان على المسيحية ، ورميها بابشع الاتهامات ، ودعوات الوجودية والانحلال والعبث واللامعقول وغيرها من الدعوات التي تغمر البشرية الان ، وتدفعها الى ان تقع فريسة سائغة في ايدي القوى الصهيونية العالمية . وقد كشفت كتابات كثيرة عن ابعاد المخطط الصهيوني في محاربة المسيحية والاسلام واخضاع الشعوب المختلفة في العالم .

وقد تكشفت في السنوات الاخيرة الصلة الوثيقة بين النظريات التي حملت الطابع العالمي سنوات طويلة ، وبين التراث اليهودي الصهيوني ، بما يؤكد ان هذه النظريات وخاصة « التحليل النفسي » قد استقت من نفس المنبع الذي استقت منه الحركة الصهيونية طاقتها وتوجيهها ، وان الحركتين سارتا معاً لكي تصلا آخر الامر الى غاية واحدة هي : الالتقاء بشعب الله المختار في ارض الميعاد[1] . وفي يقيني ان الكشف سيؤدي الى مثل هذا بالنسبة للوجودية وغيرها من الدعوات .

وقد قال الدكتور صبري جرجس : ان التحليل النفسي الذي ابتدعه فرويد مع ظهور الحركة الصهيونية منذ سبعين سنة لم يكن علماً مجرداً كما زعم ، ولكنه وثيق الصلة في جوانبه المرضية والحضارية معاً بالتفكير اليهودي الصهيوني الذي ظهر في التراث منذ عهد التوراة وما بعدها ، وانه من اجل ذلك سخرت

١ـدكتور صبري جرجس · التراث اليهودي الصهيوني .

الصهيونية اليهودية اجهزتها الاعلامية والدعائية لنشر مفاهيمه والدعوة له في اوسع نطاق مستطاع حتى اصبحت الفرويدة من اقوى العوامل اثراً في التوجيه الفكري والخلقي لعالم الغرب ، وقد ثبت ان فرويد كان يهودياً حقاً وعضواً عاملا في بعض المنظمات ، وصديقاً شخصياً لهرتزل ، وان العلاقة العضوية والمصلحية والمصيرية بين اليهودية والصهيونية ، والاستعمار الامبريالي من ناحية ، وبينها وبين التحليل النفسي الفرويدي من ناحية اخرى ، قد جعلت من الحركات الثلاث ثالوثاً قوامه العنصرية وروح الاستعلاء ، ووسيلة الافساد ، وهدم الاستقلال ، وبشكل تحدياً يواجه البشرية ومستقبلها .

(٢)

الصهيونية واجهة المطامع اليهودية العالمية

في عام ١٨٩٧ أجمع المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال بسويسرا برئاسة الدكتور تيودول هرتزل مؤلف كتاب « الدولة اليهودية ». وبذلك انتقلت الحركة اليهودية العالمية إلى مرحلتها الثانية . وقد اتجهت الحركة الصهيونية إلى العمل الفوري من أجل تحقيق هدفها ، فركزت على العمل في الدولة العثمانية عن طريق المحافل الماسونية التي كانت بؤرتها « مدينة سالونيك » حيث توجد جالية (الدونمة) المعروفة من اليهود الذين هاجروا من الأندلس بعد الاضطهاد ، واعلنوا اسلامهم ، وأقاموا في هذا الموقع الخطير .

ومن خلال المحافل الماسونية تأسس جزب الاتحاد والترقي الذي سيطر عليه اليهود ، وحولوه الى هدفهم الرامي الى تنكيس الدولة العثمانية وتمزيقها وايقاع الخلاف الدموي بين عنصريها العرب والترك . ومن ناحية اخرى فقد توجه الصهيونيون مرة الى السلطان عبد الحميد بمشروع قوامه السماح لهم بالاقامة في فلسطين في مقابل دعم الدولة ماليا بقرض قدره خمسة ملايين من الجنيهات ، وقد رفض السلطان هذا العرض صراحة حين قال : « انصحوا الدكتور هرتزل بالا يتخذ خطوات جديدة في هذا الموضوع ، اني لا استطيع ان اتخلى عن شبر واحد من الأرض ، فهي ليست ملك يميني ، بل ملك شعبي . لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه ، فليحتفظ اليهود بملايينهم ، واذا مزقت امبراطوريتي فلعلهم يستطيعون أنذاك ان يأخذوا فلسطين بلا ثمن . ولكن يجب أن لا يبدأ هذا التمزيق في جثثنا ، فاني لا أستطيع الموافقة على تشريح اجسادنا

ونحن على قيد الحياة . كان هذا العرض في الأغلب حوالي ١٩٠٢ مقدمة لاسقاط الخليفة عام ١٩٠٩ بعد انقلاب الاتحاديين عام ١٩٠٨ . هذا الانقلاب الذي هلل له المسلمون جميعاً ظنا منهم انه فاتحة التحرر بالدستور الذي اعلن في أوائل حكم الاتحاديين .

ويكفي في الكشف عن هذه الصفحة أن ننشر ما نقلته مجلة المشرق اليسوعية عام ١٨٩٥ عن مجلة الكلمة عن علاقة اليهود بدستور المملكة العثمانية كاشفةعن نفوذ اليهود في تركيا منذ إعلان الدستور ، قالت نقلا عن مجلة الكلمة : « إن الدستور العثماني ككل دستور آخر خطته يد الماسونية (يقصد دستور الثورة الفرنسية) « حرية . اخاء . مساواة » وقد منح اليهود حق المساواة فلم يلبث اليهود في تركيا أن اخذوا يظهرون لدى الملأ ماذا يعنون بهذه المساواة . فقبل كل شيء انسلوا إلى اعلى الوظائف في المملكة ، ثم لم يمض وقت طويل حتى ظهر أن مديري دفة جمعية تركيا الفتاة (المنبثقة عن حزب الاتحاد والترقي) هم يهود اما الحاخام باشي او رئيس الحاخامات في الآستانة ، ففي يوم الاحتفال بمرور سنة على اعلان الدستور في المملكة العثمانية اخذ من شدة فرحه بالحرية الدستورية وعظم تعصبه للنصرانية يدوس برجليه أوراقاً منتزعة من الكتاب المقدس . وبوجه الاجمال ، فان اعلان الدستور في تركيا قد ملأ قلوب بني اسرائيل اجمعين فرحا عظيما بهذا المقدار حتى انهم اصبحوا كالسكارى لاهمّ لهم الا الانتقام في السر والجهر من اخوتهم النصارى ، فأخذوا بواسطة اعوانهم لدى الباب العالي ينشرون كامن البغض بين الأتراك المسلمين وبين سائر الشعوب المسيحية في المملكة العثمانية ، وكلما رأوا نيران هذا البغض بين الطرفين تكاد ان تخمد اوارها بادروا وزادوها وقودا . ومما يؤيد لنا هذه الحقيقة هو ان جريدة التيمس الانجليزية احدى الجرائد المشهورة بمالأتها لليهود واليهودية ، رأت من واجبها أن تذكر اليهود بالدور الذي كانوا يلعبونه دوما في تهييج المسلمين ضد النصارى وباشتراكهم مع الأولين في ذبح الآخرين ، وكفى مذابح سوريا ومذابح الاستانة ، ولا سيما مذابح ادنة ونواحيها ، وتذكرهم - اي جريدة التيمس - بما استفاده اليهود من وراء هذه المذابح الاخيرة ، وهو أن اراضي الذين ذبحوا او هربوا من الارض قد استملكها احد اليهود المسيحيين جاربل - واسكنها يهوذا

من روسيا . وأشارت الجريدة إلى ان جمعية تركيا الفتاة التي أحست من جراء استلامها للنفوذ الأجنبي مكروهة في أكثر انحاء المملكة العثمانية . وهذا ما جعل جريدة التيمس الانجليزية تبادر الى تحذير اليهود في كل مكان ، ولا سيما في تركيا من وخامة عواقب استعجالهم في التظاهر باماًنيهم اليهودية » أ هـ .

***

في هذه المرحلة تحالفت الصهيونية مع الاستعمار بفلسفة واضحة مخططة قوامها استعادة بناء هيكل سليمان . ووجد الاستعمار في المخطط الصهيوني عاملا هاما في طريق تحقيق وجوده وضغطه على العالم الاسلامي ، وذلك باقامة احتلال استيطاني اخطر اثرا من الاحتلال العسكري والسياسي في بقعة من ادق بقاع العالم الاسلامي ، قلب الأمة العربية : فلسطين .

ولذلك فقد بدأ تحرك النفوذ الاجنبي وقوامه (فرنسا وانجلترا وروسيا) مع الحركة الصهيونية في سبيل تمزيق الوحدة الاسلامية الكبرى (العربية التركية) الممثلة في واجهة المقاومة : الدولة العثمانية .

وكان الاتحاديون ثمرة المحافل الماسونية في سالونيك اخطر قوة في سبيل تحقيق هذه الغاية في الفترة منذ اسقاط عبد الحميد عام ١٩٠٩ إلى انتهاء الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٨ حين امكن التمهيد الكامل لصدور وعد بلفور ، وبدء اقامة كيان صهيوني يهودي في قلب فلسطين . فقد بدأت الصهيونية في حملتها مع الدول العثمانية الى الاغراء فالتآمر ، ثم استغلت قوة داخلية تركية اساسية لهدم الدولة ، بعد أن ازاحت السلطان عبد الحميد الذي استطاعت الصهيونية العالمية بالاشتراك مع الاستعمار ان ترميه بكل نقيصة في محاولة اظهاره للمسلمين في ابشع صورة ، بعد أن استطاع خلال اربعين عاما ان يشغل اوربا بمشاكلها الخاصة ، وان يحبط مؤامراتها وذلك برفع لواء الوحدة الاسلامية . وقد حاول سفير بلغاريا في الآستانة أن يؤلب الدول الأوربية على عبد الحميد حين قال : إنه من طراز محمد الفاتح الذي سبق له ان طرق بجيوشه أبواب اوربا . وان عبد الحميد يهدف الى اعادة عظمة الدولة واعادة مجد المسلمين ، فعليكم تناسي خلافاتكم ومعرفة أي شخصية تواجهون . والمعروف في هذا الصدد أن السلطان عبد

الحميد حين رفع علم الجامعة الاسلامية ، واستقدم جمال الدين الأفغاني انما كان يحاول ان يتخذ خطة غاية في القوة والبراعة ، لولا أن عجل النفوذ الاستعماري والصهيونية بالقضاء عليه ، كانت خطته هي محاولة تعريب الخلافة وايجاد الكيان العربي في قلب الدول الاسلامية نفسها ، وكان هذا العمل من اخطر ما تنبه إليه الاتحاديون والماسونيون وخشوا اثره لو تحقق . والواقع أن عبد الحميد كان بسبيل احياء سنة السلطان سليم بتعريب الديوان ، وجعل اللغة العربية اللغة الرسمية للدولة ، ثم السعي لتعريب الخلافة نفسها وصرفها عن الأتراك المحدثين[1] . ويرجع ذلك في نظر الكثيرين إلى أرومته العربية التي يرتبط بوشائجها عن امة الهاشمية . والمعروف ان الدونمة في مدينة سالونيك المجاورة لليونان حيث مقر المحافل الماسونية ، ومراكز الاتحاديين . كانت منطلق حركة خلع عبد الحميد ، كما انطلق منها بعد ذلك بسنوات اولئك الذين حملوا لواء الغاء الخلافة . وكان واحد من الثلاثة الذين حملوا للخليفة وثيقة التنازل هو احد الذين حملوا اليه وثيقة الصهيونية في القرض اليهودي نظير سماحه بدخول فلسطين كان معنى هذا واضحا . ان الصهيونية قد استطاعت ان تزيل من طريقها اخطر عدو لها .

***

وكان تيودور هرتزل في كتابه « الحل الصهيوني » الصادر عام ١٨٩٥ . ثم في المؤتمر الصهيوني العالمي عام ١٨٩٧ قد رأى ان تكون فلسطين ارض الدولة اليهودية ، ثم عقد المؤتمر الصهيوني مرة أخرى عام ١٩٠٨ . وأصر على ان تكون فلسطين ارض الميعاد هي مقر الدولة اليهودية . فلما تحقق الانقلاب التركي انفتح باب الأمل أمام الصهيونية في فلسطين ، وقد عاونت الماسونية الاتحاديين في خلع السلطان عبد الحميد عن طريق خطة الزحف على العالم بقيادة ضابط مسلم عربي هو : محمود شوكت ومعه عارف حكمة ، وقارصوه اليهودي وحين ولى الاتحاديون السلطان محمد رشاد . كان نفوذ الاتحاديين والصهيونية والماسونية قد قرر كل شيء بالنسبة لتمزيق وحدة الأتراك والعرب عن طريق اخطر رجالهم :

١ـ مصطفى البدوي : عن كتابه الامام مصطفى صادق الرافعي عن المنار (رشيد رضا) حـ ٦ م المحرم ١٣١٨ ـ نسان ١٩٠٠ .

احمد جمال الدين باشا .

وقد أثبتت عشرات المصادر أن الماسونية كانوا يؤلفون القسم الاعظم من افراد جمعية الاتحاد والترقي وانه كانت لهم اليد الطولى فيما أصاب الدولة ، ثم في قيادة حركة الجامعة الطورانية وتتريك العناصر العربية ، وانهم ابعدوا العناصر العربية عن جمعية الاتحاد تحرزا من كشف مخططهم ، وكانت اخطر اعمالهم شنق الأحرار العرب لايجاد خصومة دموية تقطع كل امل في الالتقاء بين العنصرين ، وارغام الدولة العثمانية على دخول الحرب الى جانب الالمان ، فلما انهزمت تركيا بانهزام الالمان تحقق كل شيء للنفوذ الاستعماري واليهود معاً .

١ ـ القضاء على الدولة العثمانية .
٢ ـ تقسيم الاجزاء العربية بين فرنسا وانجلترا .
٣ ـ صدور وعد بلفور باقامة الدولة اليهودية .
٤ ـ تحويل الدولة العثمانية الى دولة تركية قومية علمانية ، معادية للاسلام ، واللغة العربية .

ثم كان للماسونية الصهيونية بالاشتراك مع النفوذ الأجنبي تحقق اخطر خطوات تمزيق الوحدة الاسلامية ، وهي اسقاط الخلافة ، فهم الذين حرضوا مصطفى كمال الذي تدل كثير من الدلائل على انه كان من دونمة سالونيك ، وانه كان من أخطر رجال الماسونية والاتحاديين ، ومما يذكر في هذا الصدد أن معاهدة لوزان قد رافقها مقررات سرية كانت تحتم اسقاط الخلافة العثمانية والغاء وجه تركيا الاسلامي العربي .

(٣)

ما هو الخطر الذي واجه العالم الاسلامي ويواجهه نتيجة للحركة الصهيونية ، وانشاء اسرائيل في فلسطين قلب الوطن الغربي .

الواقع أن الصهيونية كانت تحديا جديداً للعالم الاسلامي أصبح مع مرور الأيام اشد خطراً من الاستعمار نفسه . بعد أن قطع المسلمون مراحل طويلة في مقاومة الاستعمار نفسه والادالة منه ، وتحقيق جانب من الانتصار عليه ، وهو إنهاء الاحتلال العسكري من أغلب أجزاء العالم الاسلامي ، وإن بقي الاستعمار الاقتصادي والثقافي مسيطراً ، ولكنه في طريق المواجهة والمقاومة . أما الاحتلال الصهيوني لفلسطين ، فقد أخذ صورة اكثر عنفا من الاستعمار نفسه ، فهو استعمار استيطاني من نوع أشد خطورة . ففي بعض مناطق العالم الاسلامي عمد الاستعمار الى تحقيق الاستعمار الاستيطاني . وذلك باستقدام مجموعات من الأجانب للاقامة في الأوطان المستعمرة (كما فعل الاستعمار الفرنسي في الجزائر) ولكن الاستعمار الصهيوني يختلف عن ذلك ، ويتميز بأنه كان أشد ضراوة ، لأنه عمد إلى طرد الشعب الأصيل ليحل هو محله . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن الصهيونية عمدت إلى الاعلان عن مخطط واسع لبناء امبراطورية كبرى يجري تنفيذها من النيل الى الفرات ، مرت في مراحل مختلفة كان في مقدمتها وعد بلفور ١٩١٧ وانشاء الدولة الاسرائيلية عام ١٩٤٧ متعدية الحدود التى رسمها قرار التقسيم الذي رفضه العرب ، ثم التوسع الجديد الذى وقع ١٩٦٧ بضم القدس والضفة الغربية وصحراء سيناء وهضبة الجولان .

هذا هو الخطر الذي واجه العالم الاسلامي منذ خمسين عاما . وإن لم تؤثر تحدياته في هذا الوطن كله الا في السنوات الأخيرة بعد سيطرة اليهود على القدس ، وانتزاعها من المسلمين والعرب بعد أكثر من ألف عام ، عندما انتزعها

الصليبيون ، واستردها صلاح الدين ، ويبدو أن الخطر الصهيوني الذي كان يمثل تحديا للأمة العربية وحدها إلى ما قبل ١٩٦٧ قد أصبح اليوم خطرا أشد ضراوة بالنسبة للعالم الاسلامي كله ، إذا ما وضعنا في اعتبارنا التوسع الاقتصادي الذي تقوم به اسرائيل في قلب افريقيا وسيطرتها على عرض الدول الاسلامية ، وذلك عن طريق النفوذ الاستعماري الذي يفسح لها المجال في كل مكان . وهذا هو مصدر الخطر الذي يواجه العالم الاسلامي ، حيث ينسحب الاستعمار التقليدي اليوم من منطق كثيرة في نفس الوقت الذي يتسع فيه نفوذ اسرائيل كبديل له اشد خطورة واعمق اثراً . ولقد كان الاستعمار يرى في اسرائيل منذ انشائها قاعدة لاستمرار سيطرته على العالم الاسلامي ، وكانت بريطانيا وأمريكا من بعدها ترى في الصهيونية بديلا من الاستعمار الذي انتهى عهده ، ووسيلة لاستمرار رسالتها الاستعمارية ، والسيطرة الاقتصادية والثقافية على اخطر اجزاء العالم الاسلامي ، ولا سيما منطقة قناة السويس الاستراتيجية والقدس التي يتمثل فيها نفوذ الأديان الثلاثة (الاسلام والمسيحية واليهودية) . وهذا ما عبر عنه السياسي البريطاني اميري حين قال : « إن بريطانيا قد تأكد لديها أنه لن يحمي مصالحها في الشرق الاوسط سوى إنشاء دولة صهيونية في فلسطين » .

غير أننا إذا القينا نظرة عميقة على أثر الحركة الصهيونية وقيام اسرائيل في العالم الاسلامي والأمة العربية . نرى أن فلسطين كانت بؤرة الانتفاضة العربية الاسلامية ، فهي في مفهوم العرب والمسلمين الحملة الصليبية التاسعة على العالم الاسلامي ، او امتداد لهذه الحملات لتحقيق أهداف بعيدة المدى أهمها :

أن تكون مركز انقضاض للاستعمار على العالم العربي ، وبها يتحقق بقاء التجزئة او الاقليمية وعزل الجناح الاسيوي ، وابادة شعب فلسطين العربي والاستيلاء على أرضه .

وليس أدل على الترابط بين الحروب الصليبية والغزو الاستعماري الحديث ، والسيطرة على فلسطين من تصريح اللورد اللنبي الانجليزي الذي قال حين دخل القدس : اليوم انتهت الحروب الصليبية ، وقول الجنرال غورو الفرنسي حين دخل دمشق : ها نحن قد عدنا باصلاح الدين ـ وبذلك جدد الاستعمار الرابطة

بين وعد بلفور وبين الحروب الصليبية التي انتهت من ثمانمائة عام .

وكان قيام اسرائيل في قلب العالم الاسلامي والوطن العربي مصدر صدمة يقظة عارمة حتى يمكن القول بأنها (بؤ رة الانتفاضة) التي عرفها عصرنا الحديث . وقد أرادها الاستعمار مؤ امرة للقضاء على الأمة العربية وتمزيقها وتحقيق ما عجز عنه في الفترة التي بدأت منذ صراعه مع العرب .

ولقد حرصت بريطانيا ان تعد فلسطين لاقامة الدولة اليهودية منذ اليوم الأول لانتدابها . ولكن العرب لم يستسلموا بالسهولة التي كانوا يتصورونها ، وقد سجل ذلك (وايزمان) في مذكراته حين قال : إن المقاومة الفلسطينية العنيفة اخرت تنفيذ البرنامج اليهودي في فلسطين إلى عام ١٩٤٨ بينما كان مقرراً أن يتحقق ذلك عام ١٩٣٤ على الأكثر .

وبالرغم من أساليب التعسف والضغط وحرق القرى الكاملة ، فانه في خلال ثلاثين عاماً (١٩١٨ ـ ١٩٤٨) لم ينتزع من العرب الا ٦,٥٠ في المائة من مجموع الاراضي . وقد قاوم العرب في فلسطين مقاومة فعالة باسلة طوال الفترة منذ صدور وعد بلفور حتى قيام اسرائيل بالغدر دون توقف ولا تردد في تقديم التضحية بالمال والدم . غير أن النفوذ الاستعماري الحريص على قيام اسرائيل في قلب العالم الاسلامي قد حقق هذا الهدف بالغدر والقوة ، والاسلحة والخبراء ، عندما أعلن مجلس الامن قراره بتقسيم اسرائيل الى دولتين عام ١٩٤٧ وعندما استولت اسرائيل على فلسطين كلها عام ١٩٤٨ .

هنالك بدأت يقظة فكرية سياسية بعيدة المدى في العالم العربي كله عمدت إلى تعميق هذا الخطر ومواجهته ، حيث علت كلمة القومية العربية ، وجربت خطوات الى الوحدة ، وبدأ أن المعركة مع الوجود الاسرائيلي هي معركة حياة او موت ، غير ان الموقف قد زاد تعقيداً عندما أيد الاستعمار بكل قوته بقاء اسرائيل وعمل على دعمها وبعد أن ضعف نفوذ بريطانيا في المنطقة استطاع نفوذ الولايات المتحدة الذي حل محلها أن يقوم بدور التأييد والدعم لاسرائيل ، وما تزال فلسطين والاحتلال الاسرائيلي والحركة الصهيونية من ورائها هي اخطر تحد يواجه العالم الاسلامي والأمة العربية ، وما تزال فلسطين وبيت المقدس هي بؤ رة الخطر الذي يدعو الى التجمع والمواجهة .

(٤)

الحركات الهدامة

ودعوات تغيير مفاهيم الإسلام

واجه العالم الإسلامي حركتين فكريتين : (أولى) هاتين الحركتين ، هي حركة اليقظة التي حمل لواءها دعاة التوحيد والسنوسية والمهدوية ، وكما حمل لواءها جمال الدين الافغاني وعصبرنسكي والكواكبي وسيد أمير علي وشبلي النعماني والالوسي والمراغي وإقبال ومحب الدين الخطيب ، وحركة المنار والشبان المسلمين في مصر والمحمدية في أندونيسيا ، وحركة العلماء وندوة العلماء في الهند الإسلامية .

هذه الحركة الإسلامية الاصيلة التي بدأت من نقطة « التوحيد » وعملت على بعث مفهوم الإسلام الصحيح دينا ونظام مجتمع لا ينفصل ، والتي أحيت القيم الإسلامية في الاجتماع والتشريع والسياسة والاقتصاد والتربية وجدت مفهوما على النحو الذي عرفه السلف الصالح ، مستمدة روحها من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة أصلا . هذه الحركة كان يمكن أن تصل إلى نتائج جد خطيرة في بناء يقظة عالم الإسلام في دعوتها إلى الجامعة الإسلامية ، وربط الدين بالمجتمع ، وإقامة أنظمة متجددة في مختلف المجالات لها قاعدتها وجذورها المستمدة من الإسلام أساسا ، لولا أن النفوذ الاستعماري واجهها بحركة أخرى جد عنيفة وخطيرة أيدها بنفوذه السياسي والعسكري ، وأتاح لها من المؤسسات والاساليب والقوى ما دفعها إلى مكان الصدارة في الجامعة والمدرسة والصحافة والثقافة ، وساند دعاتها وأنصارها بأن أسند إليهم كبريات لمناصب في القيادات السياسية والفكرية والاجتماعية ، بينهما عزل قيادات الحركة الإسلامية الأصيلة ونحاها وجمدها في الظل حتى لا تكون ذات فعالية . ومع ذلك فقد ظلت حركة اليقظة الإسلامية المبعدة عن مكان الصدارة من النفوذ الاستعماري أشد قوة

بشعبيتها . وقد استطاعت بصحفها المتواضعة ، ومنابرها القليلة أن توقف نمو حركة التغريب والشعوبية ، وأن تقيد كل خطر من أخطارها ، وأن تهز الدنيا بصوتها في مواجهة حركات الاستعمار التغريبية التي قصد بها إلى القضاء على الرأي العام الإسلامي في مثل حركات التبشير في مصر والسودان ، والتجنيس في تونس ، والظهير البربري في المغرب ، ودعوات الفرعونية في مصر ، والفينيقية في لبنان ، والبربرية في المغرب .

وبالرغم من أن الاستعمار استعان بعناصر الاقليات وقوى الطائفية على إقصاء المسلمين عن التعليم والثقافة والقيادة وتقديم غيرهم ، فقط استطاع المسلمون أن يواجهوا حركة الغزو الثقافي والاستعمار الفكري والتغريبي والشعوبية بقوة ، وأن يكشفوا حركاتها ، وأن يفضحوها في كل خطوة ، وأن يحذروا منها جموع المسلمين وقد انكشفت خطط المستعمر إلى أسلوب جديدودعوة جديدة وخداع جديد .

أما الحركة الثانية فكانت تمثل تحديات النفوذ الاستعماري مجتمعة في صورة دعوات اتصلت بالدين أو بالجنس أو بالقومية ، واستغلت نصوصاً قديمة انطوت صفحتها من أجل تعميق الخلافات وإثارة الشبهات ، وخلق أحزاب فكرية جديدة متضاربة . بل وأيقظت خلافات قديمة كانت قد ماتت فعلاً ، وذلك حتى تحول دون التقاء العالم الإسلامي على وحدة فكر .

وكانت أبرز هذه الحركات الهدامة : في مجال الشعوبية والإلحاد والاباحة ، والدهرية ، وأخطر هذه المؤسسات : الماسونية ، وإرساليات التبشير ، وأخطر الدعوات : البهائية ودعوات الإقليمية الضيقة ، والحركات ذات الطابع الإسلامي مظهراً ، والتي تحمل مفهوما منحرفا أو مضللا كالقاديانية . وكانت هناك قوى لها طابع أشد قوة وخطراً تحمل لواء مثل هذه الحركات الهدامة ، كما حدث في تركيا وأفغانستان وإيران وغيرها من بلاد العالم الإسلامي . وبرزت وراء هذه الحركات أسماء دعاة وقادة أمثال : الباب والبهاء ، ومنها : غلام أحمد ، وضياء كوك ألب وطه حسين وسلامة موسى وأنطون سعادة .

ولقد كانت مثل هذه الحركات أمام الرأي العام الإسلامي ، وليست في حاجة

إلى من يكشف عن مخالفتها الصريحة لمفهوم الإسلام ومعارضتها الواضحة لخطر حركة اليقظة الإسلامية الممتد من الإمام محمد بن عبد الوهاب إلى حركات الجماعات الإسلامية : الشبان المسلمين في مصر والمحمدية في أندونيسيا وندوة لكنو في الهند الإسلامية وحركة السلفية في المغرب وجمعية العلماء في الجزائر .

ولكن كان هناك ما هو متداخل المظهر يحمل الخطر في أعماقه وفي ظاهره يحمل اسم الإسلام مثل الدعوة القاديانية التي وإن كان امتدادها في أحمدية لاهور قد تحول تحولا عن دعوة غلام أحمد ، غير أنه ما زال في حاجة إلى مزيد من الارتباط بمفهوم الإسلام ارتباطا كاملاً .

وقد حاولت دعوات الإقليمية الضيقة ، والدعوات القومية غير ذات المنابع والقيادات الإسلامية أن تفصل العروبة عن الإسلام ، أو تفصل قطراً من الاقطار عن باقي أجزائه العربية أو اخوته الإسلامية ، كالدعوات التي ظهرت في أوائل القرن وحملت شعاراً براق المظهر ، ولكنه يخفي الخطر كدعوات مصر للمصريين ، وسوريا للسوريين ، والسودان للسودانيين ، وتركيا للأتراك . هذه الدعوات وفي مقدمتها دعوة حزب الامة في مصر ، الذي رسم المخطط الاساسي للقومية الضعيفة ، إنما كانت تهدف إلى أمرين :

١ ـ الانفصال بمصر « جغرافيا وسياسيا » عن كيانها : العربي والإسلامي في رابطتها بالأمة العربية ، وفي رابطتها بدولة الخلافة والدول الاسلامية

٢ ـ الانفصال بمصر فكريا وروحيا عن كيانها الفكري الإسلامي ، وعن الثقافة العربية ذات الجذور الممتدة بتاريخ الإسلام واللغة العربية ، والفكر الإسلامي في مجالاته المختلفة : الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتربوية ، والاعتماد على مفاهيم الفكر الغربي الخالص ، ذات الجذور المرتبطة بسان سيمون والحريين والليبريين منفصلة تماما عن جذور الفكر الإسلامي في الثقافة والتربية ، والاجتماع . ويمثل لطفي السيد في كتاباته التي حملتها الجريدة : لسان حال حزب الامة منذ (١٩٠٧ ـ ١٩١٤) مضمون هذه الفلسفة الإقليمية البالغة الضيق والتعصب والتجمد داخل المصرية والمنفصلة عن أبعادها السياسية والتاريخية واللغة والإسلام . وظهرت دعوات تحاول أن تجزىء وحدة وتكامل أرضية الفكر

الإسلامي للاوطان الإسلامية . هذه الدعوات الجزئية : التي حملت لو
التولستوية والغاندية . ومن هذه دعوة الانفصال بين الربط الجذري والتك ـ
العضوي بين جوانب الاسلام المختلفة خدمة للنفوذ الاستعماري بحجب مفهوم الجهاد في الاسلام ، أو إبراز مفهوم السلام فيه على نحو يختلف عن تكامل الإسلام في الجمع بين السلام والجهاد في منطق واحد . ومن هذا ما دعا إليه أمثال : علي عبد الرازق ، أو ما دعا إليه غيره من الفصل بين الدين والضمير . أو ما حاوله الآخرون من إعلاء آراء السلام الذي جمع بين المسيحية وتولستوي وغاندي بحسبانه مذهبا يصلح للفكر الاسلامي ويحرره من مفهوم الإسلام المتكامل : سلاماً وجهاداً وربطا بين الدين والمجتمع ، وبين الروح والعقل ، وبين الإخاء الإنساني ومقاومة الغزو الاجنبي والنفوذ الاستعماري . وقد حملت معظم هذه الدعوات لواء العداء للإسلام في جانب من جوانبها ، كما حاولت في إعلاء جانب له ، وتعطيل جانب آخر .

ولقد كانت البهائية والقاديانية من أخطر هذه الدعوات ، ولقد تلقفها النفوذ الاستعماري الذي دفعها أساساً وأوجد لها كياناً هاماً ، وأذاع بها ، وخلق لها أنصاراً ، حتى أن الاستاذ العقاد أضاف حركة البهائية والقاديانية إلى دعوات الإصلاح والتجديد فيه ، وضمها إلى الوهابية والسنوسية وحركات جمال الدين ومحمد عبده وأحمد محمد المهدي ، بينما غفل عن مخاطر هاتين الدعوتين ، ومن الحق أن يقال إن هذه الدعوات كانت تعمل لتغريب الإسلام أولتمسيحه ونقض الجانب الكفاحي له ، وإعلاء جانب السلام والرحمة على نحو يجهله الإسلام نفسه ، وكان هذا العمل لحساب النفوذ الاجنبي والاستعمار الذي يعرف أن الإسلام يغذي في المؤمنين به الايمان بالدفاع عن أوطانهم وحرياتهم وأعراضهم حتى يموتوا شهداء في سبيلها ، وهو الخطر الذي يواجهه النفوذ الاجنبي ، والذي يحول دون تسويد الاستعمار وتحويله إلى مودة وصداقة وموالاة من جانب العالم الإسلامي .

كانت هذه الدعوات وفي مقدمتها : البهائية وهي ترمي إلى توحيد الآديان والقاديانية التي تنقض الجانب الكفاحي في الإسلام ، إنما تهدف جميعا إلى محاولة تغيير مفاهيم الإسلام والقضاء على فريضة أساسية في الإسلام هي : الجهاد

والكفاح ضد المستعمر ، ونزع الجانب الاعلى الذي يتميز به الإسلام عن غيره من الأديان . فالإسلام دين ونظام مجتمع ، كما تدعو إلى تمسيح الإسلام وإعطائه طابعاً من الهوادة بحيث يجعله يتقبل النفوذ الاستعماري ، ويرضى به كأنما هو قدر مقدور .

وإذا كان غاندي أو تولستوي قد حمل لواء هذه الدعوة ، فإنما كان ذلك في مواجهة تحديات تختلف عن الخطر الاستعماري الجارف الذي اكتسح عالم الإسلام ، كما تتعارض أصلا مع مقومات الإسلام الذي يحمل دوماً في جوهر مفاهيمه عنصر المقاومة والجهاد للغزاة والمغيرين والمحتلين والمستعمرين . والحيلولة دون انصهار المسلمين في غيرهم ، أو القضاء على شخصيتهم الاساسية الجامعة بين الروح والقلب والدين والعلم والدنيا والآخرة ، وقوامها التوحيد الخالص . ومن هنا كانت دعوة التجديد أو العلمانية أو تحرير الفكر إنما تحاول أن ترمي هذا المفهوم بأنه تعصب ؛ وكان مفهوم تسامحها وتحررها إنما يهدف إلى تقبل الاستعمار الغربي تقبل الرضا والإعجاب والتقدير والموالاة ، وبمالأة النفوذ الاجنبي ، ولم يكن ذلك ممكناً إلا بتغيير أصل جذري أصيل في مفهوم الإسلام وهو إلغاء « باب الجهاد » . ولذلك فقد كانت الدعوة إلى التماس مفهوم الإسلام الاصيل المستمد من القرآن الكريم هي عامل المقاومة الاكبر للنفوذ الاجنبي والتغريب .

،

(١)

البهائية

ظهرت البهائية في ايران ، والقاديانية في الهند .

اما البهائية فتجمعت فيها جوامع الباطنية والحلول والاتحاد وآراء الشيعة الغالبة وفلسفات الوثنية واليهودية والمسيحية واساطيرها ومزيج من آثار التنجيم والتأويلات ، وقد برزت في ثوبين : ثوب البابية ، ثم ثوب البهائية الذي استوت اليه .

ظهر ميرزا علي محمد (الباب) عام ١٨٤٢ .

وقتل الباب عام ١٨٥٠ بعد ان أثار فتنة كبرى ، وثورة عامة في زنجان ومازندوان وتبريز من اعمال فارس ، ولم يترك الباب منهجاً اصلاحياً ، وانما ترك كتاباً عرض فيه لبعض نظريات العقائد وقضايا الباطنية ، وفرائض البابية ركعتان في الصباح ، والكعبة عندهم في مسجد شيراز ، وصوم شهر من آخر نزول الشمس ببرج الحوت .

ثم انقسمت البابية الى رجلين من خلفائه : صبح ازل وعرف اتباعه باسم ازلية ، وميرزا حسين الملقب بالبهاء ، ومات بهاء الله عام ١٨٩٢ مخلفاً في زعامته عباس البهاء الذي تبناه الاستعمار البريطاني ، واتاح له الفرصة لاذاعة آرائه منذ سنة ١٩١١ في كل مكان ، واقام في القدس فترة ، ثم زار مصر ، وزار امريكا واوربا . ومات في نوفمبر سنة ١٩٢١ . وخطب في كثير من الكنائس والمعاهد العلمية ، ودعا الى توحيد العالم البشري ، وترك العصبيات المذهبية والجنسية والسياسية ، وبين ان مطالب الرسل واحدة . وقد منحته الحكومة البريطانية لقب « سير » شكراً له على ما ابداه من الكرم والاكرام للجنود البريطانية خلال الحرب . وقد احتفل بدفنه السير هربرت صمويل المندوب

السامي البريطاني لفلسطين . (اليهودي الاصل) ويمكن ان يقال ان هذه الدعوة في بلادها ربما كانت لها بواعثها واهدافها التي قصد الى تشجيعها النفوذ الاستعماري في ايران ، او مما يتصل بالعقائد والدعوات السارية في بلاد الفرس ، ولكن براعة النفوذ الاستعماري كانت قادرة على الاعلان بها واذاعتها والاستفادة بها في مختلف انحاء العالم الاسلامي لاثارة الشكوك في النفوس .

وقد حملت الصحف المصرية ـ في هذه الفترة ـ لواء التبشيرية . فتحدثت عنه طويلا ، واهتمت به اهتماماً كبيراً ، وأطالت عرض مذهبه ودعوته (المجلة الجديدة . والهلال . والمصور) واستمرت الاهرام زمناً طويلا تكتب عنه . وترجمت عدداً من المؤلفات المختلفة عنه . وحملت الصحف تفاصيل كاملة عن مبادىء المذهب البهائي ، ودعت الناس اليه بحسبانه آخر الاديان واسلمها وابعدها عن خلافات الاديان واضطهادها . وكشفت الصحف وكتابها عن موالاة لهذه الدعوة وامل في ان تجتاح الاسلام وتغري اهله بالدخول فيها . وقال سلامة موسى : ان هذا الدين اي البهائية يختلف عن المسيحية واليهودية حيث لم يقتل احداً من مخالفيه ، لان مبادئه تدعو قبل كل شيء الى السلام . قال : ونحن نحب ان يلقى هذا الدين تأييداً في مصر حتى ينتشر بين الطبقات التي لا تجد من الاديان السائدة او من الاداب والعلوم ما يقنع نفوسها . وفي الدعوة الى البهائية كبت للتعصب ودعوة الى اخاء البشر . وان البهائية تنزل على حاجة العصر الحاضر الذي يكره تعدد الاديان ، وما يجلب من مخالفة بعضها البعض من تحزبات وتعصب (المجلة الجديدة فبراير ١٩٣٠) .

وكذلك كتب اسماعيل مظهر في مجلته « العصور » عن البابية والبهائية ، وعباس افندي ، ثم فصل مبادىء المذهب البهائي ، وكتب في ذلك عباس العقاد ، وعمر عنايت ، والدكتور صروف ، ورددوا ادعاءات البهائية في القول بوحدة العالم الانساني ، وان اساس الاديان واحد ، وانها جماع المسيحية واليهودية والاسلام ، وتوحيد لغات العالم ، ومساواة الرجل بالمرأة ، ونبذ العصبيات ، وانها محاولة لاتحاد الشرق والغرب والاديان والاجناس وزوال الحرب :

وقد اعلنت مجلة المقتطف ١٩٠٠ عن اول كتاب عن البهائية (الدرر البهائية) وقال فيه بانكار كون القرآن معجزاً ببلاغته وفصاحته ، وفيه تأويل آيات القرآن على ما ينطبق على بدعتهم . ولم يتوقف دعاة اليقظة الاسلامية عن مواجهة هذه الحملة التي كانت تهدف اساساً الى مهاجمة الاسلام ، وانتهاز فرصة كل دعوة او حادث لمعاونة اذاعة شبهات الانتقاص من الاسلام . ولم تفلح كل وسائل الدعاية الواسعة في اكبر الصحف وباكبر الاقلام في كسب واحد من المسلمين لهذه الدعوة ، ولم يحقق التهليل الكبير شيئاً . بل ماتت الدعوة البهائية في مصر ، كما ماتت في مختلف العالم الاسلامي ، وانكشفت اهدافها من بعد حين ظهر انها احدى فروع الحركة الصهيونية ، وانها من فروعها وامتداداتها .

ولم يكن يعرف خلال هذه الفترة منذ ودع سيرهربرت صمويل مؤسس الدولة الصهيونية في فلسطين جثمان عباس البهاء تلك العلاقة بين البهائية والصهيونية والماسونية حتى انكشفت في السنوات الاخيرة حين اجتمع المؤتمر العالمي للبهائية في اسرائيل ١٩٦٨ بعد وفاة عباس البهاء بخمسين عاماً ، وتكشفت تلك العلاقة في ان البهائية التي تدعي العمل على ازالة جميع الاديان : اليهودية والمسيحية والاسلام لم تكن في الحق تهدف الا لمواجهة الاسلام وحده . ولقد كان يعرف ذلك كثير من الذين اولوا هذه الدعوة اهتمامهم ويقصدون اليه ، فليس الاسلام الحق هو الذي فرق بين الاجناس او الذى اثار الحروب بين الامم ، او الذي اخر وحدة الجنس البشري ، وليس الاسلام هو الدين الذي بدأ برفضه اصحاب العقول والارواح ، والذين يلتمسون المفاهيم الصحيحة عن طريق العلم او العقل او التجربة .

ولقد اندلعت الدعوة الى البهائية في العالم الاسلامي ومصر بالذات في نفس الوقت الذي كانت الصهيونية تركز قواعدها في فلسطين ، وحيث كانت الحركة التبشيرية في العالم الاسلامي تؤكد وجودها . وقد كشف عن ذلك بعض كتاب هذه الفترة . فقد وصف المرحوم : محمد محمود بدير : البهائية بانها اشد خطراً من المبشرين . وقال ان اساليبهم تختلف عن اساليب المبشرين وتفوقهم ، ولهم في اباحيتهم الاخلاقية اكبر مبرر لهم . وقال : ان الذين

يمدون المبشرين بالاموال يمدون البهائيين ، وانه اذا كان ثم فارق بين الحركتين ، فانهما يلتقيان عند نقطة اساسية مرجوة هي : اخراج المسلم من عقيدة الاسلام . ثم قال ان هذا المخطط في بلاد الشرق وخاصة مصر ، انما يمثل مؤامرة واسعة النطاق ، محكمة الاطراف على الاسلام وتعاليمه(١) . ولم تتوقف الدعوة الى البهائية ، بل ظلت تجدد سنوات بعد سنوات ، وفي كل مرة تجد من كتاب المسلمين من يكشف عن جوهرها .

يقول العلامة محمد فريد وجدي : ان دعوة البهائية الى اتحاد الاديان قد سبق اليها الاسلام واسسه على اقوى الاصول . فقرر ان اصل الاديان واحد ، فوحدة الدين هي الاساس الذي يقوم عليه الاسلام ، وان طموح البهائيين لان تكون ديناً عاماً يقضي بالعجب ، لانها ليست بدين سماوي ، وليس فيها من الاصول والمبادىء ما يلفت العقول اليها . بعد ان بالغت في عرض نفسها على الامم فضلا عن ان البشرية ليست في حاجة الى دين جديد بعد الاسلام ، فانه استكمل شرائط الدين العام ، واين هي من الاسلام الذي تبنى امماً قوية ومدنيات فاضلة في خلال عصور متعاقبة ، ولا يزال على مثل حيويته الاولى حتى ليتوقع فلاسفة كثيرون ومنهم برناردشو . ان مبادىء الاسلام توشك ان تعم العالم اجمع ، ويتسم الاسلام بسمات اصيلة ضمنت له التعميم والخلود ، تلك هي : موافقته للفطرة واعتماده على العقل والعلم ، فاين البهائية من هذا الموقف العلمي الحق ، وهي تقوم على اصلين احدهما عتيق غامض ، قال به افراد من محبي السبح في الخيالات ، وهي تصوير ذات الله بصور المخلوقين ، وثانيهما وهو صرف الالفاظ عن ظواهرها في مجال فسيح للظنون والاوهام والخبط .

« ان كل تجديد في مجالات النظم الاجتماعية والتطورات الفعلية ، وكل نجاح يصيبه دين او نظام يكون مناسباً للقدر الذي يحمله الناس من الوفاء للحاجات المناسبة للامم والشعوب ، تدعي البهائية انها اتت بجديد من الاصول ، لم يدر في خلد المصلحين قبلها كاتحاد الاديان ، وترك

١ـ مجلة النهضة الفكرية : ١٥ يوليو ١٩٣٣ .

العصبيات ، واتحاد الاجناس ، والسلام العام ، ومساواة المرأة بالرجل .

اما ما سموه باتحاد الاديان فقد سبق اليه الاسلام واسسه على اقوى الاصول ، واحاطه باحكم الدلائل ، فقرر ان اصل الاديان كلها واحد ، وان الخلافات التي بينها ما حدثت الا لسبب ما ادخله قادتها من الاوهام . فالاسلام يفرض على اهله القول بوحدة الدين فرضاً ، ويأمرهم بالاعتقاد بجميع الرسل من غير تفريق .

اما السيد : محب الدين الخطيب فقد عرض للبهائية من الناحية التاريخية فاشار إلىٰ هدفهم الاساسي في محاربة اللغة المشتركة في العالم الاسلامي . وذلك حين اعلن البهائيون انسلاخهم من الاسلام ، واشتد بهم الحرص على محاربته من كل ناحية ، ومنها لغة الاسلام العالمية ، وهي لغة القرآن الغربية ، فكان من عناصر دعوتهم استنكار عالمية اللغة العربية وكونها اللغة المشتركة ـ لغة الصلاة والعلوم الاسلامية في العالم الاسلامي ، فتآمروا على قطع الصلة بين المسلمين وتراثهم العلمي الذي تعاون اعلام المسلمين على تكوينه ، لذلك قام البهاء بالدعوة الى ايجاد لغة اخرى تكون لغة الامم فاخذ يدعو الى اختراع لغة صناعية جديدة . واضاف الى ذلك ان البهائية تنكر المعجزات المحمدية واعجاز القرآن .

(٢)

القاديانية

أما الدعوة القاديانية التي ظهرت في الهند فقد ارتبطت بالدعوات التي عمد النفوذ الاستعماري البريطاني الى اضفائها على تفسير القرآن ، والتي ارتبطت بهدف اساسي هو تحريف مفهوم الاسلام فيما يتعلق بجهاد المحتلين والمستعمرين والغاصبين وهو ما حاوله « احمد خان » في تفسيره المشهور عنه للقرآن . اما غلام احمد القادياني ، فقد كان كان صريحاً واضحاً حين اعلن انه ربيب بريطانيا ووليها ، والمؤمن بوجودها ، وان دين الاسلام لم يكن دين جهاد . بل دين سلام .

وقد كان غلام احمد موظفاً عند الانجليز ويشيد في خطبه وكتبه بذكرهم ، ومما يروى عنه وله : ان الوقيعة في جانب الله اهون من الوقيعة في جانب الانجليز .

اعلن رسالته الى العالم عام ١٨٨٩ وهو في الخمسين من العمر ، وادعى انه نبي ومجدد ومهدي ومسيح ، وادعى انه المهدي المنتظر الذي يترقبه المسلمون جميعاً ، ودعا الى جهاد سلمي لا جهاد تراق فيه الدماء مع تأكيد الولاء للحكومة البريطانية . ومن ذلك قوله : « ان مهمة المهدي هي الدعوة الى السلام . اما الجهاد فيجب الا يقوم على امتشاق الحسام . بل على وسائل سلمية » . وبذلك اسقط فريضة الجهاد من بين الفرائض الاسلامية ، وحبب الى اتباعه المسالمة والتسامح ، ونهاهم عن التعصب .

وقد امنت الحكومة جانب هذه الحركة وايدتها في الوقت الذي كانت تحارب فيه كل دعوة صادقة ، وأتاحت الفرصة لنشر مؤلفاته ، واصدار عدد من المجلات ، وخاصة مجلة الاديان باللغة الانجليزية .

وتضم الدعوة القاديانية ملامح من البهائية : فهي تقوم على التوفيق بين الامم ، ومن كلام غلام احمد ما يشبه القول بالحلول ، فهو يتلبس بروح السيد المسيح وروح كرشنا رب الخير عند البراهمة . وفي مذهبه انكار صريح لصلب عيسى ورفعه الى السماء . كما ادعى انه يوحى اليه ، وانكر نبوة محمد . مع اعلان الولاء للملكة فكتوريا ، واعلان ابطال الجهاد ، وقال ان محاربة الانجليز حرام في دينه ، وقال عن الدولة البريطانية بالنص في كتابه : (الهدى والتبصرة لمن يرى) ص ٢٦ ج ١ : ولا يخفى على هذه الدولة المباركة انا من خدامها ونصحائها ودواعي خيرها من قديم . وكان والدي غلام القادياني من نصحاء الدولة البريطانية . وكان ابي قد امدها ـ اي الدولة البريطانية ـ بخمسين فارساً بخيولهم مذد امته في ايام المفسدة (اي ايام ثورة المسلمين في الهند على الاستعمار) .

ولا شك ان هذه النصوص وحدها كفيلة بان تكشف عن دوافع الحركة . وان الاستعمار البريطاني قد قصد بها الى تغيير مفاهيم الاسلام اساساً ، وانه اختار لها من وفى لبريطانيا حتى اعتبر ثورة المسلمين عليها . هذه الثورة التي تعد من مفاخر المقاومة الاسلامية والجهاد الشريف اعتبرها : « مفسدة » .

ومن الحق ان يقال ان ظهور القادياني قد احيط بالشبهات ، ولقي من تشجيع الحكام البريطانيين ان لم يكن بايعازهم اصلا ما لم يكن مألوفاً منهم من معاملة ، ثم جاءت فتواه بقبول الحكم الاجنبي وتفسير الجهاد على هوى بريطانيا مرجحاً عند الكثيرين لتلك الشبهات . وقد تعهد القاديانيون بالدعاية للحكومة البريطانية ، وانتهزت بريطانيا الفرصة فساعدتهم على الدعوة لالغاء الجهاد وتفريق كلمة المسلمين .

وقد هاجم المسلمون المصلحون الهنود هذه الدعوة الهدامة ، وقال العلامة محمد عبد العليم الصديقي : ان عقيدة هذه النحلة الضارة فاسدة ، وهي التي اضرت بالاسلام والمسلمين ، كما هاجمها المصلحون المسلمون في كل مكان ، وكشفوا عن زيفها . ومن ذلك ما يقوله العلامة فريد وجدي : لقد جرت سنة الله ان يرسل الى الناس رسلا لهدايتهم الى طريق الحق فصحبت

رسالة كل واحد منهم انقلابات اجتماعية خطيرة ، وحوادث تطويرية كبيرة ، تجاوبت اصداء حركاتها في ارجاء الارض ، فاين ما يدعيه غلام احمد . لقد مضت على دعوته ستون سنة فلم يتبعها الا افراد من السذج . لقد تجشم جهداً لكي يثبت انه نبي ، فاصطدم بالنص القرآني الدال على ان النبي محمداً خاتم النبيين ، وانه لا نبي بعده ، واتى في هذا الباب بما لا يعقل من ضروب التأويل والتحريف .

ولقد اولى الكتّاب الاجانب من المبشرين والمستشرقين اهتماماً كبيراً بالدعوتين : البهائية والقاديانية وعدّوهما من حركات الاسلام ، وادمجوهما مع الوهابية والسنوسية وحركة جمال الدين الافغاني حتى يفسروا بذلك مفهوم حركة اليقظة ، ويعكروا مجراها الثر النقي بآراء هذين الدعيين اللذين يحملان مفاهيم خارجة في اساسها عن المقومات الاصيلة للدعوة الاسلامية . فادعاء كل من الدعيين بالنبوة لانفسهما يقطع بان هاتين الحركتين وامثالهما ، انما تندمج في الحركات الهدامة التي يتصل نسبها بحركات الباطنية والمجوسية والمزدكية وغيرها من الحركات التي قام بها الغلاة والخارجون على الاسلام ، ولا يمكن في تقدير المنصفين ان تضاف هاتان الحركتان الى حركات اليقظة والاصلاح الاسلامي الذي يجب ان يقوم اساساً على التوحيد والاعتراف بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم بعيداً عن الحلول والاتجاه ، ووحدة الوجود او القول ببطلان الشريعة الظاهرة ، والاخذ بالحقيقة الباطنة .

وقد اشار العلامة ابو الكلام ازاد في كتابه « التذكرة » الى ذلك الامر فقال : ان غلام القادياني لم يدع يوماً من الايام انه نبي ورسول . بل اتباعه وانصاره هم الذين استغلوا اسمه ، واضافوا اليه اقوالا غريبة ، واسسوا جماعة تبشيريةً ، لكي يحصلوا على مركز بين الناس .، وان الاستعمار استغل دعوة القادياني ، واشترى هذه الطائفة لاغراضه السياسية وتشكيك ابناء المسلمين في القيم الاسلامية . وقال : ان موالاة القاديانيين للانجليز كانت مبنية على تشتيت القيم الاسلامية .

وقال الدكتور محمد اسماعيل الندوي : ان القاديانية دعوة سلبية رجعية ،

اساسها المنامات والالهامات والخرافات . ويمكن القول بان ابرز ما دعا اليه غلام القادياني وركز عليه هو رفض المفهوم الاسلامي الصريح بان الجهاد فرض مقدس لمقاومة المستعمر من مبادىء الاسلام . ومن اهم فرائضه واعلان تعاونه مع الحكومة البريطانية ، وعدم تأييده لاي محاولة التعويض اركان السيطرة البريطانية في الهند باسم الاسلام (راجع كتاب المسألة القاديانية : للمودودي) .

ويرى بعض المؤرخين : ان القاديانية ظهرت في الوقت الذي انتهت فيه الخلافة ، وتحرق المسلمون الى اعادتها . وان الحركة القاديانية كانت محاولة بريطانية ، وقد دافع نهرو عن القاديانية . وكتب اقبال رسالة طويلة جعلها بمثابة دعوى مقامة على القاديانية ، وكانت التهمة الرئيسية ان القاديانيين لا يرون مكة وطنهم الروحي ولكنهم يتجهون بدلا منها الى قاديان ، وهذا يتعارض مع الروح الاسلامي الدولي[1] .

***

ومن الحق ان يقال ان الحركة القاديانية قد تحولت من بعد وانصهرت في حركة الاحمدية ، ولم يبق من اخطائها الا قليل من الامور . وكان ابرز عوامل التحول هو : المولى محمد علي اللاهوري (١٩١٤ - ١٩٥١) . الذي انفصل عن القاديانيين عام ١٩١٤ وانشأ ما يسمى بالدعوة الاحمدية في « لاهور » وهي حركة لا تقبل بادعاءات القاديانيين وتنكر قولهم بالنبوة . وتقول فرقة لاهور هذه ان غلام احمد كان لا يزيد كثيراً عن مجدد للاسلام ، وتنفر مما تقوله الفرقة الاخرى « فرقة قاديان » من تكفير اهل السنة .

وقد اتسمت الحركة الاحمدية بنشاط موفور في سبيل التبشير بالاسلام على نحو بارع واسع وصل الى اقصى الاطراف ، وركز على اوربا وقلب افريقيا ، وطبع ونشر العديد من دراسات التعريف بالاسلام باللغة الانجليزية ، فاستطاعت ان تكسب الى الاسلام كثيراً من الاتباع .

١- تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند للاستاذ الندوي .

وكان لهم دورهم في الكشف عن طبائع الاديان الاخرى والدعوات المعادية للاسلام ، والكتب المنسوبة اليها ، آخذين بمبدأ الشيخ خوجابخش القائل باستعمال الاسلحة التي صاغتها ايدي الغرب . وقد وضع الاحمدية كتباً كثيرة ، كما قدم محمد علي اللاهوري ترجمة كاملة لمعاني القرآن . وابرز اعمال الاحمدية هي : حركة التبشير التي انتشرت على نطاق واسع في الصين واوربا ، وجزر الملايو وجاوه وافريقيا .

ويعتز جميع الباحثين للاحمدية بالخدمة التي ادوها ويؤدونها ، وهي الدفاع عن الاسلام في مواجهة الدعوات المعارضة له . وقد عرف لها النشاط الجم الذي تبذله بعثاتها في بلاد الغرب للدعوة الى الاسلام ، حيث تصدر الحركة الاحمدية اللاهورية صحفاً في لندن . ومن ابرز دعاتها الاستاذ خوجة كمال الدين .

وقد دافع كثير من منصفي كتّاب المسلمين الهنود امثال : محمد اسماعيل الندوي عن السيد احمد خان الذي نسب اليه رأيه في ايقاف الجهاد ضد الانجليز كمقدمة لحركة غلام القادياني ، فقال ان مسالمة احمد خان للانجليز كانت لمصلحة المسلمين وترقية احوالهم ، وهو يشبه في ذلك الشيخ محمد عبده في مصر . اما موالاة القاديانيين للانجليز فكانت مبنية على تشتيت القيم الاسلامية .

(٣٠)

الماسونية

وكانت الماسونية من الدعوات الخطيرة التي انبثقت في انحاء العالم الاسلامي منذ وطد النفوذ الاستعمار اقدامه في هذه المنطقة . وقد ظلت سنوات طويلة تخدع الناس بانها حركة خير واحسان ومعاونة ، وانها تحمل الطابع الانساني الخالص حتى تكشفت مخططاتها في اوائل هذا القرن على انها اداة النفوذ اليهودي الطامع في السيطرة وفتح الطريق اما مطامعه ، ثم تكشف بعد ذلك بقليل انها مقدمة الصهيونية وطليعتها . ثم عرف من بعد انها لم تنطفىء بظهور الصهيونية ، ولكنها مضت ولها مخطط خاص وعمل كبير .

فالماسونية طليعة التحرك اليهودي الواضح الذي انشأ عدداً من المؤسسات لتحقيق اغراضه منها الخفي كالماسونية والظاهر ـ بعد ان مهدت له الطريق ـ كالصهيونية .

والمعروف ان الصهيونية واجهة تخفي وراءها مطامع اليهودية،اعطيت طابع العنف والجرأة بينما اعطت واجهة الماسونية السابقة لها طابع الخفاء والغموض ، وكلها تلتقي مع دعوات اخرى ربما كان مظهرها مختلف كل الاختلاف في سبيل فرض نفوذ اليهودية العالمية ، ومن خلال ايدلوجية تحاول ان تستمد مفاهيمها من التلمود ، وتقوم على احياء شعب اسرائيل ولغته ودينه ، واعادة بناء هيكل سليمان مكان المسجد الاقصى .

في هذه المرحلة الاولى للحركة اليهودية كانت الماسونية هي الطليعة او القوة الكاشفة حيث كان ذلك قبل الثورة الفرنسية باكثر من ستين عاماً ، والتي كانت الثورة الفرنسية نفسها اكبر ثمارها وابعدها اثراً . والتي حققت مساواة اليهود بالمسيحيين في اوربا ، ومكنتْ لهم الخروج من الجيتو ، والمشاركة في

الحياة العامة ، والقدرة السريعة على تسنم ارقى المناصب السياسية والاقتصادية ، والسيطرة في وقت قصير على مقدرات اوربا واخضاعها فكرياً ودينياً واجتماعياً لنفوذ التلمود كمقدمة للسيطرة العامة ، واقامة الامبراطورية والحكومة العالمية على النحو الذي صورته بروتوكولات صهيون ، لذلك فقد كانت صيحة (الثورة الفرنسية) : حرية ـ اخاء ـ مساواة ـ انما تعني اساساً مساواة اليهود بالعناصر الاخرى . وقد تمت خطوة الثورة الفرنسية عن طريق عمل متصل قامت به المحافل الماسونية في فرنسا ، وانحاء اوربا المختلفة ، وحققت بالغدر والقتل ازالة كل من وقف في طريقها .

وقد استهدفت الدعوة الماسونية منذ اليوم الاول هدفاً محدداً يتمثل في رمزها « البناؤ ون الاحرار » وقد كثر التساؤ ل عن هذا البناء الذي يحاولون تشييده ، وهو الذي يظهر واضحاً من خلال الانظمة والتشكيلات الماسونية : ويعني بناء هيكل سليمان في القدس .

وقد استطاع كثير من المؤ رخين الذين تعمقوا الاحداث ان يكشفوا العلاقة الوثيقة بين الماسونية وبين الثورة الفرنسية . وفي مقدمتهم المسيو تموترو الذي نشر مذكراته التاريخية عام ١٩١٢ . والذي اكد في صراحة بان الثورة الفرنسية كان ضابط ازمتها في ايدي الماسونية ، وانهم هم الذين دبروا كل فصولها ولعبوا كافة ادوارها .

وما كان قتل لويس السادس عشر سوى تنفيذ لاحد مآربهم التي كانوا قد اتفقوا عليها في المحافل الماسونية . يقول المؤ رخ تموترو : وبعد ان ملأ الماسون فرنسان دماء وفظائع اخذوا يعممون الثورة في كل انحاء اوربا بواسطة جيوش الجمهورية . فالماسونية تنفخ روح الثورة حيثما تحل ، فكم ثلت من عروش وكم قلبت من دول وكم عارضت من حلول ، ومنها الغنوصيون واهل النهلست .

وقد اشار المؤ رخ هرما غروير : ان الماسونية حركة تكونت في لندن عاصمة الانجليز عام ١٩١٧ . ثم وضعت الدستور الماسوني ، وقد انحاز لها ملوك انجلترا الذين وجدوا في الماسونية مساعداً قوياً على تنكيس الدول

الكاثوليكية . وقد احصى الاحصائيون في مدة مائة عام عدد الملوك والرؤ ساء الذين قتلوا بمساعي الماسونية ، فاذا هو ينيف على الثلاثين .

ومن انجلترا تسربت الماسونية الى سائر انحاء اوربا ، ولم تزل تقوى وتشتد بكل الوسائل التي في وسعها حتى انفجر يوماً بركانها بالثورة الفرنسية ، ثم تبعتها الثورة الاوربية العامة ، وكان لها اثرها في البرتغال والدولة التركية .

واشار الاب لويس شيخو في مجلته المشرق عام ١٩١٢ الى ان الماسونية كان قد مر عليها مائتا عام بان لها ما يزيد على ثلاثة وعشرين الف محفل واعضاؤ ها مليون .

وقد اشار جرجي زيدان وشاهين مكاريوس مؤ خراً الى الماسونية وابرز دعاتها في العالم العربي ، الى ان الماسونية دخلت بيروت عام ١٨٦٢ وتجددت عام ١٨٨٨ . وفي عام ١٨٦٩ تأسس في بيروت محفل آخر لغته العربية ، وان الذين اشتركوا في هذه المحافل كانوا من الروم والبروتستانت واليهود ، وبعض افراد من الكاثوليك والموارنة والمليين والارمن ، وكان للماسونية في بيروت جريدة المشير ، وكانت رسالتها على حد تعبيرهم : تقارن كل المذاهب والاديان الا المذهب الكاثوليكي .

ثم تعددت المحافل في فلسطين ودمشق وحمص وحلب وانطاكية وادنة ، وقد خدع بعض المسلمين خلال فترة نضال النفوذ الاجنبي الاولى ، فظنوها وسيلة للتحرر من ظلم المستبدين ، ولكنهم لم يلبثوا ان اكتشفوا انهم خدعوا وعرفوا دخائلها ، وفي مقدمة هؤ لاء محمد عبده ، كما اخبر عن نفسه . راجع (مجلة المنار السنة ٦ ص ١٩٦ والسنة ٨ ص ٤٠١) كما كشف حقيقتها السيد جمال الدين الافغاني خلال اقامته في مصر والامير عبد القادر الجزائري خلال اقامته في دمشق ، وقد كتب كثير من يقظة المفكرين العرب والمسلمين عن اخطار الماسونية ، وكشفوا عن دخائلها ، وفي مقدمتهم الاب لويس شيخو اليسوعي في كتابه : السر المصون في شيعة الفرمسون (مجلة المشرق م ١١ و١٢) ومحمد بن عز الدين العاملي في كتابه : كشف الظنون عن حال الفرمسون . وكان في مقدمة دعاتها يوسف الحاج صاحب مجلة الوقائع الماسونية في لبنان

وشاهين مكاريوس ونعوم شقير[1] وعزيز ميرهم[2] .

وقد اجمع الذين اتصلوا بالماسونية عن قرب ، وحذروا اهلهم من دخولها ان مبادىء الماسونية عموماً مرجعها الى دك صروح كل مذهب ونقض كل نظام .

٢ ـ وقد كان للماسونية دور بعيد المدى في تقويض الدولة العثمانية ، ويمكن ان تغزى اكثر الاحداث الخطيرة التي قامت على التآمر والصراع بين الطبقات والعناصر الى عمل الماسون ، وقد ارتبطت الماسونية بحركة جمعية الاتحاد والترقي ، وكانت عاملا هاماً مع مخطط الاستعمار الاكبر على تمزيق الدول الاسلامية الكبرى ، والسيطرة عليها .

فقد اجمع المؤ رخون وتكشفت الحقائق في الفترة الاخيرة عن ان الماسونية كان لها اليد الطولى في اسقاط الدولة العثمانية ، والغاء الخلافة ، وخلع السلطان عبد الحميد ، وان دعوتها الاساسية كانت تهدف الى بناء هيكل سليمان في مدينة القدس على انقاض المسجد الاقصى ، وهو هدف خطير لم يكن من السهل الاذاعة به ، ولكن جميع مخططات الماسونية كانت تصل في النهاية الى هيكل سليمان كرمز اكبر ، وهذا الهدف الذي حملت لواءه الماسونية ما زال هو اكبر اهداف الصهيونية منذ ظهورها الى الان . وللماسونية يرجع الاثر الاكبر في اذاعة صورة كريهة للسلطان عبد الحميد الذي يمثل اقوى مراحل المقاومة للنفوذ الصهيوني وموقفه من الصهيونية المشرف الواضح ما زال يحمل طابع الشرف والكرامة لهذا الرجل الذي احيط بصورة خطيرة من الاتهام . فقد وقف المدافع عن القدس ، ورفع لواء الوحدة الاسلامية في وجه النفوذ الاجنبي الخطير في جبهاته المختلفة .. ورفض ان يمنح اليهود شبراً واحداً من ارض فلسطين بالرغم من العرض الضخم المغري الذي تقدموا به اليه في وقت كانت الدولة في اشد حالات العجز المالي والافلاس . وقد كان الحديث وما زال عن الماسونية غامضاً ، ويحاول البعض الفصل بين الماسونية والصهيونية وبين

---

١ ـ المقتطف م ١٩١٠ ص ١٥٧ .

٢ ـ السياسة الاسبوعية م ١٩٢٦ .

الصهيونية واليهودية . ومما يذكر ان اليهودي واكتشت من كبار دعاة اليهود سئل عام ١٩٢٧ :

ما هي الماسونية فاجاب : الماسونيون الاحرار هم اولئك الذين يبنون المملكة اليهودية العالمية[1] . والواقع ان اهداف الماسونية معروفة للمسلمين منذ وقت بعيد ، وقد تبينوا هدفها في اوائل هذا القرن .

وقد اشار رشيد رضا الى الماسونية في عديد من دراساته في المنار فقال انها تأسست لاجل هدم الحكومة الدينية البابوية ، وان الواضعين لاساسها الاول هم اليهود ، وغرضهم اساساً اعادة ملك سليمان الى شعبهم في القدس ، واعادة هيكله الى ما وضع له في المسجد الاقصى ، وانهم هدموا الحكومات المسيحية في اوربا غربيها وشرقيها والحكومة الاسلامية التركية والقيصرية الروسية ، ثم ظهرت بعد ذلك جمعيتهم الصهيونية تستغل خدمتهم للانجليز في الحرب بالتوصل الى اقامة حكومة دينية يهودية في فلسطين .

ويقول : ان الجمعية الصهيونية تكونت في اوربا خلافاً لما يزعمون من قدمها لمقاومة استبداد رؤساء الدنيا من الملوك والامراء ورؤساء الدين من البابوات والقسيسين ، وجعلوا رموزها واشارتها قريبة من رموز المسيحية .

***

وبعد فقد تعددت تيارات الدعوات والاخطار الوافدة الينا من خارج العالم الاسلامي . من الحادية ، وعلمانية ، وقومية عنصرية ووطنية مجردة ، واقليمية ضيقة ووثنية ، وما تزال هذه الدعوات تغير جلدها ، وتتشكل في صور جديدة ، وتحت عناوين جديدة وباقلام جديدة ، ولكنها في مضمونها واحدة واهدافها ما تزال واحدة ، وهي القضاء على وحدة الفكر الاسلامي والحيلولة دون التقاء الاجناس والعناصر المختلفة ذات الثقافة الواحدة .

وما تزال هذه الدعوات والتيارات البالغة الخبث والمكر تتخفى وراء اسماء

---

١ ـ ص ٥٠١ ـ م ١٢ الفتح ١٩٣٧ .

براقة ومصطلحات لامعة ، وشعارات مغرية ، وهي تقوم على فلسفات مدروسة ، ولكنها في اعماقها لا تستهدف الا القضاء على كيان العالم الاسلامي وقيمه ومفاهيمه ، ودفعه الى بوتقة العالمية لصهره فيها صهراً كاملا .
ومن الدعوات التي ظهرت في العالم الاسلامي ، وافسح لها النفوذ الاستعماري وجوداً واحاطها بالعوامل المختلفة لتبقى الى حين خادعة مضللة :

١ ـ محاولة تغيير مفاهيم الاسلام ، والقضاء على قيم الجهاد والكفاح ضد المستعمر . ولقد كان الجهاد الاسلامي دائماً هو الوسيلة الفعالة في اخراج المحتلين وفرض العين عندما تغزوا بلاد المسلمين الغزاة . وبذلك استهدفت هذه الدعوات حماية المحتلين وترسيخ اموالهم ، تفريغ الاسلام من مضمونه الاصيل باعطائه طابع السلام الذي لا يقوم على الحق . وفي هذا الاتجاه استغلت المفاهيم المسيحية دعوات غاندي وتولستوي . وقد برز ذلك واضحاً في البهائية والقاديانية . فقد حاولت البهائية الدعوة الى الغاء حكم الميراث تحت ستار المساواة بين الرجل والمرأة بغية خلخلة التشريع الاسلامي كله .

٢ ـ محاولة تغيير مفاهيم الاسلام من حيث ترابط الاسلام بالمجتمع ونظامه الاخلاقي واثر ذلك في التربية والسياسة والاقتصاد ، وذلك بتشجيع الادعاء الباطل بان الاسلام دين روحاني .
وقد برز ذلك واضحاً في دعوة الكماليين وكتابات على عبد الرازق .

٣ ـ محاولة الدعوة الى تقبل الحضارة الغربية مع الثقافة جملة واحدة ، مع تجاهل الفارق بين الثقافة التي هي بطبيعتها ذاتية قومية ، والحضارة التي هي عالمية وانسانية ، ومن حق جميع الامم . وقد برز ذلك واضحاً في دعوة طه حسين في مصر ـ واحمد اغايف في تركيا .

٤ ـ تمزيق وحدة المسلمين الفكرية والاجتماعية والروحية ، وذلك باذاعة وتعميق دعوات الاقليمية والمتوسطة ، وفصل العروبة عن الاسلام ، وايقاع الخلاف بينهما ، ومحاولة خلق ما يسمى بالاسلام الهندي ، والاسلام التركي .

٥ ـ تدمير المؤسسات الاسلامية ، وهدم مقومات الاتحاد والترابط باحياء الخلافات بين الاجناس الاسلامية وتعميقها . وقد كان للماسونية اليد الطولى

في هدم الخلافة الاسلامية ، وفصل العرب عن الترك ، وخلع السلطان عبد الحميد ، واسقاط الدولة العثمانية ، والماسونية تهدف اساساً للقضاء على الاديان في سبيل ابراز نفوذها ، وان الصلة الوثنية بين الصهيونية واليهودية العالمية ، وبين الماسونية لا تخفى على باحث مدقق لتلاقي المصطلحات والرموز ، كما ان الصلة الاكيدة بين الماسونية والصهيونية واضحة جلية في الهدف والطابع والتخطيط .

٦ ـ محاولة الفصل بين الامة العربية والعالم الاسلامي .

فقد ايد النفوذ الاستعماري في العالم العربي دعوات قوية في مجالين مختلفين ، كلاهما يخرج عن مفهوم الترابط بين العرب والاسلام .

الاولى : قومية علمانية تحاول ان تفصل بين العروبة والاسلام .

الثانية : قومية علمانية تخاصم القوميات المجاورة التي ترتبط معها بأسس من الفكر والثقافة .

وقد ظهرت الدعوة الاولى في مصر وفي سورية ، فحاولت ان تدعو الى مصر للمصريين ـ او سورية للسوريين متجاهلة رابطتين لا سبيل الى انفصال المصريين او السوريين عنهما هما : الرابطة العربية بالامة ، والرابطة الاسلامية بالفكرة .

وقد سقطت كلتا الدعوتين ، وان ظل الاستعمار يغذيهما كقوى عاملة في خدمته . وقد غذى النفوذ الاستعماري هذه الدعوات لتحول دون نمو الدعوة التلقائية التي قامت الى الوحدة العربية المفتوحة على العالم الاسلامي ، والتي لا تحمل طابع « العنصرية » الكارهة لغير العرب ، او المناهضة لهم في محاولة للسير ضد التيار الطبيعي لالتقاء العناصر والاجناس التي جمعتها ثقافة واحدة ، وفكر واحد ، ودين واحد .

غير ان مصر لم تلبث ان صححت مفهومها وحملت لواء الدعوة الى الوحدة العبية ، ذات المضمون المرتبط بالقيم والمقدرات ، الملتقي مع الدوائر الافريقية والاسيوية جميعاً ، وما يزال مفهومهما ينمو في انحاء الامة العربية كلها ليكون المنطق الطبيعي في مواجهة الدعوات الهدامة والغامضة .

والسؤال : هل استنفدت تلك الفرق اغراضها ؟
الجواب : ان لا ـ فان هذه الفرق ما تزال تعمل في الضوء ترة ، وفي الخفاء تارة اخرى . وما تزال افريقيا حقلا واسعاً لتحرك هذه الفرق والدعوات .
(انتهى البحث عند اواخر الحرب العالمية الثانية ١٩٤٠) .